
المهدية في السودان
تأليف
ب. م. هولت
ترجمه د. جميل عبيد
مراجعه د. احمد عبد الرحيم مصطفى

المهدية في السودان

تأليف
ب . م . هولت
P.M. HOLT
الأستاذ بجامعة لندن

ترجمة
د. جميل عبيد
كلية الآداب - جامعة البصرة
العراق

مراجعة
د. أحمد عبد الرحيم مصطفى
كلية الآداب - جامعة الكويت
الكويت

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

تقـــديم

يعد هذا الكتاب « المهدية فى السودان ١٨٨١-١٨٩٨» The Mahdist state in the Sudan 1881 - 1898 لمؤلفه ب. م. هولت P. M. Holt الأستاذ المحاضر بجامعة لندن من الكتب الأصيلة . ان هــذا الكتاب يمثل اول بحث عن المهــدية فى السودان اعتمد كلية على المصادر العربية الموجودة فى ارشيف المهدية بالخرطوم . وهو يدرس الأحوال الاجتماعية والسياسية فى الســودان المصرى فى بداية الثــورة ويناقشها . ثم يحلل الفكر المهــدى ويتابع المراحل التى نجحت المهدية خلالها فى ازاحة الادارة المصرية واقامة حكومة ذات شــكل او طابع دينى فى الســودان . وفى بعض الفصــول من الكتاب شرح لمجريات الأحداث فى تلك الفترة الغامضة التى وقعت خاصــة بين اغتيال غوردون حاكم السودان من قبل مصر وبين اعادة فتح السودان بقيــادة كتشنر . كما درس المؤلف الأسلوب الادارى الذى اتبعته المهــدية فى حكم البلاد ومدى ما له من علاقة بنظم الادارة المصرية التى سبقته . ومما هو واضح فى النهج الذى اتبعه المؤرخ « هولت » انه نبع من رؤيته للمهدية باعتبارها مرحلة تطــور تاريخية ذات اهمية بالغة فى تاريخ السودان ذاته اكثر منها باعتبارها فترة من فترات التاريخ المصرى أو البريطانى .

المترجم

د. جميل عبيد

المقـــدمة

١ ـ المهـدية : مقدماتها واتجاهاتها :

لم تكن الأراضى التى تضمها جمهـورية السـودان فى التاريخ الحديث معروفة لدى الأوربيين قبل أواخر القرن الثامن عشر •

وكان سكان مصر وأفريقيا شمال الصحراء الكبرى لا يعرفون ما يعرفون عن تلك المناطق الشاسعة الا عن طريق القوافل التى تولى وجهتها سنويا شطر الشمال الى صعيد مصر والقـاهرة بما تحمل من ذهب وصمغ وعاج وأبنوس بالاضافة الى ما تجلبه من رقيق •

وقد وفرت كتب ثلاثة رحالة للأوربيين صورة مفصلة وأن تكن غير متكاملة عن السودان ففى عام ١٧٩٠ وصف جيمس بروس James Bruce رحلته النيلية من الحبشة الى أسوان التى زار خلالها بلاط سلطان الفـونج بسـنار • وفى عام ١٨٠٠ نشر وليم جـورج براون William George Browne أنباء عن رحلته فى دارفور واقامته هنالك فى الوقت الذى كانت فيه سلطنة الفور فى أوج مجـدها • وفى عامى ١٨١٣ ، ١٨١٤ قام الرحالة السـويسرى جـون لويس بركهـارت John Lewis Burckhardt برحلة اخترق خلالها المجرى الرئيسى للنيل حتى شندى ثم عبر السودان الشرقى حتى وصل الى سواكن •

ولم يكن اسم السودان يطلق فى ذلك الحين على جميع المنـاطق التى مر بها أولئك الرحالة • بل عرفت المنطقة الواقعة بين الشلال الأول للنيل جنوب اسوان والشلال السادس أو شلال السبلوقة شمال نقطـة الالتقاء بين النيـل الأزرق والأبيض باسم بلاد النـوبة التى امتـدت على جانبى الحدود الحديثة لمصر والسودان فى وادى حلفا • ولم تكن توجد بالنوبة دولة موحدة بل كانت تشـمل عددا من المسالك القبليـة الصغيرة التى تناثرت على جانبى النهر فى نطاق الشريط الأخضر المحاذى

له التى لم تكن تتعداه • والى الجنوب من هذه المنطقة كان يقع الجانب الشرقى من السودان بمعنى الكلمة أى (بلاد السودان) التى عرفها الجغرافيون المسلمون فى القرون الوسطى أو ما أطلق عليه بعض كتاب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الأوربيين لفظ Nigritia أى بلاد الزنج • وفى هذه المنطقة قامت سلطنة الفونج البائدة وعاصمتها سنار على النيل الأزرق •

وفى الغرب قامت سلطنة دارفور وهى تمثل امتدادا لسلسلة من النقط أو المراكز الاسلامية التى امتدت عبر القارة الافريقية على جانبى الحدود التى تفصل بين الثقافتين العربية والافريقية • ومن ثم فان السودان بمعناه الواسع يشمل كل ذلك الحزام الكبير من الأراضى التى تمتد بين البحر الأحمر والمحيط الأطلنطى • وفى كتابنا هذا سنستعمل هذه الكلمة بمعناها المحدود للاشارة الى الأراضى السودانية التى وضعت مصر يدها عليها فى القرن التاسع عشر والتى تضمها حاليا جمهورية السودان • ومن ثم فان عبارة السودان الغربى الواردة فى كتابنا لا يقصد بها سوى كردفان ودارفور • أما تعبير « السودان الجغرافى » فنعنى به المنطقة الأوسع نطاقا التى عرفت فى العصور الوسطى باسم بلاد السودان •

وقد بقيت هذه المناطق لقرون طويلة بمعزل عن العالم الخارجى وان تأثرت داخليا بالغزوات والحروب التى كانت تقوم بين قبيلة وأخرى أو سلطنة وثانية • ولم يؤثر الاحتلال العثمانى فى القرن السادس عشر لمينائى سواكن ومصوع ، الواقعين على البحر الأحمر ، كثيرا على أحوال السلطنة اذ أن تلال البحر الأحمر وطبيعة سكانها الرحل من قبائل البجة الصلبة كان مما أدى الى عدم امتداد الحكم العثمانى الى الداخل • أما التوغل الأوربى فى آسيا وافريقيا سواء للاستعمار أو التجارة منذ أواخر القرن الخامس عشر فلم يؤثر على هذه المناطق تأثيرا مباشرا • وليس معنى هذا أن سكان هذه البلاد اتصفوا بالجمود أو عدم التقبل للمؤثرات الثقافية الواردة من الخارج وهى المؤثرات التى

تسربت الى صميم أوطانهم ، فعلى العكس من ذلك ــ كما سنرى ــ وجدت تحركات هامة للسكان كان لها تأثير بالغ على مستقبل السودانيين كما وجدت الأفكار الصوفية استجابة لدى مسلمي السودان • وعلى كل فان سكان هذه البلاد لم يتعرضوا قبل القرن التاسع عشر لمواجهة تحديات غزو أجنبي يتفوق عليهم فى التسليح أو فى الطرائق المتقدمة للتنظيم السياسى •

ومن الناحية الجغرافية جاء التحدى من مصر وأن تكن دوافعه ومثيراته قد جاءت من جانب الطبقة العثمانية الحاكمة وبالذات من محمد على باشا وخلفائه فى حكم الولاية • وكانت هناك مرحلتان للتوسع المصرى أحداهما فى عهد محمد على والأخرى فى عهد اسماعيل • ففى عام ١٨٢٠ تقدمت حملة يقودها اسماعيل كامل باشا ابن محمد على نحو دنقلة بقصد اقتلاع بقايا المماليك من تلك المنطقة التى لجأوا اليها منذ ١٨١١ عندما قضى محمد على على المماليك فى القاهرة ، وللحصول على ذهب السودان ورقيقه • وقد تساقطت الممالك الصغيرة القائمة على النيل واستسلمت الواحدة تلو الأخرى كما تم احتلال سنار فى ١٨٢١ ودالت بذلك سلطنة الفونج • وفى ذات الوقت تقدمت قوة مصرية أخرى يقودها محمد بك خسرو الدفتردار صهر محمد على من دنقلة عبر صحراء شمالى كردفان واحتلت مدينتى بارة والأبيض الهامتين وهكذا فصلت كردفان عن دارفور التى كانت تسيطر عليها • وفى خلال السنوات القليلة التالية نمت الخرطوم باعتبارها قاعدة للحكم المصرى فى السودان ، الذى استكمل سيطرته على المناطق الشمالية والوسطى من السودان فى عام ١٨٤١ بعد ضم التاكا ــ أى اقليم خور الجاش والتلال الساحلية للبحر الأحمر •

وقد ورث الخديوى اسماعيل ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩ عن جده محمد على طموحه الى تحويل مصر الى قوة مستقلة عظيمة كما ورث عنه اعجابه بطرائق أوروبا الغربية ومظاهرها • ولم يكتف الخديو اسماعيل بالسعى الى توسيع ممتلكات مصر جنوبا وغربا بل عمل على القضاء على تجارة

الرقيق فى السودان • فقد يسرت الفتوحات التى تمت فى عهد جده هذه التجارة وسهلت لها سبل الانتشار • ولكى يتأتى له السيطرة عليها كان لابد لامبراطوريته من مزيد من الاتساع • وفى أواخر عهده امتد الحكم المصرى فى أعالى النيل حتى البحيرات الاستوائية وبحر الغزال وسلطنة دارفور • ولم يكن اسماعيل أقل نشاطا فى السودان الشرقى فقد حصل بتأييد بريطانيا فى سنة ١٨٦٥ على مينائى سواكن ومصوع من الحكومة العثمانية بحجة القضاء على تجارة الرقيق عبر البحر الأحمر ، وكانا يمثلان منذ وقت طويل المنفذين الطبيعيين لقسط كبير من تجارة السودان • وأعقب ذلك استيلاء مصر عام ١٨٧٤ على الأراضى المحيطة بمصوع المعروفة الآن باسم أريتريا • كما أن احتلال مصر لهرر فى العام التالى قد وفر لها موطىء قدم هام على ساحل المحيط الهندى وذلك لفترة قصيرة •

ولا ندهش اذا ما أدى الضغط المصرى المتزايد فى اتجاه الشرق الى حرب مع الحبشة وبذلك أسهم فيما أصاب الخديوى من افلاس فيما بعد •

وقد بدأت المهدية بعد عامين من خلع الخديوى اسماعيل • وهى تمثل حركة ذات أصول دينية ساعد على انتشارها ضغوط سياسية ومساوىء اجتماعية واقتصادية فى المجتمع السودانى أدت الى ثورة سياسية أزاحت الحكم المصرى واستبدلت به حكومة ذات طابع وطنى اسلامى • واذا قارنا المهدية بالحركة الوهابية التى ظهرت ببلاد العرب أو بالحركة السنوسية التى انتشرت فى ليبيا لوجدنا أنها كانت أقصر منهما عمرا كما يتعذر علينا وصفها بالنجاح وخاصة على المدى البعيد • ولكن عهدها الذى لم يستمر عشرين سنة شهد تطورا سياسيا سريعا من اعلان وقيام مجتمع اسلامى مهدوى بالسودان الى قيام أوتوقراطية تستند الى سيطرة قبيلة واحدة وتصطنع جهازا اداريا اقتبست جوانب كثيرة منه من الادارة المصرية •

ويمكن الى حد كبير اسناد انجازات مرحلتي الحركة المهدية الى قائديها محمد أحمد بن عبد الله الدنقلاوي الذي أعلن نفسه مهديا سنة ١٨٨١ ، وعبد الله بن محمد التعايشي الذي تولى الحكم من بعده وأطلق على نفسه اسم خليفة المهدي في عام ١٨٨٥ — وهو يكنى عادة باسم الخليفة • وتفرق مشاعر السودانيين وأقوالهم المتوارثة بين هذين الرجلين واتجاهاتهما • فالجماعة التي تتبع السيد عبد الرحمن بن المهدي وكذلك بعض السودانيين الآخرين يكنون الاحترام للمهدي وذلك باعتباره سودانيا على قدر كبير من الورع ويعتبرونه رائدا لاستقلال السودان • أما اسم الخليفة فتحوط به سحب قاتمة تجمعت من جراء الاحساس بمسئوليته عن تحول المثل الدينية العامة للمهدية الأولى الى مطامع هدفها مجرد السيطرة الدنيوية على السودان • ومما يعلل تلك النظرة الى الخليفة الفارق بين عهده وعهد المهدي الذي توفي في أوج مجده قبل أن تتطرق مظاهر الضعف الى حركته بينما عاش الخليفة ليرى اندحار جيوشه والاستيلاء على عاصمته ومات هاربا طريدا في معركة يائسة • وكان طبيعيا أن يعمل الحزب السياسي الذي نما تحت قيادة السيد / عبد الرحمن على ابراز أهداف المهدي ومظاهر نجاحه بينما أهمل خليفته ان لم يجرحه • أضف الى ذلك أن معظم الطبقة المتعلمة ذات التأثير الفعال في السودان هي في الغالب من سلالة سكان وادي النيل الذين مارسوا نفوذا براقا في عهد المهدي ثم حرموا منه بل وتعرضوا للاضطهاد في عهد خليفته • ويجب ألا نغفل الكيفية التي نمت بها ونضجت الأفكار المتواترة عن المهدية • اذ أنها لم تكن مجرد أفكار محلية أو متوارثة ، بل جاءت نتيجة تأثرها بالحكم الانجليزي وما نشره من اتجاهات على مدى ٥٠ عاما أو يزيد • وقد هاجم معظم الكتاب الأول من الأوربيين المهدي وعهده ولكن الموقف تغير عقب وفاته اذ دوفع عن ذكراه حتى من أعدائه وتغيرت النظرة اليه باعتباره رجلا تغالى في تدينه وتفانى من أجل عقيدته وأن السودانيين أضيروا من جراء ثورته • بينما وجه الى الخديفة نقد لاذع اذ صور باعتباره رجلا قاسيا ، جاهلا

ولم تجر محاولة لاعادة تقييم صفاته وأهدافه قبل أن يؤلف ثيوبولد A. B. Theobald كتابه فى ١٩٤٩ وهكذا أصبح اهمال الخليفة أو تجريحه شيئا عاديا تأثر به تدريس التاريخ فى السودان وتأثرت به فكرة السودانيين الحديثة عن المهدية .

وبرغم ذلك فاذا أغفلنا الأحقاد الموروثة والدعاية الحديثة وتلوث التقاليد المحلية فاننا سنجد فارقا واضحا بين كل من الطورين الأول والأخير للمهدية . ولعل وفاة المهدى كانت من قبيل الصدفة الى حد كبير ــ نقطة التحول . ومع ذلك فان استئثار الخليفة بالسلطة قد تم تدريجيا لا لمجرد تحقيق مطامعه التى لاشك فيها بل بفعل ضغط الظروف وبالاضافة الى ذلك فهنالك جانب بنائى فى عهده لم يجد التفاتا كافيا من الكتاب الذين تعلقت أبصارهم بمظاهر الارهاب والقسوة التى اعتقد أجدادنا أنها لا ترتكب الا على أيدى البرابرة . ولم تكن جميع أيام الخليفة مجرد مرحلة سادها الأسف والتحسر على ما سبقها من عهد ذهبى انتقالى وانما كانت أيضا فترة تنظيم وتوازن ماهر بين القوى يكشف عن ارادة قوية وقدرة ادارية تتميز بالكفاءة عملت فى حدود الخبرات المحدودة التى كانت فى متناول يدها وان فشلت كثيرا فى التنفيذ بسبب الأخطاء الكامنة فى الأدوات التى تم اللجوء اليها .

٢ ــ ارض السودان وسكانه :

اشتمل السودان المصرى قبيل المهدية على مساحة كبيرة من المناطق الممتدة بين الجندل الثانى والبحيرات الاستوائية من ناحية وبين البحر الأحمر والسلطنات الواقعة على الأطراف الغربية لدارفور من ناحية أخرى . ويخترق المجرى الرئيسى لنهر النيل مناطق صحراوية أو شبه صحراوية ويميزه شريط ضيق من الأراضى الزراعية التى يتم ريها بالشادوف أو الساقية . وتتناثر على شاطىء هذا المجرى مجموعة من القبائل المستقرة أبرزها من الشمال الى الجنوب المحس والدناقلة والشائقية والجعليين وتقع بلاد المحس الى الشمال من الجندل الثالث بينما يستقر الدناقلة بجوار ذلك الجزء من النهر الواقع بين الجندل

الثالث وكورتى وقد وقعوا لبضع سنوات قبل الفتح المصرى تحت سيطرة المماليك الهاربين الى الجنوب الذين تحول معسكرهم العرضى(١) • (دنقلة الجديدة الى الآن) الى أهم مدن هذا الاقليم ومركزه الادارى وقد استقر أسلاف الدناقلة فى هذا الاقليم قبل دخول العرب الذين اختلطوا بهم • أما الشائقية فيقطنون المناطق الواقعة الى الجنوب مما سبق وأهم مدنهم مروى وقبل مجىء المماليك كانوا هم المسيطرين على الدناقلة ، وذلك بفضل قوتهم العسكرية وبالأخص فرسانهم الممتازين • وكان قتالهم مع المماليك يتسم بالندية ولكنهم لاقوا الهزيمة فى معركتين دمويتين على أيدى المصريين الذين استعملوا الأسلحة النارية والمدفعية وظلوا لستين عاما بعد ذلك يخدمون سادتهم الجدد باخلاص فى مختلف أنحاء السودان باعتبارهم قوات غير نظامية • وتعرض باشبوزق (٢) الشايقية للكراهية وكانوا مصدرا للرعب بسبب مظالمهم وما عرف عنهم من قسوة فى جمع الضرائب • وتقيم بعض القبائل الأقل أهمية فيما بين الشايقية والجعليين • وتقع بلاد الجعليين جنوب نقطة التقاء العطبرة بالنيل وقد دمرت عاصمتهم شندى الواقعة على الضفة الشرقية للنيل وكانت لها شهرة خاصة باعتبارها مركزا تجاريا هاما فى عام ١٨٢٨ على يد الدفتردار انتقاما للمذبحة التى غدر فيها الملك الجعلى الملك نمر محمد باسماعيل باشا ورجاله وحلت محلها المتمة على الشاطىء المقابل •

أما الصحارى الكبرى الواقعة خلف ذلك الشريط الضيق من الأرض الخضراء فهى موطن القبائل الرحل التى تعتمد فى حياتها على اقتناء الابل • وقد سيطر العبابدة على صحراء النوبة فى الجانب الشرقى من النيل • وكان محالا على أى رحالة أن يخترق المنطقة الممتدة من كورسكو الى أبو حمد على الثنية الكبيرة للنيل مارا بآبار المرات دون

---

(١) العرضى نسبة الى الكلمة التركية أوردو بمعنى معسكر الجيش ومنها الكلمة الانجليزية Lorde, Urdu .

(٢) من الكلمة التركية باشى بوزوك واستعملت فى الانجليزية بنفس المعنى وتكتب bashi - baz uk

حمـــاية منهم أو مساعدة • وقـــد منحهم محمد على حق احتكار نقــل المهمات الحكومية عبر الصحراء النوبية مكافأة لهم على مساعدتهم لحملته • ويشبه العبابدة فى الصـــحراء الغربية الكبابيش الذين يتنقلون داخل نطاق من الخضرة الموسمية التى تمتد حتى شمال كردفان فيما يقابل خط عرض دنقله وكانت لهم السيطرة على الطرق المنتشرة من غرب السودان الى النيل • وهناك شبه الجزيرة الصحراوية التى تحتويهـــا ثنية النيل الكبيرة وتعرف باسم صحراء بيوضة • أما المنطقة المحصورة بين العطبرة والنيل الأزرق والفـــرع الرئيسى للنيل فتمتاز بخضرة موسمية وتعرف باسم البطانة والشكرية أهم القبائل الرحل التى تقطن هذه المنطقة وتحكمها عائلة أبوسن • وفى أقصى شرقى السودان تشكل التلال المحاذية للبحر الأحمر امتدادا شماليا لمرتفعات الحبشة وتقطنها قبائل البجة التى تقطن أيضا السهول الساحلية الضيقة الواقعة الى شرقها بالاضافة الى السفوح المتسعة المنحدرة نحـــو العطبرة والنيل غربا والبجة قبائل رحل تقتنى الابل وتعتنق الاسلام وان كانت تتكلم لغتها العـــامية الخاصة • والى الجنوب من قرب خط عرض الخرطوم تزداد الأمطار وتصبح كافية لقيام زراعة سنوية لا تعتمد على مجرى النيل كما يتغير الطابع العام للبلاد • وهنا توجد أكثر مناطق السودان الأوسط خصوبة فى الجزء الشمالى من شبه الجزيرة المحصـــور بين النيل الأزرق والأبيض فيمـــا يعرف باسم الجزيرة (جزيرة سنار) • وكان طبيعيا أن تكون سنار باعتبارها عاصمة الفونج أهم مدينة فى هذه المنطقة قبل الفتح المصرى ولكن مع العهـــد الجـــديد نما مركز جديد هام فى واد مدنى على بعد ٦٠ ميلا من مصب النيل الأزرق وان بقيت سنار عاصمة ادارية • واذا صعدنا مع النهر بعد سنار لاحظنا ازدحام المناطق بالغابات واشتداد كثافتهـــا مع اقترابنا من مستنقعات الحبشة •

وقد ربط النيل الأبيض بين الشمال العربى المسلم والجنوب الزنجى الوثنى ، كما أنه كان يمثل احدى بوابات الغرب ـــ فعلى بعد ١٢٠ ميلا الى الجنوب من الخرطوم يقع ميناء الدويم على الضفة الغربية للنهر وكان

يمثل محطة هامةصوب كردفان ودارفور • وتعتبر منطقة الحشائش التى يخترقها الطريق موطنا للبقارة وهم قبائل رحل ذات أصول عربية اضطرت الى اقتناء الماشية عندما عجزت الابل عن التأقلم مع طبيعة الاقليم •

ولبساطة معيشتهم كان أهل المدن والأهالى المقيمون بجوار النيل ينظرون اليهم نفس نظرة سكان السهول الى الجبلين فى اسكتلندا • وقد لعبت قبيلتان من قبائل البقارة هما الرزيقات القاطنة فى جنوب شرقى دارفور والتعايشة قبيلة الخليفة القاطنة فى أقصى الغرب دورا هاما فى الحركة المهدية وقد وجد فى كل من كردفان ودارفور مؤثر أو عنصر هام غير عربى • ففى جنوب الأبيض توجد مجموعة من التلال التى عرفت باسم جبال النوبا والتى اتخذ منها السكان الذين كانوا يقطنون كردفان قبل مجىء العرب ملجأ لهم وملاذ • وفى أماكن أخرى خاصة مملكة تقلى الواقعة بين التلال الشرقية استقر خليط من العرب والنوباويين كما حل الاسلام محل الوثنية العريقة فى قدمها بين الجبليين • وفى أماكن أخرى مارس النوباويون حياتهم التقليدية فى حرية غريبة رغم تعرضهم لغارات تجار الرقيق • وفى دارفور نجد أن القبيلة الرئيسية بها وهى الفور لا تمت للعرب بأى صلة من الناحية الجنسية ولا تتكلم العربية وان اعتنقت الاسلام ، كما غلب على الفور طابع الانطواء والعزلة واستمر سائدا بينهم رغم ضم سلطنتهم الى الامبراطورية المصرية ، وظلت سلسلة جبال مرة فى وسط دارفور لنحو ٢٠ عاما ملجأ ومركزا للمقاومة من جانب المطالبين بحكم الفور وأنصارهم •

وقد استمر التغلغل العربى عبر النيل الأبيض ذاته ببطء لعدة أجيال وفى احدى المرات احتل الشيلوك النيليون ضفتى النهر حتى النقطة التى تقع عندها الدويم الحالية • وبالتدريج تراجعوا أمام العرب • وقد قوى الفتح المصرى قبضة العرب بنشره استعمال الأسلحة النارية وأصبح الشيلوك محصورين فى الأراضى الواقعة بين الطرف الشرقى لجبال النوبا

وبين النيل الأبيض ورغم ذلك فقد ظلوا مجموعة لها بعض الأهمية السياسية ، اذ كان لهم تنظيم قبلى قوى يرأسه ملك يحكم بالتفويض الالهى ، وقد أحرزوا سمعة يستحقونها باعتبارهم مقاتلين . أما الدنكا فقد كانوا أقل ترابطا وان كانوا أكثر عددا ، وكانوا يتناثرون فى مجموعات قبلية كثيرة على الشاطىء الشرقى للنيل الأبيض شمال نهر السوباط وبين المجارى المتعددة التى تتحد معا مكونة بحر الغزال الفرع الغربى الرئيسى للنيل . ويحمل المجرى الواقع الى أقصى الشمال الاسم ذى المغزى : « بحر العرب » وهو النهر الذى يمثل الحد الجنوبى لمنطقة البقارة .

ولعل منطقة المستنقعات الشائكة التى اعتاد النهر أن يغير فيها مجراه من عام لعام بين الجزر النباتية العائمة كانت أكبر العقبات التى واجهت التغلغل العربى جنوبا على المجرى الرئيسى للنيل الأبيض وادى ادخال المراكب البخارية الى توفير الخطوة الأولى اللازمة للتغلب على هذه العقبة التى عرفت باسم السد . وقد بدأت الادارة المصرية قبل ظهور المهدية فى ترتيب نظام للمواصلات مع منطقتى بحر الغزال والمديرية الاستوائية اللتين تقعان الى ما بعد السد أو منطقة السدود . ولكن هذا الاتصال لم يكن منتظما وانقطع تماما خلال حكم المهدية ولم تلعب القبائل الجنوبية باستثناء الشيلوك والدنكا دورا ذا قيمة فى المهدية التى كانت بالنسبة اليهم شيئا أجنبيا شبيها بالحكم المصرى . وتعكس التقسيمات الادارية للسودان المصرى قبيل ظهور المهدية مراحل نموه . فقد كان من نتيجة الفتوح الأولى تشكيل النواة الأساسية لمقاطعات ذات ملامح واضحة هى دنقلة وبربر والخرطوم ثم سنار وكردفان .

والى الشرق من هذه المقاطعات تقع المناطق التى تم ضمها فى وقت لاحق : التاكة وعاصمتها كسلا وسواكن — وقد تم ضم التاكة عن طريق الغزو ، أما سواكن فقد ضمت نتيجة لهبة من السلطان العثمانى الى حاكم مصر . والى الجنوب والغرب من هذه المقاطعات توجد المساحات الواسعة التى ضمت خلال حكم الخديوى اسماعيل وهى فاشودة والمديرية الاستوائية أو مديرية خط الاستواء وبحر الغزال ودارفور — وقد اتسمت

هـذه المناطق الواسعة بعدم التحديد وارتخاء قبضة السلطة التى تتولى حكمها . وجرى العرف على أن يطلق على كل اقليم أو منطقة من المناطق السالفة الذكر اسم مديرية ، هذا اذا استثنينا سواكن التى أطلق عليها الحكم العثمانى الذى عرفته لقرون طويلة اسم محافظة . وأطلق عادة على حاكم الاقليم لقب مدير وفى حالة المقاطعات التى تتسع فيها الأعمال الادارية أطلق عليه مدير عموم كما حدث بالنسبة لدارفور . وجزئت هذه المقطعات بطرق مختلفة فأحيانا الى أقاليم (أو مأموريات) يحكمها موظفون مصريون أو أتراك يطلق عليهم اسم مآمير أو الى أقسام يحكم كل منها ناظر من أبناء القسم وتشعبت عن كل قسم فروع أصغر كل منها يعرف باسم خط يحكمه حاكم محلى . وقد تردد المسئولون فى القاهرة بين اتباع النظام المركزى واللامركزى فى حكم المقاطعات السودانية التابعة لمصر . وكانت الغلبة خلال الفترة المعاصرة لظهور المهدية وازدياد قوتها لفكرة اللامركزية . وقد قسمت الأقاليم المختلفة الى ثلاث وحدات كبيرة أطلق على كل منها اسم حكمدارية ووضعت تحت ادارة حاكم عام يتبع القاهرة مباشرة ويطلق عليه اسم حكمدار .

ومن ثم شملت حكمدارية وسط السودان — وعاصمتها الخرطوم — كلا من سنار وبربر وفاشودة بالاضافة الى المديرية الاستوائية . كما ضم السودان الشرقى التاكة وسواكن بالاضافة الى محافظة مصوع التى كانت عاصمة للحكمدارية . واتخذ السودان الغربى من الفاشر عاصمة لمنطقة اشتملت على مقاطعات دارفور وكردفان وبحر الغزال ودنقلة .

٣ ـ حركات السكان :

هناك ثلاث حركات سكانية حدثت فى الأراضى السودانية وأثرت على التركيب القبلى بها وتطور تاريخها . وأول هذه الحركات هى هجرة قبائل المحس والدناقلة والشائقية والجعليين من النيل فى اتجاه الجنوب والغرب . وقد بدأت هذه الهجرة قبل الفتح المصرى بعدة قرون وكان العامل الاقتصادى من بين أسبابها لأن قدرة الشريط الأرضى الصالح للزراعة حول النيل على استيعاب الزيادة البشرية كان قاصرا ومحدودا .

وكان من عواملها أحيانا الاضطرابات السياسية التى تعرض لهـا وادى النيل ــ ومن ذلك أن ضغط الشائقية على الدناقلة خلال القرن الثامن عشر تسبب فى هجرتهم للغرب فى اتجاه كردفان ودارفور ومن هنا كان ما ذكره براون عند زيارته لمنطقـة دارفور فى سـنة ١٧٩٣ ــ ٩٤ عن الأهميـة الاقتصادية والاجتماعية التى كان يتمتع بها الدناقلة فى تلك السلطنة • وعندما أغتيل اسماعيل باشا سنة ١٨٢١ على يد الملك نمر هاجر الجعليون انهاربون صوب الشرق الى أن استقروا فى النهـاية فى منطقة القلابات على أطراف الحدود الحبشية • وقد أدى الفتح المصرى وما ترتب عليه من ربط مناطق السودان بعضها ببعض واستقرار الأمن فيه الى تشجيع هجرة الشماليين فأسس بعضهم بيوتا تجارية ناجحة فى الخرطوم وشـاركوا فى تجارة الرقيق ، كما عمل بعضهم الآخر كجنود لحساب تجار النيل الأبيض وبحر الغزال • أما صناع السفن من الدناقلة ــ كما هـو الحال بالنسبة لوالد المهدى ــ فقد اتجهوا الى الخرطوم وما يليها جنوبا واتخذوا لهم مكانا على شاطىء النيل حيثما أمكن للغابات أن تمدهم بالثروة الخشبية اللازمة لصناعتهم وعمل كثير من الدناقلة على المراكب والزوارق البخارية كبحارة وعمال •

وقد بدأت هجرة الشائقية بعد الفتح المصرى عندما صحبوا القواد والفرق المصرية حيثما ذهبوا كجنود نظامية • وتنقـل الجعليون كصغار تجار (جلابة) فى جميع أنحاء السودان ووجدوا خير ما أتيح لهم من فرص الكسب فى العمل كوسطاء فى تجارة الرقيق وذلك فى مناطق الاتصال بين القبائل العربية وغير العربية وعلى وجه الخصـوص فى كردفان ودارفور وبرز من بين رجال هذه القبيلة اثنان دارت حولهما كثير من أحداث غرب السـودان فى الأيام التى سبقت المهدية أو عاصرت ظهورها هما الزبير رحمة منصور ملك بحر الغزال غير المتوج وفاتح دارفور والياس أم برير الذى عمـل لفترة كحاكم لكردفان وتولى تدبير المؤامرات ضد الحكم المصرى • وقـد استقر كثير من هؤلاء الشماليين نهائيا فى المناطق التى نزحوا اليها كما تبعهم من جاء بعدهم من سلالتهم الذين احتفظوا فى شتى

ربوع ذلك المحيط الواســع من المتخلفين المقيمين فى الغرب والجنوب بذكرى أصولهم القبلية التى كانت موضعا لفخرهم •

الا أن العوامل الاقتصادية والسياسية وحدها لا تكفى لتفسير هذه الهجرات فلقد كان الرجال الذين هجروا بيوتهم أكثر شجاعة ومبادرة من ســواهم ولابد أن الحياة غير الطليقة فى اقليم مستقر تحت حكم مصرى كانت أضيق من أن تسع شجاعتهم ومواهبهم • وكان هــذا هــو نوع الرجال الذين اخترقوا مناطق النيل الأعلى وبحــر الغزال وتاجروا أو قاتلوا فى تلك المناطق النائية • وقد لعب المهاجرون من الشمال دورا هاما فى الثورة المهدية • ويتضح الدور الايجابى الذى قاموا به فى أوائل المهدية ومداه اذا قورن بالدور السلبى الذى وقفه أقاربهم الذين بقوا فى مواطنهم الأصلية •

أما الحركة السكانية الثانية التى بدأت قبــل الفتح المصرى بكثير ووجدت فيه حافزا لها فهى تجارة الرقيق وقــد وصف بركهارت هــذه الحركة من واقع ملاحظاته الشخصية فى شندى مركز تلك التجارة قبيل ذلك الفتح (١) ووفقا لما ذكره بركهارت كان الرقيق يجلبون بصفة عامة من منطقتين الأولى المنطقــة غير العربية قرب دارفور والثانية الواقعة على أطــراف الحبشة • وكان أربعة أخمــاس الرقيق الذين يمرون بشندى يرسلون اما الى بلاد العرب أو الى مصر ، وهــذا بخلاف تلك الأعداد الكبيرة من الرقيق الذين كانوا يتغلغلون فى النظام الاجتماعى للقبائل العربية فى السودان سواء أكانت هذه القبائل مستقرة أو متنقلة اما عن طريق التسرى أو للخــدمة فى البيوت وفى الحقول • واستمرت عملية الامتصاص لأجيال متتالية الأمر الذى ترتب عليه تعديل المظاهر الجسمانية لكثير من القبائل التى تدعى الانتساب لأصول عربية ومنهم البقارة •

وقد حدث تطوران هامان فى تجارة الرقيق بعد استقرار الحــكم

---

(1) I. L. Burckhardt : Travels in Nubia, London 1819. pp. 322-345.

المصرى فى السودان فقد طمع محمد على فى الحصــول على أعداد غير محدودة من الرقيق لتدريبهم وضمهم للجيش الجديد الذى أعده فى مصر . ومع أنه أصيب بخيبة أمل فى هــذا المجال بسبب ارتفاع نسبة الوفيات بينهم بمجرد وصولهم لمصر الا أن جانبا كبيرا من الجند النظاميين الذين عملوا فى عهد خلفائه بالسودان كانوا أصــلا من الرقيق . وحتى عندما حاول الخديوى اسماعيل القضاء على تجارة الرقيق استمر تزويد الجيش بجنود من هذا المصدر ــ فقد جرت العــادة على ادراج أسماء الرقيق الذين يتم الاستيلاء عليهم من التجــار فى قوائم الخــدمة الاجتمــاعية والعسكرية كما جرى التجنيد بأسلوب لا يختلف كثيرا عن ذلك المتبع فى اصطياد الرقيق . وقد استقى جانب كبير من الجنود الذين كانوا فى الأصــل رقيقا من جبال النوبا وعرفوا باسم الجهادية وأثبتوا مع الأيام أنهم عون للمهدية ونظمها فى الوقت ذاته الذى أثاروا لها فيه المشاكل .

أما التطور الثانى الذى تم فى العهد المصرى فهو فتح النيل الأعلى وبحــر الغزال أمام تجار الرقيق فقــد حالت شجاعة الشيلوك فى القتال والمقاومة ، بالاضافة الى السد كحاجز طبيعى بين تجــارة الرقيق وتلك المناطق الى ما بعد الفتح المصرى للشمال . وكانت تجارة الرقيق نتيجة طبيعية لتجارة العاج فقد أسس تجار الخرطوم مراكز لوكلائهم وأتباعهم حول النيل الأعلى وبحــر الغــزال ثم تحالفوا فى كثير من الأحيان مع الرؤساء المحليين للاغارة على القبائل المجاورة بغرض الحصول على غلال عند تناقص ما لديهم من مؤن ، أو للحصــول على المــاشية لاستبدالها بسن الفيل . وأصبح الأسرى الذين يؤخذون خلال هذه الغارات رقيقا للتجار ولم يمض وقت طويل حتى لاح فى الأفق احتمــال قيام تجــارة ناجحة للرقيق . وساهمت محطات تجار سن الفيل فى معاونة تجار الرقيق القادمين من كردفان ودارفور على التوغل فى هــذه المناطق لتصــدير أسراهم . وقد اتخذت هذه المراكز أو الأماكن التى أحيطت عادة بسياج من الأشراك والتى عرفت باسم الزرائب مقرا للتجار أو وكلائهم وكذلك

لجنودهم من الدناقلة والرقيق ثم مخزنا للمؤن ، وأطلق على كل من هذه الزرائب اسم ديم أو معسكر وميزت عن سواها باسم صاحبها أو وكيلها •

أما ثالث الحركات البشرية الهامة فكانت حركة الحجاج من غير العرب القادمين من دارفور وما يليها غربا والمتجهين الى البحر الأحمر ثم مكة عن طريق السودان • وتتصف هذه الحركة بأنها عريقة فى القدم كما أنها مستمرة ودائبة ولم تتأثر بنوع الحكم فى السودان الى أن توقفت مؤقتا خلال عهد المهدية وبسببها • وقد وصف الرحالة بركهارت (١) الطرق التى اعتاد الحجاج — الذين كانوا يعرفون باسم التكارنة أو التكارير (ومفردها تكرورى) أن يتخذوها — وصفا جيدا • فبعد أن يجتازوا دارفور يتجهون اما الى مصر أو الى سواكن ومصوع على البحر الأحمر عن طريق شندى أو سنار ومثل هذه الرحلة غالبا ما كانت تأخذ سنوات عديدة أو عمرا بأكمله وكثيرا ما كان الحجاج العائدون يستقرون نهائيا فى السودان • ومن ثم وجدت قرى أو مستعمرات خاصة بالتكارنة على طول طريق الحجاج حيثما توفرت امكانيات المعيشة • كما وجد كثير من التكارنة فى قرى خاصة بهم على حدود الحبشة ، فى منطقة القلابات حيث كونوا جماعة قوية مترابطة • ومع أن الأفراد كانوا يذهبون ويجيئون الا أن التكارنة كانوا عنصرا مستمرا فى المجتمع السودانى • وقد دخل أجداد الخليفة عبد الله للسودان باعتبارهم حجاجا من هذا النوع ثم اندمجوا بمرور الزمن فى التعايشة البقارة •

٤ — المدن :

ظل المجتمع السودانى الى بدء المهدية قبليا فى أساسه ولكن هذا الأساس القبلى تعدل بفعل حركات السكان التى سبق وصفها • ومن الطبيعى أن يكون اختلاط السكان أكثر تطورا فى المدن وبخاصة الخرطوم• وفى مدن الأقاليم والقرى الكبيرة كانت العناصر ذات الأصول القبلية المختلفة تميل الى العيش مستقلة عن غيرها ، ولم تبد ميلا الى الاندماج

(1) Burckhardt : Travels pp. 406 - 414.

فى كيانات موحدة . وقد وصف بركهارت شندى فى عام ١٨١٤ باعتبارها تحتوى على عدد كبير من القبائل العربية وعلى حى يسكنه تجار دناقلة .

وبعد ٧٠ عاما من ذلك التاريخ احتوت الأبيض وهى أكبر مركز عمرانى فى الغرب على مجموعة من المبانى الحكومية وعلى سوق يتوسط مجموعة قرى تسكنها مجموعات قبلية تضم التكارنة والدناقلة .

ويرجع الفضل فى نمو المدن السودانية الواقعة فى الشمال الى أسباب ادارية واقتصادية وان كانت الادارة بوجه عام تفوق التجارة فى فعاليتها بالنسبة الى المحافظة على بقاء المدن . وهكذا فان تقدم الخرطوم وتحولها فى مدى ستين عاما من قرية مغمورة يقطنها صيادو السمك الى أكبر مدينة عامرة بالسكان فى السودان راجع الى اتخاذها مركزا للادارة والحكم . وبرغم ما تمتاز به الخرطوم من موقع يتيح لها الاشراف على الطرق النيلية وتصريف منتجات منطقة الجزيرة الزراعية الا أنها لم تكن على الاطلاق فى الماضى مركزا للتجمع السكانى . أما دنقلة القديمة وهى المقر القديم للدناقلة والتى يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام فقد أصابها الاضمحلال التام بعد أن لجأ المماليك الفارون الى أراضيها فمعسكرهم الذى أصبح بدوره عاصمة للاقليم فى عهدى الحكم المصرى والمهدية ثم فى مرحلة الحكم الثنائى قد تجاوز ما كانت عليه دنقلة القديمة اتساعا وأهمية . وكذلك فان بربر التى كانت مدينة تجارية وعاصمة لمملكة صغيرة قبل الحكم المصرى قد احتفظت بأهميتها بل ازدادت مكانتها باعتبارها عاصمة اقليمية فى عهده بينما لم تستطع شندى المنافس التجارى لها (أى لبربر) والواقعة الى الجنوب منها استعادة مركزها خلال الحكم المصرى بعد التخريب الذى أصيبت به على يد الدفتردار برغم أنها كانت أكثر المدن تقدما فى أيام بركهارت . ومما لا شك فيه أن أهمية الأبيض فى الغرب ومكانتها قد ازدادت بعد اتخاذها مركزا للادارة المصرية . كما أن انشاء كسلا فى الشرق باعتبارها عاصمة لاقليم التاكة الذى لم توجد فيه فى الماضى أية مدينة قد ترتب عليه قيام مركز جديد تتجمع فيه تجارة شرقى السودان .

ولم يكن بالسودان الجنوبى خلال مرحلة الحكم المصرى ما يجدر أن نطلق عليه اسم المدن واقتصر الأمر بالنسبة للنيل الأعلى على سلسلة من النقط الادارية أقدمهـا وأفضلها تشكيلا « فاشودة » الواقعة على الضفة الغربية للنيل شمال منطقة السدود • وفى الأقاليم الواقعة حول بحر الغزال تحول كل ديم خاص بأحد تجار الرقيق مع الزمن الى نقطـة عسكرية للمصريين وألى مركز للادارة والحكم • كما أصبح مقر قيادة الزبير رحمة ــ أكبر تجار الرقيق ــ عاصمة اقليمية وعرف أحيانا باسم ديم الزبير كما عرف باسم ديم سليمان نسبة لابنه •

٥ ــ الحكم المصرى وقبائل السودان :

لم يستطع الحكم المصرى فى السودان اكتســاب مشاعر السكان وولائهم برغم كونه أقــوى من النظم القبلية والدينية فى السودان من حيث القوة المــادية والتنظيمات الرسمية ••• وفى خلال ستين عاما من الحكم المصرى نشأت بالسودان بيروقراطية منظمة•وفى أغلب الحالات كان على رأس الادارة حاكم عام واحد ، وأن طبق أحيانا نظام اللامركزية كما حدث فى عام ١٨٨٢ عندما قسم السودان الى عدة أقسام ــ وكان القصد من ادخال اللامركزية فى الادارة الحيلولة دون تجمع السلطة والنفــوذ فى يد الحاكم العام واضعاف نفوذه ، خاصة وان بعد الخرطوم عن القاهرة قد أثار مخاوف ولاة مصر وتشككهم فيما يتيحه ذلك البعد من اغراء لكل طامع ولذات السبب لم يسمح الا لقلة بالبقاء فترة طويلة فى مراكزهم • وفى خلال المدة بين عامى ١٨٢٥ ، ١٨٨٥ تولى ادارة السودان بالخرطوم ٢٥ حاكما عاما ولم يبق منهم فى عمله لمدة تزيد عن خمس سنوات سوى ثلاثة فقط وهكذا لم يقم الحكم المصرى بالســودان على أسس راسخة وذلك لأنه قام على مفهوم سياسى انتهازى ومتقلب •

وقد مارس الحكام العامون عملهم فى ظروف صعبة اذ كان عليهم أن يكافحوا حقد سادتهم فى القاهرة وحسد أتباعهم فى السودان وكان العمل فى السودان بالنسـبة لغالبيتهم نوعا من النفى الذى لا يخفف من غلوائه

أو من الشراكسة أو الأرمن فانهم جميعا كانوا غرباء بالنسبة الى السودانيين لأنهم يتكلمون اللغة التركية التى لا يفهمها السودانيون وكانت هـذه بعينها هى النظرة التى ينظر بها الى مديرى الأقاليم والأقسـام برغم أن واحـدا أو اثنين منهم كانوا من السودانيين خلال عهد اسماعيل وأيضا باستثناء بعض الأوربيين الذين كلفوا بالعمل خلال ذات الفترة • ويطلق السودانيون على هذه الفترة من تاريخهم اسم التركية السابقة أى فترة الحكم التركى الأول • وقد صب المهدى على موظفى هذه الفترة وجندها اللعنات والتهم ونظر اليهم باعتبارهم تركا لا مصريين • ومع ذلك فلفظ الترك الذى ورد فى المصطلح السودانى لا يجدر بنا أن نخلع عليه معنى قوميا أو لغويا شـديد التحـديد ، فالحـكم الثنائى الذى سيطر عليه الموظفون البريطانيون قد عرف باسم التركية الثانية •

وترجع قوة الادارة المصرية فى السودان الى عاملين ، نظامها المالى وقواتها المسلحة • فقد استدعى تنظيم الشئون المالية منذ البداية الاستعانة بخبرة الكتاب والمحاسبين ولهذا الهدف استقدم بعض الأقباط من مصر • ومن ثم وزع أربعون من أولئك الكتاب وعائلاتهم فى الأقاليم أثناء حكم محمد على •

وعلى عكس الحكام والمديرين فان هذه الفئة قد استقرت بالسودان واندمج أبناؤها فى البلد الجديد باعتباره موطنا لهم وهـذا هو ما يفهم من الرواية التى ذكرها يوسف ميخائيل وهـو ابن أحد أولئك الأقباط المهاجرين • اذ تحدث عن وصول مدرس قبطى جديد عندما كان بالمدرسة فى الأبيض وقد رفض هذا المدرس السماح للتلاميذ بالانصراف للاشتراك فى الاحتفـالات التى أقيمت لاستقبال غوردون سنة ١٨٧٧ فثار الطلبة واعتدوا عليه بالضرب ولكنه أنقذ وهو يصيح « انى أجنبى ولا أفهم طبيعة صبية السودان • لعن الله صبية السودان وكردفان » •

وبمرور الزمن تتابعت هجرات أبنـاء مصر ، من مسلمين وأقباط لنسودان للعمل كموظفين مدنيين أو فى القوات المسلحة وعرف أبناؤهم

الذين ولدوا فى السودان باسم المولدين أو المواليد (١) وكون مثل هؤلاء الأفراد المصريين أصلا أو جزئيا ـ (حيث كان هناك كثير من التزاوج المختلط) خلال جيلين طبقة على درجة كبيرة من الأهمية خاصة فى المدن • ويبدو أنه لا يوجد دليل على ابدائهم أى ولاء خاص للادارة المصرية فى عهد المهدية (٢) •

أما الجيش فكان أكثر توفيقا فى كسب ولاء المجندين السودانيين والاحتفـاظ به وكان معظمهم من نوعين : الجنوبيون والنوباويون وهم عادة من سلالة الرقيق الذين انخرطوا فى سلك الجهادية ثم الشائقية غير النظاميين • وقد حل الأخيرون الى حد كبير مكان الجنود غير النظاميين الذين جاءوا من الخارج للسودان خلال فترة الفتح • وعندما تطورت أزمة المهـدية أبدى الجنود من كلا الفريقين اخلاصـا كبيرا لحكومة الخديوى ، فى الوقت الذى كانت فيه قضيتها ميئوسا منها ومن ذلك قيام الجهادية بثورة فى الأبيض خلال فترة متأخرة أثناء حكم الخليفة التعايشى•

وقد قضى الفتح المصرى على سلطنة الفونج وعلى الممالك المستقلة القائمة على المجرى الرئيسى للنيل كمـا أزاح أسرة الجعليين الحاكمة • الا أنه لم يوجد اتجاه عام للقضاء نهائيا على النظام القبلى أو حتى لتغيير الرابطة القبلية أو اضعافها • وبالنسبة للبدو الرحل على وجه الخصوص اتبع نوع من الحكم غير المباشر أصبح بمقتضاه شيوخ تلك الفئة عمالا للادارة المصرية ووكلاء عنها فى جمع الضرائب • وهكذا وجـد بجانب الادارة الجديدة نظـام قديم أكثر اتفـاقا مع مشاعر السودانيين وكان الاحساس بالولاء للقبيلة فى ذلك الحين أقوى بكثير من الولاء لشيخها •

---

(١) مواليد جمع مولود (فى السودان) وقد اطلق اسم مولد (وجمعها مولدون) المستقى من نفس الأصل ـ فى العصور الوسـطى على المسيحيين الاسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام وعرفوا فى الاسـبانية باسم Mulaues .

(٢) اذا صح ذلك فلعل مرجع سلبيتهم هو قلة عددهم وحرمانهم من السلاح مع وجودهم وسط اغلبية ساحقة تتلمس الفـرص لابادتهم الأمر الذى جعل مقاومتهم أو ثورتهم شيئا خاليا من الامكانيات .

أما سلطة شيخ القبيلة فاستندت الى شخصيته كرجل وقائد أكثر منها الى تعزيز الادارة الغربية التى يعتبر هو وكيلا عنها أو عميلا لها ـ هذا اذا استثنينا الشـائقية الذين اندمجوا مع الفاتحين فى سياستهم واتجاهاتهم بمحض ارادتهم الكاملة ـ هذا بينما نظرت القبائل الشمالية الأخرى الى عهـد الفونج السـابق بكثير من الحسرة ورحبت بأى بادرة ضعف تبدو على الادارة المركزية وتبشر بعودتهم الى حريتهم القديمة ولو جزئيا • ومن هذا أن زعيما لقبيلة الغدايات دفع للاشتراك فى مؤامرة سياسية ضد حاكم كردفان قبيل ظهور المهدية على أساس تذكيره بأنه من سلالة الفونج ومن أبناء السلاطين السود ملوك سنار (١) وغلب على موقف السودانيين فى الشمال الاحساس بخيبة الأمل بالنسبة الى ولاءاتهم السياسية والحسرة على ما فقدوه من حرية قبلية • وكان الحكم المصرى مكروها ليس فقط بسبب أخطائه بل أيضا بسبب طبيعته حيث أنه كان حكما أجنبيا مستمرا ويتصف بالتنظيم الدقيق الذى لم يؤلف • ويرتبط اندلاع المهدية بهـذا السخط الشديد • هـذا برغم أن الشكل الذى اتخذته الثورة أثبت فى النهاية أنها أشد عداء للقبلية من الحكم المصرى الذى سبقها أو الحكم الثنائى الذى تلاها •

٦ ـ الطرق الدينية :

كان للسودانيين ولاء ثالث أقـوى حتى من العاطفة القبلية وأكثر حيوية بكثير من أى تبعية لخديوى مصر • وكان ولاؤهم الثالث للاسلام • وقد يبدو غريبا أن يكون هذا هو الدافع للثورة ضد حكومة اسلامية • ولكن هناك هوة كبيرة تفصل بين الاسلام كما يعرفه الجهـاز الرسمى للادارة المصرية وبين الاسلام كما يفهمه السودانيون أنفسهم • يرجع هذا الفارق الى الطابع المحلى الذى اتخذه الاسلام أثناء انتشاره منذ عهـد

---

(١) يوسف ميخائيل (١) ـ رقم ٧ •

الفونج . فقد انتشرت العقيدة على أيدى رجال أتقياء (١) يتبعون احدى الطرق الدينية المتعددة التى كانت موجودة فى جميع أنحاء العالم الاسلامى وهــذه الطرق هى المظهر التقليدى للتصوف أو الروحانية الاسلامية . وهى تمثل اتجاها دينيا بنى فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة على الزهد والتأمل العميق (٢) وقــد حاول الغــزالى (المتوفى فى عام ٥٠٥ هـ — ١١١١ م) الربط بين الصــوفية والعقيدة الأصــلية . ولكن غلب على الصوفية سواء قبل عهد هذا المفكر العظيم أو بعده ، التطرف العاطفى فى الطقوس والانحراف (الجانبى) فى الفكر . ومن ثم كانت هناك دورات متلاحقــة من الصراع بين مشايخ الصوفية وعلماء الدين الذين درسوا أسس الفكر الاسلامى الصحيح .

وقد قامت هــذه الطرق بدور اعلامى فعال على أطراف العــالم الاسلامى ويرجع الفضل فى نشر الاســلام بين الشعوب التى تقيم عبر الصحراء لجهود أتباع هذه الطرق (٣) وتم هــذا الانتشار بجهود فردية لم تعزز بأى تنظيم من قبل الطرق التى يدينون لها بالتبعية . وبرغم ذلك فان جهود أولئك الأفراد لم تتمخض فقط عن مسلمين جدد وانما أيضــا عن اتباع لطرق معينة . وقد بلغ ما أصابه بعض أولئك الدعاة من نجاح

---

(١) ورد تاريخ حياة كثير من هؤلاء فى « الطبقات » لمحمد النــور ود ضيف الله وقد كتب فى أوائل القرن التاسع عشر وهناك طبعتان أخريان لهذا الكتاب قام عليهما ابراهيم صديق وسليمان داود منديل (القاهرة ١٩٣٠) وهناك مقتطفات منه فى :

Mc Michael, Arabs in Sudan, ii, 217-323; Hillelson, Tabaqat wad Dayf Allah-Studies in the lives of the Scholars and Saints, SNR, vi/2/1923, 191-230, and Trimingham, Islam (See Index).

(٢) عن معالجة قصيرة للتصوف ، انظر دائرة المعارف الاسلامية (E.1)

Arberry, Sufism, An account of Mystics of, Islam London 1930.

(٣) عن انتشــار الاسلام فى افريقيا انظر :

T. W. Arnold : The Preaching of Islam London 1896.

حيث نجد دراسة تتعلق بالطرق الموجودة فى القرن الـ ١٩ وخاصة ص ٢٥٨ . أما عن الطرق السودانية فانظر :

Trimingham : Islam, especially pp. 187-241.

فى ميدان نشاطهم الحد الذى دفعهم الى انشاء طرق جديدة أو على الأقل فروع من الطرق الأصلية وأن تكن لها ذاتيتها الخاصة . ووجد أولئك الدعاة ميدانا لنشاطهم ودعوتهم لا بين الوثنيين فقط بل أيضا بين بسطاء المسلمين .

وقد اعتبر المعلمون الدينيون الناجحون قديسين أولياء ونسبت لهم المعجزات وقد كانوا موضعا للتقديس بسبب ما رؤى من كونهم مصدرا للبركة التى كان من الممكن انتقالها بالوراثة أو بالاتصال الروحانى (١) ومن ثم أصبحت مدافنهم مزارات يحج اليها ، واكتسبت ممتلكاتهم صفة المخلفات الدينية كما انتقلت رئاسة الطريقة بعدهم بالوراثة فرئيس الطريقة أو رئيسها المحلى عرف بالشيخ واتباع الطريقة فى كل محلة أو جهة كانوا تحت اشراف وكيل لها يعرف باسم الخليفة . أما الأعضاء فى الطريقة فيعرفون باسم الدراويش (وهى الجمع العربى للكلمة الفارسية درويش ومعناها الأصلى محتاج) ويطلق فى السودان على المعلم الدينى من أولئك الذين ساهموا فى نشر الاسلام اسم فقى (٢) وهى النطق العلمى للفظ فقيه الذى يعنى الشخص المتفقه فى أصول الدين ومع ذلك فان السودانيين يستعملون فى جمع كلمة فقى كلمة أخرى من أصل آخر مخالف تماما وهى فقرا ومفردها فقير وهو المعنى العربى المساوى لدرويش . وهذا الخلط اللغوى يبين الصلة القوية بين التعليم الدينى والتبعية لاحدى الطرق فى السودان الاسلامى . ومن الاستعمالات السودانية الأخرى ذات الأهمية استعمال كلمة خلوة وهى تعنى فى العادة مكانا منعزلا للتصوف ودراسة القرآن .

ومن أمثلة الوراثة فى الأخذ بطريقة من الطرق ما اتبع فى المجذوبية أو المجاذيب التى تطورت فأصبحت مجموعة شبه قبلية . وكان مؤسسها جعلى اسمه حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣ — ١٧٧٦) الذى التحق

---

(1) F. Westermark : Pagan Survivals in Muhammadan Civilization London 1933 pp 87–144.

(٢) لدراسة المعنى الواسع لكلمة فقى انظر : Trimingham p. 141

خلال احدى زياراته لمكة بالطريقة الشاذلية (١) وعند عودته نشرها بين أسرته وأصبح مقره فى الدامر مركزا دينيا هاما للجعليين وغيرهم من القبائل الممتدة على المجرى الرئيسى للنيل .

وقد تطورت فشكلت جماعة صغيرة ذات استقلال ذاتى يحكمها فقهاء (جمع فقى) المجاذيب (٢) . وفى أثناء الحكم المصرى هرب محمد المجذوب ١٧٩٦ — ١٨٣٢ — وهو حفيد مؤسس الطريقة — الى مكة حيث وقع تحت تأثير أحمد بن ادريس أحد الدعاة الذين سنناقش أهميتهم فيما بعد . ولما عاد للسودان فى سنة ١٨٣٠ نشر تعاليمه فى شرق السودان . وعندما اندلعت الثورة المهدية كان لهذه الطريقة تأثير كبير بين البجة والجعليين وانضم وكيلها أو شيخها فى سواكن الطاهر الطيب المجذوب (١٨٢٢ — ١٨٩٠) الى القائد المحلى للمهدية عثمان دقنة .

وقد شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر حركة أحياء اسلامية ولكنها لم تكن حركة واحدة تتصف بوحدة الباعث أو الاتجاه بعكس حركة الاصلاح فى أوربا . وتبنى هذه الحركة عدد كبير من الأشخاص الذين أسسوا عددا كبيرا من الحركات المنظمة التى هدفت الى العودة بالاسلام الى نقائه الأول وتطهيره من الشوائب الالحادية والبدع التى لحقت به . وكانت الوهابية (٣) التى تركت أثرا قويا وفعالا فى العالم الخارجى هى مظهر هذا الاحياء كما نشر معلم آخر من أصل مغربى هو أحمد ابن ادريس الفاسى (١١٧٣ — ١٢٥٣ ، ١٧٦٠ — ١٨٣٧) موجة منفصلة

---

(١) تأسست الشاذلية فى خلال القرن الثالث عشر وتفرعت عنها كثير من الفروع .

(٢) هناك وصف للمجذوبية فى الدامر قبل الفتح المصرى كنوع من الحكم الدينى فى كتاب Burckhardt, Travels pp. 200-270 ويفرق المؤرخ هل : Hill فى كتابه Biographical Dictionary, 265 بين محمد المجذوب ، المؤسس ، وبين ابنه حمد المجذوب مؤسس الدامر وقد أخذت بالعرض الذى قدمه ترمنجام فى كتابه . Islam, 224 – 6

(٣) عن التاريخ السياسى للوهابية والمملكة العربية السعودية الحديثة التى نشأت عنها انظر H. St. John philly : Sa, audi Arabia Lond 1955

من النشاط (١) وكان أحمد بن ادريس الفاسى تابعا لاحدى الطرق ولكنه اتخذ بطانة خاصة به من التلاميذ فى مكة ودخل فى نزاع مع علمائها وفى عام ١٨٢٧ / ١٢٤٣ لجأ الى الوهابيين فى عسير • ورغم أن طريقته تفككت بموته الا أن اثنين من تلاميذه هما محمد بن على السنوسى ومحمد عثمان الميرغنى أسسا طريقتين أصابتا كثيرا من التوفيق فى أفريقيا •

وقد اتخذت الطريقة السنوسية نسبة الى محمد بن على السنوسى مركزا لدعوتها ما يعرف الآن باسم ليبيا واستطاعت القيام بحركة احياء اسلامية بين بدو الصحراء الرحل • ثم امتد أثرها الى شعوب ما وراء الصحراء الكبرى وان لم تتغلغل فى السودان المصرى رغم أن وجودها كان معروفا تماما هناك (٢) ومن ناحية أخرى أثر محمد عثمان الميرغنى بشكل بارز على التاريخ السودانى • وقد ولد فى الحجاز فى عام ١٧٩٣ ، وخلال زيارة له للسودان فى ١٨١٧ لأغراض متعلقة بنشر الدعوة تزوج من دنقلة وبعد وفاة أحمد بن ادريس عمد الى نشر دعوته فى مناطق مختلفة بواسطة أفراد من أسرته • وكان داعيته فى السودان ابنه الحسن الذى أصبح مع وفاة محمد عثمان فى سنة ١٨٥٣ رئيسا للطريقة المتمتعة بالاستقلال الذاتى هناك وقد أعلن محمد عثمان أن طريقته تشتمل على مضمون الطرق الأخرى وتكملها ومن ثم أطلق عليها اسم « خاتم الطرق » ورئاسة الطريقة وراثية فى الأبناء المباشرين لمؤسسيها • وفى أيام الحسن ثبتت أقدامها فى شمال السودان وشرقه وأصبحت منافسا للمجذوبية ومع أنه يطلق عليها أحيانا اسم الميرغنية فان أفضل ما تعرف به هو الختمية (٣)

---

(١) ويختلف المرجعان التاليان فى تحديد تاريخ وفاة احمد بن ادريس (١٨٣٥ أرنولد) والطريقة التى اتبعها فى البداية .

Arnold : Preaching of Islam p. 267.

Trimingham Islam p. 229.

(٢) عن السنوسية انظر

E.E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica. Oxford 1949.

(٣) المفروض لغويا كتابتها (خاتمية) اشتقاقا من خاتم الطرق ولكن ختمية هى الكلمة الدارجة التى جرى العرف على استخدامها سواء فى التعبير والكلام أو الكتابة فى السودان . وهناك شرح عن هذه الطريقة فى كتاب .
Trimingham : Islam p. 231-5.

وأطلق اسم الختمية أيضا على مقر رئاسة الطريقـة التى أنشئت بجوار كسلا فى عهـد الحسن الذى أعقبه ابنه محمد عثمان الثانى بعد وفاته سنة ١٨٦٩ .

وكان من أوائل أنصار الختمية اسماعيل بن عبد الله (١٧٩٣ — ١٨٦٣) الذى جاء أبوه أصلا من دنقلة واستقر كتاجر فى كردفان . وفى سنة ١٨٤٢ صرح محمد عثمان الأول لاسماعيل هذا بانشاء طريقة مستقلة عرفت بالاسماعيلية اقتصر نفوذها دائما على كردفان وعند وفاة اسماعيل خلفه ابنه محمد المكى الذى أصبح مع الأيام من أنصـار المهدى بينما انضم ابن أصغر اسمه أحمـد ولقب بالأزهرى — لدراسته بالأزهر — للحملة التى أرسلتها الحكومة المصرية لمقـاتلة المهـدى فى سنة ١٨٨١ وقتل فى آبا .

أما المهـدى نفسه فكان فى البداية عضوا فى الطريقة السمانية (١) ومؤسس هـذه الطريقة هو محمد بن عبد الكريم السمانى (١٧١٨ — ١٧٧٥) كان من أتباع الطريقة الخلوتية ومن تلاميذ مصطفى كمال الدين البكرى الذى دخلت الخلوتية فى عهـده خلال القـرن الـ ١٨ فى دور الانتعاش والانتشار . وقد استقر السمانى نفسه فى المدينة المنورة ودخلت السمانية الى السودان حوالى عام ١٨٠٠ على يد أحمـد الطيب البشير الذى أصبح من أتباعها خلال أدائه لفريضة الحج فى الحجاز . وحظى — الشيخ الطيب — كما يطلق عليه عادة بنجـاح كبير فى نشر طريقتـه بالجزيرة وأصبح حفيده محمد شريف نور الدايم أول المشايخ الصوفيين الذين تتلمذ محمد أحمد على أيديهم .

وبرغم أن هذه الطرق الجديدة التى نمت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد قامت باعتبارها حركات اصلاحية الا أن النمط التقليدى

---

(1) Trimingham : Islam pp 226–8.

هناك عرض لأصول السمانية يختلف عما أورده ترمنجهام فى كتـاب .

C. Depont & X Coppolani : Les Confreries religieuses musulmanes Algiers 1897 pp. 378 – 9.

للولاء سرعان ما استعاد تأثـيره وعادت النظـرة الى مؤسسى الطرق وسلالتهم على أنهم أولياء وقديسين . وفى السـودان أصبحت الختمية جزءا لا يتجزأ من الاسلام المحلى وبدت نفس الظاهرة فى جهات أخرى كمـا هـو الحال بالنسـبة الى السنوسية فى ليبيا والدرقاوية فى بلاد المغرب (١) . وكان من بين أهداف مؤسس المهدية احلالها مكان الطرق التى انحلت . ولكن المهـدية الجديدة فى الوقت الراهن تتشابه كثيرا مع الطرق الأخرى سواء فى أسلوب الممارسة أو التفكير ، كما أنها قـد قبلت بوجود هذه الطرق .

واتصفت سياسة الحكومة المصرية نحو الاسلام فى السودان بأنها ذات طابعين فمن ناحية نجد أن الفتح قـد أمعن فى ربط السـودانيين بالاسلام الأصلى ونظمه . فالشريعة الاسلامية لم تلعب فى السابق دورا كبيرا فى الحياة السودانية ، وذلك رغم اعتناق السكان للمذهب المالكى من الناحية الاسمية (٢) فالعادات القبلية والمحلية كانت فى معظم النواحى هى القانون الفعال . وقد أدخل المصريون نظاما منتظما للمحاكم الدينية التى كانت تطبق الشريعة وفقا للمذهب الحنفى ، وبنيت المساجد واختير لها علماء مدربون بينما أرسل المبعوثون من السودان الى القاهرة ليدرسوا بالأزهر حيث خصصت لهم اقامة خاصة فى رواق السنارية،ولعب بعض أولئك الأزهريين دورا فى الحركة المهدية . ولا شك أن ظهور طبقة من العلماء المدربين قـد أضعف بمرور الزمن مكانة طبقة الفقـراء (جمع فقى)

(1) Evans-Pritchard : Sanuse p. 69.
E. Doutes : Notes sur l, Islam maghribien, Paris 1900 p. 5 – 6.
Harris : Tafilet 1859, 299 – 300 S. C. F. Trimingham : Islam p. 240

(٢) كلمة مذهب فى الاسـلام تستخدم للتعبـير عن المذاهب السنية الاربعة وتدل تبعية السودانيين للمذهب المـالكى الى أن علاقتهم بشمال افريقيا حيث يسود هذا المذهب اكثر من علاقتهم بمصر السفلى التى تدين بالمذهب الشافعى . أما المذهب الحنفى الذى أدخـله الفتـح المصرى للسودان فكان هو المذهب الرسمى فى شتى ربوع الامبراطورية العثمانية .

القديمة . وذلك رغم أن ضعف جاذبية التعاليم السنية فى مقارنتها بالمحرك العاطفى لدى الطرق قد أوضحه فيما بعد نجاح المهدية ذاتها .

أما الطابع الثانى للسياسة المصرية فهـو الافادة من زعماء الدين ـ مثلهم مثل زعماء القبائل ـ كأدوات للحكم وقد كانت الأسرة الميرغنية موضع تفضيل خاص وارتبط الختمية بالحـكم المصرى فى السـودان بروابط وثيقة . ولكن هذا الاعتراف لم يلبث أن أصبح سلاحا ذا حدين عندما ارتبطت المكانة الشخصية للرؤساء الدينيين بمقادير الادارة المصرية. وقد قدر للثورة المهدية أن تزيح عن السودان الحكم المصرى وسلطان زعماء القبائل ونفوذ شيوخ الطرق . ولكن المهدية كما سنرى ـ ورثت عن هـذه النظم أو القوى الثلاث صفات تبدو بعض ملامحها الحيوية الكبيرة حتى الوقت الحاضر .

٧ ـ المهدية كفكرة :

اتخذت فكرة المهدى فى العالم الاسلامى مظهرين رئيسين (١) فالشيعة يعتبرون المهدى هو ذاته الامام المختفى الذى يؤمنون بتنزهه عن الخطأ وعودته المرتقبة . ولا يوجـد ما يدعونا للانشغال بهذا الاعتقاد حيث لا يوجد دليل على الارتباط المباشر بين المذهب الشيعى والاسـلام فى السودان ، كما أن محمد أحمد لم يحاول أن يدعى أنه الامام المختفى الذى عاد ليحكم المجتمع الاسلامى (٢) . أما جماهير أهـل السنة فهم يؤمنون بالمهدية وخاصة خلال الأزمات ولكنها لم تلتصق بأصول عقيدتهم كجزء أساسى منها ولعل من الأصوب أن تعتبر المهدية وليدة الجمع بين أفكار وآمال أكثر منها نظاما عقائديا منظما ومترابطا . واذا تعمدنا تحليل المهدية أو تجزيئها الى مكوناتها الأصلية أضررنا بطبيعتها ومضمونهـا لأنها تمثل أساسا مجموعة مترابطة من العوامل المترتبة بعضها على البعض

(١) انظر مقال عن المهـدى بقلم D. B. Macdonald : EI, 111-115

(٢) جاء فى كتاب ونجت عن المهدية ص ٥ أن محمد احمد كان مهديا شيعيا ولـكن لا يوجد ما يثبت هذا القول

الآخر وتختلف هذه المجموعة من حيث محتواها وقوتها وفقا لاختلاف الزمان والمكان •

واذا ما وضعنا ذلك موضع الاعتبار أمكننا تحديد ثلاث نقط رئيسية تبرز الطابع العام للمهدية السنية • فكلمة المهدى تعنى الفرد الملهم أى الرجل الذى يوجهه الهام الهى معين ويملك أسرارا عميقة • والمهدى هو الامام أى رأس المجتمع الاسلامى ودوره هنا هو اعادة الحكم الصالح أو بالتعبير القديم «أن يملأ الدنيا حقا وعدلا بعد أن ملئت جورا وظلما»• ويربط ظهور المهدى باقتراب نهاية العالم التى ترتبط فى المعتقدات الاسلامية الخفية بالمجىء الثانى للمسيح وقد حددت المهدية فى السودان هذا المجىء الثانى بظهور المهدى وكما سنرى شاهد العصر الذى أعقب وفاة محمد أحمد ظهور أكثر من شخص ، ممن ادعوا أن كلا منهم هو النبى عيسى •

وقد نجحت المهدية السنية فى شمال افريقيا حيث ساهمت العوامل التاريخية فى اضافة بعض الأفكار اليها ومما له مغزاه بوجه خاص الدور البارز الذى قام به المهدى محمد بن تومرت مؤسس حركة الموحدين الذى ادعى فى المغرب أنه المهدى وذلك فى عام ١٢١٢ وهو يشبه محمد أحمد فى السودان فى أنه بدأ باعتباره مصلحا فى مجتمع اسلامى متواكل ينادى باطراح البدع والعودة الى الفطرة فى الاسلام • وهناك أوجه أخرى للتشابه بين الحركتين ، فكلاهما أسس حركته فى الأطراف الاسلامية بافريقية عند نقطة الالتقاء بين العرب والحضارات المحلية ووجه كلاهما جهده ضد حكومة اسلامية ، وكلا القائدين اتخذ لنفسه لقب مهدى كوسيلة لتقوية مركزه فى وجه الحكومة الموجودة وفى كلا الحالتين قام وراء الحكومة الاسلامية المهددة مباشرة بهذه الحركات خطر المسيحية واحتمال تقدمها على حساب الاسلام •

وكانت حركة الاسترجاع المسيحى تحرز نجاحا تلو الآخر فى اسبانيا فى القرن الثالث عشر ، على حين أن الضغط الأوروبى كان ملموسا فى مصر وفى الامبراطورية العثمانية ككل خلال القرن التاسع عشر •

ومن ثم فلم يكن من الغريب أن يعتبر المهدى السنى بطلا اسـلاميا فى مواجهة الكفرة وفى خلال احتلال بونابرت لمصر ظهر مهدى آخر فى مصر السفلى لفترة قصيرة • وفى السودان دخل محمد أحمد فى نضال مع قوات يقودها أوربيون أو يتكون أفرادها من أوربيين ومسيحيين ومن ذلك بعثة هكس وغوردون وبعثة الانقاذ • ومع ذلك فيبدو أن المهـدى قد اعتبر الأتراك هم الكفرة الرئيسيين وأنه قد وجه جهـاده ضد هؤلاء المسلمين المرتدين (١) •

ولا يجب أن يدعونا اتخاذ محمد أحمد للقب المهدى الى التغاضى عن التشابه الأساسى بين رسالته والنشاط الاصـلاحى الذى سبق أن أشرنا اليه اذ ذاعت شهرته قبل عام ١٨٨١ لتقواه وزهده وهى الصـفات التى كان يمكن أن تؤدى به فى ظروف أخرى الى تأسيس طريقة جديدة متفرعة من السمانية • بل ان تطرف دعايته وأعماله كان له سـوابق فى القـرن الثامن عشر • فالحـركة الوهابيـة جمعت بين الحماس لتطهير العقيدة واصطناع القوة المسلحة لمقاومة الخصوم • ولعل شبها أقوى بالمهـدية وجد فى الحركة التى قامت بين الفولانى تحت رئاسة عثمان دان فوديو (١٧٥٤ — ١٨١٤) فى أطـراف العـالم الاسـلامى فيما يعرف باسـم السودان الجغرافى • اذ بدأ عثمان كمحمد أحمد فيما بعد كمصلح للعقيدة وباعث لها ، ومثله أيضا اضطر للهجرة هربا من أعدائه وتجميعا لأنصاره • وأعلن مثله الجهاد وأنشأ حكومة اسلامية فى افريقيا ما وراء الصحراء(٢) •

وهكذا نكون قد عرضنا للخلفية السودانية والاسلامية لمحمد أحمد والمهدية • والآن ننتقل الى مناقشة الأسباب الخاصة التى أدت الى ظهور هذه الحركة فى الربع الأخير من القـرن التاسع عشر باعتبارها ظاهرة خاصـة •

---

(١) لم يبعث المهـدى كما فعل الخليفة فيما بعد دعوة تبشيرية للملكة فيكتوريا ولكنه أرسل عدة كتب لغوردون باعتباره ممثـلا لسلطة الخديو ومدافعا عن الخرطوم أكثر منه مسيحيا . أما كل رسائله الأخـرى التى تتضمن تعليمات وانذارات فيبدو انها قد وجهت الى مسلمين .

(٢) E.W. Bovill : Caravans of the Old Sahara London 1933 pp. 225 – 230.

الفصل الأول

« مقدمات المهـــدية »

١ ـ عوامل ظهــور المهــدية :

يمكن لحــركة ثورية أن تنجح عادة اذا انتشر السخط بين أفــراد المجتمع عامة ولم يقتصر على طبقة واحدة أو منطقة محدودة وبحيث يكون صادرا عن مشاكل رئيسية وليس عن أخطاء سطحية أو فورة مؤقتــة • ويجب ثانيا أن يقترن هــذا باحساس واضح بما عليه الحكم القــائم من ضعف مادي أو معنوى لا يتيح له القدرة على اخماد الثــورة فور قيامها • ولا بد ثالثا من وجــود جيش ثورى يقــوم على أفــراد على آتم الاستعداد لاستخدام القوة لتحقيق أغراضهم وقادرين على ذلك • ورابعا يحتاج الأمر الى قيادة ثورية عليا تؤدى وظيفة مزدوجة هى نشر الدعاية التى تذكى السخط وتنشره فى حين تقترح نظاما اجتماعيا وسياسيا جديدا وتنظم النشاط الثورى الذى تحضره هذه الدعاية • وهدف هذا الفصل تحليل أحوال السودان المصرى فى الفترة السابقة مباشرة لقيام المهــدية وايضاح الصورة التى تحققت بها هذه المتطلبات •

وقد ذكر « شقير » أربعة عوامل رئيسية لقيام الحركة المهدية ترجع جميعا الى أخطاء فى الحكم • وأول هذه العوامل العنف الذى اتصف به الفتح المصرى الأول وعلى وجه الخصوص ما كان من أعمال التخــريب التى قام بها الدفتردار فى شندى مما ولد الرغبة فى الانتقام •

وثانيا الضرائب غير العادلة التى لم يعتد عليها السودانيون ــ وكانت هذه الضرائب مما كان يجبى بالقــوة وبصورة مبالغ فيها بحسب أهواء القائمين بتحصيلها على مختلف المستويات •

وثالثا : محاولة الحكومة القضاء على تجارة الرقيق مما أدى الى

توجيه ضربة الى مورد هام للثروة والى الأساس الذى يقوم عليه الاقتصاد المنزلى والزراعى فى البلاد •

ورابعا : ما اختصت به الحكومة قبيلة الشائقية وجماعة الختمية من امتيازات أثارت عليها حقد الجماعات الدينية والاجتماعية الأخرى (١) •

وهذه العوامل تشتمل على جميع أسباب السخط الذى أدى الى تزايد نقمة السودانيون على حكومة أجنبية • على أن هذه العوامل لم تكن لها نفس الفاعلية من حيث مسئوليتها عن قيام الحركة المهدية • فردود الفعل فى السودان للعاملين الأول والثانى كانا قد ظهرا بالفعل كما أشار اليهما فقد هرب الملك نمر وأسرته من شندى الى حدود الحبشة أمام انتقام الدفتردار وهناك انضم أليه والى سلالته كثير من الناقمين وأسسوا على الحدود مملكة ظلت تناوش المصريين لنحو ٥٠ عاما الى أن صدر عفو عام عمن بقى من عشيرة نمر على قيد الحياة • أما النظام المصرى لجباية الضرائب بما صحبه من عنف واغتصاب فكان اشكالا مستديما من النوع الذى يمكن بلا شك أن يوضع فى مقدمة العوامل المثيرة للثورة ولكن الافلات منه كان فى الغالب ممكنا عن طريق هجر ضحاياه لبيوتهم والهرب الى جهات بعيدة يصعب اللحاق بهم فيها • وأما الرابع من العوامل التى ذكرها شقير فيعتبر من أمثلة السفه الادارى (ولو أنها فى الواقع كانت تطبيقا ناجحا لمبدأ فرق تسد) ولكن يصعب علينا أن نوافق على ادراجه باعتباره من العوامل الرئيسية لنشوب ثورة •

وكانت محاولات الحكومة المصرية للقضاء على تجارة الرقيق يفوق العوامل المباشرة الأخرى فى اثارته للسخط لأن هذه المقاومة أثرت على جميع طبقات المجتمع وفى جميع أنحاء البلاد • ورغم قيام ولاة مصر الأول ببعض الجهود المتفرقة لمقاومة تجارة الرقيق وتجاره سابقا الا أن الجهود

---

(١) شقير : جغرافية وتاريخ السودان القديم والحديث ، طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ حـ ٣ ص ٦٣١ — ٦٣٦ ، ص ١٠٩ — ١١٢ •

المتواصلة والمركزة قد بذلت فى عهــد الخديوى اســماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) وبمبادرة منه فعند توليه الحكم كانت أبرز مناطق تجارة الرقيق تقــع فى حوض النيــل الأعلى وبحر الغــزال وفى هاتين المنطقتين كانت الشركات الكبرى التى تأسست فى الخرطوم تباشر نشاطها تحت اشراف العرب « وهى كلمــة عامة قصــد بها السودانيون (الدناقلة بالذات) والمصريون ومنهم القبط والسوريون والترك » وقد منحت الحكومة لهذه الشركات وضعا تجارية فى أماكن معينة . وكانت تصحب جمع سن الفيــل والتجارة المشروعة غارات لجمع الرقيق وأصبح التجار بعد قليل الحكام الفعليين للمناطق التى اشتغلوا فيها بالتجارة .

ويمكن تقسيم محاولات اسماعيل للقضاء على تجارة الرقيــق الى ثلاث مراحل تفصل بينها السنوات ١٨٦٩ ، ١٨٧٧ وقد بدأ فى عام ١٨٦٥ محاولاته للسيطرة على هــذه التجارة بانشاء نظام للتفتيش على النيــل الأعلى وصادر حاكم الســودان قوارب تجار الرقيــق كما أنشأ مجموعة من النقط العسكرية على النيل الأعلى تتبع عاصــمة ادارية فى فاشودة وفرض ضريبة رأس على كل العاملين مع التجار ، مما أثار كثيرا من الضيق بين تجار الرقيق الذين فرض عليهم عبء هذه الضرائب . ومع أن هــذه الاجراءات حدت الى حد ما نشاط التجار وصائدى الرقيق الا أنها لم تقض عليــه نهائيــا وسرعان ما تدرب التجــار على تحــاشى الدوريات الحكومية .

وفى نفس الوقت بذلت محاولة جديدة لتجريد التجار من زرائبهم وذلك عن طريق فرض ضريبة جديدة . وقد أصاب هــذا الاجراء بعض النجاح ، ولكن لمــا كانت الحكومة لجأت الى تحويل ملكية الزريبــة التى لا تدفع الضريبة المفروضة عليها الى تجار آخرين فان مدى جــدية هذا الاجراء موضع للشك وذلك رغم أن شروط عمليات التــأجير كانت تحرم تجارة الرقيق .

وما حل عام ١٨٦٩ حتى كانت سياسة اسماعيل أصابت نجاحا حقيقيا فى منطقة النيــل الأعلى القريبة من فاشودة ولكن الى الجنوب من هذه

المنطقة وفى بحر الغزال استمرت الغلبة لتجار الرقيق دون منازع تقريبا • وكان مفتاح الجنوب يقع فى محطة عند كرو الواقعـة جنوب السد حيث كان محمد أبو السعود المصرى يقيم ممثـلا لوكالة العقـاد ــ التى كان حماه قد أسسها هنـاك • أما بحر الغـزال بما فيه من سلسلة المحطات التجارية فكان تحت سيطرة الزبير رحمه منصور التاجر الجعلى • وأدت القيود التى وضعت على تجارة الرقيق فى مناطق شمال السودان الواقعة تحت الادارة المصرية الى اتخاذ التجار لطريق جديد من النيل الأعلى الى بحر الغزال ودارفور مارا ببلاد بقارة الرزيقات •

وفى هـذه المرحلة قرر اسماعيل أن يسيطر نهائيا على منطقتى بحر الغزال وبحر الجبل أو النيل الأعلى فيما بعد التقائه ببحر الغزال لأن هذا كان يضيف اليه أملاكا جديدة فى السودان ويسهل عليه عملية القضاء على تجارة الرقيق • ولكن حملة أرسلت الى بحر الغزال بقيادة محمـد الهلالى (١) أصيبت بهزيمة غير متوقعة • وعهد اسماعيل بقيادة حمـلة بحر الجبل الى سير صـموئيل بيكر • ولكن هـذا الاختيار قوبل من الضباط المصريين بكثير من التبرم وعدم الرضا لأنه يشكك فى كفـاءتهم واخلاصهم ويؤكد شـكوكهم فى أن لبريطانيا أطمـاعا فى السودان • وبالاضافة الى ذلك فقد أدرج القضاء على تجارة الرقيق فى التعليمات التى أعطيت لبيكر باعتباره من أهداف الحملة • وبصرف النظر عن الصعوبات العمليـة فى تحقيق هـذا الهـدف فان الرق كان نظاما مسـموحا به فى الاسلام ولهذا أثار تعيين مسيحى للقضاء على هذه التجارة سخطا دينيا عاما بين السكان بوجه عام •

ولم تكن طباع بيكر مما تمكنه من توجيه الحملة بصورة مرضية • فقد كان على قدر عظيم من الجرأة والشجاعة • ولكن كان يفتقر تمـاما الى الحنكة والمرونة ، وقد ظن أن باستطاعته محو تجارة الرقيق بسلسلة من الاجراءات الصارمة ــ وهى سياسة كان من المحتمل أن تصيب بعض

---

(١) ورد هذا الاسم فى كتاب شكرى : الخـديو اسماعيل ص ١٥٢ محمد البـلالى .

النجاح لو أن فترة قيادته قد مددت الى أجل غير مسمى أو لو أتيح لقواته تفوق لا شــك فيه • ولكن الذى حــدث هو أنه لم ينجح الا فى كسب عداء سلطات الخرطوم ودفع التجار الى التآمر ضــده كما أفسد ثقــة قبائل الجنوب به • ووضعت الحملة فى وضــع مؤسف حين كانت تدير شئونها يوما بعد يوم دون تخطيط بعيد المدى وحين انزلقت الى الدخول فى حروب قبلية وأخذت فى الاستيلاء على الغلال • وكانت أهم نتائج ذلك هى اقامة قليــل من النقاط العسكرية وقيام تحالف (غير مقدس) بين تجار الرقيق وقبائل الجنوب فى مواجهة التدخل المتعثر من جانب الادارة فى السياسات والمصالح المحلية •

غوردون فى السودان : ١٨٧٤ — ١٨٧٩ :

على أن الخديوى تابع هدفه الخاص باخضاع بحر الجبــل لادارة منتظمة والقضاء على تجارة الرقيق • ولمــا كان لا يزال يعتقد بأن تحقيق هذا الهدف على أحسن وجه لا يتأتى الا على يد رجل أوربى فانه عرض حكم المديرية الاستوائية فى سنة ١٨٧٣ على تشارلز جورج غوردون • وكانت هيئة أركان غوردون تضم أمريكيان وايطاليا وفرنسيا وثلاثة من البريطانيين أصبحوا فيما بعد خمسة • أما الايطالى فكان رومولو جيسى (Romolo - Gessi) الذى تولى فيما بعد ادارة بحر الغزال كما أخــذ غوردون معه الى الجنوب أوربيا آخر هو شنيتزر (Schnitzer) الذى عرف باســم أمين باشا وأصبح مديرا للاستوائية من ١٨٧٨ — ١٨٨٩ • وهكذا صحبت امتداد الحكم المصرى والاجراءات التى اتخذت ضد تجارة الرقيق زيادة عددية فى الموظفين الأوربيين وهــذا قلل من مكانة الموظفين المصريين بل والحكومة الخديوية فى نظر السودانيين وأثار فى نفس الوقت غيرة المصريين وكرههم لحكم ثقيل يسنده الرأى العام الأوربى (وبخاصة الانجليزى) •

وفى الواقع لقد عمل غوردون بمفــرده فى الســودان لا يسنده الا سلطة الخديوى البعيدة وهيبة القوة البريطانية — ولم تكن هذه الأخيرة الا عونا ثقيلا حين تدعو الظروف • وكان عليه أن يواجه النفوذ المتشعب

لتجار الرقيق ومخاوف قبـائل الجنوب وبيروقراطيـة موظفين كسـالى لا يعتزمون التعاون معه • ولم يكن يستطيع مهادنة أعدائه أو مهاجمتهم الا بصعوبة ـ فقد أثبتت تجربة بيكر عبث الشدة اذا ما جرى اللجوء اليها بقوات غير كافية تفتقر الى التدريب الكافى والذخيرة • أما مهادنة تجار الرقيق فكان لا يمكن الا أن تبـدو على أنهـا ضعف أو اهمال فى أداء الواجب •

والخطوة الأولى التى قام بها غوردون هو اصدار منشور رسـمى يعلن احتكار الحكومة لتجارة سن الفيل ويحرم ادخال السلاح أو تكوين فرق خاصة وهكذا أصبحت المديرية الاستوائية اقليما مغلقا أصاب الشلل تجارته واضطر كثير من التجار ـ بما فيهم تجار الرقيق ـ الى ترك عملهم وتضاعف السخط ضد سياسة الخديوى بمرور الزمن • وأتبع غوردون ذلك باعادة وانشاء سلسلة من المحطات العسكرية على جانبى بحر الجبل وانشاء قاعدة جديدة لاقليمه فى لادو •

وفى تلك الأثناء ساهمت سلسلة من الأحداث المستقلة فى التمهيـد للقضاء على تجار الرقيق فى بحر الغزال • فقد ارتفعت مكانة الزبير عقب قضائه على الهلالى وأصبح اقليمه ملجأ لجميع التجار الذين طردوا من بحر الجبل • وبعد أن نقض الرزيقات اتفاقهم مع الزبير حاربهم وانتصر عليهم فى سنة ١٨٧٣ • ولكن سيدهم ابراهيم سلطان دارفور وفـر لهم الحمـاية واتخذ موقفا لا ينم عن المصالحة وذلك لخشيته من قوة الزبير المتزايدة • ومن ثم قرر الزبير غزو دارفور ولكنه فضل أولا تأمين ظهره من جهة الحاكم العام اسماعيل باشا أيوب ومن جهة الخديوى وتم تعيينه رسـميا حاكما لبحر الغزال وشكا المركز الادارى لمنطقـة الرزيقات • وعقب ذلك دخل دارفور من الجنـوب بجيش يتكون معظمه من أتباعه الشماليين ومن الرقيق التابع له بينما تقـدم اسماعيل أيوب من الشرق على رأس قوات الحكومة • وفى ٢٤ أكتـوبر سنة ١٨٧٤ هـزم الزبير

السلطان ابراهيم وقضى عليه فى معركة منواشى كما احتلت القوات المهاجمة عاصمته . وسرعان ما بدأ النزاع بين القائدين على السلطة وفى يونيو سنة ١٨٧٥ توجه الزبير الى القاهرة ليشرح قضيته ويؤكد ولاءه ؛ ولكنه احتجز بها . أما دارفور فتم تقسيمها الى أربع مناطق يحكمها جميعا حاكم عام . وفرضت الادارة المصرية ضريبة فادحة على كل رأس واتخذت الخطوات اللازمة للقضاء على السرقة فى الاقليم . وأدت هاتان الخطوتان الى اثارة سخط السكان الذين ثاروا فى سنة ١٨٧٧ بزعامة مدع للسلطنة . وخلال ذلك بقى بحر الغزال تحت سيطرة سليمان بن الزبير الذى كان معقد أمل مصالح تجار الرقيق .

وقد كان عام ١٨٧٧ شديد الصعوبة بالنسبة للادارة المصرية فالى جانب مشاكل دارفور وبحر الغزال دخلت مصر فى حرب غير حاسمة ومكلفة مع الحبشة . وكان الخديوى على شفا الافلاس فانتقل يائسا من وسيلة الى أخرى بحثا عن منفذ لتأجيل الكارثة أو النهاية . واتخذت اجراءات غير مناسبة فى السودان بقصد توفير مبلغ مائة وخمسين ألف جنيه لخزينة الخديوى فكان على المديرية الاستوائية أن تقدم عاجا ثمنه ٣٠ ألف جنيها وكان على مديرية بحر الغزال أن تقدم ماقيمته ١٥ الى ٢٠ ألف جنيها ولكن كلا المصدرين للدخل أثبتا أنهما وهميان اذ ابتلعهما غوردون فى بحر الجبل والزبير فى حملة دارفور . وهكذا فقد جرى الحكم المصرى وحرب الحبشة فى وقت غير مناسب مما أرهق الموارد المالية والادارية للحكومة . ويضاف الى ذلك مشروع آخر ثقيل التكاليف برغم جدواه هو انشاء الخط الحديدى من وادى حلفا الى الشمال وتقرر فى ديسمبر ١٨٧٤ أن تتحمل مديريتا بربر ودنقلة تغطية نفقات سكة حديد السودان وفى ذات الوقت كان على كردفان والخرطوم أن تقوما بتغطية أعباء نقل حملة اسماعيل أيوب الى دارفور . وكان السكان على بعض الحق حين شكوا من أن الضرائب التى تؤخذ منهم لا يقابلها عائد ذو فائدة بينما السودان ككل كان مفلسا بدلا من أن يفى بمطالب مصر . وفى سنة ١٨٧٥ أمر الخديوى باتخاذ خطوات لجمع المتأخرات المستحقة للحكومة

وأجل صرف مرتبات الموظفين حتى تتم جباية هذه المستحقات • ورغم أن هذا القرار لم ينفذ كله ــ وما كان فى الامكان تنفيذه كله ــ الا أنه أثار غضب الطبقة التى كانت الادارة تتوقف عليها •

وفى هذه الظروف التى خيم عليها الافلاس المتوقع وتزايد السخط من موظفى الحكومة وأفراد الشعب ارتبط الخديوى اسماعيل مع بريطانيا العظمى بمعاهدة الغاء تجارة الرقيق سنة ١٨٧٧ • وقد أنهت هذه المعاهدة الاتجار فى الأحباش والزنوج داخل الحدود المصرية ونصت على انهاء عمليات بيع وشراء الرقيق داخل السودان فى موعد آخره عام ١٨٨٩ وكانت مهلة الاثنى عشر عاما تعنى أن السياسة التى نصت عليها المعاهدة لا يمكن تنفيذها الا على يد ادارة قوية فى السودان تستند الى أشخاص يتميزون بالنزاهة والى موارد مادية ضخمة • ولكن العامل الأخير لم يكن فى متناول الخديوى الذى نضب معين موارده التى أرهقت بما هو فوق طاقتها • واذا كان لابد من اللجوء الى القمع فلم يكن فى حيز الامكان سوى ابداء مظهر القوة ؛ أما العاملان الآخران فكانا أكثر يسرا ــ فقد سبق لغوردون أن أثبت كفاءته وقدرته خلال حكمه للسودان وفى فبراير ١٨٧٧ عرض عليه الخديوى تولى منصب حاكم عام السودان فقبل غوردون تحمل تلك المسئولية ووفق فى عامه الأول بعد أن بذل جهدا كبيرا فى فرض سلام غير وطيد على الحدود مع الحبشة وفى تهدئة دارفور مع اقامة علاقات ودية معقولة مع سليمان ود الزبير الذى عين مديرا لبحر الغزال • كما أنه نجح فى اقناع الخديوى بالعدول عن مشروع خط السودان الحديدى •

وفى يوليو سنة ١٨٧٨ بدأ يلوح تغيير فى أساليب غوردون فقد أخذ على عاتقه المسئولية الكاملة عن فرض سياسة القمع وأصبح أقسى وأقل حذرا فى أساليبه • ولما كان يشعر بعجزه عن الاعتماد على الموظفين المصريين مع ما عرف عنه من اندفاع صارم فانه فصل عددا كبيرا منهم وأحل مكانهم أوربيين وسودانيين وأصابت اجراءات الفصل هذه استقرار الادارة فى فترة حرجة وفاق الضرر الذى أصاب الادارة الخديوية

وحكومتها نتيجة ما أشيع عن خضوعها لعناصر مسيحية كل المكاسب الناجمة عن اخلاص الموظفين الأوربيين .

وفى نفس شهر يوليو سنة ١٨٧٨ قامت ثورة جديدة فى بحر الغزال سببها المباشر المنافسة فى ذلك الاقليم بين سليمان ود الزبير وادريس أبتر وهو دنقلاوى عينه الزبير نائبا عنه فى ذلك الاقليم عندما توجه لشن الحرب فى دارفور . وقد استطاع ادريس كسب ثقة غوردون الذى عينه حاكما لبحر الغزال وعاد على رأس حملة لاستلام الاقليم من سليمان ولكنه هزم واندلعت الثورة بتأييد تجار الرقيق الشماليين الذين تعرض مركزهم للخطر بسبب غوردون وتصرفاته . وقد تقدمت قوة من لادو الى بحر الغزال بقيادة جسى واستطاعت بحلول شهر مارس سنة ١٨٧٩ احراز عدة انتصارات على سليمان وفى تلك الأثناء نشبت ثورتان أخريان فى كردفان ودارفور على التوالى وقاد غوردون حملة الى كردفان وقضى على الثورة المشتعلة فيها ثم تقدم للالتقاء بجسى حتى يعد معه الترتيب اللازم لمواجهة الثورات الأخرى . وبناء على ما تم فى هذه المقابلة تعقب جسى سليمان فى دارفور حيث استسلم الثوار فى يوليو سنة ١٨٧٩ . وقتل سليمان وتسعة من قواده رميا بالرصاص فى اليوم التالى وهو الاجراء الذى اتهم من أجله جسى بالغدر . وتولى جسى ادارة اقليم بحر الغزال لمدة بضعة أشهر كما تمكن مسيداليا (Messedaglia) الحاكم الايطالى العام لدارفور من القضاء على الثورة التى انتهى أمرها بموت مدعيها فى يوليو سنة ١٨٨٠ .

وقد أنقذ القضاء على هذه الثورات الموقف الى حين ولكن السلام الدائم لم يتم تحقيقه . وأدى حدث آخر ترتب على حملة دارفور الى زيادة السخط العام فقد مارس الجلابة فى كردفان ودارفور — ومعظمهم من الجعليين والدناقلة والشايقية — تجارة واسعة النطاق تبادلوا فيها مع سليمان السلاح والذخيرة — مقابل الرقيق . وتعذر على الموظفين فى الأبيض ايقاف هذه التجارة لانتشارها فى مناطق واسعة صعبة المواصلات بوجه خاص ولهذا أصدر غوردون أوامره الى الجلابة باخلاء جميع الأقاليم

الواقعة جنوب الطريق الممتد بين الأبيض ودارا فى جنـوبى دارفور •
وحين لم ينفذ هذا الأمر لجأ غوردون الى وسيلة قاسـية هى التنبيه على
شيوخ القبائل فى المنطقة باصطياد الجلابة وتسليمهم للمحطات الحكومية
فى دارا والطويشـة وأم شنقة والأبيض وحملهم مسئوليـة العثور على
أى منهم (أى من الجلابة) فى أقاليمهم بعد تاريخ معين • ورحب بهـذا
القرار ـ البدو الرحل ـ الذين لم يكنوا للقبائل النيلية أى ود وأطلقوا
عليهم اسم « أولاد البلد أو البحارة » وذلك برغم ما كان يربطهم بأولئك
التجـار من مصالح اقتصادية • وجرى اصطياد التجـار ونهبت جميع
ممتلكاتهم وأثارت أنبـاء معاملتهم هـذه الضـيق والاشمئزاز فى الغرب
ولدى أقاربهم فى وادى النيل ولعل مطاردة الجلابة بهذا الشكل قـد
ألحقت أكبر الأضرار بالجعليين •

وكانت سيطرة الادارة على المساحات الشاسعة فى غربى السودان
وجنوبيه ضعيفة الى أقصى حد ـ اذ اعتمدت على جهد قلة من الموظفين
الأوربيين أكثر من اعتمادها على تفوق ما تحت أيديهم من قوات • واتضح
هذا خلال السنوات الثلاث التالية ففى يونيو سنة ١٨٧٩ تم عزل الخديوى
اسماعيل وبارح غوردون الخرطوم فى الشهر التالى ثم استقال من خدمة
مصر فى سنة ١٨٨٠ • وكان كل من الخديوى الجديد وحاكم السودان
أضعف من سابقيهما ـ فابن اسماعيل محمد توفيق كان رجلا هشا نجح
فى الاحتفاظ بعرشـه باعتباره ألعـوبة فى يد كل من المراقبة الثنائيـة
والعرابيين ثم الاحتلال البريطانى •

وفى السودان عمل محمد رؤوف تحت رئاسة بيكر وغوردون ثم
تولى ادارة الاستوائية وهرر • وعندما اصطدم بغوردون (وهـو أمر
لم يكن متعذرا) عزله من منصبيه الواحد تلو الآخر • وكان الوضـع
فى السودان أكبر من قدرته على السيطرة عليه وقد اتبع سياسة سلبية
مما أتاح الفرصة لانتعاش تجارة الرقيق وأن يكن ذلك قد تم بصـورة
أضعف من ذى قبل ـ وذلك نتيجة لموت كبار التجار فى العهد السابق
وعجز من بقى منهم • بالاضافة الى ذلك فانه عزل جسى وميسيداليا وهما

ساعدا غوردون الأيسن فى محاولة لتهـدئة المناطق الغربية وبذلك أمعن فى اضعاف ادارة بحر الغزال ودارفور التى كانت فى وضع صعب • وكان خطؤه الأخير هو استهانته بجدية الثورة المهدية فى بداية نشوبها •

٣ ـ الموقف فى عامى ١٨٨٠ و ١٨٨١ :

لم تعد الادارة فى موقف يسمح لهـا بالاحتفاظ عنوة بما لاتستطيع الاحتفاظ به عن طريق الحكم الصالح • وفى عام ١٨٨١ كانت تسيطر على ممتلكات مصر (التى تشمل بالاضافة الى السودان نفسه مقاطعتى أرتريا والصـومال) قوة قوامها ٤٠ ألفا منهم ٧٤٧٠ بالخرطوم ، ٥٨٣٠ بكردفان ٤٨٦٣ بدارفور ، ٢٣٥٠ بسنار ـ وكان هناك بالاستوائية وبحر الغزال ما يزيد قليلا عن ٣٠٠٠ وفى دنقلة وبربر نحو ٤٠٠٠ ـ وفى محطات حراسة الحدود الحبشية نحو ٥٥٠٠[1] وعند قيام الثورة لم تكن حاميات المدن محصنة فقد اشتملت الفرق على عدد كبير من الجند غير النظاميين الذين لم يتدربوا على القتال بما فيه الكفاية • ولعل قلة الجند كان من الممكن أن يكون أقل خطرا فيما لو كان من الممكن حشدهم بسرعة فى المناطق المعرضة للخطر أو لو أمكن تعزيزهم من مصر •• ولكن كان من الصعب تحقيق كل من هذين الشرطين فالانتقال برا كان بطيئا وقاسيا سـواء عبر الصحراء أو عبر منطقة الأدغال فى الجنوب • فعدو خفيف السلاح يستعين بأساليب الهروب التى تتضمنها حرب العصابات مما كان يتقنه من اعتادوا على الترحال الذين كان بامكانهم باستمرار ارهاق فرق الحكومة البطيئة الحركة واضعاف قوتها الضاربة بردم الآبار • وكانت السيطرة على المناطق الواقعة على النيل أكثر سهولة بفضـل أسـطول الحكومة من المراكب البخارية ولكن حركتها أيضا كانت بطيئة وكانت فعاليتها على طول المدى تضعف منها السدود فى الجنوب والجنادل على المجرى الرئيسى للنيـل فى الاتصال بمصر والأقاليم النائيـة على نظام شبكة البرق التى كانت

---

(١) نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان جـ ٣ ص ١١٣ وطبعـة بيروت ص ٦٣٥ وقد أورد ونجت هـذه الأرقام أيضا فى كتابه . ص ٥٥. وأشـار ونجت الى استحالة التوصل الى تقـدير للأعداد يتصف بالدقة الكاملة .

فعالة فى الأوقات التى يخيم فيها الهدوء ولكنها كانت مكشوفة الى حد كبير ، فتتعرض للخطر ويصعب الابقاء عليها اذا ما نشبت ثورة [١] ومن ثم فليس من الغريب أن انتقلت المبادأة فى القتال بسرعة الى أتباع المهدية وأن العمليات الحربية كانت وقتية وغير مجدية الى حد كبير خارج مناطق مراكزهم المحصنة وارسال تعزيزات من مصر تعترضه صعوبات طبيعية فمنذ فتح السودان لم ترسل أعداد من الجند من مصر عن طريق وادى النيل — فقد كان من الأيسر نقلهم عن طريق البحر من السويس الى سواكن ثم يلى ذلك السير مسيرة عبر الصحراء الى بربر ومنها برا أو عن طريق النيل الى الخرطوم • وكان ذلك فى أحسن الظروف يتم ببطء •

كما أن اندلاع المهدية قد تم فى فترة أصاب الشلل العمل السياسى فى مصر وذلك بسبب الحركة العرابية والنتائج المترتبة عليها ، مما أفضى الى الاحتلال البريطانى فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ • وخلال الفترة الممتدة بين عزل اسماعيل ونهاية سنة ١٨٨٢ انغمس جميع المسئولين عن حكومة مصر فى مشاكل الدبلوماسية الدولية والادارة الداخلية • ولم يكن لديهم من الرغبة أو الوقت ما يسمح لهم بالالتفات للأحداث الجارية فى الممتلكات السودانية وعندما تنبهت حكومة مصر فى النهاية الى خطورة أحداث السودان كان المهدى قد كسب فعلا الجولة الأولى ووصل الى مركز قوى يجعل من الصعب على أى دولة مستقلة تماما لديها الموارد الكافية أن تهاجمه •

---

(١) نشرت جريدة التيمس Times البريطانية (عدد ٦ فبراير ١٨٨٥ ص ٦) خريطة الشبكة البرقية بالسودان المصرى . فقد امتد الخط المتصل بمصر العليا على الشاطىء الأيسر للنيل مارا بدنقلة الجديدة ، الدبة ، وكورتى حتى نورى . ثم كان يخترق صحراء بيوضة ويعبر النيل الى بربر على الشاطىء الأيمن ومن كاتور جنوب بربر كان يتجه فرع الى كسلا على حين كان الخط الرئيسى يمتد الى شندى والحلفاية ثم الخرطوم التى كانت تتصل بأم درمان واتجهت فروع أخرى الى القضارف وسنار فى الشرق والى الأبيض ودافور فى الغرب ويتضح من القوائم التى ترجع الى فترة المهدية أن معظم العاملين فى هذه الخطوط كانوا من المولدين .

وقد أدت طبيعة الثورة فى السودان الى مواجهـة كل من الادارة المحلية فى السودان وحكومة القاهرة فبخلاف الزبير وسليمان وغيرهما من الطامعين فى حكم دارفور كان المهدى فى الأصل زعيما دينيا ظهـر لكى يطهر العالم الاسلامى من أخطائه ويقضى على سطوة الكفرة ــ فلم تكن الثورة مجرد تمرد مدنى بل كانت جهادا ومن ثم مطالبتها كل المسلمين بتعضيدها •

ولعل اعلان المهـدى أو نداؤه للمسلمين جميعا من أجل العـون المؤرخ ١٢٩٩ هـ (من نوفمبر ١٨٨١ ــ نوفمبر ١٨٨٢) يكشف عن مدى ارتباط الباعث الدينى بشكاوى السكان المحليين فيما يتعلق بالنواحى السياسية والاجتمـاعية ومن أهم ما جاء فيه اتهـام الادارة بالاستبداد والكفر (١) والحكم بغير القرآن وتحريف شريعـة محمد رسـول الله وتعديها على الله والايمان به بوضع الجزية على رقاب السودانيين وبقية المسلمين وارسـال الرجال مكبلين بالأغلال الى السجون وأسر النسوة والأطفال وتعذيب أرواح المؤمنين ظلمـا وعدم معاملة الفقير بالرحمـة ولا الكبير بالاحترام (٢) •

وكان على جند الحكومة المصرية أن يحاربوا المهدى بقلوب لا تؤمن بعدالة هذا القتال ونفوس قلقة خاصـة وأن انتصارات المهدى كانت دليلا فى نظرهم على أن ما ينادى به هـو فعـلا ما يرضى الله • وهكذا

---

(١) قال فى بعض كتبه « وقد أمرنى سـيد الوجود (ص) بمكاتبـة المسلمين ودعوتهم الى الهجرة معنا الى محل يكون فيه قوام الدين واصـلاح أمر الدارين ، نعوم شقير طبعة بيروت ١٩٦٧ ص ٦٤٥ » ومن كتاب المهدى الى يوسف باشا الشـلالى ردا على انذاره الذى ارسـله فى ١٨٨٢/٥/٢٩ قال « وقولكم ان الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ويتبعون ما جاء به الرسـول (ص) ونسـأل عن دمائهم بين يدى الله تعالى باطل لأن القطب الدرديرى قد نص فى باب المحـاربة على ان امراء مصر وجميـع عساكرهم واتباعهم محاربون لأخذ أحوال المسلمين منهم كرها فيجوز قتلهم ... على أن النبى (ص) أمرنا صريحا بقتال الترك واخبرنا بأنهم كفارا ... » نعـوم شـقير : السابق الذكر ص ٦٦١ ــ ٦٦٢ •

(٢) M. S Nujumi, p. 7.

لم يكن موقف الحكومة من الناحية المادية والمعنوية يمكنها من التصدى للثورة • ولم تقدر السلطات الانجليزية فى القاهرة أو لندن فى البداية تأثير الحافز الروحى الكامن فى هذه الحركة ونظرت اليها باعتبارها مظهرا من مظاهر التعصب الدينى – وهو أمر لا يمت بصلة الى الظروف السياسية والعسكرية السائدة فى القرن التاسع عشر • وأدى عجز غوردون عن فهم مغزاها فى بداية بعثته الأخيرة الى خلع صفة الخطأ التراجيدى على بعض الأعمال التى قام بها •

ويمكن استخلاص العوامل التى ساهمت فى تجميع القوة التى تكون منها جيش الثورة المهدية فيما سبق أن عرضنا له من تذمر السودانيين – اذ انضمت الى جيش المهدية أولا جميع العناصر المرتبطة بتجارة الرقيق التى طوردت من قبل الحكومة منذ عام ١٨٦٥ دون أن يتم التخلص من خطرها اما بالقضاء عليها نهائيا ومن ثم لا تعود توفر مشكلة أو تهدئتها بحيث تستطيع استعادة رخاءها وسلطتها ومكانتها القديمة بأساليب أكثر شرعية • وكان الجلابة الشماليون الذين انتشروا فى جميع أنحاء السودان وكانت لهم أهمية خاصة فى المناطق التى لم يتم اخضاعها فى الأقاليم الجنوبية أو الغربية هم الحلفاء الطبيعيون لأى حركة تهدد الحكومة الأجنبية التى تسيطر على بلادهم ومع أن هؤلاء الرجال قد يكونون قليلى العدد الا أنهم كانوا القادة المحتملين للثورة فى مناطقهم وقد اتخذوا من جنودهم الأرقاء (الذين عرفوا باسم البازينخر) نواة قوة مدربة على الاغارات وحرب العصابات • وقد ارتبطت مصالح البازنجر مع مصالح سادتهم ولا شك فى وحشية الغارات التى كانت تؤدى الى اصطياد الرقيق وصعوبة رحلات من كان يتم اصطيادهم الا أن من وجدوا أنفسهم وقد انخرطوا فى جيوش تجار الرقيق أمكنهم الحصول على مكانة معقولة ، بل وعلى مركز ممتاز فقد كانوا فى نظر تاجر الرقيق ملكا ثمينا وشاركوا فى اجراءات غزواته وسرعان ما تزايد لديهم الحماس بالولاء للتاجر الذى يعمل معه فى الوقت الذى تتزايد فيه عاطفة ذلك التاجر الأبوية نحوه • ولما كان تحرير العبد يستتبع انهاء رابطة المصلحة هذه وفى حالات كثيرة

تجنيد المحررين فى سلك الجيش المصرى المفلس ، فان العبيد كانوا يتبعون سادتهم فى عدم توفر كثير من الأسباب لديهم للترحيب بالتغيير •

ورحب الفور هم الآخرون بالفوضى التى نشبت • فقد استتبع دارفور سلسلة من الاضطرابات والقلاقل التى ساعدت الطاعن الى الحكم المصرى العداء وكان آخر أولئك الطاعنين عبد الله دودينجا لا يزال يقاوم عندما دخلت المهدية دارفور ومع أن الفور لم تجتذبهم المهدية كثيرا الا أنه كان مما يناسبهم الافادة من فترة عدم الاستقرار فى الادارة•

كما أثر سقوط سلطنة دارفور على موقف قبائل البقارة فى الجنوب فى الواقع يتمتعون بالاستقلال الذاتى حتى ذلك الوقت العاشر • وينبعون اسميا لسلطان دارفور فى الفاشر أما الآن فأصبحوا يواجهون الادارة المصرية الأكثر تنظيما التى كانت تطالبهم بالضرائب وتتدخل فى شئون تجار الرقيق والبقارة كانوا حلفاء محتملين صالحين لأى متمرد وذلك لقدرتهم على احتمال المشقات ولخبرتهم بالغزوات والحرب الصحراوية بالاضافة الى ما يكنونه من حقد ومرارة نحو موظفى الادارة الجديدة • وغير هؤلاء كانت هناك قبائل أخرى تستطيع أن تقدم نفس القدر من المساعدة لكنها تباطأت فى الانضمام للثورة بسبب طول ما ألفت من سلطة الحكم المصرى — ومن هؤلاء بقارة كردفان والكبابيش وقبائل الشمال التى ترعى الابل ، والهدندوة وغيرهم من قبائل البجة التى فى منطقة التلال المحاذية للبحر الأحمر •

ولم يكن هناك من شك ، فى حالة قيام ثورة تعززها عناصر المجتمع السودانى التى لم يتم اخضاعها ، من أن ينضم لها عاجلا أو آجلا كل السكان الأكثر هدوءا والمستقرين بوادى النيل وذلك بدافع الحنين لذكريات حريتهم المفقودة وضيقهم بأن يكسوا أو بدافع ميلهم للعودة الى حياة الفوضى والنهب والسلب • ولكن لم تكن لدى هؤلاء صلاحية قيادة الحركة وهى الصلاحية التى توجد لدى رجال اعتادوا المغامرة والمجازفة ، ولم يفقدوا سلطتهم واستقلالهم الا منذ عهد قريب كما أنهم كانوا أكثر مناعة ازاء قوات الحكومة •

وهكذا كان جيش الثورة المحتمل يحتوى على مكوناته الايجابية والسلبية • ومع ذلك فان مكوناته الايجابية لم تتجمع حتى بداية سنة ١٨٨١ • فالذكريات القبلية كانت قديمــة وعريقــة وفكرة القيام بعملية موحدة ضد الحكم المصرى بدت بعيدة الاحتمــال • فالجعلى لا يحب الدنقلاوى وكلاهما لا يستسيغان الشائقى • كما أن الصدام العنيف بين سليمان ود الزبير وبين ادريس أبتر قد زاد من حدته كون سليمان من الجعليين وادريس دنقلاويا • كانت العــلاقة بين الشماليين بصفة عامة وبين البقارة شديدة التوتر منذ أباح غوردون مطاردة الجلابة بينما نظرت القبائل المستقرة الى الرحل نظرتها الى الجهــلاء والهمج • وكان البجاه يتميزون عن القبائل الشمالية الأخرى بجهلهم للغة العربية مما أدى الى احتقارهم وكانت محاولة كسبهم لصــالح أى ثورة يمثل مشكلة قائمــة بذاتها • وقد استغلت السياسة المصرية هذه الخلافات والمنافسات عميقة الجذور لتقوية ادارتها الضعيفة نسبيا وذلك بضرب تجار الرقيق بعضهم ببعض وكذلك الحال بالنسبة الى القبــائل بل أنها حاولت ضرب زعيم بآخر من أهل القبيلة الواحدة ولكن كيف أمكن أخيرا لهذه العوامل التى تتصف بالاختلاف والتضارب أن تتآلف لتواجه الادارة المصرية وتقضى عليهــا ؟

كان هذا هو ما قام به المهدى والرجال الذين اشتركوا معه فى قيادة الثورة ممن يجب أن تتحول الآن لدراسة شخصياتهم ودعايتهم •

الفصل الثانى

ظهور المهدى

١ ـ نشاة محمد احمد :

لم يكن محمد أحمد قد بلغ الأربعين من عمره عندما نادى فى سنة ١٨٨١ بأنه المهدى المنتظر . وقد ولد فى ٢٧ رجب ١٢٦٠ هـ الموافق ١٢ أغسطس ١٨٤٤ فى جزيرة لبب باقليم دنقلة (١) وتدعى أسرته أنها من الأشراف أى من نسل النبى كما اشتهر أحد أجداده بتقواه وورعه . أما عبد الله والد محمد أحمد فكان ممن يعملون فى صناعة المراكب وعندما كان المهدى طفلا نزحت أسرته للجنوب واستقرت فى كررى على بعد ١٢ ميلا شمال الخرطوم حيث توفر وجود الأخشاب المناسبة لعمله . وهناك توفى عبد الله ودفن تاركا أسرة تتكون من أربعة أولاد (ولد أحدهم بعد وفاته) وبنت .

وبينما اشتغل اخوة محمد أحمد بحرفة أبيهم أبدى هو ميلا الى الدراسات الدينية . ومن ثم أصبح أحد مريدى الشيخ الأمين الصويلح فى الجزيرة ثم الشيخ محمد الضكير عبد الله خوجلى (٢) بالقرب من بربر . وكان هذا الشيخ يتلقى معونة من الحكومة ـ وتذكر الروايات أن محمد أحمد أبى أن يتناول طعامه لأن مصدره الطغيان وفى هذه المرحلة حصل محمد على أحسن أسس الدراسات الدينية التى كانت مدارس السودان تقدمها ولنا أن نتساءل عن مصير دعوته فيما لو فعل مثل كثيرين غيره من الدارسين السودانيين والتحق بالأزهر لاستكمال دراساته الدينية . ولكن محمد أحمد أحس وهو فى مفترق الطرق هذا بنداء الروحيات كما

---

(١) الرافعى : مصر والسودان ص ٩٢ ـ نقلا عن سيد عبد الرحمن المهدى .

(٢) غير المهدى اسمه فيما بعد ودعاه بمحمد الخير .

فهمت فى السودان بمعنى الزهد والتنسك والتعبد العميق وفقا للصوفية وتعاليمهـا •

ومن ثم توجه فى عام ١٢٧٧ هـ — ١٨٦١ م الى الشيخ محمد شريف نور الدايم حفيد الشيخ أحمـد الطيب البشير الذى أسس الطريقـة السـمانية فى السـودان • وبقى معه نحو سبع سنوات اشتهر خلالهـ بمنتهى الورع والزهـد ومارس كل واجبات الخـدمة وفروض الطاعة لأستاذه اثباتا لولائه له • وفى نهاية هذه المدة اعتبره محمد شريف واحدا من شيوخ الطريقة وسمح له «بتسليك الطريقة» أى بنشر الدعوة للطريقة خلال رحلاته • وفى خلال هذا الوقت أقام مع اخوته بالخرطوم وتزوج من بنت خال أبيه أحمد شرفى(١) وصاحب أخوته فى تنقلاتهم بحثا عن الأخشاب الى جزيرة آبا على نهر النيل بجوار الكوه • وابتداء من عام ١٢٨٦ / ١٨٧٠ أصبحت هـذه الجزيرة مركزا لدعوته • وهنالك اكتسب بفضل ما اشتهر به من تقـوى وتنسك — كثيرا من الأتباع من قبائل كنانه ودغيم من بينهم على بن محمد حلو أحد الخلفاء الثـلاثة فيما بعد وعندما مر كازاتى فى سنة ١٨٨٠ بجزيرة آبا فى طريقه للجنوب هدأ المركب البخارى من سرعته تحية لرجل آبا الورع • وكان الى ذلك الحين يعامل بكل احترام من قبل الحكومة التى كانت تعتزم اتخاذ هـذه الجزيرة مركزا لتموين مراكبها بالأخشاب (٢) •

وفى تلك الأثناء تأزمت العلاقات بين محمد أحمد وأسـتاذه الشيخ محمـد شريف • وكانت الصـلة بينهما قـوية فيما سـبق ، وفى عام

---

(١) ذكر سلاطين فى كتابه F. S. S ص ١٢٣ ان هذا الزواج تم بعـد وصـول محمد أحمد لآبا •

(٢) G. Casati : 10 years in Equatoria and the return with Emin pasha, 2 d edi. lond P 1 pp 33,- 34.

يذكر كازاتى أن باشـكاتب الاستوائيـة ذكر له أنه وزملاءه قدموا احترامهم لمحمد احمد عند مرورهم بآبا مرافقين لحمـلة بيكر . وكان ذلك فى فبراير سنة ١٨٧٠ . ومعنى هـذا أن شهرة محمد احمد قد بدأت قبل استقراره فى آبا .

١٢٨٨/١٨٧٢ انتقل الشيخ محمد شريف الى العرديب على نهر النيل بجوار جزيرة آبا (١) بناء على اقتراح من محمد أحمد . وبعد ذلك ببضع سنوات ، ربما فى عام ١٢٩٥/١٨٧٨ تنازع الزعيمان الدينيان ، ويعطى شقير عن هذا الحادث روايتين ، الأولى منهما نقلا عن حديث لمحمد شريف نفسه ، يفهم منها أن النزاع بدأ بينهما عندما اشتد كبرياء محمد أحمد فى عام ١٨٧٨ فنادى بأنه المهدى المنتظر وعرض على محمد شريف تعيينه وزيرا له أو مستشارا . وبناء عليه عقد مجلس فى آبا ضم القضاة والشخصيات البارزة حاول فيه محمد شريف اعادة محمد أحمد الى رشده بأن عرض عليه مقاسمته فيما يصيبه من خيرات . ولكن محمد أحمد انسحب من المجلس دون أن يعطى جوابا .

وبناء عليه قرر محمد شريف طرده من الطريقة السمانية وسعى (دون جدوى) للقبض عليه (٢) .

ونحن نجد أن هذه الرواية موضع للشك لعدة أسباب فمن ناحية نجدها مستقاة ، عن الشيخ محمد شريف نفسه وذكر شقير أنه أكدها له شفاها عقب الاستيلاء على أم درمان سنة ١٨٩٨ . ومحمد شريف أحد الذين بقوا فى السودان طول فترة المهدية ، كما عمل فى الواقع تحت أمره المهدى ولعلنا نجد فى هذه الرواية محاولة منه لكسب ثقة الحكم المصرى الانجليزى ولكى يصور نفسه كمن تنبأ بالثورة فى أوائل قيامها . والاعتبار الثانى أنه لا يوجد دليل مستقل يثبت تأكيدا لصفة المهدى فى مثل هذا التاريخ المبكر ، فالمصادر الأخرى تعين عام ١٢٩٨ / ١٨٨١ على وجه التحديد كتاريخ لاعلان المهدية . والثالث أنه من غير المحتمل ألا يصل الى السلطات الادارية علم باجتماع هام ضم كبار الشخصيات بالصورة التى أوضح بها محمد شريف المجلس الذى

---

(١) جاء فى كتاب شبيكة British Policy ص ٢١ أن محمد شريف لم يتخذ هذا المكان مركزا دائما له بل انه كان يزوره من حين لآخر .

(٢) شقير : تاريخ السودان طبعة مصر ج ٣ ص ١١٦ — ١١٨ . وطبعة بيروت سنة ١٩٦٧ ص ٦٣٧ — ٦٤٠ .

انعقد فى آبا . وأخيرا فان شقير ، رغم أنه لم يرجح احدى الروايتين فانه تجاهلها بلباقة فى سياقه .

وقد غطى شقير بكثير من التفصيل الرواية المهدية عن هذه الأزمة ، تلك الرواية التى تبدو أكثر احتمالا (١) . وبناء عليها فان الجذور الأولى للخلاف بدأت مع تزايد شعبية الشيخ الشاب الأمر الذى أصبح واضحا فى نظر سيده بعد استقراره فى العرديب . ولعل الشيخ محمد شريف خشى أن يفقد دخله وربما أيضا مكانته . وأدت مؤامرات محمد شريف عن طريق الشيخ رضوان ممثله المحلى الى معركة بين الفريقين هزم فيها أتباع محمد أحمد ، ولكن ناظر الكوه قبض على أعدائه وعقب ذلك زار شيخ محمد شريف وشيخ رضوان محمد أحمد فى جزيرة آبا وأمكن لهما التفاهم معه وديا كما ضمن محمد أحمد اطلاق سراح المعتقلين . ولكن هذا الحادث فتح أعين محمد أحمد على أخطاء أستاذه الذى خدمه سابقا بكل اخلاص . ووصل استياؤه قمته عندما شارك فى حفل أقامه الشيخ محمد شريف بمناسبة ختان أولاده حيث سمح بالرقص والطبل اذ كانت شيئا لم تستسغه نفس محمد أحمد الميالة الى التطهر ولهذا رأى — فى هذه التصرفات خرقا للشريعة لا يمكن تبريره . واذ ضاق الشيخ بمحمد أحمد واعتراضاته طرده بكل ازدراء من الطريقة قائلا له « ابعد لأنك أثبت صدق القول المأثور الدنقلاوى شيطان فى ثياب انسان » ولما كان محمد أحمد قد استاء لقرار الطرد فقد سعى كثيرا للحصول على العفو فى خضوع شديد ولكن دون طائل .

وتتفق هذه الرواية لما حدث بما عرف عن طباع محمد أحمد — المتدين القائم على الطهارة ، العواطف الجياشة التى تفصح عن نفسها فى

---

(١) شقير : تاريخ السودان طبعة مصر ج ٣ ص ١١٨ — ١١٩ وطبعة بيروت ص ٦٤١ — ٦٤٣ .
وهذه الرواية مطابقة لما ذكره سلاطين ص ١٢٤ — ١٢٥
والكتاب المحدثون من امثال شبيكة British Policy ص ٢١ — ٣٢
Theobald : Mahdiya. P. 28
ولم يشر اى من هذين المرجعين الى رواية محمد شريف .

دلة درامية واستكانة مصحوبة بكثير من المبالغة ، النفور من الخصام وعدم قطع العلاقات الا بعد استنفاذ أقصى وسائل الابقاء عليها . وبالاضافه الى ذلك فلعل ذلك النزاع الصغير الذى نتج عن مؤامرات الشيخ رضوان يفسر لنا تغافل الحكومة غير العادى فى سنة ١٨٨١ عن الاحساس بجدية الموقف فى آبا . ففى نظر رجال الادارة المصريين لم يكن ادعاء محمد أحمد الا وسيلة اخرى اتبعها لمواجهة المنافسين له من زعماء الدين ، الأمر الذى قد يؤدى الى اضطرابات محلية تنتهى بسقوط بعض الرؤوس دون أن يكون لها من الأهمية ما هو أكثر من ذلك .

على أن النزاع مع الشيخ محمد شريف قد أدى الى بعض النتائج الوقتية . فلم يكن من السهل على محمد أحمد بعد ابعاده من الطريقة السمانية أن يتقبل ذلك كما لم يكن هناك من سبب يدعوه لذلك . فقد أصبح شيخا له شهرة ذائعة كما أن له أتباعا عديدين بين قبائل النيل الأبيض . ومن ثم أصبح انضمامه لأى زعيم دينى أو تبعيته له كسبا عظيما لذلك الزعيم . وكان يعيش فى ذلك الحين بجوار المسلمية على النيل الأزرق شيخ آخر للسمانية اسمه (الشيخ) القرشى ود الزين . ولم يكن مثل الشيخ محمد شريف من أسرة مؤسس الطريقة ولكن أهميته ترجع الى أنه ضم للطريقة بواسطة الشيخ أحمد الطيب البشير نفسه — ومن هنا أصبحت صلته بأصول الطريقة أقوى من صلة محمد شريف وهكذا أعلن محمد أحمد انضمامه اليه . ولقى التابع الجديد ترحيبا من الشيخ القرشى ولعل محمد أحمد وضع فى اعتباره ما بلغه سيده الجديد من كبر فى السن وما ينبنى على ذلك من توقعات لخلافته اياه خلال أمد غير بعيد تمشيا مع سنة الطبيعة وعامل الزمن .

وفى تلك الأثناء تابع محمد أحمد حياة الزهد والتنسك فى آبا ولم تتأثر مكانته أو تضار بسبب نزاعه مع الشيخ محمد شريف الذى اعتبره — أى محمد أحمد — خارجا على الشريعة . وفى خلال هذا قام برحلة الى كردفان سيصبح لها بالنسبة للأحداث التالية أهمية بالغة . فقد كان هناك انقسام فادح فى السياسة المحلية بكردفان تحول الى صالح

محمد أحمد (١) اذ أن المهاجرين من الجعليين كانوا يشلون عاملا هاما فى حياة المدن وخاصة فى الأبيض حيث انقسموا الى جماعتين يتزعم احداهما الياس باشا أم برير والثانية يتزعمها أحمد بك دفع الله العوضى • وفى خلال ادارة غوردون للسودان كحاكم عام عين الياس باشا مديرا لكردفان سنة ١٨٧٨ ومعه جعلى آخر كوكيل له هو عبد الرحمن بك بانقا (٢) ومن ثم تآمر أحمد بك دفع الله مع الشيخ على كانونة • زعيم قبيلة الغديات (٣) ضد الياس باشا • وقد قام على كانونة بثورة صادفها التوفيق فى البداية ولكنه هزم بعد حين وقتل بواسطة القوة التى أرسلها الياس والتى عززت بامدادات قبلية ولكن هذه الأحداث أدت الى عزل الياس باشا واعادة الحاكم التركى السابق — وهو محمد سعيد باشا وهبى وذلك فى عام ١٨٧٩ ، فأعاد تنصيب الابن الأكبر لعلى كانونة شيخا للغديات • وهكذا انقسمت كردفان الى جماعتين كل منهما تتكون من مجموعة قبلية مرتبطة بأحد الزعيمين الجعليين المتنافسين وكان الجانب السيء من الموقف هو أن أحد هذين الفريقين — وهو الذى يتزعمه أحمد بك دفع الله — ارتبط مع محمد سعيد باشا فى تأييد الادارة المصرية بينما بدا الفريق الثانى بزعامة الياس باشا مغلوبا على أمره ومن ثم تلمس الفرص للاشتراك فى أى مؤامرة تؤدى الى استرجاع مكانته • ولما كان الياس أكثر ثراء كتاجر من أحمد دفع الله فان عزله جعل منه عدوا خطيرا للحكومة •

ويقال أن محمد أحمد اتصل فى خلال زيارته الأولى هذه لكردفان بجميع زعماء الأبيض ومن الواضح أن بين من زارهم وورد ذكرهم بالاسم

---

(١) نجد وصفا موجزا لأحداث كردفان قبيل ظهور المهدية مباشرة بكتاب F & S لسلاطين ص ١٣٢ — ١٣٤ وآخر تفصيليا كتبه يوسف ميخائيل ، تاريخ جـ ١ ص ٦ — ٢٦ . ومصدرنا فى زيارة محمد احمد لكردفان هو المرجع الأخير وهناك اشارة مختصرة عنها فى كتاب سلاطين F & S ص ١٢٦ .

(٢) القاف فى بانقا تنطق جيم قاهرية .

(٣) انظر MacMichael : Arabs in Sudan : Tribes of kordofan p. 65—69.

زعماء الجماعة المعارضة الياس باشا نفسه وعبد الرحمن بانقا ومعهم أيضا أسرة أبو صافية الذين أيدوا الياس باشا ضد الشيخ على كانونه. وهناك أيضا آخرين من الرجال البارزين الذين اتصل بهم هما الحاج خالد أحمد العمراني وهو تاجر جعلى تقى ، والشيخ المنه اسماعيل شيخ قبيلة الجوامعة . واستطاع محمد أحمد كذلك أن يحيط نفسه بهالة كبيرة من التقوى انتشر أمرها بين عامة الشعب فى كردفان فالتفوا حوله طلبا لبركاته. وكان أساس تعاليمه هو الزهد فى شهوات هذه الدنيا والتضرع الى الله . وبعد انتهاء زيارته عاد الى آبا بعد أن وعد أهالى كردفان بأنه سيعود مرة أخرى .

٢ ـ محمد احمد مهديا :

فى هذه الآونة توفى الشيخ القرشى (١) وتوجه محمد أحمد مع مريديه ليقيموا له قبة فوق مدفنه بالمسلمية . وقبل أتباع الشيخ القرشى الاعتراف به ونصبوه شيخا جديدا لهم وهكذا تأكد مركزه كزعيم للطريقة السمانية . على أنه لم يمض وقت طويل حتى اكتسب مكانة تفوق مكانة مجرد شيخ صوفى . وكان عليه (أى على المهدى) أن يفيد من الاتجاه العام الذى وجد فى السودان عن المهدى وتوقعات ظهوره . ولكنه لم يساهم فى ايجاد هذا الاتجاه الذى نشأ بفعل حالة السخط واليأس التى أشرنا اليها سابقا باعتباره فعل دينى لما حدث من انهيار فى المثل بين رجال الادارة المصرية اذا اعتبرنا مبادىء الاسلام فى بساطته مقياسا لتلك المثل .

وكان طبيعيا أن تنتشر هذه التوقعات بين الطبقات الفقيرة من السودانيين التى غلب عليها الجهل ، ولكن الأحداث أثبتت أيضا أن

---

(١) يحدد Hill فى كتابه Biog. dict. ص ٣١٢ تاريخا لوفاته عام ١٨٧٨ وبينما يرى شقير ، تاريخ السودان طبعة مصر ج ٣ ص ١١٩ وطبعة بيروت ص ٦٤٢ ، Dietrich ص ٢١٤ انه توفى فى أواخر عام ١٢٩٧/١٨٨٠ وحيث ان عام ١٢٩٧ هـ تقابل نهايته يوم ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠ والتحديد الأخير يتفق مع ترتيب الأحداث كما ورد فى كتاب سلاطين S & F ص ١٢٦ الذى ذكر أن الوفاة حدثت بعد شهور قلائل من زيارة محمد أحمد الأولى لكردفان التى جرت بعد عزل الياس باشا فى سنة ١٨٧٩ .

كثيرين من ذوى المكانة والخبرة كانوا على أتم استعداد لمناصرة حركة مهديه او الاشتراك فيها حتى قبل أن يتأكد نجاحها [1] •

ويذكر نعـوم شـقير أن تلاميذ محمد أحمد بدأوا يؤكدون بعـد خلافته للشيخ القرشي وجود نص فى كتبهم يثبت مجيء المهدى من بينهم وكيف أن الشيخ القرشي أسر لمحمد أحمد بذلك الأمر •

وفى المسلمية تمت مع محمـد أحمد مقابلة على درجة كبيرة من الأهمية • اذ قدم شخص اسمه عبد الله بن محمد وطلب الانضمام للطريقة السمانية • وقد أحاط بهذه المقابلة الأولى بين المهدى المنتظر وخليفته فى السودان جو أسطورى ، اذ قيل أن عبد الله سقط مغشيا عليه مرتين لمرأى محمد أحمد قبل أن يقدم له التحية بصفته المهدى المنتظر • أما ما ذكره سلاطين استنادا الى رواية الخليفة فاقرب الى التصديق اذ غلب عليه عند المقابلة الرهبة فلم ينطق الا بعد بضع ساعات ورجاه عندئذ السماح له بان يكون أحد تلاميذه [2] وسرعان ما اكتسب مكانة كبيرة لدى شيخه قابلها بالولاء التام وتقديم المشورة الطيبة له فقرة جديدة عن أول السطر هذا التابع الجديد ، عبد الله بن محمد ، من أسرة ترجع اقامتها أصلا الى المنطقة الواقعـة غرب دارفور ما بين واداى وبورتو وجـده الأكبر على

---

(١) هناك ثلاثة ادلة واضحة عن ايمان الناس وتوقعهم ظهور المهـدى المنتظـر :

(أ) ما عرضه عبد الله التعايشي على الزبير بعد احتلال دارفور فى عام ١٨٧٤ (انظر الصفحات التالية من هذا الكتاب) .

(ب) وثيقة يوسف ميخائيل (١) مخطوطه ٢٣ وجاء بها اثنـاء وصف الاحوال فى كردفان خلال زيارة محمد احمد لها . ان تساءل اكثر النـاس عن عدم ظهور المهدي وقالوا ان هذا هو موعد مجيئه باذن الله . ثم انه وصف تمثيلية عن المهـدية جرى اطفال الأبيض على تمثيلها وعجب لها الكبار .

(جـ) ما ذكره المهـدى نفسه فى كتاب له للشيخ دفـع الله البكاوى Baqqawi وثيقة النجومى مخطوطة ١٢٦ (توقعت ظهور المهـدى حتى أكون معينه وخادمه) . وطبعة بيروت ص ٦٤٣ .

(٢) شـقير : تاريخ جـ ٣ ص ١٢٠ G X ديتريش ، ص ٢١٦ — راجع : Slatin : Fire & Sword pp. 127—9.

الكرار (١) يمثـل نموذجا لذلك السـيل المسـتديم من الحجاج الذين يتحركون من وسط السودان وغربه نحـو وادي النيـل فى الطريق الى الحجاز • وصادف أن تزوج هذا من فتاة من قبيلة التعايشة التى تسكن جنوب دارفور بعد أن استقر بينها • واشتهر محمد آدم (٢) والد عبد الله بين التعايشة بتقواه وما لديه من موهبة كرجل عليم بالغيب ومن ثم كانت القبيلة تعتمد على تنبؤاته عند القيام بالغزوات وكان لعبد الله ثلاثة أخوة : يعقوب أخوه الأكبر من أبيه ، والسنوسى أحمد أخوه الثانى من أمه ، وهرون أخوه الثالث من جارية لأبيه كما كانت له أخت واحدة (٣) ولمـا تقدمت بوالده السـن خلفـه عبد الله فى احتـلال وظيفـة منجم للقبيلة وعندما وقعت الحرب بين الزبير والرزيقات فى سنة ١٨٧٣ ذهب للرزيقات ليتير عليهم بما يتنبأ به الا أنه أسر وقرر الزبير قتله ولكن هـذا القرار عورض فيه من قبـل الشيوخ الاثنى عشر الذين يمثلون بطانة الزبير باعتباره اجراء لا يتفق مع الأصول المتبعة أو الذوق المرعى • وبعد فتح دارفور حدد الزبير اقامة عبد الله فى أرض مجاورة للكلك شمال بحـر العرب • ولم يمض على قراره هذا كثير حتى تلقى خطابا من عبد الله فى منفاه جاء فيه «لقد رأيت فى المنام أنك المهدى المنتظر وانى أحد أتباعك، ولهذا فعليك أن تخبرنى بما اذا كنت مهدى الزمان حتى أتبعك » • ولكن الزبير رفض أن يقوم بدور المهدى ومن ثم انقطعت المراسلات بينهما •

وفى خلال الاضطرابات التى تلت فتح دارفور ترك عبد الله المكان الذى أقام فيه واتجه الى الحجاز ومعه أبوه وبعض الاتباع • ثم انصرفوا

---

(١) شقير : تاريخ . طبعة مصر جـ ٣ ص ٧٠ — ٧٢ وطبعـة بيروت ص ٥٨١ نقـلا عن قريب للزبير ،

Slatin : Fire & Sword pp. 127—9

(٢) اشتهر باسم تورشين أى الثور القبيح نظرا لقبـح شـكله كما ذكـر شـقير

Slatin : Fire & Sword. p. 127.

(٣) ويطلق على هرون اسم يوسف خطأ كما يطلق على السـنوسى اسم السمانى خطأ . كما ذكر ان اسم تلك الأخت فاطمة .

عن حجهم بعد دخولهم أرض قبيلة الجمع (١) على النيل الأبيض شمال شرقى جبال النوبا حيث أحسن استقبالهم رئيسها عساكر أبو كلام • وهنا توفى محمد آدم ودفن • وبعد بعض الوقت غادر عبد الله الجمع وذهب الى المسلمية للانضمام الى محمد أحمد • وقد وصف فيما بعد لسلاطين قسوة هذه الرحلة وكيف أن فقره قد جرده من كل ما يملك باستثناء أتان مثخن بالجروح والقروح وقد ازدراه أهل الجزيرة بمظهره الكريه ولهجته الغريبة وهزأوا به خلال مسيرته • ولعل الكراهية التى كان عبد الله يكنها لقبائل النيل فى أيام قوته قد نبتت بذورها خلال هذه المرحلة •

وكانت الأحداث فى تلك الآونة تدفع بمحمد أحمد سريعا نحـــو اعلان نفسه مهديا ومن المنطقى أن نعتبر انضمام عبدالله اليه عاملا فاصلا فى هـــذا الاتجـــاه • وأن ما كان من أمر عبد الله الزبير ليكشف عن سعيه الدائب بحثا عن مهدى من السودانيين • وقد ذكر سلاطين ما رواه له من أنه تعرف على المهدى فى شخص محمد أحمد منـــذ مقابلتهما الأولى (٢) ولكن محمد أحمد ما كان ليقبل أن يكون أداة سلبية فى يـــد تلميذه أو تابعه فاتخاذه صفة المهدى يجب أن ينبع عن يقين داخلى ولو أن ظهـــور عبد الله وادراك محمد أحمد لانتشار فكرة المهـــدى (المنتظر) وتوقع ظهـــوره مما أدى الى تحـــويل فكره صـــوب هـــذا الاتجاه وجاء فيما ذكره شقير أن محمد أحمد بدأ أثناء عودته من المسلمية الى آبا فى دراسة التنبؤات القديمة عن المهدى محاولا الكشف عن أوجه المطابقة بينها وبين نفسه • وقد أسند اعلان المهدية الى رؤية أو مجموعة من الرؤى • ونقل محمد أحمد سر الاختيار الالهى أولا لعبد الله ثم لبقية تلاميذه وأتباعه فى

---

(١) أخطأ سلاطين وأطلق على هذه القبيلة اسم Gimr.
Slatin : F & S. p. 128
وهؤلاء يسكنون فى شـــمال دارفور ويعرفون باسم Qimr
(٢) Ibid : F & S. p. 131.

ربيع الثانى ١٢٩٨ هـ (مارس ١٨٨١) (١) •

ويعتبر ابلاغ المهدية سرا لعدد صغير من الأتباع المخلصين الخطوة الأولى لاعلان المهدية التى تليت بزيارة ثانية لكردفان تمت فى الغالب وفقا لنصيحة من عبد الله لتحقيق غرض مزدوج هـو التعرف على اتجاهات الرأى العام فى السودان الغربى ثم اكتشاف مكان يصلح لالتجاء جماعة المهدية الناشئة (٢) • وفى كردفان زار محمد أحمـد الشخصيات البارزة متخذا مقامه لدى محمد المكى بن اسماعيل شيخ طريقة الاسماعيلية ولدى عائلة صالح سوار الدهب وهو أحد رجال الدين المعروفين بين الجعليين وهو الذى صاحب محمد عثمان الميرغنى الأول الى الأبيض حيث وافتـه المنية فى عام ١٨٧٥ • وهنا أعلن محمد أحمد للمثقفين من رجال الدين أنه المهدى معززا ذلك بما تراءى له فى الرؤى والأحلام بالاضافة الى ما جاء بالأحاديث القديمة عن المهدى — وعندما التف حوله عامة الناس خاطبهم بعاطفة متقدة محرضا اياهم على الزهد فى هذا العالم والاهتمام بالعـالم الآخر • كما أسر لهم أيضا بما كان من منح النبى له صفة المهدى وحصل سرا من أتباعه الجدد على يمين يؤدونه بالولاء أو « بيعة » يبايعونه بهـا وأعطاهم صورا مكتوبة منها للاحتفاظ بها لحين اعلان أمره • وفى طريق عودته لآبا قدم له العهد كثير من رجال الطرق الدينية وشـيوخ القبائل المتنقلة • واخترق فى ذلك الطريق أيضا مملكة تقلى (تنطق القاف جيما قاهرية) فى جبال النوبا وهى مملكة اسلامية صغيرة على أطـراف بلاد النوبا الوثنية وراسل ملكها ملك آدم أم دبلو طالبا منه تأييده • ولما كان

---

(١) يبدو أن هـذا التاريخ كما ورد فى (شقير : تاريخ ج ٣ ص ١٢٠، ديتريش ص ٢١٧) أصـوب من التـاريخ الذى أعطـاه الرافعى : مصر والسودان ص ٩٤ وهو شعبان سنة ١٢٩٧ الموافق يوليو ١٨٨٠ ، وخاصة وأن هناك خطابا من محمد أحمد تاريخه ذو القعدة سنة ١٢٩٧ (يوسف ميخائيل مجموعة ٢ محفظة ١) لا توجد به اشارة للمهدية .

(٢) لمزيد من المعلومات عن زيارته الثانية لكردفان يمكن الرجوع الى :
شقير : تاريخ . طبعة مصر ج ٣ ص ١٢١ وطبعة بيروت ص ٦٤٤ .
ديتريتش : ص ٢١٧ — ٢١٨ .
سلاطين : F. O. S. ص ١٣٢ — ١٣٣ .
وهناك عرضا اشمل فى مذكرات يوسف ميخائيل (١) — ص ٢٥ .

مك آدم يتمتع بجانب كبير من الحرية الادارية والاستقلال عن الحكومة المصرية فانه لم يشأ الارتباط به مؤثرا الابقاء على حياده الودى • ــ ولكنه كسواه من الأشخاص العالمين بسر المهدية الذى تم اعلانه ــ لم يحاول ابلاغ أمرها الى الحكومة ورجالها •

وقد جاءت الخطوة الثالثة فى المهدية عقب الثانية مباشرة ــ فقد تم اعلان ظهور المهدى فى جزيرة آبا • حدث هذا فى أول شعبان سنة ١٢٩٨ هـ الموافق ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ عندما أرسل محمد أحمد مكاتبات للرجال المعروفين متخذا لنفسه لقب محمد المهدى ومناديا الأتباع بالانضمام اليه • ورغم أنه كان من المحتم أن يؤدى مثل هذا الاجراء الى صدام مع الحكومة الا أن النداءات التى بعث بها فى سنة ١٢٩٨ هـ لم ترتكز كثيرا على فكرة « الجهاد » ضد أعداء المهدية بل دعت أتباعها الى واجب آخر هو « الهجرة » أى الهرب للافلات بعقيدتهم بعيدا عن الكفرة وفى حمى المهدى [1] ونداء الهجرة هو أول مثل على تأثر المهدى باتجاهات الرسول وسنجد لذلك أمثلة أخرى ولكن محاولة المهدى الافادة من التشبه بسلوك النبى لم يكن عن تقليد أعمى فقد كان هو وأتباعه يمارسون فى حياتهم وعلى أنفسهم المشقات التى عاناها فى أيامه الأولى ، وكذلك الانتصارات التى حصل عليها ، وكان احساسهم بأنهم يلعبون دورا فى هذه الدراما الكبيرة مصدر الهام لهم وبالاضافة الى ذلك فقد أفاد المهدى بذكاء من السوابق النبوية مسترشدا بها خلال الصعاب التى

---

(١) (أ) جاء فى كتاب المهدى الى الشيخ محمد الطيب البصير (أول شعبان ١٢٩٨ هـ شقير ص ٦٤٨ ومذكرات النجومى ص ٤٣) .. « ولازم تشجع الأهل الى الهجرة الينا ولازم تزهد المحبين عن الأوطان والأحوال فان الدنيا غرور ... »

(ب) وجاء فى كتابه للحاكم العام ١٢٩٨ هـ (الوثيقة السابقة محفظة ١٣) وشقير : تاريخ . طبعة مصر جـ ٣ ص ١٢٧ ــ ١٢٨ وطبعة بيروت ص ٦٥١ ــ ٦٥٢ ، ديتريش ص ٢٢٩ « ان دعائى الخلق على تقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه الطباع الزمنية ... » .

(جـ) وجاء فى كتابه للشيخ دفع الله البكاوى سنة ١٢٩٨ هـ (مذكرات النجومى مخطوطة ١٢٦) ما مفهومه ان تغيرات الزمن واهمال السنة من الأمور غير المجهولة لديكم .

واجهته فى حركته . وأخيرا فمن الممكن أن نلاحظ أن هـذه الهجرة فى سبيل العقيدة لم تكن الا نوعا من التسامى برد الفعـل التقليدى للظلم والاستبداد كما جـرى فى السـودان ، أى الهجرة الجماعية لقبيلة من موطنها الأصلى الى الأطراف بعدا عن النفوذ المصرى كما حدث عندما هرب مك نمر والجعليين من انتقام الدفتردار الى حدود الحبشة .

ويقتطف لنا شقير بعضا مما جاء بكتاب المهدى الى أتباعه ، داعيا اياهم للهجرة معه عند حلول شهر رمضان (١) . وهذا يكشف لنـا عن مدى التخطيط الدقيق للظهور فى آبا . وشهر واحد كان كافيا لاعداد أتباعه المبعثرين ، فقـد كانوا خفافا فى رحيلهم ... ليس لديهم من حطام الدنيا الا القليل وحتى اذا ما نقل أمر هذا التحرك للادارة فانه سيتعذر على البيروقراطية السـائدة فى الخرطوم اتخاذ اجـراء مضـاد على وجـه السرعة وبالاضـافة الى ذلك فان صـوم شـهر رمضان كفيل بتأخير المواجهة الادارية والعسـكرية . ووافق حلول شهر رمضان من ذلك العام قمة موسم الأمطـار عندما يصبح الانتقال برا أو الابحار فى النيل أمرا شاقا ، ويؤدى الصوم فى جو غير ملائم الى المرض والخمول ، وفى هذه الظروف يتفوق الرجل القبلى ذو الحمل الخفيف الذى اعتاد من الحياة وجهها القاسى ــ وهو النوع الغالب بين أنصار المهدى ــ قدرة وحركة على جنود الادارة المصرية .

٣ ــ الهجرة الى جبـل قدير :

على فرض فيما لو كان المهدى فى هذه المرحلة قد صمم على الهرب لا المقاومة ، فان الاجراءات التى اتخذتها الادارة قد أدت الى ما يقرب

---

(١) شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته جـ ٣ ص ١٢١ وطبعة بيروت ص ٦٤٥ أيضا ديتريش ، ص ٢١٩ .

وقد جاء فى كتـابه هـذا « وقد أمرنى سيد الوجود (ص) بمكاتبة المسلمين ودعوتهم الى الهجرة معنا الى محل يكون فيه قوام الدين واصلاح امر الدارين .

ملحوظة : معظم كتـاب ديتريش عبارة عن ترجمـة للألمـانية لجـزء من كتاب نعوم شقير الخاص بالمهدية وأحداثها . P. M. Holt p 250.

من قلب هذه الخطة . فقد سبق للشيخ محمد شريف أن حذر محمد رءوف باشا حاكم السودان من خطورة الأحداث الجارية فى آبا ولكن هذا لم يبال كثيرا بالتحذير ظنا منه بأن الدافع اليه هو العداوة القائمة بين الزعيمين الدينيين . ولكن تأكدت هذه القصة عندما وقعت بعض مراسلات المهدية ومنشوراتها فى يدى رؤوف باشا . وعندما أرسل لآبا من يبحث الموقف على الطبيعة أكد لهم محمد أحمد ايمانه برسالته المقدسة باعتباره المهدى المنتظر وهدد بمحاربة كل من لا يؤمن بها (١) . وعندئذ جمع رؤوف مجلسا من العلماء الذين اتفقوا معه على أهمية اعتقال محمد أحمد للحيلولة دون انتشار هذه العقيدة الضالة . وبناء عليه أرسل مساعده محمد بك أبو السعود لاستدعاء المهدى الى الخرطوم . فوصل أبو السعود الى آبا فى ١١ رمضان ١٢٩٨ هـ (١٨٨١/٨/٧) ولكن المهدى أبى نهائيا الاستجابة لنداءاته فعاد بخفى حنين .

وعندئذ فقط بدأ رؤوف يتصرف بحزم فأرسل أبا السعود مرة أخرى فى مركب بخارى مع فرقتين من الجند للقبض على المهدى بالقوة . فوصلت الحملة آبا فى ١٦ رمضان (١٢ أغسطس) ولكن غلب على تلك العملية سوء التخطيط . فقد استغل المهدى الفترة الماضية فى استدعاء أتباعه المحليين حتى تجمع له منهم فريق يقرب من ٣٥٠ رجلا مسلحين بالعصى والسيوف والحراب وتصرف ضباط كل من الفرقتين بمعزل عن الآخرين فضل الفريقان السبيل خلال مسيرتهم ليلا . ومن ثم باغت المهديون الحملة وأجهزوا عليها برغم تفوقها فى السلاح . وأفلت من استطاع عائدا الى المركب حيث كان فى انتظارهم أبو السعود واتخذوا طريقهم للخرطوم . أماالمهديون فواروا قتلاهم الاثنىعشر الثرى وعبروا فى مساء اليوم التالى النهر الى ضفته الغربية مهاجرين الى كردفان .

وقد ارتبكت الادارة نتيجة انتصار المهدى فى هذه المناوشة على حين

---

(١) رسالة للحاكم العام : شقير : تاريخ . طبعة مصر ج ٣ ص ١٢٧ — ١٢٨ وطبعة بيروت ص ٦٥١ — ٦٥٢ ديتريش ص ٢٠٩ ، يوسف ميخائيل مجموعة (٢) ص ٤ ، ص ١٣

فسر المهدى وأتباعه النصر بأنه معجزة • وحينئذ أرسل رؤوف ٥٠٠ جندى الى الكوة وأصدر أمرا لمحمـد سعيد باشا فى كردفان بتعزيزهم بقوات أخـرى بعد أن رفض الاستجابة لندائه بسطاردة المهـدى برجاله فقط وعندما توجه جند الحكومة الى آبا وجدوها خاوية فاتبعوا الطريق الذى اتخذه المهدى ولكن الأمطار الثقيلة وقفت حائلا دون اللحاق به • وعاد محمد سعيد الى الأبيض دون طائل فى أوائل ذى القعدة (٢٥ سبتمبر) •

أما المهديون (أو الأنصار كما أطلق عليهم تشبها بالأنصار الذين عاصروا النبى) فكانوا يشقون طريقهم الآن نحو جبـال النوبا • وفى طريقهم اليها وقع صدام بينهم وبين شيخ جبل الجراده (فى ٣٠ ذى القعدة الموافق ٢٤ أكتـوبر) انتهى بانتصـارهم • وفى ٧ من ذى الحجـة (٣١ أكتوبر) بلغوا هدفهم ، جبل قدير ، حيث استقبلهم حاكمه بالترحاب • وتمثلا بعهد الرسول واقتداء به أطلق المهدى على ذلك الجبل اسم جبل معزة • ولمـا كانت جبال النوبا تقع على أطراف كردفان وفاشودة فسرعان ما وصلت أنباء وصول المهدى لجبل قدير الى راشـد بك أيمن حاكم فاشودة • واذ علم بسـوء حال الأنصار وما أصابهم من مرض وأعياء قرر أن يباغتهم فورا رغم امتناع رؤوف عن الاذن له بذلك • وتقـدم بقوة تتكون من ٤٠٠ جندى نظامى (١) ، ١٠٠ من الشيلوك تحت قيادة زعيمهم ـ وقد جعل مسيرته سرية على أمل مباغتة المهدى ، ولكن امرأة من كنانة نقلت أنباء تقدمه الى الأنصار ومن ثم أعدوا لهم كمينا وفى ١٦ محرم ١٢٩٩ (٩ ديسمبر ١٨٨١) بوغتت قوة راشد بك وأبيدت كما قتل راشـد بك نفسه ووقع جانب كبـير من السـلاح وغيره من الغنـائم فى أيدى الأنصار • واعتبر هذا النصر لثانى مرة على قوة الحكومة بمثابة معجزة ثانية ، مما كان له شأن كبير فى تزايد مكانة المهدى •

ولعل رؤوف كان مبالغا فى الحيطة خاصة عندما منع محمد سعيد

---

(١) شقير : تاريخ . طبعة مصر ج ٣ ص١٣٢ وطبعة بيروت ص٦٥٧ .
شبيكة : British Policy ص ٣١ يقـول انهم ٣٥٠ جنـديا نظاميا + ٧٠ غير نظاميين .

من اتمام غرضه الأساسى وهــو ملاحقــة المهدى فى أول هجرته ولعله كبقية رجال الادارة استهان بجدية الثورة • ومــع ذلك فانه قبض على زمام الأمور بحزم ولا يمكن توجيه اللوم له بسبب فشل بعثة راشــد التى سارت رغم أوامره وعقب هذه الكارثة استنجد بمصر طالبا الامداد ولكن استنجاده لم يجــد من يصغى اليه بسبب انشغال مصر بالثورة العرابية وأحداثها ، وفى مارس ١٨٨٢ قررت الحكومة المصرية اتخاذ أيسر الحلول باستدعائه وتمت مواجهــة أزمة الســودان على الورق بتعيين عبد القادر باشا حلمى (١) وزيرا لشئون السودان • وبعد شهرين توجه (عبد القادر حلمى) الى الخرطوم باعتباره حاكما عاما •

وآلت الأمــور فى هــذه الفترة (بين استدعاء رؤوف ووصــول عبد القادر حلمى) الى جيجلر باشا وهو فى الأصل ضابط ألمــانى التحق بخدمة الحكومة المصرية • وقرر جيجلر القضاء على المهدى بحشد القوات الموجودة فى السودان • وسمحت له حكومة القــاهرة بحرية التصرف فجمــع قــوات الخــرطوم وســنار والأبيض على النيــل الأبيض • وكان بين ضــباط قــوة كردفان عبــد الله دفــع الله شقيق العــدو القــديم لاليــاس باشا • وقــد صــاحب ســوء الطالع فرقته منــذ سقطت طبــلة عبد الله دفــع الله الى الأرض من الجمــل الذى كان يحملهــا خــلال الاستعراض الذى قامت به قبل مسيرتهــا • ورغــم أن أحمد بك دفع الله سارع بنحر ثور فداء عن الفرقة وردا لسوء الطالع الذى صحبها الا أن رجال الأبيض بدأوا مسيرتهم بنفوس كسيرة (٢) • واذ اقترب موسم الجفاف أصبح فى امكان الحملة التقدم ولو ببطء تحت قيادة يوسف باشا حسن الشلالى • ولم يحسن القائد بصفة عامة تقدير قوة أعدائه ومداها وما هم عليه من فطنة وتفان • وفى الطريق الى قدير قبض على اثنين من جواسيس المهــدى • واذ عذبوا حتى الموت أمام

---

(١) عبد القادر حلمى سورى الأصل له خبرة سابقة طيبه بالشئون العسكرية بالسودان •

(٢) يوسف ميخائيل مجموعة (١) ص ٣٤ ، ٣٥ •

جنوده استقبلوا الموت بشجاعة نادرة أثارت عطف الحاضرين • وأرسل الشلالى خطابا للمهدى يطلب منه التسليم والخضوع • ومع أن هـذه الرسـالة فقـدت فان رد المهدى الذى كتب فى ٤ رجب سنة ١٢٩٩ هـ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٢) يرينا الفارق بين فكر كل من القائدين وقدرته • وقد جاء به «وقولكم ما اتبعنا الا البقارة والجهلاء والمجوس ، فاعلموا أن أتباع الرسل من قبلنا وأتباع نبينا محمد (صلعم) الضعفاء والجهلاء والأعراب الذين كانوا يعبدون الحجر والشجر وأما العلماء والأغنياء وأهل القوة والترف فلم يتبعوهم الا بعد أن يخربوا ديارهم ويقتلوا أشرافهم ••• فانه ليس بيننا وبينكم الا السيف ولسنا محتاجين الى مراجعتكم حتى نرسل لكم العلماء ليذكروكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر والحذر الحـذر من المجاوبة ثانية فاننا لا نرد لكم جوابا وما دمتم منكرين ولو حاربتمونا طول السنين فليس لكم عندنا الا الرماح والطعان ••• » (١) •

وتقـدم الشلالى غربا ، ومع تقدمه هـذا تزايد أعباء رجاله الى أن عسكروا بجوار قـدير ولم يتخذ الجند الاحتياطات العادية من اقامة « زريبة » أو حاجز من الأشواك حول معسكرهم ليقيهم شر المباغتة • وعنـدما هجم الأنصار فجر يوم ١٢ رجب (٣٠ مايو) (٢) حصلوا على نصر حاسم لثالث مرة اذ قتل الشلالى وعبد الله دفع الله وأبيد فى الواقع جميع رجال القوة • وترتب على هـذا اضافة مزيد كبير من الغنائم الى موارد المهدى القليلة وتوجيه ضربة قاضية الى مكانة الحكومة المصرية وجيشها • كما اكتسب الأنصار ، الذين بلغ عددهم (وفقا لتقدير شقير) بعد معركة آبا نحو ٨ آلاف ، أتباعا جدد معظمهم من قبائل الغرب على

---

(١) نجومى محفظة ٢٣ ، يوسف ميخائيل مجموعة ٢ ص ٧ .
شقير : تاريخ . طبعة مصر ج ٣ ص ١٣٣ — ١٣٧ وطبعة بيروت ص ٦٦٢ — ٦٦٤ — ديتريش ص ٢٣١ — ٢٣٧

Slatin : F.&S. P. 143
& Shibeika : British Policy 39

(٢) يعطى كلاهما يوم ٧ يونيو تاريخا للمعركة . بينما يحدد شقير يوم ١١ رجب (٢٩ مايو) تاريخا لها . وتأكد تاريخ المعركة باعلان المهـدى فى ١٢ رجب عام ١٢٩٩ . (مذكرات النجومى ص ٢٣) .

وجه الخصوص • وأعيد « ماديبو على » شيخ الرزيقات الى قبيلته حاملا معــه لقب أمين الذى أضفته عليه المهدية ليثير دارفور ضـــد الحكومة وسرعان ما بدأ بتوجيه ضرباته الى سلاطين النمساوى الذى كان حاكما عاما للاقليم •

٤ ــ الجهاد حتى سقوط الأبيض :

رأى المهـــدى فى ذلك الحـــين أن الوقت أصبح مناسبا للتقـــدم نحـــو كردفان عاصمة الاقليم ــ والهجوم على الأبيض • وكان الطريق ممهدا أمامه فى الواقع ــ فقد كان على اتصال دائم بالياس باشا كما أن القبـــائل الرئيسية فى الاقليم كانت قـــد ثارت على الادارة المصرية • وأرسل المهدى مبعوثا خاصا من طرفه هـــو عبد الله ود النور لتنسيق ثورات القبائل وتحويلها الى حركة شعبية ضـــد مراكز الادارة • وأهم القبائل التى اشتركت فى الثورة اذ ذاك هى الحمـــر (١) بقيادة مكى ود ابراهيم والبديرية تحت زعامة عبد الصـــمد أبو صفية ، والحوازمة (٢) بزعامة نواى ، والغدايات بزعامة اسماعيل الأمين الدلندوك والجوامعة(٤) بزعامة رحمة محمـــد منوفل والمنة اسماعيل • ومن هؤلاء الرؤساء أو الزعماء كان اثنان هما عبد الصمد أبو صفية واسماعيل الأمين الدلندوك حليفين لالياس باشا فى حربه ضد على كانونة وبامكاننا أن نستنتج أن مصلحته كانت حاسمة فى جعلهما يخوضان القتال الى جانب المهدى •

وقد بدأت الاضطرابات فى كردفان فى صورة انتفاضات منفصلة قام بهـــا البدو ضـــد المراكز الحكومية • وينسب يوسف ميخائيل الى المهدى الكثير من الاشارات التى تكشف برغم غموضها واستتارها أحيانا

---

(١) Macmichael : Arabs in Sudan, 111. 4, xvii-xxi; Tribes of kordofan, 156-64.

(٢) Macmichael : Arabs in Sudan, 111. 1, vi-vix; Tribes of kordofon, 68-75.

(٣) Macmichael : Asabs in Sudan, 111. 3, lx-x; Tribes of kordofan 149.54,

(٤) Macmichael : Arabs in sudan, 111. 1, xxx-xxxv; Tribes of kordofan, 76-84,

عن أهدافه منها قوله للقبائل ورجالها « أنا المهدى خليفة نبى الله ، امتنعوا عن دفع الضرائب للترك الكفرة ، وكل من يجد تركيا فيقتله فالترك كفرة » (١) واشتدت حدة الثورات القبلية وازداد خطرها بمجيء عبد الله ود النور ، وفى أول جمادى الثانية ١٢٩٩ هـ الموافق ٢٠ أبريل ١٨٨٢ (٢) هاجمت جماعات من الحمر والبديرية مدينة أبو حراز فسقطت فى أيديهم بعد أن قتلوا الكثيرين وأسرفوا فى السلب والنهب ولكن فريقا من الجند الذين كانوا يجمعون الضرائب من الحمر استطاعوا شق طريقهم بصعوبة عائدين الى الأبيض ، وازاء احتشاد الحمر والبديرية مع الحوازمة والغدايات فى البركة تحت قيادة عبد الله ود النور ، أرسلت حملة من الأبيض لتفريقهم ، فاشتبكوا معها فى ثلاث معارك فى نهاية جمادى الثانية وأول رجب (منتصف مايو) ولكن فى ١٢ رجب (٣٠مايو) عادت القوات الى الأبيض (٣) وهذه الحادثة تكشف لنا عن الضعف الدفين فى التنظيم العسكرى للادارة ، ففى جميع العمليات العسكرية تفوقت القوات الحكومية على الحشود الكبيرة من القبليين بفضل مدفعيتها وأسلحتها النارية فضلا عن نظامها ولكن أعداءها كانوا يتفوقون عليها فى الصلابة والتفانى وعدد الرجال ، ولهذا ـــ فكما حدث فى هذه العملية ـــ عجزوا عن تعزيز انتصارهم وتحتم عليها فى النهاية الانسحاب الى قاعدتها الحصينة بينما تجمعت القبائل استعدادا لجولة جديدة .

وبالاضافة الى ذلك فقد كان على القوات الحكومية أن تواجه هجمات متلاحقة فى نقاط متفرقة ففى ٧ رجب (٢٥ مايو) استطاع رجال

---

(١) يوسف ميخائيل (١) ـــ رقم ٣٦ .

(٢) نقلا عن تقرير كردفان ـــ ويحدد شقير لهذا الحادث ١٠ ابريل ١٨٨٢ .

(٣) Slatin : F. & S. p. 146.

ذكر أن الفرق العسكرية فقدت الكثير للدرجة التى قربتها من الهزيمة كما ذكر ان هؤلاء العرب عاودوا التجمع وهاجموا بركت حيث ذبحت كل الحامية المكونة من ٢٠٠٠ ـــ اما تقرير كردفان فيذكر ان الخسائر لم تبلغ الـ ٢٠٠ . ورغم ذلك فان النصر المصرى لم يكن حاسما على المدى البعيد .

من قبائل أخرى الاستيلاء على بلدة أصحف فى شمال كردفان • وهوجم المدد الذى أرسل من بارا ــ المدينــة الثانية بعد العاصمة فى الاقليم ــ وقضى عليه ، كما انسحب قائده النور بك عنقرة بعد أن سقطت طبوله الحربية فى أيدى الأعداء ، وبذلك أحــدق الخطر ببارا نفسها • وبرغم نجاح حملة أرسلت فى شهر رجب فى تغريق حشد للجوامعة تحت رحمة محمد منوفل الا أن جمعا متحــدا من عــدة قبائل تحت قيادة عبد الله ود النور استطاع مهاجمة المدينــة فى ٧ شعبان (٢٤ يونيو) ونجحت الحامية التى وصلتها امدادات من الأبيض والخرطوم فى رد العدو مهزوما ولكن أعقب هــذا الانتصار سحب معظم الامداد وأرسالها الى الأبيض على أن الادارة أمسكت بمبادرة الهجوم لبعض الوقت • وأمكن لحملة من بارا معززة بنجــدات من الأبيض القيام بثلاث هجمات على القبائل المحتشدة حتى استطاعت ازاحتهم بعيدا عن المدينة • وبينما تجرى هذه العملية احتشد جمع آخر من القبائل بقيادة المنة اسماعيل وهاجم حامية الطيارة فى شرق كردفان • واذ عجزت هذه القبائل عن الاستيلاء على الموقع عن طريق الهجوم المباشر فى ٥ ، ١٥ شعبان (٢٢ يونيو ، ٢٥ يوليو) فرضت عليها حصارا أدى الى سقوطها فى ٢١ رمضان (٦ أغسطس) بعد هجوم ثالث عليهـــا كما قضى بعــد يومين آخرين على قوة مسلحة أرسلت من الأبيض لانقاذ هذه المدينة •

وازاء هذه التطورات استدعى محمد سعيد باشا القوة التى كانت تعمل ضد القبائل المحتشدة قريبا من بارا • وفى نهاية رمضان (منتصف شهر أغسطس) عادت قوة الأبيض الى قاعدتها (كما ذكرنا) • وفى هذه الأثناء أخذت القبائل تتجمع استعدادا لهجوم جديد على بارا التى بدىء حصارها على يد رحمة محمد منوفل • أما جيش المهدية الرئيسى فكان يتقدم آنذاك نحو الأبيض بعد أن ترك قدير فى ١٢ رمضان (٢٨ يوليو) وهكــذا تعرضت الحاميتان الأســاسيتان بكردفان للخطــر ولم يبق بالاقليم من الحاميــات الأخــرى ســوى خورسى فى الشرق ودلنــج فى جبــال النوبا واستطاعت الأولى الانسحاب الى بارا فى ١٦ أغسطس بينما سقطت الحامية الثانية فى أيدى قوة مهدية فى ١٤ سبتمبر •

وكان الموقف داخل الأبيض لا يدعو الى الأمل — فلم يكد الخطر يقترب منها حتى بدأ الانتهازيون من أمثال اخوة يوسف ميخائيل فى جمع الغلال من المناطق المجاورة وتخزينها • ولم يحتط محمد سعيد باشا ضد هذا الاحتمال بل أنه رفض الشراء بالأسعار العالية التى سرت فى ذلك الحين وقرر تقوية حصون المدينة وتكليف الأهالى بحفر خندق • أما الحالة المعنوية فكانت ضعيفة فمعظم التجار المسيحيين هاجروا الى الخرطوم عقب هزيمة الشلالى وتسرب السودانيون القادمون من النيل للخارج • وسمع الضابط المسئول عن حفر الخندق الأهالى وهم يتبادلون الحديث قائلين « انا نحفر قبورنا بأيدينا » بينما أفسد النزاع بين فريقى الياس باشا وأحمد بك دفع الله الحياة داخل المدينة • وبناء على رأى الأخير قرر محمد سعيد باشا — وكثيرا ما كان يأخذ برأيه — تحصين المنطقة التى تشتمل على الادارات الحكومية وحدها واخلاء باقى المدينة • وأكد أحمد بك للمدير اعتزامه وأسرته قيادة النازحين الى هذا القطاع كما نصحه باستدراج الياس باشا الى هذا الجانب من المدينة بحيث يصبح كل منهما (أى هو والياس باشا) رهينة عن الجعليين وناقش محمد سعيد هذا الرأى مع رجاله الذين كان جوابهم • « اذا وافق فلا بأس ، أما اذا لم يكن راغبا فى الدخول فدعه ينصرف منعا للشقاق حيث لا قدرة لنا عليه فى هذه الأيام » وبناء عليه استدعى المدير الياس وأمره بالاقامة فى المنطقة الداخلية مع أسرته • وعندئذ ضحك الياس فى حبور وقال : يا باشا هذا مكان خاص بالادارة وليس أسرة كبيرة ولا أستطيع الاقامة مع أولادى فى الأماكن الخاصة بالحكومة • « فصمت المدير وأكمل الياس أم برير قائلا « سأعود اليك بعد استشارة أبنائى » ثم حيا منصرفا ولكنه لم يعد (١) •

وفى طريق المهدى للأبيض انضم اليه عبد الله ود النور • وفى ١٧ شوال (أول سبتمبر) عسكر المهدى فى كابا على بعد ستة أميال الى

(١) مذكرات يوسف ميخائيل (١) — رقم ٤٣ .

الجنوب الغربي من الأبيض واستدعى المنة اسماعيل الذى حضر على رأس رجال قبيلته من الطيارة الى خورتكت فى شمال شرق المدينة وادى علم سكان الأبيض بضياع الطيارة الى انهيار روحهم المعنوية بحيث أصبحوا فريسة سهلة لدعايات المهدى • وكما هى عادة المهدى فى كل قتال أرسل فى ٢١ شوال رسولين بكتب(١) لمحمد سعيد باشا وسكان الأبيض لدعوتهم الى التسليم ونصح الضباط محمد سعيد بشنق الرسولين فوافق فورا على تنفيذ هذه الفكرة الغادرة رغم انعدام جدواها • وفى مساء ذات اليوم انضم الجعليون الساخطون من أهالى الأبيض الى المهدى وعلى رأسهم من أتباعه القدامى الياس أم برير ، وعبد الله بانقا ، ومحمد المكى بن اسماعيل ، وخالد أحمد العمرابى ومحمد العريك (٢) وواحد من أبناء صالح سوار الدهب • وهكذا ترك محمد سعيد فى المنطقة الداخلية مع حاميته وعائلة أحمد دفع الله وأتباعه بالاضافة الى بعض اللاجئين •

وفى ٢٤ شوال (٨ سبتمبر) قام جيش المهدى بهجوم عام على الأبيض • وأدى هجومه الأول الى فتح ثغرة فى الاستحكامات ولكن مثابرة المدافعين على المقاومة أكسبتهم النصر بعد ساعات من القتال وقد أدى الاحتماء بالاستحكامات واستخدام السلاح النارى فى القتال الى تفوق القوات المصرية وتغلبها على الهجمات العشوائية العنيفة التى قام بها رجال لا يملكون سوى السيوف والحراب والعصى وقيل أن الأنصار فقدوا عشرة آلاف رجل من بينهم اثنان من اخوة المهدى وأخ لعبد الله بالاضافة الى قاضى المهدية « قاضى الاسلام » أحمد جبارة • وبينما هرب الأنصار الى كابا حرض أحمد دفع الله وآخرون محمد سعيد باشا على

---

(١) توجد صورة من خطاب المهدى لأهل الأبيض فى يوسف ميخائيل مجموعة (٢) ص ٢٣ وتاريخ هذا الخطاب (انظر نفس المرجع مخطوطة ٢٨) ٢٦ شوال وهذا تاريخ متأخر وغير معقول وبمقارنته بما جاء فى كتاب يوسف ميخائيل (١) ص ٤٥ عن بقاء المهدى ٣ أيام مع اللاجئين الجعليين من الأبيض قبل معركة الجمعة يتضح خطؤه •

(٢) هو رأس تجار الأبيض •

مطاردة الجيش المهزوم • ولكن المدير رفض هذه النصيحة خشية أن يهاجم المنـــة المنطقة الداخلية بالأبيض أثناء خروجهم •

وتعتبر معركة الجمعة كما أطلق عليها أول هزيمة أصيبت بها المهدية بعد انتصاراتها المتتالية وتأرجح الى حين مستقبل الثورة المهدية • وقيل أن عبد الله نصح بالارتداد الى قدير ، ولكن الياس الذى ارتبط بالمهدية نهائيا وتوقف مستقبله على نجاحهـــا فى الاستيلاء على الأبيض أعطى نصيحة كشفت عن تفهم أفضل للموقف اذ أشار على المهدى بمحاصرة المدينة وبناء عليه نقل المهدى معسكره الى الجنزرة على أطراف الأبيض•وأصبح واضحا اتجاه القيادة المهدية العليا الى الأخذ بفن الحرب الحديثة فى قتالهم مع المصريين وأصبحت الهجمـــات العشوائية لا تمثل الا نوعا واحـــدا من وسائل النصر • ويبدو أن الحصار من حول بارا تم أحكامه فى تلك الآونة وذلك بعد ارساله المنة اليها لمساعدة رحمة محمد منوفل •

ولا يقل أهمية عن ذلك ما جرى من تجديد فى الأساليب الحربية • فقد سبق للمهدى ـــ اصرارا منه على التشبه بعهد النبى ـــ أن منع استخدام الأسلحة النارية التى غنمهـــا فى المعارك السابقة ، ومن ثم تم تخزينهـــا بقـــدير • والآن بحث عن هـــذه الأسلحة وأرسل جانبا منها الى القائمين بحصار بارا أما بقيتها فاستخدمت فى تسليح قوة جديدة من غير العرب ، عرفت هذه باسم الجهادية نسبة الى واقع تكوينها من جند الحكومة الذين يحملون نفس الاسم (ومعظمهم جند من النوبا والقبائل الجنوبية) الذين أسروهم الأنصار خلال القتال • ووضع الجهادية المهديون تحت قيـــادة حمدان أبو عنجة من رجال قبيلة مندالك الدين كانوا تابعين للتعايشة وسبق لهم العمل مع الزبير باشا • وهكذا شملت قوة المهـــدى الآن بالاضافة الى الحشود القبلية الصـــغيرة التى ليس لها تنظيم والتى اعتمدت على سلاحها البدائى ، نواة لفرق مدربة ومزودة بالأسلحة النارية تمارس تحت امره المهـــدى حرفة الجندية التى تعلموها من المصريين • ومن المهم أيضا أن قيـــادة هذه القوة قد عهدت الى رجل يدين بالولاء لعبد الله التعايشى•

وفى الخرطوم أدرك عبد القادر باشا حلمى تماما خطورة الموقف فى الغرب فأرسل قوة للانقاذ تتكون من فرقتين نظاميتين ، ٧٢٥ من غير النظاميين • ولكن المهدى عرف بأمر هذه القوة وتقدمها وأمر بردم الآبار الواقعة على الطريق الى بارا والأبيض • وهكذا عانت الفرق الخارجة من الخرطوم الكثير أثناء تقدمها وعند اقترابها من بارا فى أكتوبر ١٨٨٢ اعترضها المنة ورحمه مما أدى الى مقتل قائدها ونحو نصف الرجال بينما وفق الباقون فى شق طريقهم الى بارا • ولكن المؤن المختزنة فى بارا تناقص رصيدها اذ ذاك بصورة سريعة نتيجة اندلاع النار فيها بفعل أحد أنصار المهدية الذى أفلت ملتجئا للأعداء بعد احراق مسكنه • وقرر مجلس من الضباط التسليم وتولى أمر المفاوضة النور عنقرة الذى الذى أرسل للمهدى رسالة يطلب فيها التسليم على ألا ينفذه المنة الذى كان أهل بارا يخشون سوء معاملته • وفى ١٧ صفر ١٣٠٠ (٢٨ ديسمبر ١٨٨٢) وصل عبد الرحمن النجومى الى ظاهر بلدة بارا وبدأ مفاوضاته مع النور • ولكن القائد رفض التسليم حتى ٢٦ صفر (٦ يناير ١٨٨٣) عندما فقد كل أمل فى المدد أو الانقاذ • وأعطيت عهود كافية للحامية التى حلفت بدورها يمين الولاء للمهدى فى الجنزارة وارتفعت بذلك مكانة النور عنقرة فى الدولة المهدية (١) •

وأضعف سقوط بارا الروح المعنوية لدى حامية الأبيض ، بينما كان للمعاملة الطيبة التى عومل بها الجند هناك تأثيرها على المترددين أما أهل المنطقة المحاصرة فى الأبيض فأصبحوا فى ضيق شديد وتعذر عليهم القيام بأى هجوم • وأدى تناقص المؤن الى تفكك كل تنظيم ممكن • ولكن محمد سعيد وكبار ضباطه ورجال الحامية ثبتوا باصرار يدعو للاعجاب على المقاومة مع أن الموقف كان ميئوسا منه • وفى ٦ ربيع الأول ١٣٠٠

---

(١) جاء فى شقير : تاريخ السودان ص ٦٩٧ ان المهدى ارسل اليهم عبد الرحمن النجومى بجيش كبير فسلموا له فى ٥ يناير ١٨٨٣ فجاء بهم النجومى وبالمحاصرين الى ديم الجنزارة فقابلهم المهدى بجيش كثيف وأطلق ٢١ مدفعا اعلانا للنصر .

(١٥ يناير ١٨٨٣) أرسل المهدى ثانية داعيا للتسليم (١) ولكن رسوله اعتقل ولم يقدم للمهدى عن هذه الدعوة رد . وبعد ثلاثة أيام غير الضباط رأيهم وقرروا عقد اجتماع — للمجلس واتفقوا فيه على التسليم للمهدى رغم أن محمد سعيد وأحمد دفع الله كان من رأيهم الاستمرار فى المقاومة حتى النهاية .

وفى يوم الجمعة ١٠ ربيع الأول (١٩ يناير) توقف اطلاق النار ودخل المهدى على رأس أنصاره الى المدينة . وأم المهدى صلاة النصر فى الجامع وأعقب ذلك البحث عن الكنوز المدفونة فبحسب المستويات المتواضعة لدى أهل السودان كانت الأبيض مستودعا لثروات خيالية . فبخلاف أموال الضرائب المكدسة فى خزينة الاقليم اشتهرت منازل المدير ورجاله بما يمكن أن تخفيه من أموال حرام . وهناك أيضا أموال التجار الأجانب ومخازنهم بالاضافة الى الحلى والأشياء الثمينة التى أخفيت كأمانة لحساب أولئك الذين لجأوا الى المنطقة الداخلية . ويصف أورفالدر الطريقة الوحشية التى اتبعت فى البحث عن تلك الأموال بخلاف الطرق غير الشرعية التى استخدمها رجال القبائل . وقد اهتم المهدى بتنظيم الغنيمة وجمعها لكى يملأ مخازن (بيت مال) جيش المهدية . وعهد بالاشراف على هذه العملية الى أحد أتباعه الأول واسمه أحمد سليمان وهو محسى كان يعاونه بعض الدناقلة . ومن ثم سيق الرجال والنساء والأطفال من المنطقة الداخلية بالأبيض الى مكان مكشوف حيث جرى عليهم وهم جياع عطاش تحت لفح الشمس تفتيش قاس قام به خالد أحمد العمرابى ورجاله . أما المدير وكبار ضباطه فقد منحوا العفو من المهدى وحلفوا له بيمين الولاء . وعندما سئل محمد سعيد عما يخفيه من مال أنكر وجود شىء من هذا القبيل ولكن أحد الأتباع كشف عن

---

(١) يوسف ميخائيل مجموعة (٢) ص ٣٥ وقد نقل شقير هذا الخطاب خطأ فى كتابه على انه رد لطلب التسليم .
انظر شقير : تاريخ السودان وجغرافيته طبعة مصر (الجزء الثالث ص ١٦٦ وطبعة بيروت ص ٧٠١ — ٧٠٢) .

مخبــأ أمواله وهكذا كشف عن ثروة تتراوح بين ستة آلاف جنيه أو سبعة ، صودرت فورا لحساب بيت مال المهديه وخزينتها •

وأدت محاولة محمد سعيد اخفاء أمواله الى زعزعة ثقة المهدى فيه ولكن المهدى عفا عنه ويقال أنه حاول بعد قليل ارسال تقرير عن التسليم الى الخرطوم موقع عليه منه ومن ضباطه ولكن أحـد الضباط واسمه يوسف منصــور أفشى السر فاحتجز التقرير • وبناء عليه أبعد الضباط وفرقوا بين زعماء القبائل فأرسل محمد سعيد الى الشيخ اسماعيل الأمين الدلندوك من الغديات حيث عذب بعد قليل حتى الموت بينما حكم بالموت فى شكا على أحمـد دفـع الله الذى كان من نصيب ماديبو على زعيم الرزيقات • وهكذا أخذ جماعة الياس أم برير بثأرهم من أعدائهم • وفيما عدا أولئك الأشخاص الذين شاركوا فى محاولة الاتصال بالخرطوم عومل أهل الأبيض معاملة طيبة • فجميع الأغراب (ويقصد بهم أولئك الذين من أصول غير سودانية أو مصرية بما فيهم المبشرون الذين كانوا فى دلنج مثل أورفالدر) وضعوا مجتمعين تحت اشراف جورجى استامبولى وهو تاجر سورى اتخذ اسم محمـد سعيد المسلمانى • وأدرج الذين كانوا فى الفرق الحكومية وعرفوا بالجهادية تحت قيادة حمدان أبو عنجة وزودوا بالأسلحة النارية • أما جنود الحكومة الســود فقد وضعوا تحت قيادة حسن حسين أحد المواليد ولكن لم يسمح لهم باستعمال الأسلحة النارية• ونقل المهدى مقر قيادته الى الادارات الحكومية القديمة بالأبيض وبدأ يعالج من هناك المشاكل التى ترتبت على هذا الاتساع الكبير فى أراضيه وقوته وثروته •

الفصل الثالث
معركة شيكان

١ – المهدية ونشاطها فى أرض الجزيرة :

ساد السكون أرض الجزيرة لأشهر قليلة بعد هجرة المهدى الى قدير وأن ظل عدم الرضا عن الادارة المصرية والعداء لها غير باديين • وعندما وصلت أنباء الى القوى والقبائل الواقعة بين النيلين عن انتصار المهدية على راشد أيمن والشلالى وجد مندوبو المهدية استجابة متزايدة للدعوة الى الجهاد ونتجت عن ذلك حركتا تمرد اتصفتا بضيق نطاقهما وشابهتا ما قام فى كردفان من اضطرابات طارئة ولم تكن هذه الاندفاعات الثورية خطيرة فى حد ذاتها لولا أنها عاصرت تهديدا أشد خطرا ، ألا وهو هجوم المهدى على سنار المركز الرئيسى للادارة المدنية العسكرية على النيل الأزرق • ولم تكن بسنار قوة مناسبة بعد أن نضب معين القوة التى كانت بها بعد سحب معظم رجالها حيث استخدموا فى تعزيز حملة الشلالى ولم يبق بها الا ٧٥ نظاميا ، ٣٣ غير نظامى وقاد الثوار عامر المكاشف[1] الذى اعتقل بأمر حاكم سنار وفرضت عليه غرامة باهظة لالتجاء شقيقه أحمد المكاشف وهو فقى معروف – الى المهدى • ووجد استجابة مباشرة وتأييدا لتمرده لدى بدو رفاعة الهوى الذين امتنعوا عن دفع الضرائب التى فرضت عليهم • وهاجم سنار بنحو ثلاثة آلاف من العرب واستطاع الاستيلاء على جانب من المدينة ولكنه أصيب بجرح خلال القتال ومن ثم استطاعت قوات الحكومة استعادة المدينة فى ٦ ابريل • ولم يمض على ذلك يومان حتى جدد عامر المكاشف الهجوم ونجح فى قطع الخط البرقى المؤدى اليها • ولما كان حاكم سنار قد أحاط الخرطوم بالموقف فان جيجلر – القائم بعمل حاكم السودان – أمر قوة مؤلفة من الجند غير

---

(١) يسميه شبيكة يكاشفى ، ويسميه هل تكاشفى .

النظاميين – يقودها صالح أغا الملك الشائقى – بالتحرك من الكوة للنجدة والانقاذ ، ووصلتها القوة فى ١٣ ابريل واستطاعت رفع الحصار عنها •

وتقـدم جيجلر أيضا مع امدادات أخرى وفى طريقه واجه حركات التمرد والعصيان السابقة الذكر ولكنه لم يمكث كثـيرا بالاقليم بل عاد الخرطوم بينما واصل صالح الملك عملياته ضـد أنصار المهـدية ونجح فى تفريقهم فى ٣ يونيو •

وفى هذه الآونة انتقلت القيادة العليا فى السـودان للحاكم العـام الجديد عبد القـادر باشا حلمى الذى وصـل الخـرطوم فى ١١ مايو . وخصص كل جهده فى سبيل اخماد الثورة الآخذة فى الاتساع • واستطاع جمع ثلاث فرق نظامية من السودان الشرقى ووضع أكثر من ثمانية آلاف رجل من غير النظاميين فى العاصمة كما أتم تكوين ثلاث فرق من السود اثنتان منهما تكونتا من رقيق أعتقه سادتهم والفرقة الثالثة من المجندين الذين جلبوا من اقليم بحر الغزال • ووضعت المراكز الأساسية للادارة فى حالة تأهب للدفاع كما عززت حامياتها ببعض الرجال من الفرق التى جمعت بالخرطوم وجرت حملة دعائية ووزعت منشورات لطمـأنة السودانيين وألح عبد القـادر على الحكومة المصرية خـلال شهرى يونيو وسبتمبر لارسال الامدادات ولكن تعذر على عرابى وحكومته اذ ذاك تلبية النداء الأول أما الثانى فلم يصـل فى الواقع الى القـاهرة الا بعـد معـركة التـل الكبير • وفيما يتعلق بالموقف فى سنار فان عبد القادر باشا وجد فى سلوك بعض العاملين بها سواء من رجال الادارة أو من الكتبة ما يثـير الشك فى ولائهم فاستدعوا للخرطوم حيث ألقى بهم فى النيل الأبيض جزاء خيانتهم ، كما استدعى حاكم سنار ووكيله بسبب ما أدى اليه الخـلاف بينهما من آثار سيئة • وقد أزاح جيجلر وعبد القادر بجهودهما التى تنم عن التصميم الخطر الذى تعرض له النيـل الأزرق ولو الى حين وحينئذ انتقل مركز الثورة الى النيل الأبيض حيث أرسل المهدى مبعوثيه ومن بينهم الشيخ المضوى عبد الرحمن بعد هزيمة الشلالى •

وهـذا الرجل من المحسن وقـد درس فى الأزهر واتخذ له مقرا فى كركوج فى أعالى النيل الأزرق وقد أوقع ظهور محمد أحمد وانتصاراته الأولى هـذا الشيخ فى صراع نفسى ، اذ كيف يحدد موقفه ـ باعتباره رجل دين متفقه بالاضافة الى كونه سودانيا ـ نحو هـذا المواطن الذى يعمل مثله معلما دينيا والذى يدعو الى أفكار خارجة عن العقيدة ويحارب فى نفس الوقت دفاعا عن العقيدة محرزا نصرا تلو آخر • وأخيرا قرر المضوى الهجرة الى قدير حتى يحكم على الأمر بنفسه • وقرر هناك كما ذكر لشقير فى عام ١٨٩٠ أن ادعاءات المهدى غير صحيحة ولكنه أخفى عدم تصديقه اياه بذكاء فخدع به المهـدى وكلفه بقيادة البعثـة الى الجزيرة واتجهت البعثة الى الجبلين على النيل الأبيض حيث قابلهم جمع من المتحمسين من قبيلة رفاعه الهوى • واذ وجد المضوى فرصة مناسبة هرب الى الخرطوم حيث غير موقفه ثانية فيما بعد •

وعندما علم عبد القادر حلمى بهذا الخطر الذى ترتب على تجمـع الأنصار على النيـل الأبيض أمر بجمع قوة من غير النظاميين ومن رجال القبائل فى الكوه • وأدى الاشتباك الذى حـدث فى الجبلين فى أواخـر شعبان ١٢٩٩ هـ ـ منتصف يوليو ١٨٨٢(١) الى هزيمة القوات الحكومية، بينما عاد القائد الى الدويم التى تمثل مركزا حكوميا على النهر على بعد ٨٠ ميلا من الخرطوم ونجح مبعوثو المهـدى خلال هـذه الفترة فى اثارة المنطقة المحيطة بالدويم وسقط المركز الحكومى فى الشط فى أيديهم فى ٨ أغسطس على حين أمكن بنجاح صد هجومين مهديين على الدويم وقع آخرهما فى ١١ نوفمبر وذلك بفضل مساعدة قوة وصلت من الخرطوم تحت قيادة جيلجر باشا •

وهكذا فما وافت نهاية عام ١٨٨٢ حتى أمكن وقف زحف الأنصار على النيـل الأبيض ولو بصـورة مؤقتة ولكن لم تكد الادارة تستعيد

---

(١) يتبع هـذا الكتاب التاريخ الوارد فى شقير طبعـة مصر جـ ٣ ص ١٤٨ • وطبعة بيروت ص ٦٧٨ ـ ٦٧٩ أما شبيكة فيحدد تاريخ للمعركة على أنه حوالى ٥ أكتوبر •

مكانتها فى احدى الجهــات حتى تعرضت للخطر فى جبهــة أخــرى — اذ حدثت ثورة محلية آنئذ فى غرب الجزيرة تزعمها فقى اسمه فضل الله ود كريف الذى قطع الخط البرقى بين الكوة والمسلمية كما هزم قــوة ارسلت من الكوة فى منتصف شهر ديسمبر • وفى تلك الأثنــاء أرســل المهــدى أحمد المكاشف لمهاجمــة سنار وبعد دخوله الشط وفشله فى الاستيلاء على الدويم — كما سبق أن أشرنا — اتخذ لنفسه مركزا على النيل الأزرق شمال سنار وقطع الخط البرقى بين هذه المدينة والخرطوم •

وقد قرر عبد القادر باشا — الذى كانت قد وصلتــه امدادات من مصر — اتخاذ خطة الهجوم وقاد بنفسه قوة للانقــاذ الى سنار • فغادر الخرطوم فى ٢ يناير سنة ١٨٨٣ وتقدم مخترقا غرب الجزيرة • وفى طريقه اتصل بالزعماء المحليين ونصحهم بالابقاء على ولائهم لمصر وقد اختــار عبود قاعدة له وركز فيها قواته • ومن هناك تحــرك الى معتوق فى شرقى الجزيرة حيث هزم الثوار الذين كان يقودهم فضــل الله ودكريف فى ٢٧ يناير ، ثم توجه الى الكوة حيث أرسل منها قوة عبر الجزيرة الى واد مدنى ومع أن عبد القادر عاد بالمركب البخارى الى الخرطوم الا أنه لحق فى فبراير بقواته فى واد مدنى لانقاذ سنار • وعززت القوة الموجودة هناك بفرسان الشكرية تحت قيادة الشيخ عوض الكريم أبو سن • وعند مشرع الداعى على بعد ٢٠ ميلا شمال ســنار حدث الاشتباك فى ١٦ ربيع الثانى ســنة ١٣٠٠ هـ (٢٤ فبراير ١٨٨٣) وهزم الأنصار فيه هزيمة ساحقة • ودخل الحاكم العام سنار فى اليوم التالى بعد أن أرسل صالح أغا الملك لمطاردة الثوار فلحق بقوتهم الرئيسية فى قلب الجزيرة حيث حصل على نصر حاسم عليهم ومر عبد القادر باشا عقب انتصاره بالمناطق الموجودة على الضــفة الغربية للنيل الأزرق حتى كركوج ثم عاد سالكا جانب الضفة الشرقية له حتى الخرطوم مقرا للسلام والسكينة فى البلاد حيثما مر • وعند عودته للخرطوم استدعى الى مصر وخلفه علاء الدين باشا صديق وهو مصرى من أصل شركسى وقد وصل للخرطوم فى ٢٠ فبراير •

٢ ـ حملة هكس :

أدى الاحتلال البريطانى لمصر عقب معركة التـل الكبير فى سبتمبر ١٨٨٢ الى مزيد من الارباك للسلطات الموجودة فى الســودان . وكانت الحكومة البريطانية فى ذلك الحين مخلصة فى عزمها على تحديد مسئولياتها ازاء أملاك الخديوى وانهـاء الاحتلال فى أقرب فرصة ممكنة . وبرغم أن الموظفين البريطانيين فى القـاهرة أدركوا خطورة الحـركة الثورية فى السودان ونقلوا وجهة نظرهم هذه الى وزارة الخارجية الا أن الحكومة البريطانية رفضت التدخل بشدة كما رفضت الاقتراحات الخاصة باستخدام فرق بريطانية أو هندية فى السودان . ومع ذلك أرسل مسئول بريطانى هو ليفتنانت كولونيل ستيوارت الى الخرطوم فى شهر نوفمبر ليـدرس الموقف عن كثب ويكتب عنه تقريرا وان حصرت مهمته بحيث « لا يجـوز له بأى حال التدخل فى الشئون العسكرية » وقد نجح ستيوارت فى توطيد صـلاته الودية مع عبد القادر باشا حلمى واعترض بشدة على استدعائه واذا كانت بريطانيا رفضت اقحام نفسها فى مسئوليات الســودان الا أن ذلك لم يمنع حكومة مصر من بذل جهـد جاد لتصحيح الموقف هناك . فلعل الصمود فى وجه المهـدى وحركته ينقذ مكانة محمد توفيق ووزرائه الذين لم يكونوا سـوى أدوات تتحكم فى تحريكها سلطات الاحتـلال بمصر . وسرعان ما أعدت حملة وما حل ديسمبر حتى وصلت التعزيزات الأولى الى الخرطوم ووضعت خطط عدة لقيادة القوات السودانية .

واستقر الرأى فى النهـاية بعد استدعاء عبد القادر باشا الى اسناد القيـادة المدنية الى علاء الدين باشا صديق بينما تركت القيادة العسكرية العليا لشركسى يكبره سنا هو سليمان باشا نيازى على أن يعاونه انجليزى هو الكولونيل وليم هكس باعتباره رئيسا لأركانه .

ولم تبـد حكومة بريطانيا اعتراضا على تعيـين هكس وهو ضابط بريطـانى متقـاعد سبق له العمـل فى الجيش الهندى وكانت التزاماته الجـديدة متصلة بالحكومة المصرية والعـلاقة الوحيـدة التى نشـأت بينه وبين الحكومة البريطانية جاءت نتيجة ما كلف به من استلام الشفرة

التى كان يحتفظ بها ستيوارت واستخدامها فى الابلاغ عن المعلومات التى تصل الى علمه ، ولم تكن الحكومة البريطانية مسئولة بأى شكل عن ارسال حملة كردفان لقتال المهدى وكان أسوأ ما فى الموقف استدعاء عبد القادر باشا الذى خبر العدو وأثبت جدارة فى الميدان • واستطاع تخفيف الخطر المباشر على الخرطوم مما كان يمكن أن يتيح فرصة لمشروع التقدم غربا • أما الآن فان سلطاته وزعت بين ضابطين اقتصرت خبرتهما على شرق السودان بما له من ظروف مغايرة • ولم يوضع هكس فى المكان المناسب له فلم تكن له بشئون السودان خبرة سابقة وتزايد احساسه بالمضايقات التى ترتبت على وضعه الوظيفى كمرؤوس لقائد تركى كبير السن بالاضافة الى ما كان له من اتصالات بسلطات الاحتلال البريطانية — وفى أول رسالة كتبها الى سير ادوارد مالت القنصل العام والوكيل البريطانى — عبر عن شكواه من أنه لا يمكنه احراز « تعاون فعال أو معلومات كاملة » وتزايدت العلاقة توترا فيما بينه وبين سليمان باشا الى أن أبعد سليمان فى يونيو ١٨٨٣ • وفى الشهر التالى تسلم هكس سلطاته كاملة باعتباره قائدا عاما •

وسرعان ما وجد هكس نفسه وقد ورث المشاكل التى واجهت عبد القادر • فهناك اخباريات وصلت فى شهر ابريل عن تجمع الأنصار فى الجبلين • وبناء عليه قاد هكس حملة موفقة ضدهم انتهت بهزيمتهم عند المرابيع جنوب آبا فى ٢٩ ابريل وخلال المعركة قتل أحمد المكاشف وتلقى هكس فروض الولاء من كثير من الزعماء المحليين مما جعله ينظر للموقف بشىء من التفاؤل ، ومن ثم عاد للخرطوم ليعد لتقدم أكبر نحو كردفان ، حيث تكشف له المشروع عن صعاب كثيرة منها أن تقدمه سيبعده عن قاعدته الأصلية ويزج به فى بلاد معادية فى نهاية موسم الأمطار وهو فصل غير مناسب للصحة عموما وكان لابد من نقل المؤن وانشاء نقاط حصينة لحراسة خطوط المواصلات وهكذا فلم يمكنه تشكيل قوة ضاربة تزيد

على ٣٫٠٠٠ من واقع المشاة الذين تحت تصرفه وعددهم خمسة آلاف وفى يونيو أبلغ القاهرة أن العملية لا يمكن القيام بها بأقل من عشرة آلاف جندى ـ وقد قدرت تكاليف هذه العملية بحوالى ١٢٠٫٠٠٠ جنيها .

وقد أرسل مالت هذا التقرير المتشائم الى لورد جرانفيل وزير الخارجية مع اقتراح بالتنبيه على هكس بحصر عملياته فى اقليم الجزيرة فالحكومة البريطانية كانت لا تزال مصرة على عدم التدخل وتجنب المسئوليات وقد أصدرت تعليماتها لمالت « لاخطارها فورا بقرار الحكومة المصرية مع الحرص على عدم ابداء أى نصيحة » ولكن حكومة مصر كانت لا تزال مصرة على اتباع سياسة ايجابية فيما يتعلق بكردفان ـ فجمعت تعزيزات أخرى وواصل هكس استعداداته بقدر استطاعته . وعندما استعرضت الحملة رجالها فى أم درمان فى ٨ سبتمبر كان بها ٧٠٠٠ مشاة ، ٥٠٠ فرسان ، ٤٠٠ فارسا من غير النظاميين ، وصحبها ٢٠٠٠ من الأتباع ، كما ألحق بها ٥٥٠٠ من الابل للنقل والحمل واتخذت الدويم كقاعدة للحملة حيث انضم هكس الى علاء الدين باشا الذى كان عليه أن يشغل وظيفة أكبر الضباط السياسيين والاداريين .

وقبل مغادرة الدويم ناقش هكس مع علاء الدين الطريق الذى يجب عليهما أن يسلكاه وقرر هكس الزحف مباشرة الى بارا الواقعة على بعد ١٣٥ ميلا وبذلك يهاجم المهدى فى الأبيض من الشمال ويمتاز هذا الطريق بأنه قصير نسبيا وأنه يخترق أرض الكبابيش الذين لم ينضموا بعد علنا للمهدى (١) . وقد تخوف علاء الدين من قلة الماء على هذا الطريق وأقنع هكس بسلوك طريق آخر نحو الجنوب يتجه الى الرهد جنوب شرق الأبيض ظنا منه فى سهولة العثور على الماء فى هذا الطريق من الآبار ومن خور أبو حبل وهو مجرى مائى موسمى يجرى من الغرب

---

(١) بعد سقوط الأبيض توجه وفد من الكبابيش على رأسه الشيخان صالح بك والتوم فضل الله سالم واخذ معهما هدية من الابل للمهدى ويبدو أن هذا لم يؤد الى تحسين العلاقات معه اذ افلت صالح هاربا بعد فترة بينما صفد التوم بالاغلال .

الى الشرق نحـو النيل الأبيض • ويؤدى هـذا الطريق الى أرض غير مكشوفة وامتداده نحو ٢٥٠ ميلا وهو أكثر طولا من الطريق الأول كما أنه يجتاز مناطق الجوامعة والغديات الذين كانوا قد قاموا بالفعل بدور كبير فى الثورة • ومنذ البداية لم يكن التفاهم بين القائدين الرئيسيين على ما يرام — فقد حدثت خلافات حادة بين هكس وعلاء الدين وكذلك بين هكس وحسين باشا مظهر القائد المصرى العام •

وفى ٢٧ سبتمبر غادرت القوة الدويم وسارت الفرق على هيئة مربع يضم فى مركزه ابل الحملة • وحدث التوقف الأول للحملة فى بلدة شط بصورة غير نظامية مما أدى الى تبادل الاتهامات بين كل من هكس وحسين باشا مظهر • وفى التوقف التالى تجدد الخلاف — فقد أعد هكس خطته على أساس تأمين خط مواصلاته بانشاء اثنى عشر مركزا حصينا وضـع فى كل منهـا احتياطيـا كافيـا من المؤن وعارض عـلاء الدين هـذا التخطيط على أساس أن هذه المراكز والقوات الموجودة بها ستعجز عن مقاومة هجوم العدو وانها فى أحسن الأحوال ستصبح شبه محاصرة فيتعذر عليها الحصول على الامدادات اللازمة •

ونوقش الموضـوع أمام مجلس من الضباط واضطر هكس للتنازل عن خطته ومن ثم تقـدم الجيش فى أرض صعبة مهجورة • وأدى نقص المـاء الى ضعف نظام الفرق وانحطاط الروح المعنوية وبالاضافة الى ذلك فقد كان العدو يتحرك بالقرب منهم •

ولم يكد المهدى يعلم بنبـأ تحرك حملة هكس من الخـرطوم حتى أرسل يستدعى رجال القبائل التى تفرقت بعد سـقوط الأبيض • وغادر مقره فى المدينة ثم أقام خيمته فى ظل شجرة على مشارفها حيث قام بسرعة معسكر كبير وعمد الى استعراض جيوشه يوميا واطلاق النيران باستمرار حتى تألف الخيول جو المعركة • وأرسلت قوة استطلاعية تحت قيـادة محمد عثمان أبو قرجه وعبد الحليم مساعد وعمـر بن الياس أم برير • وكلف الأنصار بمراقبة تقـدم هكس وقطع مواصلاته وتعطيل سيره على أن يتجنبوا الدخول معه فى معركة مباشرة وقد وصلوا الى الجيش المصرى

للمرة الأولى فى ١١ أكتوبر ثم لاحقوه عن كثب وردموا الآبار وتصيدوا المتخلفين مما جعل تناول الابل للمرعى أمرا مستحيلا كما علقت نسخ من منشور للمهدى بتاريخ ١٩ ذو الحجة ١٣٠٠ (٢١ أكتوبر ١٨٨١) (١) على فروع الأشجار حتى يقرأه الجنود وقد جاء فيه « ... أنه لايخفى على ذى عقل أن الأمر بيد الله لا يشاركه فى ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لأحد الا من عصمه الله تعالى فاذا فهمتم ذلك فاعلموا أن الله واحد فلا تغتروا بأسلحتكم ولا بجنودكم التى تريدون أن تقاتلوا بها جنود الله (٢) فان لا قوة لشىء دون الله وان قلتم أن مهديتنا مكذوبة فاعلموا أن الكذب انما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف المخاوق ويستعجز قوة الله فاذا فهمتم ذلك فلا تغرنكم أقوال علمائكم ... » .

وفى ٢٤ أكتوبر وصلت الحملة الى الرهد حيث توقع هكس وصول امدادات قبلية من آدم ملك تقلى ولكن مددا من هذا القبيل لم يصل رغم انتظار الجيش هناك ستة أيام استهلك فيها كثيرا من المؤن التى تناقصت وتعرض فيها لهجمات العدو ، واستقر الرأى بعد مشاورات عديدة بشأن الطريق الواجب اتخاذه للتقدم أخيرا صوب الأبيض على سلوك طريق علوية فى قلب بلاد الغديات — ومن ثم استؤنفت فى ٣٠ أكتوبر (٣) المسيرة الشاقة للحملة . وكان المهدى يتلقى يوميا فى تلك الآونة تقارير عن انهيار معنويات رجال هكس وما انتابهم من يأس . وفى أول نوفمبر تحرك جيشه الرئيسى من الأبيض تاركا مجرد حامية صغيرة للمحافظة على المدينة .

وحدث الاشتباك الأول بين القوتين فى ٣ نوفمبر عندما صب جهادية

---

(١) توجد صورة مؤرخة من المنشور فى وثائق يوسف ميخائيل (٢) ص ٣٨ .

(٢) استند المهدى هنا الى أن الجيش المصرى باعتماده على البنادق انما يستعين بقوة أخرى بالاضافة الى قوة الله وبذلك يقترف الجنود المصريون خطيئة الشرك بالله .

(٣) لقد اتبعت تاريخ ثيوبولد لاقامة هكس فى الرهد (انظر ما سبق) . لأنه ابنى على مذكرات عباس أفندى الذى رافق البعثة . ويحدد شقير وأورفالدر وصول الحملة وقيامها من الرهد بيومى ٢٠ ، ٢٦ أكتوبر على التوالى .

أبو عنجه نيرانهم الحامية على المصريين بينما كانوا يشقون طريقهم بصعوبة فى أرض متشابكة الأشجار وتكرر الهجوم فى اليوم التالى • وفى ٥ نوفمبر انقسمت الحملة المصرية ــ التى كانت تعانى بشــدة من قلة المــاء وعدم النوم ــ الى ثلاثة مربعات تحف بأجنحتها الخيالة وسارت بهــذا الشكل محاطة بالأنصار من كل جانب • وعند شيكان أعطى المهــدى أمره للقيام بهجوم شامل وسرعان ما تحولت المعركة الى مذبحة كانت فيها نهاية هكس وعلاء الدين مع جميع رجال القوة عدا ٢٥٠ رجلا • كما ذبح كثــير من الضباط الأوربيين منهم أودونوفان مراسل جريدة الديلى نيوز ، وفيزتلى رسام جريدة لندن نيوز المصورة • والأوربى الوحيد الذى نجا من رجال الحملة ألمــانى مغامر يدعى جوستاف كلوتز انضم الى الأنصار فى الرهد • وهكذا تم القضاء على الحملة المصرية ، وبعد سبعة أيام من المعركة دخل المهــدى الأبيض فى موكب النصر مسبوقا بالألوف من الأنصار المنتصرين وبينهم عدد قليل من الأسرى الذين نجوا من الابادة فى المعركة •

٣ ــ نتائج معركة شيكان :

وسرعان ما أدرك الناس داخل السودان وخارجه ، مغــزى هــذا النصر المؤزر ، اذ أنه أرغم الحكومة البريطانية على التزام سياسة عدم التدخل مما سيؤدى لنتائج سنتبينها فيما بعد • كما رفع قدر المهدى لا فى داخل السودان فقط بل أيضا خارجه فى العــالم الاسلامى وذكر شــقير أن بعثات وصلت من الحجاز والهند وتونس ومراكش لزيارة المهــــدى والاستماع لتعاليمه • أما سلطات الخرطوم فبــدأت فى سحب الحاميات الخارجية من فاشــودة والكوة وشط والدويم بينما أخــذ المهــدى فى الاعداد للخطوة التالية وهى حصار الخرطوم والاستيلاء عليها •

ولعــل أهم الآثار المباشرة لمعركة شيكان هى انهيار الادارة المصرية فى دارفور وبحر الغزال • وبرغم أن السيطرة على دارفور منذ ضمها لم تكن تامة الا أن الاضطرابات التى حدثت هناك لم تأخذ طابعــا مهدويا حتى أواسط عام ١٨٨٢ • وقد أفادت قضية المهدى من عاملين : تمرد قبيلة الرزيقات ، والمركــز الذى كان يحتله فى ادارة الاقليم محمد بك خالد

المشهور باسم زقل . وقد سبق أن عرضنا لأهمية الرزيقات وكان العداء مستحكما فى ذلك الوقت بين زعيمها ماديبو بك على وعجيل ود الجنقاوى.

وفى عام ١٨٨١ عزل ماديبو من زعامة القبيلة وهاجر فى أوائل عام ١٨٨١ الى المهدى فى جبل قدير ثم طلب منه العودة بعد هزيمة الشلالى الى قبيلته لدعوتهم الى الجهاد وبرغم سلبية عجيل الا أن الرزيقات ما لبثوا أن أصبحوا نواة للثورة فى جنوبى دارفور وهددوا قاعدة الحكومة فى شكا تهديدا مباشرا . أما محمد خالد فكان وكيلا لحاكم دارا . وقد سبق له العمل فى مناصب ادارية متعددة بدارفور واكتسب كثيرا من الثراء والنفوذ وفضلا عن ذلك فقد كان من أقارب المهدى . وقد نظر اليه سلاطين الذى أصبح حاكما عاما لدارفور فى سنة ١٨٨١ — بعين الشك ولكنه دافع عن ولائه لحكومة مصر . ومع تقدم المهدية وانتشارها ازدادت بالتبعية خطورته . ولكن موقف سلاطين الحرج ألزمه بمداراته فى شىء من الحرص .

وعندما عرف ما أعتزمه ماديبو من الهجوم على حامية شكا أعد سلاطين قوة لانقاذها فاتخذ ماديبو موقفا عدائيا صريحا نحو سلاطين وبرغم هزيمة الرزيقات فى هجوم ليلى الا أن سلاطين اضطر للعودة الى دارا . وهنا أخليت شكا من حاميتها وبذلك أحرز الأنصار السيطرة على دارفور . وفى أكتوبر ١٨٨٢ قاد سلاطين حملة أخرى الى بلاد الرزيقات على أمل استرجاع شكا . ولكن هزيمته كانت فادحة فى معركة أم ورقات وأرغم على العودة الى دارا ثانية . وفى تلك الآونة هددت حركة أخرى من القبائل أم شنقه وهى نقطة على الطريق بين الأبيض والفاشر .

وبناء على تعليمات سلاطين استدعى القائد الشائقى عمر محمد خير ترحو الشائقى (لاشتباهه فى وجود اتصالات بينه وبين محمد خالد لخيانة مصر) مع الفرق الرئيسية التابعة له للفاشر . وتركت قوة صغيرة من الخيالة تحت قيادة شائقى آخر هو العطا ود أصول للدفاع عن الموقع.

وفى طريق عودة سلاطين الى دارا تزايد شعوره بعداء ضباطه الذين حركتهم نجاحات العرابيين فى مصر كما ازداد مركزه حرجا فى يناير ١٨٨٣ عندما ذاع خبر سقوط الأبيض وكانت القبائل العربيـة بصفة عامة قد انضمت الى الثورة • ورفض العطا تنفيـذ الأوامر الصادرة اليه لاخلاء أم شنقه وفى تلك الأثناء تلقى سلاطين أخبارا عن اعتزام الفرق الفوراوية الموجودة فى دارا الانضمام الى عبد الله دود بنقه المطالب بعرش دارفور وكان مرابطا فى المنحدرات الغربية من جبل مره وأصـدر سلاطين حكما باعدام ستة من المتـآمرين ضربا بالرصاص بعد محاكمة عسـكرية ولكن انتشار السخط بين ضباطه وقواته أصابه بالارتباك • وفى محاولة أخيرة منه لكسب ولائهم أعلن اعتناق الاسـلام واتخـذ له اسم عبد القـادر سلاطين وهو الاسم الذى عرف به فى السودان خلال عهد المهدية وأصبح الآن فى عزلة تامة عن كل من الخرطوم ومصر ، وانتهى ما كان له من نفوذ فى جنوب دارفور كما أصبح جمع الضرائب فى الشمال أمرا مستحيلا منذ زمن بعيد برغم أن قبائله لم تعلن الى ذلك الحين عن عدائها الصريح •

وقد تزايد نفوذ محمد خالد مع تناقص مكانة سـلاطين ، ومن ثم قرر الأخير كسبا للوقت ، وازاحة له من الطريق ارساله فى بعثة الى المهدى وطمع سلاطين فى الصمود بعد أن وصلت دارفور أنباء عن حملة هكس حتى يتم القضاء على المهدى • وفى غيبة محمد خالد استطاع سـلاطين تقوية تحصينات دارا كما قاد حملة موفقة ضد بنى هلبه حلفاء الرزيقات • وهزم ماديبو ولكن هذا النصر فقد كثيرا من أهميته بسبب فشـل عمر ترحو فى القضاء على الثورة العربية التى نشبت فى الشمال ـ تلك الثورة التى أدت الى قطع الطريق بين دارا والفاشر • وهنا جمع ماديـو قواته وبدأ حصاره لدارا ذاتها ونقصت مؤونة الحاميـة من الذخيرة بصـورة خطيرة حتى أن سلاطين لم يجرؤ على البدء بالهجوم • ومحاولة منه لكسب مزيد من الوقت شرع فى مفاوضة المحاصرين وكتب للمهدى عارضا التسليم لأحد أقربائه على أن يرسل هيئة كاملة لاستلام ادارة دارفور • وعارض

ماديبو فى هـذه الفكرة ، ولكن قبلها حلفاؤه ورفع الحصار فى انتظار وصول مندوب المهدى •

وفى أواخر عام ١٨٨٣ وصلت دارفور أخبار هزيمة شيكان وأدرك سلاطين عبث الاستمرار فى خدعته الأخيرة • ووصل محمد خالد الى الأبيض فى أوائل شهر سبتمبر وقلده المهدى حكومة دارفور بعد هزيمة هكس وأطلق عليه لقب مدير عموم دارفور[1] ، وفى ١٦ نوفمبر اتخذ محمد خالد طريقه الى الاقليم الذى أختير له • واستسلمت له أم شنقه وكتب لسلاطين فى دارا داعيا اياه للتسليم وتأكد سلاطين من استحالة المقاومة فقرر فى ٢٣ ديسمبر التسليم لمحمد خالد • أما العاصمة المحلية الفاشر فكانت تحت قيادة ضابط مصرى هو السيد بك جمعة خلال غيبة سلاطين فى الجنوب • وقد قرر الاستمرار فى المقاومة واستطاعت حامية الفاشر الثبات أمام الحصار الذى قاده عمر ترحو لسبعة أيام أخرى ولكنها استسلمت فى ١٥ يناير سنة ١٨٨٤ واحتل السيد جمعة وعمر ترحو والعطا ود أصول مراكز بجيش المهدى •

وقد سبق لسلاطين عندما كان فى أم ورقات فى ١٨٨٣ أن أرسل كتابا للبتون بك حاكم بحر الغزال أطلعه فيه على الموقف فى دارفور وطلب منه القيام بهجمة على الرزيقات والهبانية حتى يضطروا الى تخفيف ضغطهم عن قوات دارفور • ولكن لبتون الذى عين خلفا لجسى فى بحر الغزال كان لديه ما يكفيه من المتاعب وبرغم أن القوة الموجودة بهذا الاقليم لم تكن من المسلمين أو العرب الا أن المهدية استطاعت أن تكسب تأييدهم سريعا • وهذا الموقف الغريب جاء نتيجة أحداث متصلة بتجارة الرقيق ، والخطوات الحاسمة ، المتميزة بالحماقة التى اتخذها غوردون وجسى للقضاء عليها •

---

(١) أمير عموم دارفور وغير اللقب فى رجب ١٣٠١ (مايو ١٨٨٤) الى عامل المهدية فى دارفور وواضح أن الاسم الاصلى كان مقتبسا من المصطلح المصرى ... مدير عموم دارفور .

وكان اقليم بحر الغـــزال على شفا الفوضى منذ رفعت عنه يد الزبير القـــوية وأدى التنافس بين ادريس أبتر وسليمان ود الزبير الى تفجـــير الخلاف بين جماعات الدناقلة والجعليين المهاجرين من الشمال ، ذلك أن جسي خلال قمعــه لثورة سليمان فعـــل ما فعله غوردون فى الشـــمال حين سمح للقبائل المحلية بتعقب الجلابة • وبذل جسي عقب هزيمة سليمان وقتله محاولة طيبـــة لتنظيم الادارة والقضاء على تجارة الرقيـــق انعاشا للتجارة فى الاقليم • ولكن هذه المحاولة كان ميئوسا منها •

وقد تساءل جسي كيف أستطيع اعادة الثقة والأمن بمعونة أربعـــة آلاف عربى فقط يعملون على حفظ النظام بينما هم أنفســـهم لا يقلون قســـوة ووحشية عن رجال سليمان ؟ (١) وفى سبتمبر ١٨٨٠ توجه الى الخرطوم حيث قدمت لمحمد رؤوف باشا شكاوى ضده • وكان بامكان الشماليين بعد مغادرته للاقليم اســـتعادة سيطرتهم عليه الا أن القبـــائل الزنجية كانت قد أصبحت قوة يحسب لهـــا حساب فقد حصـــلوا على أسلحة نارية وأفادوا من الجهود التى بذلها غوردون وجسي لرفع قدرهم فى الوقت الذى تعرض فيه أبناء الشمال للضغط • ولكن عدم استقرار الادارة الاقليمية التى كانت تعتمد كثيرا على الهيئة الموروثة عن الاتجار بالرقيق فى المـــاضى جعلها لا تصل الى نتائج طيبـــة أو ثابتـــة ومن ثم لم يتقبل المواطنون رجال الادارة بأفضـــل مما تقبلوا به تجـــار الرقيق وتلمسوا الفرص لازاحة هـــذه السلطة الجديدة • ولم يكن لبتون ، خليفة جسي بالرجل الذى يستطيع التغلب على هذه الصعاب الكبيرة التى واجهته فهو ضابط سابق فى الأسطول التجارى البريطانى ولم يكن له من العمر عند تعيينه أكثر من ٢٦ عاما • واتصف بحب المغامرة وبكثـــير من الشجاعة والصلابة ولكن ما كان ينقصه هو الموهبة اللغـــوية وغيرها من المواهب اللازمة لادارة شئون بحر الغزال المعقدة • وقد وصفه أمين حاكم المديرية الاستوائية بأنه مجرد رئيس اسمى لا حول له ولا قوة •

---

(١) F. Gessi (ed) Seven Years in the Souden ... by Romolo Gessi pasha. lond. 1892

وعندما شبت الثورة المهـدية كان المقر الادارى لبحر الغزال فى البلدة التى عرفت باسم ديم سليمان أو ديم الزبير القاعدة القديمة للزبير • وهناك استقر لبتون كحاكم عام وساتى بك كمدير • وقسم الاقليم الى ثمانية أقسام يدار كل منهـا بواسطة ناظر وكان سبعة منهم من الدناقلة والثامن جعلى • واشتمل الاقليم على قبائل زنجية متنوعة أكبرها الدنكا (وتحتوى على فروع أصغر) احتلت المساحات الشمالية بجوار بحرى العرب والغزال وتوقف أمن الاقليم من الناحية الاستراتيجية على السيطرة على اقليمين يمر بهما خطا الاتصال بالسودان الشمالى أولهما هو المخرج النهرى من محطة مشرع الرق عن طريق « السـد » الى النيل الأبيض ، وثانيهما المنطقة الشمالية الغربية جنوب بحر العرب الأعلى • وفى هـذه المنطقة كانت تختلط القبائل العربية والزنجية التى استقرت الى الجنوب من منطقة البقارة الأصيلة •

وقد بدأت الحركة المهدية فى بحر الغزال فى أواخر عام ١٨٨١ عندما زار جماعة من شيوخ الزنج المهدى فى جبل قدير وحلفوا له يمين الولاء • وقـد أعيدوا لأقاليمهم لطرد الأتراك ووعدوا بممارسـة حرية كاملة فى أراضيهم • وكان أول من بدأ الثورة هم رجال قبيلة لفى بجوار بحـر العرب وقد هزموا قوة أرسلها لبتون بقيادة رجل دنقلاوى هو محمـد النصرى • وفى حركة آخرى نشبت فى فبراير ١٨٨٢ نجح النصرى فى تفريق الثوار • وقد ساد الاقليم بعد ذلك الهدوء لمدة بضعة أشهر الى أن وصلت أنباء عن هزيمة الشلالى وثورة الرزيقات بزعامة ماديبو على وحينئذ قام زعيم بالمنطقة الشمالية الغربية من الاقليم وهو الشيخ يانكو شيخ مركز تل قونة (١) بذبح الحامية المحلية من غير النظاميين وهرب الى ماديبو فى

(١) حدد سانتندريا مكان تل قونه عند التقاء نهرى بورو وسـوبو حيث يكونان نهر لول . S. N. R. xxxvI/2., 1955, 189

٢ شـــوال ١٢٩٩ (١٧ أغسطس ١٨٨٢) ومنذ ذلك الحين عمـــل يانكو وماديبو متعاونين فى ســـبيل اقلاق لبتون وســـلاطين وعزل كل منهما فى اقليمه (٢) •

وبعد معركة أم ورقات فى أكتوبر عاد يانكو مـــع بعض الرزيقات ليثير الاضطراب فى اقليمه هـــو فوجهت ضـــده قوة تحت قيادة محمـــد عبد الله المحلاوى مفتش مقاومة تجارة الرقيق بالاقليم ولكنه سقط مريضا وتولى رفاعى أغا الزبير وهو ناظر قسم دنقلاوى قيادة هذه العملية بعده وحصل على نتائج باهرة فى فبراير ١٨٨٣ ، ومرة ثانية هرب يانكو لائذا بماديبو •

وفى تلك الآونة امتدت الثورة الى الدنكا المقيمين حول مخـــرج النهر فى الاقليم (بجـــوار مشرع الرق) واستطاعوا فى منتصف شـــهر فبراير هزيمة قوة أرسلت لتكون فى انتظار باخرة الحكومة عند وصولها لمشرع الرق • وفى ٢٣ فبراير انتصر ســـاتى بك على الدنكا وتوقفت بذلك ولو مؤقتا حركات التمرد المتفرقة وفى يونية ظهر خطر جديد على الأمن فى الاقليم وما كان دناقلة بحر الغزال بما لهم من كثرة عددية ونفوذ ليقبلوا الولاء للادارة المصرية فضلا عن أن انتصارات المهدى — وهـــو دنقلاوى مثلهم فى كردفان كانت بمثابة حافز لهم على عدم الولاء لهـــا • وقد دبرت مؤامرة بزعامة شقيق محمد النصرى يتجمع بمقتضاها دناقلة الأقسام الغربية فى ١٢ شعبان ١٣٠٠ هـ (١٨ يونية ١٨٨٣) فى جاندا قرب ديم الزبير حيث كان هناك ٨٠٠ فرد جمعوا من القبائل المختلفة ووضعوا تحت حراسة حربية فى انتظار نقلهم بالباخرة للخرطوم ليساهموا بدون شك فى قوة هكس • ودبر المتآمرون خطتهم على أســـاس القبض عليهم وسوقهم للمهـــدى • ولكن لسوء حظهم وصل المحلاوى الى جاندا قبل

---

(٢) لعـــله مما يفسر هذا التعاون الغريب أنه سبق لكليهما العمـــل ضـــد قوات الزبير • ويصف جسى الدور الذى قام به يانكو ضـــد سليمان الزبير والجلابة •

Gess : Seven Years· p. 292

موعد تنفيذ المؤامرة بيومين • وبلغته أخبار المؤامرة وان تعذر عليه القبض على مدبريها فهرب الاخوة مع دناقلة آخرين بينهم تاجر اسمه كرم الله شيخ محمد كرغساوى للانضمام الى المهدى فى الأبيض وقد قتل الاخوة النصرى فيما بعد فى معركة شيكان •

ومع أن هذه المؤامرة انتهت بالفشل والخيبة الا أنها هزت قوة الادارة ومكانتها ، وفى سبتمبر أرسل لبتون ساتى بك الى الخرطوم لاحضار الذخيرة • وتعذر على ساتى العودة وقتل فيما بعد فى العمليات المتصلة بحصارها (١) • وفى هذا الحين داهمت رفاعى أغا ثورة قبلية • وعقب موسم الأمطار تقدم لبتون والمحلاوى لتأديب الثوار ولكنهما اضطرا للانسحاب فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٠١ (١٣ يناير ١٨٨٤) وعندما عاد لبتون الى ديم الزبير عرضت عليه كتابات صادرة عن المهدى يدعو فيها الدناقلة للانضمام الى حركته • وبناء عليه بدأ يعد لاحتمالات الحصار وأرسل رجاله لجمع الغلال • وبمجرد انتصار المهدى على هكس توافرت لديه امكانيات التركيز على غزو شامل لاقليم بحر الغزال وعين كرم الله أميرا ووضع على رأس قوة تتكون من ٨٠٠٠ من العرب والجلابة وخمس فرق من الجهادية المزودين بالأسلحة النارية ، وأعطى لبتون أوامره للنظار للتجمع فى ديم الزبير مع رجالهم ، ولكن اثنين منهم انضما الى كرم الله بينما تخلف الباقون • ونجد وصفا للأيام الأخيرة من ادارة لبتون فى ثلاثة خطابات أرسلها لأمين باشا (٢) وذكر فى ١٢ ابريل ١٨٨٤ أن الأنصار عسكروا على مسيرة ست ساعات من ديم الزبير وأن مبعوثين وصلوا اليه لدعوته للتسليم ، وكان مصمما على القتال حتى النهاية رغم أن عددا كبيرا من رجاله تخلوا عنه • وواضح أنه كسلاطين كان قد اعتنق الاسلام بدليل ما جاء فى كتابه « وأنا أعرف حاليا باسم عبد الله » • وفى رسالته الثانية المؤرخة ٢٠ ابريل يشير الى مغادرة ناظرى القسم له والى

---

(١) اخطأ ماكرو عندما ذكر أن ساتى انضم فيما بعد للمهدى انظر :
E. Macro : Frank Inpton. S. N. R. 1947

(٢) توجد صورة من هذه الخطابات فى كتاب : **Wingate p. 136**

أنه قد أرســل مبعوثا للأنصار • ولم يشر الى بذل أى مقاومة أخرى • وفى خطابه الأخير يذكر « لقد انضم الجميع الى المهدى وسيتسلم جيشه المديرية بعد باكر (١) » • وقد تسلم كـرم الله عاصــمة الاقليم فى ٢٨ ابريل (٢) وأرســل لبتون الى المهــدى حيث توفى فى أم درمان فى مايو ١٨٨٨ تاركا ابنتين من زوجة حبشية •

---

(١) يؤرخ ونجت هذا الخطاب ٢٨ ابريل وماكرو يؤرخه ٢٦ ابريل •

(٢) نقل هــذا التاريخ عن اورفالدر ص ١٧٦ وسلاطين النار والسيف ص ٢٧٥ وأيضا ماكــرو ص ٥٦ ولعــل الأخــير استقى التاريخ الأخير من تاريخه غير الدقيق لخطاب لبتون الأخير ويؤرخ شقير تاريخ • طبعة مصر جـ ٣ ص ١٩٧ وطبعة بيروت ص ٧٤١ (ديتريتش ص٢٤٦) التسليم فى ٢٥ جمادى الثانية ١٣٠١ هـ (٢٢ ابريل ١٨٨٤) وهو التاريخ الذى أخذ به ونجت (١٤١ Mahdiism) ويبدو أنه بنى على تقرير للمحلاوى (١٣٧ — ١٣٨ Ibid) وعلى خطاب من محمــد شيخ محمــد كرغاوى ١٢٨ ـ ١٢٩ (Ibid) ويبــدو أنه لا يمــكن الاســتناد اليــه فى ضــوء خطابات لبتــون وبحدد تقرير المحــلاوى تاريخا للتسليم فى ١٢ جمادى الأول (١٠ مارس) وهو سابق للتاريخ الفعلى •

الفصل الرابع

عزل الخرطوم وسقوطها

١ ـ عثمان دقنة :

وجد المهدى فى سقوط الأبيض احتمال تحقيقه لسلسلة من الانتصارات المدوية فى شتى ربوع المناطق الواقعة فى قلب العالم الاسلامى . وقد عبر المهدى عن تصميمه على السيطرة على جميع أنحاء السودان ثم البلاد المجاورة له (١) عن طريق الرؤى أو الحضرات التى اعتاد أن يخلعها على قراراته فذكر ـ المهدى ـ « .... وبشرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى تفتح الأبيض على يدك كرامة فى زمننا هذا وبعد فتحه أذبح ثلاث بقرات سمان لوجه الله تعالى حتى أكلنا منها بتركا ان شاء الله تعالى وقال الامام عليه السلام بشرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحضرة النبوية وقال لى كما صليت فى الأبيض تصلى فى الخرطوم ثم تصلى فى مسجد بربر ثم تصلى ببيت الله الحرام ثم تصلى فى مسجد يثرب ثم تصلى فى مسجد مصر ثم تصلى لبيت المقدس ثم تصلى فى مسجد العراق ثم تصلى فى مسجد الكوفة اللهم اجعلنا من المصلين فى هذه المساجد واجعلنا بعد ذلك من الشهداء المقتولين بين يدى الكفرة اللهم أمين ... » .

وقد بدأ المهدى بالخرطوم موجها اليها تهديده المباشر . ولكن الموقف هناك لم يكن فى أول الأمر ميئوسا منه فبالاضافة الى مركزها الاستراتيجى القوى كانت الخرطوم على اتصال بمصر سواء عن طريق

---

(١) كتب المهدى فى هذا المعنى الى فرج الله بك أحد القواد المدافعين عن الخرطوم « وأنى موعود بملك جميع الأرض » نعوم شقير طبعة ١٩٦٧ ص ٨٤٨ (المترجم) .

وادى النيل أو عن طريق سواكن والبحر الأحمر • وهذه الطرق تتلاقى وتتركز فى نقطة بربر • وقد بقيت القبائل المقيمة فى اقليمى بربر ودنقلة فى حالة سكون تام بعكس موقف المهاجرين من وادى النيل الى كردفان وبحر الغزال • ويصدق هذا على قبائل البجة المنتشرين على تلال البحر الأحمر الذين لم يكن يتوقع منهم أن يسندوا ثورة يحركها سودانيون ينطقون العربيـــة • ورغم ذلك فهم الذين وجهـــوا الضربة الثانية التى تلقتها الادارة المصرية • فقد كان من بين الأنصار الذين رافقوا المهـــدى بعد سقوط الأبيض رجل من عائلة لها نشاط تجارى كبير فى سواكن تزعم أنها من أصل كردى اسمه عثمان بن أبى بكر دقنـــة • وقد ولد عثمان حوالى سنة ١٨٤٠ وعمل فى الحرفة التى توارثها أفراد عائلته متاجرا بين سواكن وسواحل بلاد العرب ، وشمل نشاطه تجارة الرقيق • وبينما كان يمارس نشاطه قبض عليه وسجن مع اثنين من اخوته فى جـــدة ، وهكذا قضى على ثروة العائلة مما أدى الى حقد عثمان على الحكومة ومن ثم حاول عبثا اثارة القلاقل فى سواكن أثناء الثورة العرابية •

وقـــد وجد فى المهدية قضية يرضيه اعتناقها — وبرغم أن انتسابه للبجة لم يكن كاملا وأنه لم يتمتع فى منطقة سواكن بنفوذ كبير فقد احتل لدى المهدى وخليفته مكانة كبيرة لم يفقدها على الاطلاق • وفى أول رجب ١٣٠٠ (٨ مايو ١٨٨٣) زود بكتاب جعل منه أميرا وجاء به :

« فانى موجـــه اليكم الشيخ عثمان أبا بكر دقنة السواكنى لكى تستعينوا به على اقامة الدين وجهاد الكافرين وجعلته أميرا مباركا لكم لدلالتكم وارشادكم فاسمعوا له وأطيعوا أمره ونهيه وبمجرد وصـــوله اليكم ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ومصدقين أنى المهدى المنتظر فتحزبوا اليه وائتوه أفواجا أفواجا من كل سهل وجبل لبيعة الرضوان

---

(١) مذكرات النجـــومى (١) مخطـــوطه بدون رقم ووضع لها رقم مؤقت ص ٢ .

ورضاء الواحد الديان نجل اقامة الدين والسنن وشمروا فى ذلك بغاية الجهد وعلو الهمة واجتمعوا على كلمة واحدة باتفاق الجميع — والكلمة الواحــدة هى التصميم والعزم على قتال الترك أهل المديرية التى أنتم فيها ... » (١) .

كما أعدت خطابات أخرى لتوزيعها بين مختلف المجموعات القبلية فى منطقة سواكن .

وقــد عاد عثمان دقنة من الأبيض الى تلال البحر الأحمر ، ناشرا دعاية المهدى أينما ذهب . وفى ذلك الوقت كان أهالى تلك المنطقة موزعين فى تحالفات دينية مختلفة . فهناك مجاذيب الدامر ولهم أتبــاع كثيرون وعثمان دقنة نفسه كان أحــد أتباع تلك الطريقة . وكان الشيخ الطاهر الطيب المجــذوب — أحــد أفراد الأمرة — يتزعم الطريقة فى شرقى السودان حيث حصل على نفوذ كبير . ولكن المجاذيب تعرضوا لمنافسة قوية من طريقة أحدث هى الطريقة الختمية التى تزعمتها عائلة الميرغنى التى كانت قاعدتها بالقرب من كسلا . ونظرا لأن الادارة المصرية احتضنت الميرغنية فقد كان طبيعيا أن تميل المجذوبية الى التحالف مع المهدى فى الوقت الذى ظهرت فيــه بوادر نجاحه ومن ثم لم يكن غريبا أن يرحب الشيخ الطاهر كثيرا بتابعة السابق الذى كان مغمورا وذلك بعد أن أصبح مبعوثا للمهدى . وقد ذكر شقير « أن عثمان حمل هــذه الكتب وسار حتى وصل محلا يدعى قباب فى ضواحى سواكن فلقى فيه الطاهر المجذوب وهو كبير المجاذيب فى تلك الجهات ومعظم أهلها على طريقته فسلمه كتابا من المهدى فقبله وقبله وبايع عثمان وكان له أكبر نصير . ثم تقدم الى أركويت حيث كان أهله فوصلها فى أول أغسطس سنة ١٨٨٣ فتلقاه أهله بالقبول وبايعوه وبايعه أيضا بعض مشايخ الهدندوة فرفع راية المهدى واستعد للجهاد » (١) .

---

(١) مخطوطة دقنــة : (١) — ص ٢ . تبدأ هــذه الرسالة بتأكيــد الطبيعة الالهية لصفة المهدى .

وهكذا وجدت القضية المهدية فى شرق السودان جيشا ثوريا على قدم الاستعداد يقوم على أتباع المجاذيب وبخاصة قبيلة الهدندوة المنتمية الى البجـة (٢) . ولكن لم تنجح محاولاته لكسب الميرغنية وأتباعهم ، اذ سلمت خطابات المهدى للختمية ــ بناء على رأى محمد عثمان الميرغنى الثانى ــ للادارة فى سنكات ، القاعدة الرئيسية على تلال البحر الأحمر . وعندما وصلت أخبار وصـول عثمان دقنة الى سواكن ، خرج محمـد توديق بك حاكمهـا فورا بقوة صغيرة من رجال الأمن لايقاف التمرد . واستدعى الشيخ الطاهر وأخا عثمان الى سنكات فى محاولة منه لترتيب القبض على عثمان نفسه . ولكنهما مزقا خطاباته واحتجزا الرسـول . واقترح عثمان عندئذ ترتيب مقـابلة مع الطاهر قرب سنكات ، والتقى القائدان مع أتباعهما فى أول شوال (٥ أغسطس) ثم توجها الى سنكات حيث قابلهما ممثلو الختمية المحليون الذين حاولوا التوسط بين الفريقين . ونقل الختمية خطابات المهدى الى الموظفين فى سكنات وعادوا بعد ساعة ليطلبوا هـدنة مداها ثلاثة أيام ولا شك أن الحاكم كان يأمل فى تفرق البدو غير المستقرين فى ذلك الوقت الذى كان يجرى فيه تحصين المدينة . وقد رفض عثمان هذا الطلب وان قبل بعد مساومات هدنة تستمر حتى الظهيرة . وقبل أن يعود الختمية الى المدينـة أصر عثمان دقنـة على أن يقسموا يمين الولاء كدليل على سـلامة مقصـدهم . وبعد قليل مددت

---

(١) شقير طبعة بيروت ص ٧٤٧ . مخطوطة دقنة (٢) ص ١ .

(٢) يذكر بول فى كتابه : (Paul : BeJa Tribes سببا آخر لانضمامهم للثورة على الوجه التالى : « أعطى الهدندوة .... اتفاقا ينقلون بمقتضاه المؤن والتعزيزات المرسلة لهكس باشا ... بواقع ٧ دولارات عن الجمل . ودفعت الحكومة المبلغ بأكمله ولكن ما وصـل للهدندوة نقص عما تم الاتفاق عليه بمقدار ٦ دولارات «عن الجمل الواحد» . وهذا هو التفسير الذى قدمه غوردون وستيورات فى طريقهما للسودان فى ٢٩ يناير ١٨٨٤ . وهذا التفسير يعبر تماما عن طبيعـة غوردون فى ذلك الحين من حيث تجاهله للعامل الدينى فى الثورة بوجه عام .

الهدنة الى المساء • وخلال ذلك كانت القوات الحكومية تجاهد فى سبيل جعل ثكناتها قادرة على مواجهـة أى هجوم • واذ رأى عثمان فى ذلك نقضا للعهد قرر البدء بالهجوم وعندئذ انسحب الختمية مكتفين بمتابعة الأحداث بينما قام الأنصـار بهجوم على المدينة أوصلهم الى الثكنات وقـد جـرح عثمـان دقنة نفسـه أثنـاء القتال وأدى انسحابه من المعركة الى تخاذل أتباعه فتفرقوا فى التلال ، بينما نقل عثمان الى بيته وعائلته على أيدى أتباعه المقربين • ونجت سنكات مؤقتا (١) •

وبقى محمـد توفيق بك فى سنكات لتعزيز التحصينات والاعداد لهجوم مضاد • وفى سبتمبر قاد قوة الى التلال ولكن عثمان أرسـل فى الثانى عشر من ذى القعدة (١٤ سبتمبر) قوة لمناهضته بقيادة ابن أخيه • وقد عسكرت القوات الحكومية فى قباب حيث أحاط بهم الأنصار أثناء الليل • وقد دافعوا عن أنفسهم مستعينين بمدفعين بالاضافة الى بنادقهم وهكذا تعذر على الأنصار اختراق زريبتهم ونجحوا فى الانسحاب الى سنكات • وتكرر هنا ما كان يحدث فى كثير من المعارك عندما كانت قوات الحكومة تعجز ــ برغم انتصارها ــ عن الثبات فى مواقعها اذا ما كانت بعيدة عن مراكزها الحصينة • وسرعان ما تنبه رجال عثمان الى أهمية حرب العصابات فقطعوا الخط البرقى بين سواكن وكسلا وقضوا فى الثالث والعشرين من ذى الحجة (٢٦ أكتوبر) على قوة تتألف من ١٥٠ جنديا كانوا فى طريقهم من سواكن الى سنكات لتعزيز حاميتها (٢) •

---

(١) بلغت خسائر هذه المعركة بناء على تقدير عثمان دقنـة نفسـه فى (مخطوطات دقنة (٢)) (٦٠ من الأنصـار ، ٧٥ من الأعداء . بينما ذكر شبيكة فى British Policy, p. 183 استنادا الى مصـادر مصر الرسمية ان خسـائر الأنصار بلغت حوالى ٦٥ رجلا على حين فقـد المصريون ما لا يزيد على ٧ جنود و ٦ من المدنيين .

(٢) المرجع السابق ــ British Policy ص ١٨٤ ، يؤرخ شبيكة هـذه الحـادثة فى ١٨ اكتوبر . أما جاكسون : عثمـان دقنة ص ٣٦ Jackson : Osman Diqna p. 36. فيؤرخها فى ١٦ أكتوبر . وقد اخذت بما جاء فى مخطوطات عثمان دقنة نفسـه . M. S. Diqna (2).

وانتقل القتال الى مرحلة جديدة حين حاصر عثمان دقنة ، الذى حصل على مساندة متزايدة من جانب القبائل ، كلا من سنكات وطوكر • وتعتبر المدينة الثانية الواقعة على بعد ٢٠ ميلا من الشاطىء والموجودة فى دلتا خور بركة من أهم مراكز الحبوب فى شرق السودان • وقد وضع الأنصار المتجهون لسنكات تحت قيادة على بن حامد بينما أرسل عثمان قوة الى طوكر تحت قيادة الخضر بن على وذلك فى أواخر ذى القعدة (أواخر سبتمبر) • وقد قسم الخضر قواته الى قسمين بقى أحدهما خارج تحصينات طوكر بينما اتجه الثانى — تحت قيادة عبد الله ابن حامد — ليحول دون وصول التعزيزات القادمة بحرا •

وفى هذه الظروف وقعت أول معركة على الشاطىء وذلك فى ٤ محرم ١٣٠١ هـ (٥ نوفمبر ١٨٨٣) [1] فقد كلف سليمان باشا نيازى ، الذى نقل من قيادة حملة هكس الى ادارة عموم شرق السودان بارسال قوة قوامها ٥٠٠ رجل لرفع الحصار عن طوكر • وصحب مونكريف Moncrieff — القنصل البريطانى فى سواكن — تلك الحملة التى كانت تحت قيادة محمود باشا طاهر • ونقلت الحملة بواسطة البحر الى ترنكتات ، وفى طريق تقدمها نحو طوكر هاجمها الأنصار فهرب رجالها مذعورين • وقتل مونكريف بينما عاد محمود ومعظم رجال الحملة الى الباخرة التى رحلت بهم الى سواكن • وجاءت هذه المعركة التى تعد الأولى على الشاطىء معاصرة للقضاء على حملة هكس فى شيكان • وفى تلك الأثناء استمر حصار طوكر وفشلت محاولة بذلتها قوات الحكومة الخروج منها وذلك بعد أن تكبدت خسائر فادحة • بينما مزقت قوة أرسلها سليمان باشا لمحاولة الوصول الى سنكات أثناء الطريق فى أول صفر سنة ١٣٠١ هـ (٢ ديسمبر ١٨٨٣ م) •

---

(١) عرفت هذه المعركة ومعركتان اخريتان جرتا على الشاطىء فى المصادر الانجليزية بمعارك التيب El - Teb . وقد جاء الاسم نتيجة سوء فهم للكلمة البيجاوية (A de'te'h) (مربط الابل) وتبدو هذه الكلمة للمتكلمين بالعربية وكانها and al - tayb « عند التيب » وقد فضلت استخدام الاسم الذى اطلقه عثمان دقنة نفسه على هذه المعارك .

وحينئذ كانت السلطات المصرية المحلية قد استنفدت كل جهودها وســاد الموقف نوع من السكوت استمر شهرين وكان من الطبيعى أن يفيد عثمان دقنة من ذلك • وبالاضافة الى محاصرة سنكات وطوكر هدد الأنصار سواكن ذاتها كما أرسل عثمان مبعوثا — هو مصطفى على هدل — لجمع الأنصار المحليين وحصار كسلا • واستطاع عثمان دقنة قطع الطريق بين سواكن وبربر وهو أيسر الطرق لارســال الامدادات الى الخرطوم وأدركت السلطات فى مصر خطــورة الموقف ولكن منعتهــا الحكومة البريطانية من ارســال القوات المصرية التى أعيد تنظيمها للقضــاء على الحركة • وأخيرا تقرر ارسال قوة من «الجندرمة» بقيادة فالنتين بيكر باشا (شقيق سير صمويل بيكر) على أن تعاونها قوة من الزنوج ينظمها الزبير باشا ويتولى قيادتها • ولكن الفكرة لم تنفــذ وفقــا لمــا أراده لهــا وأضعوها • فقد استاءت الجندرمة لاستخدامها فى أغراض حربية بحتة خارج مصر وصاحب مغادرتهم للبلاد نشوب التمرد والهرب • وأما تعيين الزبير فلم يجد ترحيبا فى بريطانيا بسبب تاريخه الحافل فى تجارة الرقيق ومن ثم رأت الحكومة البريطانية منع هذا التعيين وبدون الزبير فقدت القوة الزنجية كثيرا من قيمتها •

وبرغم أن الموقف فى سنكات فى أوائل عام ١٨٨٤ كان أكثر تدهورا منه فى طوكر ، الا أن سليمان باشا رمى بثقله فى محاولة لتخليص المدينة الأخيرة • وفى ٤ فبراير تقدمت قوة بيكر المكونة من ٣٦٥٦ من رجال ترينكتات متجهة الى طوكر • ونشبت معركة ثانية على الشاطىء استطاع فيها عبد الله بن حامد هزيمة القوات المصرية بسهولة بعد أن قتل أكثر من ٢٠٠٠ من رجالها • وعاد بيكر مع بقية قوته الى سواكن •

أما سنكات فأصبحت الآن فى ضيق مريع وفقدت الأمل فى انقاذها ومع ذلك فان القائد البطل محمد توفيق أصر على عدم التسليم ، فدمر المدافع وخرج بالحامية مع النساء والأطفال • وعلى بعد ميل واحد من

المدينة غلبوا جميعا على أمرهم أمام العدو • وكان هذا فى ١٠ ربيع الثانى ١٣٠١ (٨ فبراير ١٨٨٤) وبعد ١٥ يوما آخر سلمت طوكر للأنصار •

وقد أثارت هزيمة بيكر الرعب فى سواكن ، واضطرت الحكومة البريطانية التى أخذت على عاتقها حماية موانى البحر الأحمر ، الى التدخل • وانقسم الرأى فى مجلس الوزراء حول ارسال حملة الى سواكن الأمر الذى عارضه جلادستون ووزير الخارجية جرانفيل • ولكن الملكة فكتوريا اشتدت فى مساندة استخدام القوة • وفى ١١ فبراير صدرت الأوامر الى الجنرال ستيفنسون قائد القوات البريطانية فى مصر لارسال ثلاث فرق الى سواكن تحت قيادة ماجور جنرال جراهام •

وما كاد جراهام يصل الى سواكن حتى ووجه بنبأ سقوط طوكر • وأدى هذا الى انهاء الهدف الرئيسى للحملة ولكن جراهام قرر ألا يعود قبل أن يوجه ضربة الى قوة عثمان دقنة ومكانته • وقوبل تصرفه هذا بالرضا من قبل الحكومة البريطانية رغم أنه كان يتعارض مع السياسة الدفاعية البحتة التى اتبعت حتى ذلك الوقت وخاصة اذا قورنت بالاتجاه السلمى ازاء المهدى وهو الاتجاه الذى كان غوردون يعتمد عليه فى ذلك الحين ومن ثم فان الاجراء الذى قام به جراهام جاء نتيجة التسليم الخاطىء لضغط الرأى العام البريطانى الذى أخطىء توجيهه وقد نجحت العمليات التى قام بها جراهام اذا ما وضعنا فى الاعتبار الأهداف المتوخاة منها • فقد تجمعت قواته فى ترنكتات فى الأسبوع الأخير من فبراير ثم بدأت تتقدم نحو الداخل • ووقعت المعركة الشاطئية الثالثة التى هزم فيها الأنصار هزيمة ساحقة فى أول جمادى الأولى ١٣٠١ هـ (٢٩ فبراير ١٨٨٤) وتقدمت القوة البريطانية بعدها الى طوكر ولكنها عادت الى ترنكتات وبصحبتها ٧٠٠ ممن كانوا باقين بها (أى بطوكر) حيث لم يكن لديها نية الدفاع عن الموقع •

وبرغم هذه الهزيمة الكبيرة ظل عثمان دقنة على نشاطه وقوته فقرر جراهام بعد عودته لسواكن كسر التهديد الموجه لهذه المدينة بمهاجمة

تجمع للأنصار فى تمـاى وهـذا الموقع العـام على طريق سنكات كان مسرحا لانتصار بريطانى ثان فى ١٤ جمادى الأولى (١٣ مارس) وبعـد المعركة انسحب جراهام ثانية الى سواكن بينما ظـل عثمـان دقنة على قوته مع أتباعه • وعندئذ أخذ جراهام اذنا بالقيام بهجوم ثالث على المركز الرئيسى لعثمان دقنة فى التمنيب وتم احتلال هـذه القرية فى ٢٧ مارس بعد مقاومة خفيفة جدا حيث انسحبت قوات عثمان وبعد احراق القرية عاد جراهام ثانية الى سواكن • وأثبت التدخل البريطانى عدم فاعليته من الناحية العملية فقد احتفظ عثمان دقنة بكل من سنكات وطوكر وسيطر الأنصار على طريق سواكن بربر • وبقيت سواكن وحدها بأيدى المصريين وأن خف الضغط عليها بعض الشىء •

(٢) بعثة غوردون :

وفى تلك الأثناء وصل غوردون الى السودان للمرة الأخيرة • وقد درست بكل عناية فى السنوات الأخيرة كما وصفت بدقة الأحداث التى أدت الى بعثته وما صـاحبها من اضطراب • ولذلك فان المقصـود هنا هو تلخيص المراحل الرئيسية لاشتراكه فى هذه المغامرة المنكودة • ففى ٢٠ نوفمبر ١٨٨٣ ارسل سيرافلين بيرنج ، ممثل بريطانيا الجديد وقنصلها العام فى القـاهرة الى اللورد جرانفيل يسـأله بعـد وصـول أنبـاء شيكان عن الجواب الذى يحسن تقديمه اذا ما طلبت الحكومة المصرية مساعدتها بقوات بريطانية أو هندية أو تركية لاستعادة سيطرتهـا على السودان • وقـد أجيب على سؤاله بأن عليه أن يزكى اخلاء السودان بشروط معينة • وفى هذه الآونة عرض على جرانفيل اقتراح بشأن تكليف غوردون بالتوجه الى السودان ولمـا أخذ رأى بيرنج اعترض بشـدة على الاقتراح • وكان بيرنج يشك فى صلاحية غوردون للعمل ــ ولكن رده الرسمى استند الى رأى الحكومة المصرية بشأن عدم صلاحية تعيين مسيحى حاكما للسودان التى اتخذت ثورته طابعا دينيا •

وقد قدمت توصية الحكومة البريطانية لاخلاء السودان بصـورة رسمية حاسمة فى ٤ يناير ١٨٨٤ • وازاء تعرض الوزراء المصريين للضغط

حتى يوافقوا على تنفيذ سياسة هم راغبون عنها قدموا استقالاتهم . وقد تشكلت وزارة جديدة تولى رئاستها أرمنى مسيحى هو نوبار باشا بوغوص أخذت على عاتقها وضع النصيحة التى قدمها بيرنج موضع التنفيذ .

وفى هذه الآونة تعرضت الحكومة البريطانية للضغط نتيجة لتطور جديد فى بريطانيا . فقد حرضت الصحافة تحت زعامة Pall Mal فى ٩ يناير الرأى العام البريطانى على المطالبة بعودة غوردون الى السودان لمواجهة الموقف هناك . وكان مجلس الوزراء فى ذلك الحين يبحث اقتراحا تقدم به بيرنج بشأن ارسال ضابط بريطانى الى السودان لسحب القوات وترتيب حكومة السودان بعد الاخلاء . وكان تقديم غوردون لشغل هذا المنصب شيئا طبيعيا وأن يكن هذا التعيين سيء الطالع الى أقصى حد فهو بالنسبة الى الصحفيين الانجليز والرأى البريطانى العام الذى يذكر انتصاراته الحاسمة فى الصين وخدمته الأولى فى السودان كان يمثل شخصية بطولية استطاعت بمفردها تقريبا أن تحارب المساوىء المزمنة لتجارة الرقيق بالسودان وتقضى عليها . وقد بالغ الجميع فى تقدير أهمية اسمه وأن يكونوا بصفة عامة قد أغفلوا الايمان الدينى لدى المهدى وقوته العسكرية ومهارته السياسية . وتصوروا أن غوردون يستطيع بما لديه من خبرة بالبلاد وبما كان يعتقد من امكانه استعادة اخلاص المكان أن يثبت أنه «أفيد من جيش كامل» . ولا شك أن هذا الاعتقاد كان خاطئا سواء فى تقديره لقدرات غوردون أو فى نظرته لاتجاه السودانيين .

وقد عانى غوردون من قصور كبير بسبب جهله التام باللغة العربية(١) ومرجع أحد أخطائه الكبرى ، عملية بربر متصل جزئيا على الأقل بهذا العامل . وخلال الشهور العصيبة التى أمضاها بالخرطوم كان يجهل معظم ما يجرى من حوله . وثانيا ــ كما عرف بيرنج عنه تماما نجده قد

(١) اكد سير رونالد ونجت اهمية هذا العامل ــ انظر :
Wingate of the Sudan, 68.

اتصف تفكيره بخيال خصب فغمر رؤساءه ومرؤوسيه بخطط مفصلة غير مترابطة وثالثا ــ كان رجلا مسرفا فى ميوله ومن ميوله ما كان ثابتا مثل كرهه للارتباط بالرسميات والتقاليد ومنها ما كان طارئا وهوائيا مما أدى الى ضياع الثقة واثارة الحفائظ ؛ ومن ذلك أزمته العاطفية المرتبطة بالزبير باشا وقد بالغ البريطانيون كثيرا فى تصورهم مدى قدرة غوردون على كسب ولاء السودانيين ولعل صيته ذلك راجع الى تصديق الأسلوب الشرقي المهذب فى الكلام والعطف على حب غوردون للعدل وكرهه للظلم • وعلى كل فان ما اكتسبه من نفوذ لدى السودانيين حتى فى الوقت الذى وصل هذا النفوذ الى أوجه كان أقل جدا مما تصوره هو أو تصوره الرأى العام البريطانى • وفوق هذا فان اتجاهات السودانيين كانت تغيرت ، فبينما كان بامكان حاكم عام أجنبى مسيحى فى عام ١٨٧٩ أن يضمن لهم أحوالا أحسن من تلك التى كان يوفرها لهم الحكام السابقون من الأتراك أصبح ذلك متعذرا فى عام ١٨٨٤ بعد أن ظهر بينهم حاكم مرسل من قبل الله للقضاء على طغاتهم وانشاء مجتمع دينى فمن جميع الزوايا كان بامكان المهدى أن يبز غوردون • وبينما كان الرأى العام البريطانى فى غوردون محررا للرقيق وجد فيه السودانيون الشماليون الرجل الذى هدم أسس رخائهم ؛ وطارد بقسوة الجلابة وتواطأ فى مقتل سليمان ود الزبير وهكذا توقفت شعبية غوردون ومكانته فى السودان ١٨٨٤ اعتمادا مباشرا ؛ وهو ما أدركه هو شخصيا ، على احتمال مجىء القوات البريطانية لشد أزره •

ولكن ذلك كان لا يزال رهن المستقبل • ففى ١٠ يناير عرض جرانفيل ثانية على بيرنج الافادة من خدمات غوردون فرفض بيرنج العرض بعد مناقشة الأمر مع نوبار • ولكن اعتراضه (بشأن غوردون) كان أقل جدية فى هذه المرة كما رفض عبد القادر باشا حلمى اقتراحا بارساله للاشراف على الاخلاء عندما علم بأن ذلك سيتم بصورة علنية •

ولم يكن غوردون فى الصورة تماما الى أن قابل لورد ولزلى انجنرال المساعد فى وزارة الحرب بتاريخ ١٥ يناير وقبل اقتراحا بالتوجه الى سواكن لاعداد تقرير عن الموقف العسكرى فى السودان • وقد جاء

ابلاغ القاهرة بهذا القرار فى ذات الوقت الذى طلب فيه بيرنج ، بناء على رفض عبد القادر أن يرسل الى الخرطوم فى الحال قائد كفء يتمتع بسلطات مدنية وعسكرية واسعة للاشراف على الانسحاب • واقترحت الحكومة البريطانية اختيار غوردون لهذه المهمة • وفى هذه المرة وافق بيرنج على غوردون معتبرا أياه أصلح الموجودين بشرط أن يكون ثمة فهما واضحا تماما لأبعاد مهمته والخط السياسى الذى يجب عليه اتباعه •

أما الفهم الواضح فهو بالذات الأمر الذى تعذر تحقيقه • فقد رأت الحكومة البريطانية أن ترسل غوردون ليكتب تقريرا عن الموقف وفاق هذا الفهم لمهمته لدى الوزراء أى اعتبار آخر ومن ناحية أخرى طلب بيرنج ضابطا له سلطات واسعة • وفى ١٨ يناير جرت مقابلة بين غوردون وولزلى ثم قابل غوردون أربعة وزراء بعد ذلك من بينهم لورد جرانفيل وقبل دعوتهم أياه للتوجه الى السودان ووضع جرانفيل مسودة تعليماته التى فصلت المهام التى كان عليه أن يقوم بها فى سواكن - كتابة تقرير عن الموقف الحربى ودراسة أفضل السبل لاخلاء مناطق السودان الداخلية وتقديم النصح بشأن ما يتبع من خطوات لمقاومة أى نمو جديد لتجارة الرقيق ، على أنه وردت فى نهاية التعليمات عبارة بدت حينئذ قليلة الأهمية ولكن فهم منها كل من بيرنج وغوردون فى الواقع أنها تخلع على غوردون المهام التنفيذية التى اضطلع بها فورا « وعلى الكولونيل غوردون القيام بأى واجبات أخرى يعهد بها اليه من قبل الحكومة المصرية عن طريق سير افلين بيرنج » •

وفى ذات الأمسية غادر غوردون لندن • وفى الحال بدأ فكره يتجه الى اخلاء السودان وهو ما فهم أنه مخول لتنفيذه واتبع فهمه هذا بكتابة مذكرة أعدها فى ٢٢ يناير خلال رحلته بالبحر مقترحا تعيينه حاكما عاما للسودان • وأوضح غوردون فى مذكرته تصميم الحكومة البريطانية الذى لا يقبل المناقشة على توفير حكومة عادلة لشعوب السودان وبذلك تكون قد أعادت اليها حريتها المفقودة - هذا بينما كان قد أرسل فى الواقع لترتيب عملية سحب الموظفين والقوات المصرية بسلام • وقد وضع

الخطط لاعادة الأسرات الحاكمة التى أبعدت أثناء الفتح المصرى على أن يتسلموا ما ببلادهم من أسلحة واستحكامات . وأدرك أن هناك أشكالا يتعلق بهذه الفكرة بشأن بعض المدن مثل الخرطوم وكسلا ودنقلة حيث لم تكن هناك أسرات حاكمة قديمة . كذلك فكر فى اعادة الزبير الى السودان ثم ما لبث أن استبعد هذه الفكرة . وهكذا وضع غوردون ، حتى قبل أن يصل لمصر ودون اى أساس أولى من المعلومات عن المشاكل التى ستواجهه ، خطة مستفيضة للعمل بمقتضاها . فلقد فسر التعليمات التى زود بها تفسيرا يخالف ما توخاه مجلس الوزراء البريطانى منها ، فتقديم التقارير والمهام الاستشارية غابت كلها عن مخيلته ، أما المهمة التنفيذية التى اقتصرت التعليمات على تضمنها لها فقد أصبحت لها الصدارة . وحين اقترح غوردون تعيينه حاكما عاما ألزم نفسه والحكومة المصرية ومجلس وزراء بريطانيا بتغيير خطير فى السياسة الواجب اتباعها على أن الحكومة البريطانية لم تثر أى اعتراض .

وقد اعتزم غوردون التوجه مباشرة الى سواكن ولكنه تحول الى القاهره بناء على طلب بيرنج — وهناك تسلم فى ٢٦ يناير تعليمات جديدة من بيرنج مبنية على الفقرة الأخيرة من تعليمات ١٨ يناير . وكانت هذه التعليمات ذات طبيعة تنفيذية خالصة . فقد أكدت أهمية تأمين اخلاء المعسكرات والسكان المدنيين دون خسائر فى الأرواح وتركت لغوردون اختيار الوقت المناسب للاخلاء وطريقة تنفيذه . كما أن هذه التعليمات أيدت فكرة غوردون الخاصة باعادة صغار السلاطين وزود غوردون فى ذات الوقت بأربع وثائق عربية بنيت على مسودة بيان من بنات خياله (١) أحدها عبارة عن قرار من الخديوى محمد توفيق بتعيين غوردون حاكما

(١) Cromer . Modern Egypt. i, p. 446.

وقد أشار الى ثلاث وثائق : خطاب الخديوى لغوردون بتعيينه حاكما عاما وبيانات . وتوجد ترجمة انجليزية لأربع وثائق كملحقات فى خطاب بيرنج لجرانفيل بتاريخ فبراير ١٨٨٤ كما توجد ترجمة اخرى مستقلة لوثيقتين فى كتاب : Hake . Gordon's Jou nals pp. 55υ-52

انظر : F. O. 78/3666

عاما « لاعادة الحكم الصالح » وبصحبته بيان موجه الى الموظفين المصريين وكبار السودانيين وعامة سكان السودان يعلمهم بتعيينه ويطلب منهم اطاعة أوامره واتباع نصحه وعدم الاعتراض بأى حال على توجيهاته . أما الوثيقتان الأخريان فقد اعتبرتا فى نظر برنج كبديلتين لهذه . فهناك خطاب ثان من الخديوى جاء فيه « أن الغرض من وصولكم هنا ومن بعثتكم هو تنفيذ اخلاء هذه المناطق وسحب قواتنا وموظفينا المدنيين والسكان الذين يرغبون فى التوجه الى مصر على أن يسمح لهم بنقل ممتلكاتهم . ولم يوجه البيان المرفق بالخطاب الا الى أعيان السودان وأهاليه — وقد جاء فى هذا البيان أن الخديوى قد « قرر أن يعيد لأسرات ملوك السودان استقلالها السابق » (١) وأنه قد جرى تعيين غوردون ممثلا للخديوى بحيث يتمتع بسلطات مطلقة ليرتب معكم ودياً وسائل اخلاء هذه المناطق « ويبدو أن غوردون لم يدرك تماما مغزى ما تحتويه هذه الوثائق — اذ لم يفهم من صيغتها أنه لم يقصد منها أن تشكل بدائل ، بل أن تعطى تخويلا لمرحلتين متتاليتين من مراحل بعثة غوردون وخلال زيارة غوردون للقاهرة تقابل مع الزبير ورغم المناقشة الحادة التى جرت بينهما بشأن مقتل سليمان أبدى غوردون احدى النوبات الهوائية التى تنتابه وأعلن أن لديه احساسا غامضا أو الهاما بامكان الثقة فى الزبير وقد أكد غوردون ، وهو تأكيد ينم عن عدم ادراكه مغزى المهدية وقوتها أن الوسيلة الوحيدة لتجنب الحرب الأهلية فى السودان هى اعادة الزبير الذى يمكنه وفق اعتقاده أن يحوز قبولا عاما « أنه يقضى على المهدى فى شهرين اثنين » على أن بيرنج رأى أنه ليس من الحكمة السماح للزبير بمرافقة غوردون ولكنه وعد بتأييد غوردون اذا أصر على اعادة الزبير على أن يكون ذلك بعد وصوله للخرطوم (٢) .

وغادر غوردون القاهرة فى ٢٦ يناير مصحوبا بليفتنانت كولونيل

---

(١) انظر نعوم شقير طبعة ٦٧ ص ٧٦١ — ٧٦٢ .

(٢) وقد أشار سير رونالد ونجت الى الظروف التى احاطت بهذا الوعد .. أنظر . Wingate of the Sudan, 50

ستيوارت الذى خبرته بالسودان أقـرب زمنيا من خبرة غوردون وأن كان بيرنج يرى أنه أكثر قدرة على النجاح فى تلك البعثة حتى من غوردون ذاته • وتؤكد مذكرات ستيوارت صحة هـذا الرأى فقد استطاع برغم صعوبة موقفه بين الاتجاهات المتضاربة الابقاء على اخلاصه لغوردون مع الاحتفاظ لنفسه بالاستقلال فى تفكيره••أما العضو الثالث فى هذه الجماعة فلم يكن آلا أميرا فوراويا هو عبد الشكور بن عبد الرحمن الذى جاء به من منفاه ونودى به سلطانا على دارفور تحقيقا لسياسة غوردون الخاصة باعادة الأسر الحاكمة القـديمة وأصبح عبـد الشكور بردائة الموشى بالمزينات والمداليات البراقة أشبه بصورة كاريكاتورية حيث فشـل فى تقمص صفة الوقار اللازمة لوضعه الجديد اذ كان يدمن الشراب ويكثر من العراك مع غوردون ومن ثم ترك فى أسوان • ولعل هذا الموطن ذى المظهر العادى والمتصف بقلة الذكاء كان حكيما فى زمانه • فلو قدر له أن يصل الى دارفور لـما وجد هناك فقط ادارة مهدوية تحت أشراف محمد خالد بل لوجد أيضا مطالبا قويا بالسلطنة فى شخص عبد الله دود بنجا • وهكذا كان اختياره لشغل منصبه مثالا بارزا على عـدم فهم حقيقـة الأوضاع فى السودان •

وكلما تقـدم غوردون نحو الجنوب ، نجـده يبتكر خططا وينفذ اجـراءات لم تبن الا على حـكم متقلب ومتسرع وسـطحى على حقيقة الوضع القـائم فى السودان • فمثلا كان يحكم المحافظتان دنقلة وبربر الشماليتان مجتمعتين أحد أعيان العبابدة واسمه حسين باشا خليفة الذى نشط فى الابقاء على الحكم المصرى فى الأراضى التى يحكمها ودرب العبابدة وقوات عربية أخرى غير نظامية وضعت فى الصعيد لتكون على استعداد للعمل فى بربر اذا ما طلب منها ذلك • وما كاد غوردون يصل الى كورسكو حتى أمر بتسريح هذه القوات بعد أن أغرق حسين باشا بسيل من البرقيات التى أعلن فيها عزمه على تسريح الفـرق المصرية والموظفـين والغاء بعض الضرائب وتخفيض بعضها الآخر ثم طالب الحاكم (أى حاكم دنقلة وبربر) المكدود بتهدئة شعب المحافظتين (١) • كما أربك غوردون

(١) ReporHussayn Khalifa

رؤساءه فعندما وصل الى أبو حمد فى ٨ فبراير نظر الى الموقف بكثير من التفاؤل فقد طال سفره فى صحراء يسكنها العبابدة البعيدين عن المهدية وحافظوا الى حد كبير على ولائهم للحكم المصرى • ومن ثم أرسل من أبو حمد مذكرة لبيرنج أشار فيها الى رضاه « بأن مكانة حكومة القاهرة فيما عدا ما يتعلق بسلوك جنودها فى الميدان لم يصبها اهتزاز خطير » •

ومن هنا جاء اقتراحه الخاص باحتفاظ مصر بسيادتها على السودان بعد سحب القوات واحلال سودانيين الموظفين المصريين — ومن ثم فهى التى تعين الحاكم العام وحكام المديريات وتقوم بدور المحكمة العليا للاستئناف • وجاء تعليق ستيوارت على هذه المذكرة مخالفا لغوردون بشأن مكانة مصر فى السودان وأشار الى أن استمرار السيادة المصرية تتوقف على الابقاء على النفوذ البريطانى فى مصر •

وفى هذه المرحلة من بعثته كان غوردون مقتنعا بأن بامكانه اخلاء السودان سلميا واقامة علاقات طيبة مع المهدى • وأعلن فى أبو حمد « أنه لا يعتزم محاربة المهدى » وبعد يومين من ذلك كتب الى حسين خليفة يطلب منه ترجمة وارسال خطاب الى المهدى يعرض عليه السلام ويقترح تعيينه سلطانا على كردفان ويطلب منه — فيما طلبه الافراج عن الأوروبيين المعتقلين لديه ، وبعث مع هذا الكتاب هدية عبارة عن رداء رسمى أحمر وطربوش • وهكذا عاد غوردون الى سياسة تقديم الأردية المزركشة ولكن الذى قدم اليه الرداء هذه المرة لم يكن أميرا صوريا فى المنفى بل زعيما دينيا وحاكما سياسيا لنحو نصف السودان • واتصف رد المهدى بالشموخ الصلف مما ينبىء عن سوء حكم غوردون على خصمه اذ جاء فيه « ••• واعلم أنى المهدى المنتظر خليفة رسول الله (صلعم) فلا حاجة الى بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا فى مال الدنيا ولا زخرفها وانما أنا عبد الله دال الى الله والى ما عنده فمن كان سعيدا أجابنى واتبعنى ومن كان شقيا أعرض عن دلالتى فأزاله الله عن موضعه وأذله وعذبه عذاب الأبد ، وقد أيدنى الله تعالى بالأنبياء والمرسلين

والملائكة المقربين وجميع الأوليــاء والصالحين لاحياء دينه ... أما الهدية التى أرسلتها لنــا فعلى حسب نيــة الخير جزاك الله الخير وهداك الى الصواب واعلم أنه كما كتبنا لك انا لا نرغب متاع الحيــاة الدنيا وزينتها وانما هى قصــد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هى مرسلة اليــك مع ما نرغبه من اللبس لأنفسنا ولأصحابنا الذين يريدون الآخــرة ويرغبون ما عند الله من الخير الباقى الأبدى ليستحقوا بذلك نعيم الأبد وملك الدوام (١) .

وقد وصل غوردون الى بربر فى ١١ فبراير حيث وقع حادث لعــله كان بمثابة نقطة التحول فى بعثته . ولم يفهم حسين خليفة ــ الذى أخطر فقط بتعيين غوردون كحاكم عام والذى عمل جاهدا فى سبيل الابقاء على النظام العــام ومنع الاتصال بالمهــدى ــ قرار غوردون الخاص بتسريح القوات المصرية والاستغناء عن الموظفين المصريين واعلانه أن حكم السودان سينتقل فى المستقبل الى السودانيين وكذلك الحال بالنسبة الى الغائه التام للضرائب . ورأى غوردون ضرورة تبريــر تصرفاته وذلك بالكشف عن « الفرمان السرى » الذى أعلن فيه الخديوى اخلاء السودان . ففى ١٢ فبراير قدمه الى كل من حسين خليفة وقاضى بربر وفى اليوم التالى عرضه فى اجتماع سرى على أعيان الأقليم ووزعت بيانات فى بربر أعلنت حــرية الاتصال بين بربر وكردفان ، وانشاء مجلس للاقليم ، واعلان اســتقلال الاقليم وتخفيف الضرائب . وأخيرا أعلن غوردون وقف العمل باتفاقيــة ١٨٧٧ الانجليزية المصرية الخاصة بتحرير الرقيق فى السودان .

وقد أدى الكشف عن الوثيقة الخاصة باخلاء السودان الى اثارة قلق كل من ستيوارت وحسين باشا بل وغوردون نفسه . وصحب حسين غوردون الى نهاية حدود الاقليم وبين له بالتالى كيف أدى هذا الحدث الى اهتزاز مكانة كل منهما وسلطته . وعندئذ أبرز غوردون وثيقة أخرى وصفها

---

(١) مخطوطات النجومى ، رقم ٢٤ يوسف ميخائيل (٢) ص ٨٤ .
والملبس الذى أشار اليه المهدى عبارة عن جبة ممزقة وعمامة وسبحة وبعض الملحقات التى تستخدم كزى للأنصارى .

حسين « بأنها مخالفــة لتلك التى عرضت فى الاجتماع الســابق » ومن الواضح أنها كانت احدى الوثيقتين الأوليين اللتين خلتا من أى اشــارة الى ترك الســودان • وهنـــا بين حســـين له « ما كان يجب عليه من عرض الدكريتو السابق الذكر والسماح بقراءته لسكان الاقليم وشيوخه أولا ، مع تأجيل الوثيقة الأخرى التى عرضت فعــلا حيث أنها تسببت فى اثارة كثــير من القلق وتأكد بها الشعب من تنــازل الخديوى عن الســودان لأهله » • وقد أعطى حسين ــ بنــاء على طلبــه ــ نسخة من تلك الوثيقة لنشرها • وعند عودته الى بربر « عقد اجتماعا قــرأ فيه نسخة الوثيقـة التى جاء بها تعيين غوردون باشا حاكما عاما للسودان • ويبدو أن ذلك اعتبر مناقضا لعمل غوردون اذ لا ترد به اشارة جديدة الى مجلس الاقليم على أن استجابة الناس لذلك لم تكن مرضية » • واعتقد العامة والشيوخ أن هذه الوثيقة وضعت بمعرفتى حيث أنهــا لم تقــرأ بواسطة غوردون نفسه الذى وجهت له أصلا (١) ، ولم يشر ستيوارت الى النتيجة المترتبة على هذه الحادثة وان ذكر أن غوردون اقترح فى ١٤ فبراير على أحــد الزعماء المحليين بالدامر التجاء السودانيين الى الحكومة البريطانية طلبــا للحماية • ووصف هذا « على أنه محاولة للتخفيف الى حد ما من الآثار السيئة التى قد تترتب على الكشف عن الفرمان السرى لشيوخ بربر (٢) وواضح أن غوردون لم يكن راضيا عن حادثة بربر ومن ثم كانت أقواله بشأن « الفرمان السرى » متضاربة ولم يقرأ الفــرمان فى الخرطوم لدى وصوله • وفى ١٥ شوال سنة ١٣٠١هـ (٨ أغسطس ١٨٨٤) وضع مسودة برقيــة جاء فيها أنه لم يستطع تعريف أحد بفرمان الخديوى الذى جاء به القرار الخاص بالاخلاء وترك البلاد للسودانيين (٣) وفى مذكراته بتاريخ

---

(١) تقرير حسين خليفة .

(٢) P. R. O., F. O. 78/3668, Stewart

(٣) لم ترسل مسودة هــذه البرقية من الخرطوم بسبب انقطــاع الاتصالات البرقية بها واخــذها ستيوارت معه عند مغادرته للخرطوم فى ٦ سبتمبر ومن ثم سقطت فى يد المهدى بعد ذبح ستيوارت ومن معه من زملاء وملخص النص يوجد فى خطاب المهدى لغوردون بتاريخ أول محرم ١٣٠٢ ــ (٢١ اكتوبر ١٨٨٤) انظر مذكرات يوسف ميخائيل (٢) رقم ٧٥؛ والنص مترجم فى المرجع التالى :

Hake : Gordo's Journals, p. 522—530

٥ نوفمبر ١٨٨٤ كتب غوردون ما يفيد عدم اعلانه لها حتى ذلك الحين (١) على أنه بعد أربعة أيام اعترف بأنه عرضها على حسين باشا خليفة دون أن يعرف حقيقة ما تضمنته (٢) .

ومهما حاول غوردون التقليل من شأن هـذه الحادثة فانها أوضحت ما استقر عليه الرأى من اخلاء السودان كما أوضحت ضعف الحاكم العام الجديد من الناحية المـادية . وقد ذكر سلاطين « أن اذاعة هذا البيـان الخطير قد أسرع بخطى الأحداث الى درجة مخيفة » (٣) .

ولعل هـذا هو التقييم الصـحيح لخطأ غوردون ــ فقد كان أمله الوحيد هو أن يحقق مهمته الخاصة بالاخلاء قبل أن يتنبه العـدو الى ضعفه ولكن غوردون أزال منـذ البداية كل شك لدى المترددين وأوضح لهم أن مصلحتهم تقتضى التفاهم مع المهـدى وعندما حوصر فى الخرطوم لم يكف عن محاولة خداع المهـدى وسكان المدينة ــ ولكن فشلت هذه المحاولات نتيجة وضوح أعماله بصورة مكشوفة خلال رحلتـه فيما بين كورسكو والخرطوم .

٣ ــ غوردون فى الخرطوم :

تحول موقف غوردون وأهـداف بعثته فيما بين مغادرته لانجلترا ووصوله للخرطوم فى ١٨ فبراير من ناحيتين ، فقد ابتلعت مهامه التنفيذية مهامه الاستشارية الأصلية وتحول تفكيره عن مجرد تنظيم الاخلاء الى الاعداد لحكومة تخلفه وقد سيطر عليه هذا التحول فى اهتماماته .

فان ما شاهده فى السودان فيما بين أبو حمد والخرطوم دفعه الى التخلى عن فكرة الابقاء على السيادة المصرية وبمجرد وصوله للخرطوم أوعز لبيرنج بأن تقـوم الحـكومة البريطانية بتعيين خلفـه وامـداده بالصلاحيات ووعده بالمساندة الأدبية من جانب حكومة جلالة الملكة ،

---

(١) Ibid p. 285

(٢) Ibid p. 369

(٣) كتب سلاطين ان حسين باشا خليفة أخبره بانه منع غوردون من قراءة البيـان فى بربر الا أن غوردون قـراه فى المتمـة . وهـذه الواقعـة لم ترد فى تقريرى ستيوارت وحسين باشا المكتوبين . Slatin, op. p. 298

ولا شيء أكثر من ذلك ، ومضى غوردون يحبذ اختيار الزبير باشا • وينبىء تعليق ستيوارت على المشروع الأخير عن حسن تقديره المعتاد للأمور ففى رأيه أن هذه السياسة المقترحة من شأنها أن تسهل انسحابهم من السودان الى حد كبير ولكنه أبدى شكه فيما اذا كانت لديه المعرفة الكافية بالبلاد بحيث يستطيع اتخاذ قرار فيما يتعلق بتعيين الزبير •

وبينما تجرى هـذه الاتصالات تنبه غوردون أخيرا الى حقـائق الموقف ـ فقد استقبل بحفاوة فى الخرطوم وأحرق دفاتر محصلى الضرائب وأسواطهم فى الميدان العام حتى يتوفر الاتصال بين سكان المدينة ومن هم فى خارجها • ولكن هذه الاجراءات الدرامية لا يمكن لها أن تكتسب ولاء رجال وضعت مصائرهم وأرواحهم على كف القدر • فأحد كبار الزعماء الدينيين المحليين وهو شيخ العبيد ود بدر من أم ضبان تخلى عن حيادة عندما علم أن غوردون لم ترافقه قوات وأنه يهدف الى اخلاء البلاد • كما أن شيخ المضوى عبد الرحمن غير موقفه من جديد وانضم الى عائلة الشيخ العبيد • وأرسل غوردون الى نائب المهـدى فى الجزيرة الشيخ محمد الطيب البصير معلنا سياسته بشأن تخفيض الضرائب والابقاء على الرقيق والحكم الذاتى ودعا الشيخ الى الخرطوم فأجاب الشيخ البصير بدوره طالبـا من غوردون التسليم • وفى تلك الأثناء أدت استعدادات الاخلاء الى افزاع السكان وحث اثنان من الضباط غودون على التوقف ولو مؤقتا عن تنفيذ سياسته الخاصة بترحيل القوات المصرية •

كان لهـذه التطورات تأثير مزدوج على غوردون • فقد أدرك أن خطته الأصلية التى قامت على اخلاء السودان سلميا مع الابقاء على علاقات الود مع المهدى قد منيت بالفشل • وشعر بأنه ملزم باقامة حكومة قوية تخلفه وتيسر اتمـام عملية الاخلاء وتوفر الحماية اللازمـة للراغبين فى البقاء•ولذلك فانه عندما حول بيرنج الىغوردون برقية الحكومةالبريطانية المؤرخـة ٢٢ فبراير التى نصت على رفض اختيـار من يخلف غوردون وأشارت الى رفض الرأى العام البريطانى تعيين الزبير ، أجاب غوردون بأنه لا يجد بديلا عن الزبير بآخر وأرسل نداء جديدا الى الحاكم الشرعى

لمصر جاء فيه ... اذا كان لمصر أن تتمتع بالسلام فلابد لها من القضاء على المهدى ... واذا استقر رأيكم على ذلك فلابد لكم من أن ترسلوا مائة ألف جنيه أخرى ، ٢٠٠ جندى هندى الى وادى حلفا ، وأرسلوا أيضا ضابطا الى دنقلة بحجة البحث عن مستقر للجنود والاخلاء ممكن ولكنكم ستشعرون بآثاره على مصر وستواجهون مسألة أخطر لحمايتها ومن السهل نسبيا فى الوقت الحالى القضاء على المهدى » (١) .

وهكذا كان غوردون يقترح تأجيل الاخلاء وتدخل بريطانيا عسكريا فى السودان وتدمير المهدى . كما يبدو تبدل أفكاره فى بيان أعلنه لسكان السودان بتاريخ ٢٦ فبراير — اذ تخلى غوردون عن سياسته السلمية وأعلن أن قوات الحكومة البريطانية فى طريقها اليه وأنها ستصل الى الخرطوم خلال أيام قليلة . وقد يكون هذا التأكيد ناتجا عن سوء فهم أو لعله كان نوعا من الخداع . وقد أثبتت الأيام التالية زيف ما جاء فى البيان وبالتالى تأثرت مكانة غوردون الشخصية — تلك المكانة التى كانت سلاحه الأخير وربما الوحيد وحين انتاب وزراء بريطانيا كثير من القلق ولم تكن لديهم فكرة واضحة عن الموقف فى السودان وبدا لهم أن المبادرة قد انتقلت الى شخص بعيد لا يمكن التنبؤ بما سيفعل وأنه يلزمهم صراحة بالتدخل المسلح وفى تلك الأثناء واصل غوردون الضغط فى سبيل ارسال الزبير يسانده بيرنج فى ذلك باخلاص . رفض مجلس الوزراء البريطانى هذا الطلب من جديد فى جلسته التى عقدت فى ٥ مارس . وكان غوردون لا يزال يواصل الضغط من أجل تحقيق طلبه فى الوقت الذى كان فيه الرأى العام لا يزال متحاملا على الزبير .

أما جلادستون فكان مريضا ولم يكن يستطيع تنفيذ ميله الى الاستجابة لطلب غوردون . وقرر مجلس الوزراء فى اجتماع عقد فى غيبة جلادستون ١١ مارس رفض طلبه نهائيا . وفى ١٣ مارس أخطر بيرنج بتعذر الاستجابة لكل من اقتراح غوردون الخاص بالاستعانة بالزبير أو ارسال قوات بريطانية الى بربر .

---

(1) Cromer : Modern Egypt, 1, 487-8

وقد اتخذ هذا القرار فى الوقت الذى انتهت فيه المرحلة الأولى من اقامة غوردون بالخرطوم • ففى ١٢ مارس قطع الخط البرقى بين الخرطوم وبربر•ومنذ ذلك الوقت كانت الاتصالات التى تجرى بين غوردون وبيرنج بطيئة ومتقطعة وصعبة وفى ذات الوقت أخذ الثوار المحليون يجمعــون قواتهم تحت قيــادة الشيخ العبيــد وأولاده والشيخ المضــوى وطردوا حامية الشائقية غير النظاميين الصغيرة من الحلفــاية المواجهــة للخرطوم واحتلوا المدينة (الحلفاية) فى ١٣ مارس • أرسل غوردون حمولة مركبين من الجند لاستعادة هذه النقطة ولكنهم اضطروا للكف عن اتمام العملية عندما حل المساء • وبعد ثلاثة أيام أرسلت قوة قوامها أربعة آلاف جندى الى الحلفاية ولكنها هزمت وأحيط غوردون علما بأن الضابطين الرئيسيين فى تلك الحملة تواطآ مع الثوار فحوكما عسكريا وأعدما • وأعقب هذه العمليات الأولية فترة سكون يمكن تفسيرها بأن الأنصار كانوا فى انتظار تعليمات من المهــدى • وفى ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ (٥ مارس ١٨٨٤) أرسل المهدى رده على خطاب غوردون الذى عرض عليه فيــه سلطنة كردفان (١) وقــد جاء بالرد فى ٢٢ مارس ثلاثة رسل قــدموا لغوردون أيضا الجبــة ذات الرقع باعتبارها الرداء التقليدى للمهديين ورفض غوردون بازدراء دعوة المهدى اياه لقبول الاسلام دينا له وعاد الرسل الى الأبيض ليبلغوا المهدى بفشلهم ــ وبناء عليه أرسل المهدى ، وقد أرضى ضميره بعد انذار عدوه محمد عثمان أبو قرجة ومعه المدافع والأسلحة النارية وقوة من الأنصار لتنظيم حصار الخرطوم (٢) •

وفى نفس الوقت عين المهدى أستاذه السابق محمــد الخير أميرا لبربر وأرسله ليشرف على الجهاد فى ذلك الاقليم (٣) فوصله فى ٢٧ أبريل

---

(١) تاريخ هذا الخطاب موجود فى مذكرات يوسف ميخائيل (٢) رقم ٩٠ وأيضا فى شقير : تاريخ السودان وجغرافيته حـ ٤ ص ٢٣٠ .

(٢) جاء ذكر تعيين أبو قرجة كأمير لجهات البحر ، وتكليفه بقتــال العدو فى خطاب من المهدى الى محمد خالد بتاريخ ٤ جمادى الثانى ١٣٠١ هـ (أول ابريل ١٨٨٤) انظر Mahdia, 1/1, 8, 6-7

(٣) حين فارق المهدى كان قد حصل على لقب أمير وذلك فى ٣ جمادى الثانية ١٣٠١ هـ (٣١ مارس ١٨٨٤) . Ibid, 1/10, 8, 22

حيث وجد أن أحد الزعماء الثائرين تمكن من حشد الأعراب على حدود اقليمى بربر والخرطوم وطرد الحاميات الحكومية من معسكرها الواقع على خانق سبلوقة • وحين وصل محمد الخير تقدم مع مجرى النيل حيث انضم اليه سكان القرى التى مر بها • وأبدت شندى بعض المقاومة ولكن القوات العسكرية انسحبت فى النهاية فى مركب بخارى لاحقة الأنصار عن كثب • وعندما وصل محمد الخير الى الدامر انضم اليه الأمين أحمد المجذوب شيخ المجاذيب هناك • وأرسلت رسالة موقع عليها من شيوخ الاقليم الى حسين خليفة تدعوه للتسليم • ولكنه رفض الدعوة فقام الأنصار بقطع اتصالاته بالشمال والجنوب • وأعد حسين باشا ما استطاع من استعدادات للمقاومة • وفى ١٦ رجب ١٣٠١(١٢ مايو ١٨٨٤) أحضر محمد الخير قواته الرئيسية وبدأ الحصار • وأدى الهجوم العام الذى قام به بعد سبعة أيام من بدء الحصار الى اختراق الدفاع وتعرض العبابدة للمذبحة التى أعقبت ذلك • وقدم حسين باشا خضوعه لمحمد الخير وبعد شهرين من ذلك التاريخ تم ارساله الى المهدى • وعثر فى خزينة الاقليم على أكثر من ٦٠ ألف جنيه يمثل معظمها الاعانة التى أرسلت لغوردون • وقد أرسل المهدى فور اخطاره بها الأمين ابراهيم محمد عدلان ــ أحد موظفيه الماليين ــ ليحضرها له •

وحينئذ أصبح موقف غوردون عصيبا للغاية ــ فقوات المهدية تحيط به ومحمد الخير وعثمان دقنة يسدان عليه الطرق المؤدية الى الشمال والى سواكن ولهذا كان لا يستطيع حتى اخلاء الخرطوم دون مساعدة عسكرية قوية من الخارج • وهذا ما لم تتعهد به الحكومة البريطانية • ومن ثم اعتقد غوردون أن واجبه هو البقاء بالخرطوم لمقاومة العدو بكل ما يستطيع آملا مع توالى الأيام أن يتخذ مجلس وزراء بريطانيا قرارا لانقاذه فى النهاية • ومما شجعه على هذا الاعتقاد البرقية التى وصلته فى أول مارس والتى تضمنت أن الحكومة البريطانية تثق بقدرته على البقاء مزيدا من الوقت بالخرطوم وقد تعدل هذا الاتجاه بعد ذلك حين وصلته تعليمات تقضى بسحب الحامية والانسحاب الى بربر اذا

ما لاح ازدياد الصعوبات بشأن اقامة حكومة تخلفه•ولكن هذه التعليمات الأخيرة التى وصلت للقاهرة فعلا فى ١٧ مارس لم تصل الى غوردون على الاطلاق•ولهذا بقى بالخرطوم وليس لديه مايساعده أكثر من عقيدته الدينية العميقة ذات النزعات الصوفية وقرر مقاومة قوات المهدية حتى النهاية •

ولم يترتب على وصـــول أبو قرجـة لقيادة الأنصـــار لمحاصرين للخرطوم انتصـــارات جديدة • وقد أقام معسكره على النيل الأزرق جنوب شرق الخرطوم • وفى البداية بدا أن غوردون قد صمد فى وجـه المحاصرين ــ فقد أمكن صد الأنصار ــ المعسكرين على النيل الأبيض قرب الخرطوم ــ حتى شهر يوليو • وطرد أبو قرجة من مواقعه على النيل الأزرق فانسحب الى النيل الأبيض حوالى منتصف شـــهر أغسطس ومن هناك أرسل الى المهدى تقريرا عن الموقف وعندئذ بعث غوردون برجاله ليقوموا بهجوم كبير على الأنصار فى الحلفاية وكانوا تحت قيادة الشيخ العبيد ــ فسقط معسكر المهدية وانسحب الأنصار الى أم ضبان وفتحت هذه العمليات طريق المؤن للخرطوم التى بدأت تعانى من آثار الحصار ، كما أعطت المدافعين فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم • ولعل هزيمة أبو قرجة الظاهرية كانت خدعة حربية ــ ومع أن تعليمات المهدى له لم تعرف لنا الا أنه يمكن القـــول بأنه رأى أنمن غير المناسب القيام بعمـــل حاسم حتى وصول الجيش الرئيسى والمهدى شخصيا • ولا شك أنه باستمراره فى عزل الخرطوم وارهاق المدافعين عنهـــا كان يعد العـــدة ــ بفعالية ــ للصراع الأخير •

ولم تكن انتصارات غوردون حاسمة وعندما حاول فى أوائل يوليو تقوية مركزه على النيل الأبيض بارسال حملة بقيادة ساتى بك (الذى عمل سابقا فى بحر الغزال) للقضـــاء على ثورة نشبت فى القيطاينة هزم ساتى بك وقتل • وعقب الانتصار الذى تحقق فى الحلفاية أرسلت حملة على النيل الأزرق ضد تجمع للأنصار • وقضى على الثوار فى ٣١ أغسطس وتقدمت الحملة نحو أم ضبان ولكنها ضلت طريقها ووقعت فى كمين وقتل

قائدها مع ألف من رجاله • وعندما عاد الناجون للخرطوم انهارت الروح المعنوية فى المدينة •

وعزم غوردون أيضا على ارسال حملة بقيادة ستيوارت للاستيلاء على بربر • ولكن مذبحة أم ضبان جعلت تنفيذ هذه العملية أمرا مستحيلا ــ فقرر غوردون ارسال ستيوارت لاجتياز الحصار فى باخرة حتى يستطيع نقل آخر تطورات الموقف بالخرطوم للعالم الخارجى • وقد غادر ستيوارت الخرطوم فى سبتمبر مصحوبا بقنصلى انجلترا وفرنسا ووفقوا فى الوصول الى منطقة المناصير قرب حمد حيث هوجموا فى ١٨ سبتمبر على يد سليمان نعمان ودعمر الزعيم المحلى الذى غدر بهم وحيث ذبح جميع الأوروبيين • وحينئذ أصبح غوردون معزولا فى الخرطوم بصورة لا يمكن احتمالها • وأخيرا أجبر ضغط الرأى العام فى بريطانيا خلال ذلك الصيف حكومته على الموافقة على ارسال بعثة للانقاذ • وفى ٥ أغسطس وافق البرلمان على اعتماد مبلغ ٣٠٠٫٠٠٠ جنيها لهذا الغرض ولكن ضاع وقت طويل قبل تحديد مسار الحملة وتنظيمها • ولم تصل أنباء عن الحملة لغوردون قبل ٢٠ سبتمبر وحينئذ لم يكن قد بدأ اعدادها ــ بل لم تبدأ الاجراءات التمهيدية الخاصة بها ، ولم يبدأ الطابور الصحراوى تحركه من كورتى فى اقليم دنقلة عبر صحراء بيوضة نحو الخرطوم قبل يوم ٧ يناير ١٨٨٥ •

وفى خلال ذلك تدهور موقف غوردون تماما • أما المهدى فقد غادر هو وأتباعه الأبيض فى أوائل ابريل ١٨٨٤ [1] وأقام معسكرا فى الرهد حيث تتوفر المياه اللازمة لكل هذه الجموع خلال موسم الجفاف ، وظل فى هذه البقعة حتى نهاية شهر رمضان الذى اعتكف فيه وتولى خاله

---

(١) يعطى اورفالدر ص ١٠١ يوم ٧ ابريل تاريخا لهذا الحدث بينما يعطى الخليفة فى خطاب منه لمحمد خالد تاريخا متقدما لهذا الحدث (انظر Mahdia, 1/10, 8, 22) هو ٣ جمادى الثانى ١٣٠١ هـ الموافق ٣١ مارس ١٨٨٤ ويذكر ان المهدى تقدم صوب النهر ، وهناك خطاب آخر من المهدى لمحمد خالد (Ibid. I, 1, 8, 6-7) بتاريخ ٤ جمادى الثانية يذكر فيه انه سيتحرك الى الخرطوم بعد أبو قرجه .

محمود عبد القادر منصب الحاكم العسكرى فى الأبيض ، وأرسلت حملة بقيادة حمدان أبو عنجة ضد النوباويين فى جبل الداير فى الوقت الذى كان فيه مركز قيادة المهدى فى الرهد . وأرسلت طليعة جيش المهدية الى الخرطوم تحت القيادة العليا للجعلى عبد الرحمن النجومى . وغادر النجومى الرهد فى أوائل شهر رمضان (٢٥ يونيو) وشق طريقه ببطء ، ووصل الخرطوم فى أوائل سبتمبر حيث استدعى جميع القبائل لمعاونته وأخذ فى تضييق الخناق على المدينة . أما المهدى فغادر مع بقية رجاله وأتباعه وأسراه الرهد فى ٢٢ أغسطس (١) . ووصلت القافلة الكبيرة الى النهر عند الدويم ثم تحركت شمالا على شاطئه الأيسر وفى ٢٣ أكتوبر اتخذ المهدى معسكرا رئيسيا له يتابع منه الحصار فى أبو سعد جنوب أم درمان . وهكذا طوقت القوات المهدية المدينة تماما فى الوقت الذى كرر المهدى كتاباته لغوردون داعيا اياه للتسليم . وفى تلك الأثناء تزايدت الصعوبات التى كان يعانى منها سكان المدينة .

وأقام الأنصار استحكاماتهم فى الحلفاية وخور شامبات على المجرى الرئيسى للنهر لمنع مرور المراكب البخارية ، كما أرسل المهدى حمدان أبو عنجه للاستيلاء على قلعة أم درمان التى كانت بها قوة تحت قيادة المقاتل السودانى فرج الله باشا راغب تواصل القتال ببسالة بعد تناقص المؤن والذخيرة وبعد أن فشل غوردون فى انقاذها . وفى ٥ يناير ١٨٨٥ استسلم فرج الله باشا للمهدى بموافقة غوردون . وأدى سقوط أم درمان الى انهيار معنويات سكان الخرطوم الى حد كبير والى تزايد المغادرين للمدينة من أجل الانضمام للمهدى .

وحينئذ توقف كل شىء على امكان وصول النجدة فى الوقت المناسب . وقد غادر الطابور الصحراوى آبار الجكدول فى طريقه الى المتمة عبر صحراء بيوضة ، بينما احتلت قوة مشتركة من الأنصار على رأسها محمد الخير وعلى سعد فرج وكيل المهدية فى المتمة آبار أبو طليح (٢) على

---

(١) يحدد أورفالدر يوم ٨ أغسطس تاريخا لمغادرة المهدى .
Chrwalder p. 186.

(٢) الاسم المعروف به فى الانجليزية هو Abu Kea

طريق الطابور الصحراوى • وهناك انضمت اليهم قوة أرسلها المهـدى وفى ١٧ يناير حدث الاشتباك الذى تم فيه اختراق المربع البريطانى ولكن الدائرة دارت على الأنصار فانسحبوا الى المتمة • واستأنف الطابور الصحراوى تقدمه ولكن المهدى كان قد أمد رجاله بتعزيزات أخـرى تحت قيـادة النور محمد عنقرة • ووقع اشتباك آخر فى القبة (١) خارج المتمـة فى ١٩ يناير حيث تشتت شـمل الأنصار سريعا ، ولكن القـائد البريطانى أصيب بجرح مميت • وانتقلت القيادة الى سير تشارلز ولسون الذى قـرر الاسـتيلاء على المتمة قبل أن يستأنف تقـدمه • وتم هذا فعـلا فى ٢١ يناير وفى أثنـاء القتال وصلت ثلاث مراكب بخارية بعث بها غوردون للاتصال بطابور الانقاذ • ولم يتعجل ولسون تقـدمه للخرطوم فورا بعد ذلك وكان يعتقد أن واجبـه الأول هو تأمين سـلامة رجاله وخاصة لأنه خشى تعرض قوته لهجوم يشنه ضـده المدد الذى أرسـله المهـدى • ومن ثم صرف اليومين التـاليين فى الاستطلاع وفى ٢٤ يناير اتجه ولسون مع ٢٠ جنديا بريطانيا ، وأكثر من مائتى جندى أسود فى مركبين بخاريين الى الخرطوم • وعندما أصبحت المدينة على مرمى البصر من المركبين فى ٢٨ يناير لم تشاهد الراية المصرية • وأصبح من الواضح أن الحصار الطويل من حولها استطاع أخيرا أن يحقق غايته • وبناء على أوامر ولسـون توقفت المراكب وتحت وابل من رصاص رجال المهـدى استدارت عائدة • ولا حاجة بنا الى ذكر ما كان للفشل فى انقاذ حيـاة غوردون من ردود فعل على السياسة البريطانية — فهى معروفة بمـا فيه الكفـاية •

ويبـدو أن الرأى العـام البريطانى ابتـداء من الملكة فيكتوريا بالغ فى تجسـيم هـذا الفشـل فلو قـدر لحمـلة الانقـاذ أن تصـل الخرطوم قبل سقوطها فما كان ولسون بقادر بمركبيه البخاريين وحفنـة الرجال التى صاحبته على القيام بأكثر من محاولة لانقاذ غوردون نفسه • وما كان غوردون ليقبـل بمثل هـذا فقد كتب فى مذكراته « انى أعلنها

---

(١) يطلق عليها فى المكاتبات الانجليزية . Gubat

بصراحة وبصورة قاطعة أنني لن أترك السودان الا بعد أن تتاح لكل راغب في النجاة فرصته والا بعد قيام حكومة تأخذ عنى المسئولية (١) ٠

ورغم ذلك فلو تصرف ولسون بسرعة أكثر لأوقف المهدى مؤقتا — فالأنصار المحاصرون للخرطوم قد أثرت فيهم كثيرا أنباء هزيمة أبو طليح ، وعقد المهدى مجلسا من خلفائه وكبار أنصاره وأقاربه حيث أيدت الغالبية في البداية الانسحاب الى كردفان — الا أن محمد عبد الكريم خال المهدى عارض بشدة هذا الرأى الذى أثاره الرعب وقال : « اذا كانت كل هذه المتاعب قد تسبب فيها انجليزى واحد هو غوردون فكيف يكون الحال اذا انضم الى غوردون جيش كامل من أهل بلاده ؟ » ٠ وبناء عليه قرر المجلس القيام بهجوم خاطف على الخرطوم قبل وصول قوات الانقاذ ٠ وعزز هذه الخطة الجريئة ما جاء به بعض الهاربين من الخرطوم من أنباء عن نقص كبير في المؤن وعجز جنود الخرطوم عن القتال ٠ كما كشف أحد الفارين عن أضعف نقط الاستحكامات وهو موضع على النيل الأبيض تراجعت عنه مياه الفيضان تاركة شريطا من الأرض الطينية لا يحميها خندق أو سور ٠ وفي منتصف ليلة ٢٥ يناير عبر المهدى النيل الأبيض وصرح للنجومى بالهجوم ٠ وقبل بزوغ الفجر بنحو ساعة نفذ الهجوم ٠ واخترقت الاستحكامات من النقطة التى حددها الهاربون ٠ وفي خلال ساعتين تقريبا توقفت كل مقاومة وقضى على غوردون نفسه خلال هذا الاشتباك حيث قتل على درج السراى الخاصة به (٢) ، وقطعت رأسه وأرسلت الى سلاطين في أم درمان للتثبت منه ٠ ولما شاهدها سلاطين نطق بالنص التالى « يا لسعادة الجندى الشجاع الذى سقط أثناء تأدية واجبه فقد توقفت آلامه » ٠

---

(١) Hake : Gordon's Journals, 307.

(٢) تعددت الروايات في هذا الشأن ولكن مما يؤيد روايتنا هذه الشهادة المحايدة التى سجلها يوسف ميخائيل ٠ وحول هذه الرواية توجد تفاصيل متنوعة عن الزى الذى كان يلبسه غوردون واسم من قام بذبحه وهكذا ٠ ولا يوجد ما يدعو للشك فيما يؤكده السودانيون بصفة عامة من أن غوردون قتل برغم أوامر المهدى ٠

(٤) الموقف بالخرطوم عقب سقوطها :

تكررت فى الخرطوم وعلى نطاق أوسع صور من المآسى التى أعقبت سقوط الأبيض • فقد جال الأنصار وصالوا فى الطرقات قتلا ونهبا لساعات عديدة ولكن ما كان المهدى ليرضى عن بعثرة ما بالعاصمة من ثروات • ومن ثم صدرت الأوامر بتجميع الأسرى والغنائم فى معسكر النجومى خارج الأسوار وسلم كل هذا مع الممتلكات ذات القيمة لأحمد سليمان مسئول بيت المال ، ووزع المنتصرون فيما بينهم النسوة صغيرات السن باعتبارهم زوجات أو محظيات ، وقضت المذبحة على كثير من الرجال البارزين • أما الناجون فحددت لهم اعانات قليلة من الخزينة ولكن صرفها كان صعبا وخلال الأشهر القليلة التالية أدرجوا فى سياق العمال المؤقتين أو اليدويين بأم درمان •

وفى ٣٠ يناير وهو اليوم الرابع لسقوط الخرطوم والثانى بعد نسحاب ولسون دخل المهدى العاصمة دخول الظافرين وأم صلاة الجمعة فى المسجد • ويبدو أنه قرر فى بداية الأمر اتخاذ الخرطوم عاصمة له وأعد له منزل خاص كبير كما أعدت منازل أخرى لكبار أنصاره • واتخذ « عبد الله » من سراى الحاكم مقرا له • ولكن سرعان ما تغيرت خطط المهدى وتقرر انشاء عاصمة جديدة فى السهل الواقع شمال قلعة أم درمان • وبناء عليه نقلت قوات المهدى من أبو سعد وأقيم مسجد ومنازل بسيطة للمهدى وضباطه • وقد مارس المهدى لبضعة أشهر مراسيم سلطته من أم درمان حيث توفى فى ٩ رمضان ١٣٠٢ هـ (الموافق ٢٢ يونيو ١٨٨٥) ولم يطل مرضه ومن ثم سرت الشائعات بأن احدى محظياته التى تم أسرها فى الخرطوم قد دست له السم • والاحتمال الأقوى أن وفاته كانت طبيعية وينسبها سلاطين لاصابته بحمى التيفوس •

وعند وفاة المهدى كان عدد كبير من الناس بمن فيهم كثير من أقارب المهدى والأشراف يقيمون فى الخرطوم • وقد توترت العلاقات فى الشهور الأولى لحكم عبد الله — كما سنرى — بينه وبين الأشراف • وكان من الواضح أنه لم يرتح للخرطوم فقد زار العاصمة القديمة مع قوة

كبيرة من البقارة وأخرج سكانها من بيوتهم ثم جمع كل ما بها من سلاح وبعد ثلاثة أيام أصدر أمرا للأهالى بمغادرة الخرطوم والاقامة فى أم درمان ومع أنه لم تتخذ اجراءات فورية لتنفيذ هذا القرار الا أنه تأكد فى ذى الحجة ١٣٠٣ الموافق أغسطس ١٨٨٦ أى بعد أربعة أشهر من قضاء « عبد الله » على محاولة قام بها الأشراف لعزله(١) وفى هذه المرة نفذ القرار بعنف وبقيت الخرطوم لمدة اثنى عشر عاما ـ أى الى حين وصول كتشنر اليها ـ تنعى من بناها . فقد هدمت مبانيها لانشاء العاصمة الجديدة . ولم يبق منها سوى مينائها ، وذلك رغم الابقاء على الحدائق باعتبارها مصدرا للدخل .

(١) تقرير بردينى (Burdayni) انظر ما يلى :

الفصل الخامس

دعاية المهدى وادارته

(١) دعاية المهدى :

يبدو أن محمد أحمد ذاته هو الذى أنشأ الدعاية المهدية فقد وضع أسسها قبل أن يعلن نفسه مهديا سـواء فى آبا نفسها أو خلال رحلتيه الى كردفان • وواضح أنه لم يكلف خلال هذه المرحلة المبكرة أحدا من أتباعه بالتعليم أو التنظيم باسـمه • وعندما أعلن أنه المهدى قرن ذلك الاعلان بتطور كبير فى الدعاية المكتوبة فى صورة رسائل انذار أو انذارات أرسلها للمـارقين • وقد بقيت احدى رسائله الأولى ــ وقد كتبت فى أول شعبان ١٢٩٨ (٢٩ يونيو ١٨٨١) ــ وكانت موجهة الى الشيخ محمد الطيب البصير من الحلويين بالجزيرة • وتكشف تلك الرسالة الملامح الرئيسية للدعاية المهدية : قصة الرؤيا التى يعلن فيها الرسول أن محمد أحمد هو المهدى • والتصوير بسيط لا تعقيد فيه اذ يظهر فى الرؤية اثنان من أتباع محمد أحمد (وأحدهما عبد الله) وبعض الأولياء من المتصوفة • وكل هؤلاء ــ باستثناء عبد القادر الجيلانى ــ كانوا من سودانيى القـرن التاسع عشر المتصلين بالطريقة السمانية فى الجزيرة (١) •

وحتى يمكن مخاطبة دائرة أوسع كان لابد من شكل للدعاية أكثر تطورا ــ ومن الواضح أن هذه قد ظهرت دون تأخير ــ فهناك رسـالة بتاريخ ١٢٩٨ هـ (أى خلال الشهور القليلة الواقعة بين يونيو ونوفمبر من عام ١٨٨١) تحوى جميع العناصر الأساسية لدعاية المستقبل ــ وقد تم التعبير عن معظمها فى صياغة ما لبثت أن أصبحت متشابهة (٢) •

---

(١) مخطوطات النجومى ، رقم ٥٣ •

(٢) نفس المصدر ، رقم ١٢٦ •

وتبدأ الرسالة بالحسرة على ما كان من ترك السـنة وتنبه الى أن تداءات محمد أحمد الأولى من أجل الاصلاح قبل اعلانه لمهديته لم يعرها أحد التفاتا سوى الفقراء وأهل الصلاح الذين تدافعوا لأداء عهد الولاء. ويصف محمد أحمد بعد ذلك أحداث الرؤية التى رآها والتى تم فيهـا تنصيبه مهديا عندما أجلسه النبى محمد صلى الله عليه وسلم على المقعد فى حضور النبى الخضر وأوليـاء الاسلام وأتباع محمد أحمد نفسه . وهكذا صار محمد أحمـد « خليفة لرسول الله » . وجعل المهدى تكليفه بقيادة الجهاد ضد الكفرة واضحا فى ذات الرؤية . فقد جاء فى الرؤية أن النبى سلمه سيفه وأيده بعشرة من الملائكة . وتقرر أن يصحبه دائما ملاك الموت عزرائيل على أن يتقـدم جيشه فى القتال وأيضا الخضر وقد جاء ذكره فى القـرآن ونسب له الصوفيون السرمدية والعلم بالغيب والتواجد فى كل مكان . وقد أخبر النبى المهدى فيما بعد بسر العلامتين الالهيتين اللتين تدلان على صدق تكليفه بالرسالة وهما الندبة التى على خده الأيمن وراية النـور التى تسير أمامه . واستندت العـلامة الثانية الى المذيل وما كان من ظهوره فى ذلك الحين بالسودان .

وقد أدى ذكر هذه الرؤية وما جاء بها الى اقناع جماهير السودانيين بالمهـدى ـ وجاء تأثرهم العميق بسبب ما تناقلوه منـذ طفـولتهم عن معجزات أوليائهم . ولم يكن من السهل اقنـاع العلمـاء الذين درسوا أصول الدين بالأزهر (غالبا) بمثل هـذا الدليل . ولذا دافع محمـد أحمـد أمامهم عن صدق مهديته بما أكده من أن علم الله وقوته لا يمكن قياسهما بمقاييس البشر . فعلى فرض عدم توفر صفات المهـدى المتوارث ذكرها فيه فان الله قادر على اختياره برغم ذلك وبرغم رأى شيوخ الدين . واقتبس من الآيات القرآنية ما يؤيد قوله هذا ومن ذلك الآية : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » . ثم أنه هاجم المنكرين لمهديته وادعى أن الرسول قال ان عدم الايمان بالمهدى كفر بالله ورسـوله .

وتتميز هذه الرسالة بظاهرتين مثيرتين للاهتمام — فبعد تعريف المهـدى بعلامتيه نسب للنبى مخاطبته اياه بالقول « أنت خلقت نور مهجة قلبى » • ويعكس هذا المبدأ الصوفى — القائل بأن الله خلق حفنـة من النور قبل كل العالمين • وقد تجسد هـذا النور فى آدم والأنبياء الذين جاءوا بعـده الى زمن محمد ، ثم انتقل الى سلالة محمد من ابنته فاطمة وابن عمه على بن أبى طالب • وهكذا أكد المهدى وضعه باعتباره خليفة للنبى وذلك حين أشار الى نور محمد • وقد يفسر هذا الملمح الثانى البارز فى الرسالة • فرغم أن محمد أحمد اعترف بعدم اهتمامه بالصفات التقليدية للمهدى المنتظر حيث أن الله غير مقيد بتخمينات البشر حول هذا الموضوع فانه كان عظيم الاهتمام باثبات انطباق واحدة من تلك الصفات عليه وهى بالذات ضرورة انتساب المهـدى لأسرة النبى وقد أعلن أن كلا من جديه لوالده ينتسبان للحسين بن فاطمة وعلى وكذلك الحال بالنسبة الى جدته لوالدته • أما جده لوالدته فكان أيضا من أقارب النبى لأنه من سـلالة العباس عم النبى •

وقد ضمن المهدى ما جاء برسالته هذه من دفاع عن صـدق مهديته فى منشورات تالية • وتنوعت وسائل التأكيد والاقنـاع وفقا لنوعيـة المعنيين برسائله • فعندما كتب الى عالم أصـدر منشورا معاديا له ، أكد بطلان ما ذهب اليه هذا العالم من ضرورة تحرك الله طبقا لمعتقدات رجال الدين وبين أهمية الخلاص بالايمان المجرد • وفى منشوراته التى وزعها على رجال حملة هكس وعلى السكان المحاصرين فى المدن استند — كدليل على صحة رسالته الالهية — الى انتصاراته السابقة •

وفى رسالته الى شيخ السنوسية محمد المهـدى بن السنوسى تم توسيع قصة الرؤية بحيث تخلع موافقة الله على تعيين كبار أتباعه والمخاطب (السنوسى) باعتبارهم خلفاء للخلفاء السنيين الأربعة •

ولمـا كانت الدعاية المهدية متشابهة فى معالمها الرئيسية ، فقد كان من الممكن تطويرها بحيث ترضى مختلف الناس الذين توجه اليهم •

ورغم ما يبدو من أن قلة من رجال الدين المحترفين هم الذين آمنوا بهـا عن اقتناع ، فانهـا ــ بالاضافة الى انتصارات المهـدى المدوية ــ شكلت سلاحا نفسيا كان له أثر ضخم على جماهير السودانيين •

(٢) ادارة المهـدى :

تحولت المهـدية خلال السنوات الأربع التى مضت فيما بين اعلان المهـدى لنفسه فى آبا ووفاته فى أم درمان من حـركة احتجاج دينى الى حكومة اسلامية عسكرية قوية • ويمكن توزيع نظم هذه الحكومة بين ثلاثة عناصر : قيادة المهدية العليا ــ النظام المـالى ــ النظام القضائى •

وقد ضمت القيادة العليا المهـدى ذاته والخلفاء الثـلاثة عبد الله بن محمد ، على بن محمد حلو ومحمد شريف بن حامد والقواد العظام كعبد الرحمن النجومى وعثمان دقنـه ، ومحمد الخـير عبد الله خوجلى وحمـدان أبو عنجة • وفى خلال هـذه الفترة كان الأشراف ، أقارب المهـدى ، على علاقة وثيقة بوجه خاص مع القيادة العليا •

(أ) المهـــدى :

شغل المهـدى فى نظام القيادة مكانة عليا وفريدة فى نوعها بسبب تنصيب الله له • وقبل اعلانه أنه المهـدى كان مركزه يقـوم على كونه رئيسا لطريقة دينية ويمارس سلطة روحية على مريديه فالصلة بين مثل هذا الشيخ وأتباعه تقوم على عهد يتخذ شكل قسم بالولاء (بيعة) تمكن العضو الجديد بالانخراط فى سلك الطريقة (١) • وقد واصل المهـدى هذا الأسلوب التقليدى بعد اعلانه لمهـديته • وكانت البيعة تتم وفقـا للعبارات التالية : « بايعنا الله ورسوله ومهديه وبايعناك على توحيد الله وألا نشرك به أحدا ولا نسرق ولا نزنى ولا نأتى ببهتان ولا نعصيك فى معروف ، بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما يريد الله رغبـة فى ما عند الله والدار الآخرة وأن لا نفر من الجهاد » (٢) •

ويلخص هـذا العهد أنبل ملامح المهدية والاحتجاج الذى أدى الى

---

(١) Trimingham . Islam, 205-6, 221

(٢) شقير : تاريخ حـ ٣ (طبعة بيروت) ص ٩٧٥ .

ظهور الحركة فالنداء بوحدانية الله ، أهم مبادىء الاسلام كان دائما عبر الأجيال صيحة التجميع للمسلمين الراغبين فى الاصلاح ، والتطهير . ولعل هذا يذكرنا بحركة محمد بن تومارت الذى عرف أتباعه فى القرن الثانى عشر « بالموحدين » . أما الالتزام بعدم السرقة أو الزنا أو شهادة الزور فقد وجهت ضد ثلاث خطايا شائعة أدت الى افساد المجتمع وبث الانقسام بين المؤمنين . وأمنت العبارة التى تلت ذلك فى البيعة سلطة الحاكم . أما التقشف والزهد فى الدنيا مما ورد فى الجزء الثانى من البيعة فيصوران الروح الحقيقية للمهدية ورغبتها فى احياء الزهد الاسلامى البدائى والمقدس وأكدت العبارة الأخيرة واجب « الجهاد » الذى كان جزءا لا يتجزأ من المهدية وهو ما أثبتته أحداث آبا .

وقد بقى المهدى الى وفاته مسيطرا على زمام الحركة التى أسسها . ورغم ما كان يكلف به أتباعه ـ وخاصة الخليفة عبد الله ـ من أعمال كثيرة روتينية الا أنه لم يكن بتاتا مجرد شخصية شرفية . ومما يؤكد هذا اتساع مدى خطاباته ومنشوراته سواء من حيث التاريخ أو الفحوى . وتوجد فى كتاب خاص جمعت فيه رسائل المهدى ومنشوراته وهو محفوظ حاليا فى المتحف الذى أقيم بمنزل الخليفة بأم درمان (١) أربع صفحات خاصة برسائل المهدى ومنشوراته خلال سنة ١٢٩٨ هـ ، ٣١ صفحة عن سنة ١٢٩٩ هـ ، ٢٥ عن سنة ١٣٠٠ ، ٧٤ عن سنة ١٣٠١ هـ ، ١٠٣ عن جزء من سنة ١٣٠٢هـ ، حيث توفى فى رمضان من نفس العام . وكلها رسائل ذات طابع واحد لا يصدر الا عنه هو وحده ـ نداءات للانضمام للمهدية موجهة لحكام أجانب أو لقبائل السودان وأعيانها . واختص المهدى أيضا بالنظر فى حالات العفو عن المتمردين التائبين وكذلك تعيين كبار قادة النظام على الأقل . واذا استثنينا هذه الشئون المتصلة بسلطته فانه لا يمكن الفصل تماما بين الاختصاصات الادارية لكل من المهدى والخليفة عبد الله . وبصفة عامة كان الخليفة يبت فى المسائل الروتينية المتصلة بالشئون العسكرية والادارة القبلية بينما اختص المهدى بوضع المبادىء العامة وعزز بسلطته تصرفات مرءوسه .

---

(١) Exhibit K. 136 : mS. yusuf f MihKa'il

ويبدو أنه لم يكن لدى المهدى مجلس رسمى وانما جرى على أخذ رأى الخلفاء والأشراف وغيرهم من الأعيان البارزين كلما تراءى له هذا . ويذكر شقير أن المهدى أقام بعد سقوط الخرطوم مجلسا اداريا يضم سبعة أمناء يرأسهم أحد الأشراف ، وقد خول هؤلاء الأمناء سلطة التصرف فى جميع الشئون الادارية بحيث توضع قراراتهم موضع التنفيذ فى جميع الشئون الادارية بعد موافقة الخليفة وختمها بخاتم المهدى(١) . ولم يبق لنا من أرشيف أعمال هذا المجلس سوى أربع وثائق (٢) ، الا أن هذه الوثائق تعطينا صورة مخالفة لوظيفة المجلس فهى عبارة عن مجموعة من الالتماسات التى قدمت فيما بين فبراير — ومايو ١٨٨٥ من أشخاص أضر بهم سقوط الخرطوم . وعلى هذه الالتماسات وضع أعضاء المجلس تعليماتهم للتخفيف عن الملتمسين . ومن هذا يبدو أنهم كانوا يشكلون محكمة تقوم بالنظر فى التظلمات أكثر من كونهم مجلسا اداريا وأنهم كانوا يتصرفون دون الرجوع للخليفة . ويذكر شقير أن الخليفة حل هذا المجلس بعد وفاة المهدى . ولعل هذا لم يكن له أثر سىء حيث سبق البت فى معظم التظلمات التى قدمت نتيجة الأحداث التى أعقبت سقوط الخرطوم قبل مضى ستة أشهر عليها .

(ب) الخلفاء والجيش :

ان لقب الخليفة الذى أضفاه المهدى على معاونيه الثلاثة الرئيسيين غنى بالمعانى والمدلولات والمقصود أساسيا من هذه الكلمة هو « الخلف » وقد استخدم أبو بكر الصديق هذا اللقب بهذا المعنى بعد وفاة الرسول فعوف باسم خليفة رسول الله وهكذا أصبحت هذه الكلمة أحد الألقاب التى تطلق على رأس الجماعة الاسلامية . كما أن هذه الكلمة تتضمن بالاضافة الى ذلك معنى وكيل أو بديل وبهذا المفهوم جرى استخدامها فى المصطلحات الخاصة بالطرق الدينية لتعنى المندوب أو الممثل المحلى لشيخ الطريقة . وهذا المفهوم لكلمة « خليفة » كان معروفا فى السودان ولمصدره

(١) شقير : تاريخ حـ ٣ طبعة بيروت ص ٩٣٣ .
(٢) وثائق مهدية ٤٧/١ ، ١٣ ، ١ — ٤ .

وهو « خلافة » مثل هذا المدى الواسع من المعـانى فيمكن أن يعنى أن يخلف شخص شخصا آخر أو منصب الخليفة ذاته فى طريقة دينية .

ولو بقى محمد أحمد كمجرد عالم دينى لكان عليه بدون شـك أن يعين عددا من الخلفـاء من بين أتبـاعه الأساسيين ولأرسلهم ليمثلوه فى جهات السودان المختلفة . على أن الشواهد تبين أن الخلفـاء الثلاثة لم يعينوا الا بعد اعلان المهدية وأن استخدام هذا اللفظ لم يرد فى الرسالة المرسلة الى الشيخ محمد الطيب البصير المؤرخة أول شعبان ١٢٩٨ هـ (الموافق ٢٩ يونيه ١٨٨١) . ويذكر سلاطين أن الاختيار تم قبـل ترك المهـدى لآبا مباشرة بعد القتال الذى جرى مع المصريين(١) بينما يحـدد أورفالدر لهـذا الاختيار تاريخا متأخرا ــ أى ما بعد الهجرة الى جبـل قدير (٢) .

ترجع أهميـة التعيين الأصلى الى أن عبد الله وعلى ومحمد شريف لم يكونوا خلفاء بالمعنى التقليدى المرتبط بالطرق الدينية فهم لم يكونوا فى الأساس ممثلين للمهدى بل خلفاء لقادة المجتمع الاسـلامى الأول . وكمـا كان المهـدى ذاته خليفـة لرسـول الله كذلك فان عبـد الله بن محمد كان خليفة الصديق وعلى بن محمد حلو خليفة الفاروق (عمـر ابن الخطـاب) ؛ وقريب المهـدى محمد شريف بن حامد خليفـة على ابن أبى طالب صهر النبى (خليفة الكرار) .

وقد تمت هذه التعيينات بنـاء على التعليمات التى جاءت فى رؤية نبوية وترك منصب واحد شاغرا وهو الخاص بخليفة عثمان ثالث الخلفاء وفى ٥ رجب ١٣٠٠ هـ (١٢ مايو ١٨٨٣) كتب المهدى بعد استيلائه على الأبيض داعيا محمد المهدى بن السنوسى شيخ الطريقة السنوسية العظيمة فى جغبوب الى قبول هـذا المنصب . وبقيت هـذه الرسالة بدون رد ولم يشغل المنصب بتاتا وان ادعى أحدهم الحق فيه كما سنرى بعد وفاة المهدى . وجاء وصف ما رآه المهدى فى رؤياه فيما يلى : «...ثم حصلت

---

(١) Slatin : Fire & Sword P. 138

(٢) Ohrwalder : P. 14

حضرة عظيمة عين النبى صلى الله عليه وسلم فيما خلفه من أصحابه من أصحابى (١) فاذ أجلس أحـد أصحابى على كرسى أبى بكر الصـديق وأحدهم على كرسى عمر وأوقف كرسى عثمان فقال هـذا الكرسى لابن السنوسى الى أن يأتيكم بقرب أو طول وأجلس أحد أصحابى على كرسى على رضوان الله عليهم ولازالت روحانيتك تحضر معنا فى بعض الحضرات مع أصحابى الذين هم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ... » .

وهكذا لم يكن بين الألقاب التى أطلقت على الخلفاء الثلاثة لقب « خلفـاء المهـدى » وهو اللقب الذى اختص به عبد الله وحده وسرعان ما أصبح عبد الله الأول بين قرنائه وزادت مكانته بفضل الهجرة الى قدير وما لعبه البقارة من دور فى الانتصارات الأولى وحصل على لقب اضافى باعتباره « أمير الجيوش المهدية » ومن الواضح أنه كان له الاشراف العام على القوات المحاربة ككل وبالاضافة الى ذلك تولى القيادة المباشرة لاحدى فرق الجيش أسوة بالخليفتين الآخرين . وقد عرفت كل من الأقسام الثلاثة الكبرى بالراية التى اعتـاد اتباعها التجمع حولهـا فى العـروض أو فى القتال . وتولى عبد الله قيادة الراية السوداء (الراية الزرقاء) (٢) التى تكونت أساسا من مجندى البقارة الغربيين والتى كانت منذ الهجرة تمثل أكبر الأقسام عددا . وقاد الخليفة على « الراية الخضراء » وفيها قبيلتـا كنانة ودغيم وبقارة جنوب الجزيرة وكردفان.وكان على نفسه ، من القبيلة الأخيرة وهو رجل تقى على علم بالفقه الذى أخذه خلال دراسته بالأزهر وفقا لما ذهب اليه أورفالدر . أما الخليفة محمدشريف فكان أصغر سنا من زميليه ويعتقد أورفالدر أنه ولد حوالى سنة ١٨٧٠ . وتولى قيادة « الراية الحمراء » التى كانت تضم الأشراف والأنصار الذين يرجعون الى أصول أو سـلالات نيلية (٣) ولولا الهجـرة لكان هـذا القسم الذى شـمل

---

(١) شقير : المرجع السـابق جـ ٣ ص ١٧١ ، مذكـرات يوسف ميخائيل (٢) ص ٤٨ .

(٢) ازرق ومؤنثها زرقاء اى زرقة لهـا معنى الاسـود فى العاميـة السودانية ومن ذلك فان الاسم العـامى لسلطنـة الفـونج هو السلطنـة الزرقه .

(٣) هناك خلاف حول لون الخليفة محمد شريف . انظر :
S. N. R. XXXV 1/1 – 1955, 8

كثيرا من أوائل المؤيدين للمهدى وأكفئهم أكبر الأقسام الثلاثة عددا • ولكن الأحداث جاءت لصالح عبد الله والراية السوداء ، وعندما جرى تنظيم الجهادية خلال حصار الأبيض وزعوا بحيث وضعوا جانب منهم تحت قيادة كل من الخلفاء•وكان لكل منهم طبول حرب خاصة به ترمز الى سلطته ومكانته (هذه الطبول استخدمت فى السودان كعلامة مميزة لشيوخ القبائل) وكان لعبد الله بالاضافة لذلك الامباية وهى ناب فيل استخدم كبوق •

وخلع على الضباط التالين فى المكانة للخلفاء لقب أمير • وتفاوت عدد القوات التابعة لكل من الأمراء بشكل كبير وذلك لأن أول من حمل هذا اللقب كان عادة من وكلاء المهدى فى الأقاليم لتعبئة الرجال للجهاد • وحمل عبد الرحمن النجومى الى حين لقب أمير الأمراء • ولعل هذا اللقب يكشف عن مرحلة مبكرة فى التنظيمات المهدية عندما كانت كفة الأنصار النيليين تحت قيادة النجومى أرجح عن كفة أصحاب الراية السوداء تحت قيادة عبدالله•وعندما انتصرت المهدية وتم لها اسقاط الادارة المصرية أصبح الأمراء الموجودون على رأس حملات بعيدة عن مركز المهدية الرئيسى هم فعلا الحكام العسكريون للأقاليم الواقعة تحت سيطرتهم • ويأتى بعد الأمراء فى المرتبة المقدمون (جمع مقدم) أو المقدومون (جمع مقدوم) وللقبهم هذا أهمية حيث أن لفظ مقدم استخدم فى شمال افريقيا للدلالة على العاملين فى الطرق الدينية من أصحاب المرتبة التالية لمرتبة الخليفة بينما استخدم لفظ مقدوم فى دارفور للدلالة على من يحكم أحد أقسام السلطنة • وفى رجب ١٣٠١ هـ (مايو ١٨٨٤) أمر المهدى باستبدال لفظ أمير بعامل (١) ، ومقدوم بنقيب ومن

---

(١) المعنى العادى « للعامل » فى المصطلح الادارى الاسلامى هو « الموظف المالى » وكان لها هذا المعنى فى المهدية ولكنها استخدمت بدلالة أوسع لتعنى وكيل المهدى وفيما بعد وكيل الخليفة فى الشئون الادارية . ومن ثم استخدمت لتعنى حاكما عسكريا أو قائدا عاما . كما استخدمت ايضا بمعنى محصل أو جابى ضرائب عامة ، ويمكن الرجوع فيما يتعلق بلفظى عامل وامير واستخداماتهما فى الولايات الاسلامية الاولى الى مصطلحى Amil, Amir فى دائرة المعارف الاسلامية من تاليف عبد العزيز الدورى .

ثم عرف كل قسم بلفظ عماله بدلا من اماره وان بقى استعمال لفظ أمير من جانب الجماهير • وقد استخدمه الكتاب الانجليز باستمرار وبالتالى زحف الى حد كبير الى أصول الوثائق المهدية أما البدائل للفظ مقدوم فلم تحز القبـول بتاتا ووجهت المنشـورات فى عهد الخليفة الى العمـلاء والمقاديم • وقد لقب أتباع المهدى فى الأصل بالدراويش ولصق بهم هذا الاسم فى الكتابات الأوربية • وقد عمد المهدى تمثلا منه بعهد الرسول وهو الاتجاه الذى غلب على أفعاله الى الغاء هـذا الاستخدام بين أتباعه مطلقا عليهم اسم الأنصار (١) وهو الاسم الذى أطلق على من انضـم الى الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة • وقد استخدم أيضا لفظ المهاجرين وقصد بهم أولا أولئك الذين هاجروا مع المهـدى الى جبل قدير وثانيا أولئك الذين انضـموا للمهدى هناك أو فى مرحلة تالية مثل البقارة ومن الألفاظ الأخرى التى أطلقت على أتباع المهدى واندثر استعمالها على وجه السرعة لفظ « فقراء » •

وقد برزت مظاهر التقشف ، الذى كان من المعالم البارزة للمهدية الأولى والذى مثل أحد البنود الهامة فى يمين الولاء لها ، فى الرداء الذى اتخذه الأنصار زيا لهم أى فى الجبة ذات الرقع التى ترمز للفقر بالاضافة الى عمامة بيضـاء ينزل أحـد طرفيها الى الكتف ومنطقة (أى حزام) وصندل • وقد كتب المهدى ممتدحا هذا الزى الذى ظل استعماله ساريا حتى نهـاية المهدية ، وفى أواخر عهد نجاح المهـدية ورخائها حور زعماء الأنصار وضع الرقع التى اتخذوها على جلابيبهم بحيث أصبحت ترمز الى مراكز أصحابها أو مكانتهم •

(ح) تفـوق الخليفة عبد الله :

أدى التزايد فى مكانة عبد الله فيما بين الهجـرة والاسـتيلاء على

---

(١) استخدم هذا اللفظ فى بيان مبكر صدر فى عام ١٢٩٩ هـ . (مخطوطات النجومى ص ٧) . أما الغـاء لفظ درويش (جمعها دراويش) فقد ورد فى أحد المنشورات (النجومى ص ٩٤) والسبب فى ذلك أن لقب درويش يعنى فى السودانية العامية « الرجل المجنون » .

C. F. Trimingham : Islam, 204

الأبيض الى سخط كثير من الأنصار وحسدهم . وفى ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٠١ (٢٠ يناير ١٨٨٣) . أى بعد أسبوع واحد من سقوط الأبيض أصدر المهدى منشورا مطولا أكد فيه بأقوى العبارات بروز عبد الله ومنحه سلطات واسعة وهذه بعض الفقرات الهامة كما وردت فى الوثيقة الأصلية : « ... أما بعد اعلموا أيها الأحباب أن الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدية المشار اليه فى الحضرة النبوية ... فحيث علمتم ذلك يا أحبابى أن الخليفة عبد الله هو منى وأنا منه وقد أشار اليه سيد الوجود (صلى الله عليه وسلم) فتأدبوا معه كتأدبكم معى فجميع ما يفعله بأمر النبى صلى الله عليه وسلم أو باذن منا لا بمجرد اجتهاد منه [1] ولا هو عن هوى بل هو نائب عنه فى تنفيذ أمره صلى الله عليه وسلم ، واعلموا يقينا أن قضاءه فيكم هوقضاء رسول الله (صلعم) كما قال الله تعالى : وماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ... واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتى الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم فلا تتعرضوا عليه فقد حكمه الله فيكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم وتقبلوا الى ربكم ومن تكلم فى حقه ولو بالكلام النفسى جزما فقد خسر الدنيا والآخرة ... ومن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصدقا بمهديتى فليسلم للخليفة عبد الله ظاهرا وباطنا واذا رأيتم منه أمرا مخالفا فى الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن ... وأن الخليفة هو قائد المسلمين وخليفتنا النائب عنا فى جميع أمور الدين واياكم والوسوسة فى حقه وظن السوء وعدم الامتثال فى قوله والمشاجرة له ولأحكامه والخلاف والحسد فتوبوا الى الله ... فمن تاب تاب الله عليه ومن عاد فينتقم الله منه وسلطه عليه وهذا أمر الله ورسوله

---

(١) اغلق اهل السنة باب الاجتهاد منذ القرن الثالث الهجرى ورغم ان المهدى ، قد مارس الاجتهاد بالفعل فى تشريعاته فانه انكر انه يقوم بذلك وخلع على بياناته سلطة عليا حين ادعى انها من الهام النبى وقد خلعت نفس هذه السلطة هنا على قرارات عبد الله .

فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ويصيبهم عذاب أليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم والسلام (١) .

وأهمية هذه الوثيقة تكمن فى وصفها عبد الله بأنه خليفة المهدى — وقد فهم هـذا من مدلول العبارة التى جاء فيها وهو نائبنا فى جميع شئون الدين (٢) والواقع أن العلاقة الآن بينه (أى بين الخليفة) وبين المهـدى أصبحت أقرب ما تكون الى علاقة الخليفة فى طريقة دينية لشيخها مـع فارق واحد وهو اتساع مدى واجبـاته مع تزايد انتصارات المهـدية . وأصبح مركزه أشبه ما يكون « بالوزير » الاسـلامى التقليدى . وقد عبر المهـدى عن هذا فى العام التالى فقد تضمنت رسالة أرسلت الى من يدعى فخر الدين حسن الذى ادعى أن الاختيار الالهى قد وقع عليه ليكون خليفة وصف الرؤية أو الحضرة التالية : « ..... وقـد أتانا خبر من الخضر عليه السلام أن الأوليـاء اجتمعوا فى بيت المقدس يقولون الحمد لله الذى أظهر المهدى وجعل عبد الله وزيره ، وثم وجد اجتماع الشياطين وهم مجتمعون يقولون كان عيشنا بالغش والمكر والخداع والكذب فأتى المهدى وقطع علينا عيشنا ولولا أن عبد الله وزير له وكان الخليفة غيره لكنا نجد فى المهدية دخولا فالان أعرض عليه قبل وصولك اليه فان كان صدق يتضح وتصبر وترضى فيمـا يحكم عليك ثم بعد ذلك تلاقينى بالعفو والرضى وتكون من أصحابنا المقربين والسلام » (٣) .

ولم يستخدم الخليفة لقب وزير البتـة ولم يستعمل لقب خليفـة المهـدى الى أن تولى الأمر بعد موت المهدى . ولعل تحاشى استخدام اللقب الثانى مرجعه الى ما يعينه من خلافة حاكم متوف بينما لم تتعرض المهدية الأولى فى فلسفتها الفكرية لموت المهـدى .

---

(١) توجد صورة قريبة للأصل فى كتاب نعوم شقير حـ ٣ ص ١٧٢ — ١٧٣ وطبعة بيروت ص ٧٠٩ — ٧١١ .

(٢) يشمل مفهوم « شئون العقيـدة » وفى الثيوقراطية المهـدية جميع شئون الدولة .

(٣) ادارة المحفوظات المركزية — وزارة الداخلية الخرطوم — الطبعة الثالثة يوليو ١٩٦٤ « منشورات الامام المهدى الجـزء الثانى المعـروف باسم الانذارات » ص ١٧٧ — ١٧٨ ، ص ٦٧ .

وقد توقع الأنصار سلسلة متتالية من الانتصارات تضع المهدى على رأس العالم الاسلامى ومن ثم أدى نبأ وفاته لاصابتهم بصدمة قاسية • على أنه أمكن لعبد الله بعد وفاة المهدى استخدام هذا المنشور بالذات كدليل لا نقاش فيه لاثبات ما له من حق فى السيادة • ولم يحدث عندئذ توكيد لفكرة حلوله محل المهدى فقط فيما ورد من تعبيرات خليفة وخلافة بل أكد على التعيين الالهى لعبد الله كخليفة الصديق لاستخدامه فى الدلالة على أنه قصر به أن يتبع ما جرى سلفا أو فى الماضى ويخلف المهدى كما خلف أبو بكر الرسول • وهذه الفكرة لها ميزة أخرى لأنها أجلت بلا ريب استيلاء الخليفة محمد شريف على السلطة بما له من حق الادعاء استنادا الى قرابته للمهدى ومساندة الأشراف والقبائل النيلية له بوجه عام •

وهكذا تفوق مركز عبد الله على الخليفتين الأصغر منه ولم ينته الجدل نهائيا بعد اصدار هذا المنشور ففى ربيع الثانى ١٣٠١ هـ (فبراير ١٨٨٤) كتب المهدى لآدم عمر (آدم ام دبالو) ملك تقلى فى الماضى وحاكمها حينئذ تحت سيادة المهدية مؤكدا المكانة الخاصة لعبد الله مشددا على ضرورة اطاعته وصدر خطابان بعد ذلك فى نفس العام للطامع فخر الدين حسن يشتمل أولهما على النبوءة النبوية التى سبقت الاشارة اليها • وأخيرا كتب المهدى قبل وفاته ببضعة أسابيع لخالد محمود عبد القادر حاكم كردفان معلنا ما جاء على لسان الخضر من « أن ذلك الذى لا يحب الخليفة عبد الله لن يكافأ ولن يقام حيا مع المهدى كما أن المطر لا يقيم العشب الجاف »(١) • وقد طبعت هذه النصوص على شكل كتيب فى مطبعة أم درمان الحجرية خلال حكم الخليفة •

(د) تطور النظام المالى :

كون الأنصار الذين هاجروا مع المهدى الى جبل قدير — بحكم طبيعة وضعهم — مجتمعا بدائيا يعتمد فى استمرار بقائه على ما يستطيع اقتناصه من عدوه وقد أتاح لهم انتصارهم على راشد أيمن ويوسف

---

(١) وثائق المهدية ١/٥٦/١٤ .

الشلالي في سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ – ١٨٨٢) واستيلاءهم على كردفان ثم سقوط الابيض في ايديهم في سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣) قدرا كبيرا من الثراء بفضل ما غنموه من سلاح ورقيق ودواب وبضائع وأموال . ولم يكن غريبا على الانصار أن يستولوا بغريزتهم البدائية على كل ما يقع في أيديهم لمنفعتهم الخاصة . وكانت هذه الغريزة بنفس القوة لدى قبائل البقارة الذين قدموا عونا متزايدا للمهدى عندما زادت انتصاراته وضوحا . وقد سعى المهدى الى مقاومة هذه الغريزة البدائية وحاول تثبيت قواعد الشريعة التي تنص على أن الغنيمة ملك للمجتمع المهدى ككل توزع وفقا للحاجة ولا يستولى عليها الأفراد . ومنذ عام ١٢٩٩ أصدر منشورا يؤنب فيه أتباعه لمخالفتهم . ومن الواضح أن اهتمامه انصب على سلوكهم ازاء الغنيمة . وقد جاء فيه « لقد آثرتم الحياة الدنيا على الحياة الآخرة وفضلتم جمع الغنائم والأموال والخروج بها ... واني أحذركم في كتابي هذا بدافع الشفقة عليكم ... حتى تعيدوا كل ما أخذتموه من غنائم (١) .

وقد أتاح سقوط الأبيض للمهدى السيادة الاقليمية على مساحة كبيرة من السودان الغربي ومنذ ذلك الوقت يمكننا ملاحظة تطور نظام مالي . ومن المحتمل أنه أنشأ بيتا للمال في قدير . والآن وضع بيت المال هذا تحت اشراف أحمد سليمان وهو محسى من أصدقاء المهدى المقربين . ولعله تولى ادارة بيت المال لبعض الوقت قبل تعيين المهدى له رسميا في جمادى الثانية سنة ١٣٠٠ هـ (ابريل – مايو ١٨٨٣) حيث جاء بأحد المنشورات :

« ... وبعد ضمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى أبى عبد الله الى كافة أصحابه وأتباعه ووزرايه على دين الله حيث أن المعين اقامة الدين واتفاق القلوب وتعلقها بالله المحبوب وقيامها سويه على ما عند الله مرغوب كان علينا أن نترقب ما عند الله فقط ونأخذ سيوفنا لنصرة الدين ولا نترقب شيئا آخر ولما لزمت لنا ضرورة القيام بهذا الأمر

---

(١) مخطوطات النجومى ص ٧ .

والزمناضيق يومن القوة بالتوكل على اللطيف، لزمنا أن نجمع للمسلمين ما يقي الضرورة ولم أجد من يقوم لى مساعدا بالعفــة والزهد والأمانة مع صدق النيــة فى الخدمة والهمة العالية كمثل أحمـــد سليمان وقد أوقفته أمينا على لوازم المسلمين وبيت المـــال فهو أمين عليه من طـــرفى ومومن على ما يفعله فيه بلا تهمة ولا فى التقصير عن بذل الهمة فيه وحيث أنه كذلك فهو يولى فيه من يريحه عليه ويعزل منه من لا يقوم بجواب أمره ويحكم فيه من لزم له الحكم حيث انه على الصـــدق والأمانة فمن خـــونه فقد خونني ومن تءاذاه (آذاه) فقد ءاذانى (آذانى) ومع ذالك (ذلك) يجرى عليه الحكم اللازم من طعن الأمناء ولا سيما هو بالخصوص كما هو مأذون من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فاذا حكم على أحد لزوم ما يلزم بيت المـــال وما تعلق به فلا يحكم الا بالعـــدل والصداقة . ومن اتهمنى فى ذلك والله مختار فى أمره يفعل فيه وهو حسيبى ونعم المتولى لمن كان بلا علة وهـــذه نصيحة تحذروا من الوقوع فى سخط الله ورسوله وسخطى من جهـــة من أمنته وصـــار براحته لى وجميع من وليته آمرا من لم يتبع له فقد خالفنى ومن خالفنى فقد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقع سخط اللـــه والسلام .. » (١) .

وقد أدى الانتصار فى معركة شيكان الى تدفق غنائم كثـــيرة على المهديين وفى ٥ محرم سنة ١٣٠١ (٦ نوفمبر ١٨٨٣) أصـــدر المهـــدى منشورا (٢) ، لتنظيم هذه الشئون جاء فيه :

« ... وقال صلى الله عليه وسلم من كتم غالا (مالا) فانه (مثله) واذا كان الأمر كذلك فيا أحبابى انتبهوا واحذروا الدنيا واتعظوا بمـــا شاهدتموه من هلاك أربابها واحرصـــوا على حفظ دينـــكم ولا تتبدلوا الخبيث منهـــا بالطيب الأخروى وسينقض عهدكم مع الله ورسوله ومعى فانكم قد أعطيتمونى عهودكم ومواثيقكم على الســـمع والطاعة لأمرى

---

(١) مخطوطات النجومى ص ٩٤ .
شقير طبعة بيروت ص ٦٦٩ .
(٢) النجـــومى ص ١٠ .

وعدم عصياني فيما هو معروف واني لا أرضى لواحد أن يقبل في شيء من الغنائم (وينصح) فيها لله ورسوله ولنا ويحضرها لنا بمحل لزومها لأجل اخراج الخمس منها وتقسيم الباقي عليكم حكم الله ورسوله ولايكتم أحد منكم غالا (مالا) ، سوا كان من جماعته أو لا يكون احضار الغنايم المذكورة على وجه الفور بجهة البركة كوننا الآن في محل عطش ولا يمكننا الاقامة فيه أكثر مما مضى فمن سمع وأطاع الأمر فهو الفايز من الله بالأجر ومن لا فعليه الوزر ولن يعجز الله هاربا في الدنيا واءلآخرة (والآخرة) ونحن نعلم أن هذه الجردة فيها أموال جسيمة وأمتعة ليست لها عدد وكلها وقعت في أيديكم فلازم من الاهتمام بجمعها وحضورها لأجل تقسيمها وعودها لكم بالوجه الحلال وانما نحن فليس لنا رغبة فيها فلا يخطر ببالكم أننا نحرمكم اياها ونقنيها لنفسنا بغير ما أحل الله . معاذ الله من ذلك هذا ما عرفنا لكم به والسلام ... » (١) .

وهكذا توافرت سابقة لتقسيم الغنائم طبقا للشريعة فالخمس يعطى للمهدى بصفته اماما للجماعة ويوزع الباقي بين المحاربين . وواضح انه في مثل هذه الحالات يرسل الباقي (او أكثر ما يمكن جمعه من المحاربين) الى بيت المال .

وقد فرضت المهدية ضريبة على قبائل الغرب طبقا للشريعة وذلك عقب تمتعها بالسيادة عليها وفرضت الزكاة على ماشية القبائل وحبوبها . وهكذا فرض العشر على المحاصيل من أجل الزكاة ويرد العشر أحيانا على أنه ضريبة قائمة بذاتها . ويذكر يوسف ميخائيل كيف أن أخاه الذى كان يعمل محصلا لحساب الحكومة المصرية بين قبائل الغديات أرسل بعد سقوط الأبيض بقليل الى نفس القبيلة لذات الغرض وان يكن لحساب المهدى . ولم ترسل حصيلة الايراد الذى جمعه في هذه الحالة لبيت المال بل خصصت لحملة حمدان أبو عنجه التى تقرر ارسالها الى جبل الداير (٢) ، وشاهد العام التالى (١٣٠١) مزيدا من تنظيم للشئون

---

(١) مذكرات يوسف ميخائيل محفظة (١) ص ٥٥ .
(٢) مخطوطات يوسف ميخائيل (١) رقم ٥٥ .

المـالية فقد صدر أمر المهـدى موجها الى الخلفاء والوكلاء والأنصار والمـآمير(١) محددا مهام بيت المـال وادارة الضرائب على الوجه التالى :

« ... على كافة الأصحاب خصوصا الخلفاء أن يعاونوا الخليفـة عبد الله فى جمع الغنائم والزكوات لبيت المـال وهو يفرق بمعـرفة العمال فيها وهم يكونون معاونين بأنفسهم وأتباعهم وقد عزمت على كل أحد من الاخوان ان من كان يؤمن بالله ورسوله ومهديه ألا يؤخر عن بيت المـال درهما ولا دينارا وتكون راحة جميع الاخوان والأصحاب كبيرا وصغيرا من بيت المـال ولتفرح الاخوان لخدمة الدين وراحة المسلمين لا يخدم أحد لنفسه ولا لجماعته فكل مؤمن بالله ورسوله ومهديه ومعاون الى على هـذا الدين يكون على راحة المسلمين ولا يستبد أحد بطاقة لجماعته ولا بقبيلة لرايته ولا بجهة ومعلومية لامره لان هـذا فيه خدمة النفوس والاتكال على غير الله القدوس مع أن البيعة على زهـد الدنيا والاتكال على الله وبذل النفس لاقامة الدين وحيث كان الواجب القيـام بالبيعـة فالاخوان جميعا فليخدموا « الاعشار والزكوات والغنائم » لبيت المـال ولا يأخذ أحد لنفسه ولا لجماعته شيئا . ولتكن الراحة من بيت المـال لجميع الأنصار وليبين من كان له عيال وأهل من كثير وقليل ومن ليس له الا قليل فالكل يقنن له من بيت المـال ما يكفيه والجميع خدمتهم لله وان فـرغ بيت المـال يكون الصبر حتى يعطى الله بيت المـال الكفـاية له والسلام » (٢) .

ومن هذا يتضح أن مهـام أحمـد سليمان اقتصرت على اسـتلام الضرائب وتوزيع الهبات بينما تولى عبد الله تحديد الضرائب وفرضـها (خدمة حقوق الله) ويلقى المنشور الذى أصدره عبد الله سنة ١٣٠١ هـ الى المحصلين المحليين مزيدا من الضوء على هذا التنظيم — وقد أشار فيه بعد مقدمة تستند الى آيات من القرآن الى جمـع الزكاة من بيوتهم جمـالا

---

(١) يبدو أن هذا هو استعمال المهدى الوحيد لهـذا المصطلح . وفى عهد الحكم المصرى كان المـأمور أدنى رتبة من حاكم الاقليم .

(٢) مخطوطات النجومى ، رقم ١١ . هـذه الرسالة غير مؤرخة ، ولكن استعمال لفظ عامل يجعلنا نعتقد بأنها صدرت بعد رجب ١٣٠١ . (انظر أيضا نعـوم شقير ـ طبعة بيروت ، ص ٩٣٢ ، (المترجم) .

وماشية خرافا ومعيزا حسب أمر الله بشأن زكاة الدواب والى جمع زكاة المحصول من مالكى الأرض الصالحة على أن يدرج كل ما يدخل من زكاة أو من غنيمة فى قوائم ترسل اليه حتى يمكن اضافتها الى بيت مال المسلمين ومن ثم توزع بين الضعاف والفقراء وجماعة الله والمحاربين وطلب منهم ألا يتهاونوا بأى حال فى جمع حقوق الله وألا يغفلوا ارسالها على وجه السرعة • كما طلب منهم فى حالة امتناع أحدهم عن تسليمها بأخذها منه عنوة مع افادته (١) •

وكان معظم الضرائب يحصل عينا ، أما التعامل بالنقود فكان نادرا الا فيما بين سكان الحضر والتجار • وعند قيام الحركة المهدية كان يتداول بالسودان خليط كبير من العملات معظمها مصرى وعثمانى ومن بينها أيضا دولارات أسبانية ونمساوية من الفضة • وبعد سقوط الخرطوم وردت الى بيت المال كمية كبيرة من الحلى الذهبية والفضية ، ومن ثم مارس المهدى أحد مظاهر السلطة الاسلامية بضربه للنقود • وكانت العملة الرئيسية هى الجنيه الذهبى (وكان أكثر نقاوة من الجنيه المصرى واختفى سريعا من الأسواق) والدولار أو الريال الفضى المقدر بعشرين قرشا ويتكون من سبعة أجزاء من الفضة الى جزء واحد من النحاس وأصبحت دار سك النقود بأم درمان قسما تابعا لبيت المال فى الخرطوم •

(هـ) التشريع والقضاء المهديان :

أعلن المهدى مرارا وتكرارا فى منشوراته أن الغرض من رسالته هو احياء العقيدة وسنة الرسول وهكذا بنى القضاء فى عهده على كل من القرآن والسنة • على أن الظروف استدعت أن يقدم المهدى من الفتاوى ما يحل بعض المشاكل الخاصة وهكذا ظهرت مجموعة من التشريعات الاستثنائية التى حولت السودان ، من الناحية القانونية من مصر الى دولة مهدية • وأكد المهدى لنفسه حق سلطة متميزة فى الشئون القانونية وادعى أنه يتكلم باعتباره شخصا يوحى اليه بطريق مباشر ويتضح هذا فى فقرة وردت فى أحد منشوراته •

---

(١) وثائق المهدية ١/١٣، ١ ، ٨ .

« ... ولولا على نور من الله وتأييد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعوت أحد ولا ساغ لى أن أحكى شيئا ولا اشتغلت بهذا الأمر الذى أنا لضده ساعة ما وهذا انذار لكم — فاسمعوا وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ... » (١) .

واعتبر المهدى يوم ١٢ رجب ١٢٩٩ هـ وهو اليوم الذى هزم فيه الشلالى بداية للنظام القانونى الجديد وقد أعلن منشور موجه الى الخلفاء والقادة والمندوبين القضائيين والأشخاص التابعين ما يلى : «يوقف النظر فى المشاكل التى حدثت قبل يوم ١٢ رجب سنة ١٢٩٩ الموافق لمعركة ماسة باستثناء (ما يتعلق منها) بالأمانة والتدين ومال الأيتام والحرية ويستمر النظر فى الدعاوى التالية لـ ١٢ رجب وللفتح » (٢) .

وقد طبق هذا النمط التحديدى على جهات أخرى من السودان ، بعد سقوطها فى يد المهدى . وعندما تولى الخليفة شئون الدولة أمر

---

(١) مخطوطات النجومي ص ٢٨ : وقد جاء فى منشور آخر مثل هذا المعنى : « ... أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ عبد القادر الجيلانى فقال الله تعالى للنبى هذا خليفتكم كررها ثلاثا وقال الامام عليه السلام قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم من انكر مهديتك كفر بالله ورسوله كررها ثلاثا وقال الامام عليه السلام أيدنى الله تعالى بعشرة من الملايكة الموكلين بجنودهم والأنبياء والمرسلين وسبعين الفا من الأولياء من أول نزول المهدية قال رضى الله عنه نزول المهدية أجازنى (أو لعلها أجاز لى) رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله عز وجل وأمرنى الله ورسوله بقتال الترك من أولهم الى ءاخرهم لأن الترك سعوا فى اطفاء نور الله عز وجل وسماهم الله بأنهم كفار بل هم أشد الناس كفرا وفسادا فى الأرض ورفع الله عنهم ثوب الملك وتركهم مضلين اينما وجدوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم باركناك فى عالم زمانك هذا والأولياء كلهم جلوس قال رسول لله صلى الله عليه وسلم للأولياء باركوا هذا الابن فنحن باركناه وقال الأولياء كلهم نحن كذلك باركناه وفى ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أفضلكم يا أولياء الله من المتقدمين والمتأخرين . قال الامام المهدى عليه السلام قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاهدوا أعداء الله من مشارق الأرض ، الى مغاربها . اجزناك باجازة من الله ومنا بعد فتوح الابيض ويتأيد وعده من السر منا اليكم وقال الامام السمع والطاعة لله ورسوله ... » (أ) .

---

(١) وثيقة النجومى بدون رقم ووضع لها رقم مؤقت (أ) ص ٢٨ .
(٢) مخطوطات النجومى رقم ١٣٤ ، المخطوطات القضائية رقم ١٠ — ١١ — والمخطوطة الأخيرة (الحرية) من الأنواع المستثناه .

بايقاف التقاضى فى الحالات التى جرت قبل أول محـرم سنة ١٣٠٢ بين الشعوب النيلية ثم عم هـذا الخطر على كل أنحاء البلاد متخذا من ٨ رمضان ١٣٠٢ هـ (١) وهو تاريخ وفاة المهدى حدا فاصـلا كما أبقى على استبعاد الحالات الأربع من اجراءات الحظر هذه (٢) .

وقد انصبت معظم التشريعات الطارئة التى أصدرها المهـدى على وضع الحريم وامتلاك الأرض . وقد أدى حصار بارا والأبيض والخرطوم ثم الاستيلاء عليها الى فصم كثير من الصلات الزوجية وأيضا الى زيجات غير منتظمة وأصبحت الأحكام التى أصدرها المهـدى أحيانا فى مناسبات خاصة سـوابق يؤخـذ بها فيما يماثلها من حالات . وكانت القـاعدة الأساسية التى اتخذت أولا ازاء النسوة فى بارا والأبيض فى ٣ ذو القعدة ١٣٠٠ هـ (٥ سبتمبر ١٨٨٣) هى فصم الزواج فى حالة انضمام أحـد الزوجين الى الأنصار على أن يسمح باعادة زواجهما ـ وكانت هـذه القاعدة تلقى تشجيعا (٣) . وظهرت مشاكل أخرى فى حالة غياب الزوج لفترات طويلة وهنا ميز المهـدى بين ثلاث حالات فاذا كان الزوج متغيبا مع « الترك » اعتبر الزواج باطلا واذا كان مع الأنصار استمرت الرابطة . أما اذا كان التغيب لمـدة طويلة (وفى الحالة التى اتخـذت أساسا كان التغيب لمدة ست أو سبع سنوات) لم ينفق الزوج خلالها على زوجتـه كان بامكانها أن تطلب الطلاق وتتزوج بغيره (٤) والهدف العام من هذه القرارات هو تأكيد شرعية الزواج بين المهدوى وغير المهدوى ولكن فى نفس الوقت كان الهدف هو تسهيل زواج النسـوة اللاتى لا عائل لهن أو زواجهن من جديد وكان كل ذلك بمثابة محاولة لاعادة الاستقرار الى مجتمع أصابه التفكك .

ولم تظهر المشاكل المتعلقة بملكية الأرض الا بعد امتـداد الحكم المهدى الى الأراضى النيلية التى تعتمد على الرى وقد حدد المهدى موقفه

---

(١) ٩ رمضان وفقا للتقويم فى مصر .

(٢) أعلن اسماعيل كامل باشا حظرا مماثلا عند القضاء على سلطنـة الفونج ـ انظر ماكمايكل : Arabs in the Sudan ii 386

(٣) مخطوطة النجومى ص ١١٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١١٥ .

من الأرض ، وملكيتها فى منشورين وجه أحدهما الى محمد الخير عبد الله خوجلى عامله فى بربر فى وقت تال لـ ١٦ ذو القعدة سنة ١٣٠١ هـ (٧ سبتمبر ١٨٨٤) (١) ، والثانى منشور عام تاريخه ١٤ شعبان سنة ١٣٠٢ (الموافق ٢٩ مايو ١٨٨٥) (٢) ، وقد كثرت الادعاءات عقب سقوط الحكم المصرى بشأن طرد الترك للملاك من أراضيهم ظلما . وقرر المهدى اعادة الأرض لمن حرم منها باطلا ولكن هذا القرار الذى كان يمكن أن يفتح الباب لادعاءات قديمة قد ترجع الى ٦٠ عاما تلاه بتفسير يحدد مفعوله لا يسمح بالنظر فى الادعاء الذى مضى على موضوعه أكثر من سبع سنوات وتعرض المهدى فى منشوره الثانى لموضوع الأرض التى بيعت قسرا بأمر الحكومة المصرية عندما هرب صاحبها تجنبا لدفع الضرائب . وهنا حكم المهدى بأن يستعيد المالك الأصلى الأرض بشرط سداد القيمة التى دفعت ثمنا لها والا بقى فيها المالك الفعلى . وبهذه الأحكام كان من الواضح أن المهدى يحاول علاج صريح للمشاكل الواضحة مع المحافظة على استقرار ملكية الأرض . وانصبت معظم تشريعات المهدى على تعديل أو الغاء العادات ، السودانية التى تتعارض مع الشريعة أو التى كانت غير مرغوب فيها من الناحية الاجتماعية . وتعلقت مجموعة كبيرة من الأحكام التى أصدرها فى أوقات مختلفة بالنسوة فعلى المرأة أن تلبس الحجاب وكل من تسير عارية الرأس تعاقب بالضرب (٣) ، وامتدت نفس العقوبة لتشمل آباء الفتيات غير المحجبات التى يزيد عمرهن على ٥ سنوات (٤) ، وصدر منشور قبل رجب سنة ١٣٠١ (مايو ١٨٨٤) بمنع الحريم من الذهاب الى الأسواق أوالطرق العامة والا عوقبن بمائة جلدة (٥) ، وأمر منشور آخر الأنصار بمنع نسائهم وبناتهم من رعى الأغنام أو الاتصال بالرجال الأغراب (٦) ، وكل

---

(١) النجومى ص ١٣٥ .
(٢) النجومى ص ١٣٦ .
(٣) النجومى ص ٢١ .
(٤) MS. Legal F. 2
(٥) مخطوطة النجومى ص ٣ .
(٦) النجومى ص ٢١ .

من يتكلم مع امرأة غريبة حتى ولو ليقرئها التحية أو يردها كان عليه أن يصوم لمدة شهرين ويجلد مائة جلدة (١) ولا يجب علينا أن نعتبر هذه القسوة فى التشريع مجرد محافظة عمياء ذلك أن الثورة والحرب ضد المصريين قد هزت أسس النظام الاجتماعى من أساسه فاضطر المهدى الى الالتجاء الى هذه الاجراءات فى محاولة منه للحفاظ على النظام بين القوى القبلية الكبيرة التى اعتمد عليها والتى اتصفت بدوام التقلب هذا فضلا عن أنه قد أحرز انتصاراته الأولى فى الغرب حيث عاشت نسوة البقارة حياة أكثر تحررا من المرأة النيلية • ومن واجبنا أن نعتبر المحاولات التى جرت لارغام المرأة على لبس الحجاب ومنع الاتصال بين الجنسين على أنها محاولة لاعطاء مزيد من الأمن للنساء •

وقد حارب المهدى عبثا عادتين متصلتين بالخرافات ، هما استخدام التمائم والأحجبة (٢) ونواح النسوة فى الجنائز (٣) وكانت هناك عادة اجتماعية أكثر سوءا هى النفقات الباهظة التى جرت فى حفلات الزفاف خاصة فى وقت اعتبر فيه الزواج أهم وسائل حماية المرأة • وقد حدد المهر الذى يدفعه العريس بحيث لا يتجاوز حده الأقصى عشرة ريالات للعذراء وخمسة لمن سبق لها الزواج (٤) ، وفى عام ١٣٠٠ وضع المهدى قيودا على ما يصاحب الزفاف من ولائم (٥) ، وشابهت المهدية الحركة الوهابية والحركات الاصلاحية الأخرى فى الاسلام من حيث شدتها فيما يتعلق بتناول المشروبات الروحية والتدخين • وكانت الأحكام الهادفة الى منع عادة التدخين أشد قسوة وشدة من تلك التى هدفت منع شرب المسكرات وقيل أن المهدى تحدث عن حضرة قال له النبى فيها :

« ••• ان معصية من يدخن تفوق معصية من يشرب الخمر — فمن

---

(١) مخطوط النجومى ص ٤٧ •
(٢) مخطوط النجومى ص ٤٠ •
(٣) مخطوط النجومى ص ٢١ •
(٤) السابق •
(٥) مخطوط النجومى ص ٨ •

يشرب الخمر يجلد ثمانين جلدة ، ومن يدخن يجلد مائة جلدة » (٦) •

وقد تولى المهدى بنفسه المهـام العليا للقضاء ولكنه توسـع فى تفويض أتباعه بسلطة الاستماع الى القضايا والبت فيها • وكان بامكان الخلفاء والحكام العسكريين والوكلاء فى الأقاليم القيام بأعمال القضاه ، وقد ذكر اورفالدر (١) أن الأشراف كانوا يقومون بنفس العمل ولعل ذلك كان اغتصابا منهم لاختصاصات غيرهم • وكان هنـاك موظف واحد له اختصاصات قضائية محددة وهو الذى عرف فى الوثائق التى ترجع الى أوائل الحـركة باسـم قاضى الاسـلام أو قاضى المسلمين ، وقد عين المهـدى أولا لهـذه الوظيفة من يدعى أحمـد جبـاره وهو رجـل تركى الأصـل سـبق له أن درس بالأزهـر وعنـد وفاته فى معـركة يوم الجمعة بالأبيض (٨ سبتمبر ١٨٨٢) حل محله أحمـد على الذى كان قاضيا بشكا فى عهد سلاطين • وقد شغل منصبه اثنى عشر عاما •

ولم يكن المقصـود أن يمارس قاضى الاسلام سلطات مستقلة ولكنه كان بمثابة المفوض الخاص بالصـلاحيات القضائيـة الكامنة فى المهـدى بصفته اماما • وكانت وظيفته تتمشى مع المفـاهيم الاسلامية الأولى (٢) وتلقى رسالة كتبها أحمـد على لمحمـد خالد فى العشرين من صفر ١٣٠٢ هـ (٩ ديسمبر ١٨٨٤) بعض الضوء على النظام القضائى • اذ أرسل حاكم دارفور بعض الأحكام التى أصدرها لاعتمادها من المهدى الذى أمر أحمـد على بارسال موافقته على الأحكام حتى يمكن تنفيذها

---

(١) Ohrwalder P. 214

(٢) Coulson : Doctrine and practice in Islamicl Law. BSOAS, XViii/2 1956. P 214 - 15.

ووبخ محمد خالد لتـأثره ببعض العلماء فى تكييف الوجهـة القانونية لأحكامه مع توفر الأدلة المسلم بها ومن ثم أبلغه بتوقف العمل بالفقه حين تولى خليفـة النبى (١) • فالأحكام لا تبنى الا على القـرآن والسنة ، وما جاء بمنشورات المهـدى • وأمر محمد خالد بتعيين ثلاثة أو أربعـة وكلاء قضائيين على أن يعملوا كمجلس يصـدر قرارات بالاجماع وكان نواب مماثلون يمارسون اختصاصاتهم فى جميع أنحاء الدولة المهدية •

---

(١) وثائق المهـدية ٤٢/١ ، ٥ ، ١ •

ويمكن أن نطلق على هذا الفريق ككل اسم أولاد البلد ـ وهو تعبير يفهم منه أول ما يفهم السكان المستقرون على ضفاف النيل .

وتكونت المجموعة الثالثة من أتباع المهدى حشود القبائل وبخاصة البقارة الرحل فى الغرب ممن تصوروا أن المهدية تعنى الغاء الضرائب وبهجة التوجه الى القتال والحصول على الغنائم . وباستثناء بعض الأفراد مثل عبد الله نفسه وقلة من أتباع المهدى المخلصين فانهم لم يبالوا كثيرا بالجانب الدينى للحركة ، وغلب عليهم التقلب وعدم الثبات حتى أنهم كانوا يتركون الجهاد حينما يستوفون رغباتهم المادية المباشرة . وعند وفاة المهدى كان الشخص الوحيد من هذه الجماعة الذى تبوأ مركزا ذا نفوذ عظيم هو عبد الله وحينئذ بدأ أن البقارة لن يبذلوا الكثير فى سبيل مستقبل المهدية .

وهذه الفئات الثلاث لم تشترك فى شىء الا فى رغبتها فى انهاء حكم الترك وانها قبلت زعامة المهدى لتحقيق هذا الهدف . وطالما استمر الجهاد كان من الممكن التنسيق بين طموحاتهم عن طريق قيادة المهدى العليا وذلك رغم أن دلالات التوتر الكائن كانت تطفو على السطح من وقت الى آخر . والمنشورات التى صدرت بشأن اخفاء الغنائم والاجراءات التى اتخذت لاستيفاء الزكاة وتحصيلها أوضحت استهتار الرحل بواجباتهم بصفتهم أعضاء فى مجتمع المهدية . كما أوضحت المنشورات التى أصدرها المهدى تأييدا لسلطة الخليفة عبد الله ما يكنه الأشراف وزعماء الأنصار من غيرة من عبد الله . وكان دافع المهدى الى توبيخ أهله انصرافهم الى الحياة الدنيا ورغبتهم فى التمتع بالرفاهية والنفوذ اللذين أسبغا عليهم بفضل ما نالوه فجأة من مكانة وقوة . وقد تحدث يوسف ميخائيل مرارا وتكرارا عن مادية الأشراف والدناقلة .

وقد تأجلت الأزمة التى طرأت على علاقات هذه الفئات الثلاث الى ما بعد وفاة المهدى . فان نجاح الثورة المهدية لم يتأكد ألا بعد سقوط الخرطوم ـ بل ان الموقف لم يخل حينئذ من عوامل القلق . فحاميات سنار وكسلا كانت لا تزال تقاوم ولم تكن سواكن قد سقطت بعد كما أن

حملة الانقاذ كانت قـوة قائمة فى الشـمال • وبالاضافة الى ذلك فان أيديولوجية المهدية كانت تتطلب استمرار الجهاد ومن ثم أعد المهدى خطة لغزو مصر • ولكن فى أواسط ١٨٨٥ حدث تغير فجائى فى الموقف ــ اذ أن اخلاء القوات والادارة المصرية ــ الانجليزية لدنقلة قد بدأ فى مايو وتم فى يونية • وفى ذات الوقت سحبت القوة الانجليزية من سواكن مما عزز مكانه عثمـان دقنة وأنهى الى حين الخطر الذى تعرضت له المهـدية فى الشرق • وفى ٢٢ يونيو توفى المهدى وتعرضت جميع الخطط التى وضعها من أجل تطوير حركته مستقبلا للتعديل والمراجعة • وقـد سقطت كسلا وسنار فى الشهرين التاليين وبزوال الخطر الخارجى على المهـدية ووفاة زعيمها ذى التفويض الالهى تمهد السبيل لتطور أزمة داخلية ناتجة عن الصراع على السلطة بين القوى المتفرقة التى سبق أن ساهمت فى نجاحها • وشكلت الجهادية عاملا هاما فى الموقف ــ وكانت قد نظمت للمرة الأولى أثناء حصار الأبيض ثم اشتركت تحت قيادة حمدان أبو عنجة فى القتال الذى نشب حول الخرطوم • وكانوا عندئذ موضـوعين فى الكارا قلعة أم درمان القديمة • وبقيت قوات أخـرى فى كردفان ودارفور ــ وهم قوة نظامية مدربة وذات خبرة ومطيعة فى العادة • وعند وفاة المهدى كان حمدان نفسه بعيدا على رأس قوة مختلطة يقود حملة بجبال النوبا ، ولكن قوة كبيرة من الجهـادية بقيت فى أم درمان تحت قيادة أخيه فضـل المولى صابون • كما كانت قوات قبلية تنتمى الى راية عبد الله السوداء متركزة أيضا فى العاصمة • وعلى العكس من ذلك كانت قوات الراية الحمراء التى يتولى قيادتها الاسمية الخليفة محمد شريف مبعثرة فى أنحاء السـودان فجيش منها كان مع عبد الرحمن النجومى والثانى مع محمود عبد القادر فى الأبيض والثالث مع محمـد خالد فى دارفور والرابع مع كـرم الله كرغساوى فى بحر الغـزال • أما فرقة الراية الخضراء تحت قيادة الخليفة على بن محمد حلو فلم تتعد كونهـا قوة اسمية حشدت من قبائل كنانة ودغيم •

٢ ـ توليـة عبد الله :

كان الوضـع العسكرى فى أم درمان عند وفاة المهـدى لصالح عبد الله وكانت هناك أيضا عوامل أخرى تجعل من عبد الله أقوى المطالبين بوراثة سيادة المهدى • فتسميته خليفة الصديق قد تتضمن ضرورة خلافة عبد الله المهدى بالصورة التى خلف بها أبو بكر الصديق الرسول • وهناك بعض الدلائل على أن المهدى ـ وهو على فراش الموت ـ قد اختار عبد الله خليفة له • ومن ناحية أخرى فان الروايات المتصلة بالمجلس الذى انعقد فور وفاة المهدى تنبىء عن قدر من التردد قبل تأكيد الاختيار •

ولعل أشمل وأدق وصف لمـا حدث هو ما نقله الينا يوسف ميخائيل وجاء فيه « ولمـا انتقل المهدى من دار الفناء الى دار البقاء وصار دفنه فى ذات المربوعة كانوا حاضرين وفاته جملة من الأكابر والخلفاء والسيد المكى وجد الأشراف أحمد شرف والفكى الداداري عالم من قبيلة الفلاتة وعدد من الأكابر بعد دفن المهـدى اجتمعت الأشراف لأجل الخلافة الى السيد محمد شريف خليفة الكرار وباقى الجموع عارضهم فبذلك قالوا لهم الخلافة الى خليفة الصديق عبد الله بن السيد محمد على حسب ترتيب الخلفاء وكما قال المهدى (أن الخليفة عبد الله هو خليفتى هو منى وأنا منه اتبعوه فى كل أمر وحاربوا القـوم فى القيل والقال) والخليفة عبد الله سـاكت ليس يتكلم شىء بل يسمع بآذانه وينظـر بعينيه ثم قام الفكى الداداري وأخذ الخليفة عبد الله التعايشى بيده وقال له بايعنا يا خليفـة المهدى أيضا قام جد الأشراف أحمد شرفى أخذ سيف المهـدى والعمامة سلمهما الى الخليفة عبد الله وقال له اعطينا البيعة • وبعدها تقدم خليفة الفاروق والسيد المكى وأخذوا البيعة كمثل السيد عبد القادر ساتى على والسيد عبد الكريم حتى تقدم خليفة الكرار وأخذ البيعة وعند المغرب نصـبوه منبر له ثلاثة سالم وحضر الخليفة وعلا على الكرسى واجتمع كافة الأنصار أمام الكرسى وأعطاهم البيعة ووافق الفكى الداداري أمامهمع الخليفة على ود حلو وأخيه الأمير يعقوب بعد أخذ البيعة مستعد بالسلاح

والرجال ... » (١) .

وتوضح لنا هذه الحادثة أن اختيار عبد الله خلفا للمهدى قد لقى تأييد الأتقياء ومشايخ الصوفية من على بن محمد حلو ، ومحمد المكى واحمد شرق وذلك ضد رغبة الأشراف برغم أن أحمد شرفى كان هو ذاته من الأشراف ويرى شقير (٢) أن الخليفة على أيد عبد الله فى هذه الآونة لانه كان التالى له فى الترتيب بين الخلفاء ومن ثم يكون له حق تولى الخلافة بعد عبد الله بينما لو تم انتخاب الخليفة محمد الشريف لاصبحت السيادة وراثية فى الأشراف . وعلى كل فان الشواهد لا تؤيد وجهة النظر هذه ـ ففى الأزمة العظمى التى نشبت فى عام ١٨٩١ عاون الخليفة ، على حلو وأحمد شرفى مرة ثانية عبد الله ضد الخليفة محمد شريف والأشراف . ورافق الخليفة على حلو الخليفة عبد الله حتى النهاية ومات الى يمينه فى ساحة أم دويكرات ويبدو من المحتمل ان ما قام به الخليفة على والسيد المكى وأحمد شرفى كان بمثابة تحقيق مخلص لرغبة المهدى المتوفى واتجاهه الواضح واختيار أقدر أتباعه وأكثرهم ثقة لديه خليفة له . وبدت الحركة التى قام بها الأشراف لاختيار أحدهم كمحاولة مفهومة للاحتفاظ بما اكتسبوه من مكانة وامتياز . ولم تكن فرص نجاح محاولتهم كبيرة . وذلك لأن المهدى هاجمهم علنا عندما أم المسلمين فى المسجد لآخر مرة قبل وفاته بعشرة أيام (٣) .

---

(١) مخطوطة يوسف ميخائيل (١) رقم ٦٨ ـ ٦٩ .

(٢) شقير : تاريخ السودان وجغرافيته جـ ٣ ص ٣٩٣ .

(٣) شقير حـ ٣ ص ٣٥٤ وطبعة بيروت ص ٩٣٠ .

« فلما كان يوم آخر جمعة فى شعبان سنة ١٣٠٢ هـ (١٢ يونيو ١٨٨٥ م) بعد ان فرغ من الخطبة فى الجامع وهم الناس بالوقوف للصلاة أشار اليهم بيده وقال اجلسوا ثم نادى بأعلى صوته وقال (أيها الناس انى مللت من النصح والمذاكرة لأقاربى الأشراف الذين تمادوا فى الطيش والغواية وظنوا ان المهدية لهم وحدهم » ثم مسك ثوبه ونفضه ثلاث مرات وقال « أنا برىء منهم فكونوا أنتم شهودا على بين يدى الله تعالى » فنكس الأشراف رؤوسهم ولم يجبه أحد بكلمة » .

وأعقب انتخاب عبد الله كخليفة للمهدى فى هذا الاجتماع مباشرة بأخذ اليمين له فى المسجد خارج منزل المهـدى . وأعد منبر دو ثلاث درجات على عجل وجلس عبد الله عليه ووقف أمامه الفقى الذى كان أول من حياه كخليفه للمهدى مع الخليفة على . والى منتصف الليل ظل عبد الله يتلقى يمين الولاء وعهده من أتباعه . وفى تلك الأثناء أرسلت المنشورات على عجل الى الأنصار فى الاقاليم لاعلامهم بوفاة المهدى وخلافة عبد الله — وفى أحد هـذه المنشورات اقتبس الخليفة ، علما منـه بالهلع الذى سيطغى على الأنصار المخلصين بسبب وفاة المهدى قبل أن يتم رسالته ، من السابقة الواضـحة فى خطبة أبو بكر الصـديق للمسلمين عند وفاة الرسول . وكان الهدف الأول من هـذا المنشور الحد من الفزع وحث الناس على الاحتفاظ باخلاصهم للمهدية : « ابقوا بخير لأن الايمان بالله سينتصر بقـدرة الله وقوته ، وصحب هـذا المنشور منشور آخر باسم الخلفاء التاليين له والأشراف لطمأنة الناس على خلافة عبد الله وقد استقيت سلطة عبد الله فى المنشور من حضرة نبوية شاهدها المهدى قبل وفاته جاء فيها ما يلى : « ان المهدى ليلة وفاته حصلت له « حضرة » ظهر له فيها الشيخ القرشى ومعه جمع من الأولياء فقال له أن النبى (صلعم) قـد استعجل انتقالك الى الدار الآخرة فاجعل لك وكيلا من خلفائك يقـوم بالأمر فقال المهدى أوكلت الخليفة عبد الله فاتفقت كلمتنا عليه » (١) .

وكلف القادة المحليون بتلقى اليمين الجديد بالولاء من رجالهم . ودعى أكبر عدد ممكن من القواد وشيوخ القبائل ليشاركوا فى احتفال أقيم عند قبر المهدى فى عيد الأضحى الذى وافق يوم ٢٠ سبتمبر ١٨٨٥ (١٣٠٢ هـ) وهناك أدوا اليمين التى أضيفت لهـا عبارة خاصة بالولاء للخليفة . وقد تشبه عبد الله فى منشوره الأول بعد وفاة المهدى بأبو بكر الصديق ليبين صدق خلافته وترك لرجاله أن ينشروا ما يؤكد حقه من براهين خفية . وعلى كل فقبل مضى كثير من الزمن انصرف عبد الله الى نشر مجموعة من الحضرات (رؤى) النبوية والأحاديث الخاصة لتأكيد

---

(١) وثيقة النجومى ص ٧٠ — نعوم شقير طبعة بيروت ص ٩٧٦ .

حقوقه . وفى خلال ذى القعدة ١٣٠٢ هـ (أغسطس — سبتمبر ١٨٨٥) كتب لمحمد خالد بدارفور مكلفا اياه بأخذ اليمين وجاء فى كتابه ما يلى : وفى أحد الأيام من أواخر شهر رجب جاءنى المهدى ومعه خلفاؤه ومعه الأعوان المخلصين ثم بدأ المهدى حديثه قائلا :

« ان جميع الأسرار الالهية تجمعت فى حرف الباء ونقطته(١) » وكتبها المهدى على الأرض بأصبعه الكريم ثم قال : « وحيث أن الله وضع هذا الحرف فى أحد الرجال فقد أصبح بذلك موضع سره الالهى » وعندئذ سأل أحد الاخوة المقربين ممن حضروا الاجتماع عن الرجل الذى وضع فيه الله سره الالهى فأشار الى العبد المسكين (يقصد عبد الله) وقال « ان هذا الرجل خليفة الصديق « فنظر الأخوان الى » ووجدوا الباء بنقطتها على خذى الأيمن وهى هناك الآن وستراها عند حضورك » . وهناك منشور كتب فى أوائل عهد عبد الله وعرف باسم منشور الشعرة اشتمل على سلسلة من الرؤى والخبرات الصوفية لدى الخليفة ثلاث منها لها اتصال بشرعية خلافته قدمت فى صورة أحاديث مع الخضر وقد جاء فيها « أبلغنى (الخضر) أن المهدى قال أن الله أخبر جبريل وجبريل أخبر النبى والنبى أخبر المهدى والمهدى طلب منى شخصيا أن أبلغك أن الله جعلك هداية للأرض (٢) كلها من شرقها الى غربها ثم يقول « وأن من يحبك ويتبع أقوالك قد قبل الهداية منا ومن قبل الهداية قبل منا وأصبح آمنا من عقاب الله . وذلك الذى لا يحبك ولا يسمع قولك فهو من المارقين ومقر المارقين نار جهنم » . ثم سألت الخضر عن سبب انقطاعه عنى منذ

---

(١) هذه الوثيقة تكشف عن مدى التأثر بالفلسفة الصوفية لدى الحروفيين وهم طريقة صوفية فارسية ترجع الى القرن ١٤ وكان لها تأثير على الطريقة البكتاشية وقد تميزت هذه الطريقة بتخميناتها المرتبطة بالحروف الهجائية .

جاءت الترجمة فى كتاب ونجت ص ٢٣١ Wingate Op. cit. p. 231 قدم الله لك الأرض كلها هدية » ومن المحتمل أن الأمر التبس على ونجت فقراها هدية بدلا من هداية . وكلمة « هدية » لا تتفق مع المعنى المقصود فى الوثيقة ولعل « هداية » كتبت سهوا فى الوثيقة « هدية » فالوثيقة عرضة لأخطاء لغوية أحيانا .

انتقل المهدى فقال انى كنت خافرا شعره من شعر المهـدى أمن أحمد سليمان عليها فحفظها ولكنه كان يكشفها أحيانا ويبكى عند رؤيتها وقد كشفها مرة فى الخرطوم فخشيت أن يخطفها ريح أو تقع فى محل وسخ تضيع فيه فبعد أن بلعتها أنت آمس استرحت وسرى عنى • وكانت هذه الشعرة آمانة لك عند أحمد سليمان فالآن ان رضى بيلعك اياها فله ثواب حفظ الأمانة وان لم يرض فلا ثواب له ثم قال الخضر (عم) أن القلب الذى تدخله هذه الشعرة يأمن النفاق وتدخل بالنور اليه • وقـد كانت هذه الشعرة أيها الاخوان عند الحبيب أحمد سليمان فى ورقة حرصا عليها وفى يوم الاثنين فى ٢٧ ذى القعدة وهو اليوم الذى بنى فيه هذا الحبيب التابوت أراد أن يكشف لنا الشعرة للتبرك بها فقبل أن يكشفها شممت رائحة عجيبة وأول ما بدا لى رأس الشعرة حصـل لى انشراح لا يعلم مقداره الا الله فتناولتها بقصد شمها فأراد الله ادخالها فى فمى وابتلعتهـا فطلبها الحبيب أحمد سليمان منى ففتحت له فمى فلم يجدها والحمد لله على ذلك (١) » كل هذه الرؤية ظهرت بسبب هذه الشعرة والسر فى هذه الشعرة التى ابتلعتها فى قبر المهدى ••• (عبارة غير كاملة) وكل العالم لا يعد لها • وبعد ذلك قال لى المهدى ابق هنا حتى آتيك وغاب لحظة ثم جاء ومعه شعاع من نور أشبه بالحبل وقال « هذا الشعاع مبارك لأنه حق وأعطاه لجبريل وجبريل أعطاه للنبى والنبى أعطاه للمهـدى والمهـدى أعطاه لى حتى أسلمه لك أنت • وأمر المهدى بتقسيمه الى أربعة أقسام تبتلع أنت واحدا منها وعليك أن تمسـح وجهـك بجـزء وتضع قسما واحدا منها فى الراية السوداء وجزء واحد تبعثره فى مكان الصلاة وكل من تقوده لهذا المكان سيحتاطه النور » •

وواضح لنا الغرض الذى ترمى اليه هذه الرؤى ـ فقد رغب عبد الله فى أن يربط نفسه بالمهدى بأوثق الروابط دون أن يقع فى خطأ النيل من مكانة سيده المتوفى • فلم يدع ـ كما فعل المهدى ـ وجود اتصال مباشر بينه وبين النبى محمد وانما اتخذ من المهدى والخضر وسطاء ينقلون له

---

(١) شقير : طبعة بيروت ص ١٢٤٨ .

الأوامر الالهية ، وذكر سلسلة الوسطاء يخلع على الرؤى نغمة آلية وغير أصيلة . ولما كان الخليفة لا يستطيع ادعاء المهدية فلم يكن أمامه الا السعي للارتباط بها بأقصى ما يستطيع وذلك بادعاء أنه الهادى مستخدما بذلك أحد اشتقاقات الكلمة الأصلية . أما الرؤية الثانية فترمز الى انتقال بركة المهدى ومكانته فى صورة شعرة الى الخليفة مؤكدة بذلك ما كان من تسليم قيادة الجماعة لعبد الله . ولعل فى هذه الرؤية كناية عن معنيين . فابتلاع الخليفة للشعرة التى عهد بها المهدى من قبل لأحمد سليمان يرمز الى انتقال السلطة من الأشراف وأولاد البلد الى عبد الله كما أن عبارات الخضر بشأن ما ينتويه من مواصلة رعايته للشعرة حتى ولو سقطت فى الغبار وبين الأوساخ قد تعنى اهتمام الخليفة بكسب تأييد سماوى بعد أن وقع عليه الاختيار برغم أنه عبد ذميم ووضيع فى نظر الأشراف . والرؤية الثالثة تعبر عن تطور غريب لرمزية شعاع النور وهى الرمزية التى سبق أن أشرنا الى لجوء المهدى اليها ، وأنها تتصل بالمبدأ الصوفى الخاص بنور محمد . وبهذا الشكل الأخير يبدو النور الالهى وقد وزع على الشكل الآتى : قدر مضاعف للخليفة ، وقدر لقواته الخاصة المنضوية تحت الراية السوداء ، وقدر لكل الأنصار المخلصين .

والدعاية المستندة الى الرؤى تمثل سمة بارزة من سمات هذه المرحلة التى كانت تمر بها المهدية ــ اذ نشرت أنباء عن رؤى حية فى ذلك الحين ومن توارد الأسماء يبدو أن طائفة معينة من صحبة عبد الله ويعقوب كانوا فى الواقع متخصصين فى شهودها .

والرؤى التى كان الهدف الواضح منها تعظيم الأخوين ، كانت أحيانا شديدة الاتقان وتتميز بخصوبة الخيال . ويبدو أن اللجوء الى الرؤى قد قل بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على حكم عبد الله وذلك عندما أصبح الخليفة قادرا على استخدام وسائل أخرى لتأمين سلطنه وعندما أرغمته الظروف على التأكد من أن خصومه من الأشراف وأولاد البلد لا يسكن مصالحتهم .

٣ — اول اصطدام بالأشراف :

لم يكن الاعتراف بعبد الله خليفة للمهدى وتأدية يمين الولاء له كافيا لتأكيد استمرار سيادته الجديدة ، فقد بوغت الأشراف بالأحداث وغلبهم عبد الله على أمرهم فى رمضان ١٣٠٢ . ولكنهم لم يسلموا بضياع نفوذهم وانما تحينوا فرصة مواتية لاستعادة مركزهم وكان يبدو أن البوادر مواتية لهم — فالقيادات الرئيسية فى الأقاليم كانت معظمها فى أيديهم أو فى أيدى عملائهم فكانت بربر ودنقلة تحت قيادة محمد الخير عبد الله خوجلى وكان محمود عبد القادر يحكم كردفان ، وكان محمد خالد يتمتع بسلطة ملكية فى عاصـــمة دارفور البعيدة وكان كرم الله كرغساوى يتولى القيادة فى بحر الغزال وفى الرئاسة وضع الأشراف على الخزينة فى يد أحمد سليمان . ومن المسلم به أن ميزان القوة العسكرية فى أم درمان كان لصالح الراية السوداء الخاصة بالخليفة والتى كان يأتمر عليها أخوة يعقوب . ولكن كلا من الخليفتين الأدنى منه رتبة كانت له قوته المسلحة الخاصة به بمـا فى ذلك الجهادية بينما علل جهـادية آخرون تحت أمره أحمـد سليمان وأحمد شرفى وشخص آخر من الأشراف .

وكان محمود عبد القادر أول المنافسين المحتملين لعبد الله ، بحيث كان من الواجب تنحيته وقد غادر محمود الأبيض فى أغسطس ١٨٨٥ الى أم درمان لتجديد البيعة له وأضمر الخليفة ابعاده الى دنقلة تحقيقا لسياسته التى أصبحت شبه واضحة فى ذلك الحين وخلاصتها نقل الأشراف وأولاد البلد تدريجيا من الغرب وتركيزهم فى الشمال تحقيقا لهدفين أولهما تأمين الخليفة لخطر تراجعه نحو موطنه الأصلى فى حالة حدوث طارىء ما وذلك باخلاء هذا الطريق من العناصر المعادية وثانيهما وضع الجماهير المشكوك فى اخلاصها أو حماسها فى أكثر المواقع خطورة اذا ما جاء الغزو من مصر . ولكن الأحداث جرت بغير هذا فيما يتعلق بمحمود عبد القادر وان جاء ذلك لصالح عبد الله . فبينما محمود فى أم درمان قام الجهادية فى الأبيض وعددهم ٢٠٠ رجل تقريبا معظمهم من قدامى الجنـود بالجيش المصرى ، قاموا بثورة قتـلوا فيها نائب الحاكم ثم ساروا الى جبـال النـوبا .

ومن ثم سمح لمحمود بالعودة الى الأبيض لاحضار أسرته . فتحدى أوامر الخليفة وجمع شمل قواته وتقدم نحو جبال النوبا مطاردا الثوار . ولكن حلت الهزيمة برجاله من الأنصار وقتل هو فى ٢٠ ديسمبر ١٨٨٥ .

ارتبط موقف الخليفة من بقية الأشراف ومن يؤيدهم بمجرى الأحداث فى دنقلة فقد التزم الخليفة اسميا بالجهاد ضد مصر تحقيقا للسياسة المهدية . ولكن الذى حدث هو أن السودانيين توقعوا فى ذلك الوقت غزوا مشتركا من جانب مصر وانجلترا . وفى سبتمبر ١٨٨٥ كتب محمد الخير ليبلغ الخليفة بأن الانجليز وقد عرفوا بموت المهدى بدأوا يعدون للقيام بغزوة ذات ثلاث شعب لاقليم دنقلة . والواقع أن خططا من هذا القبيل لم تكن موجودة ، فكل جانب بالغ فى نوايا الآخر الهجومية وقدرته ، على حين أن الجانب المصرى الانجليزى صرف النظر اذ ذاك عن مشروع الحملة النيلية . وفى الجانب المصرى الانجليزى لم تعد حملة النيل قائمة — أما قوة الحدود المصرية الانجليزية فقد اتخذت من أسوان مركزا لقيادتها ووضعت لواءها الأمامى فى وادى حلفا وآخر مراكزها جنوبا فى كوشة على بعد ٤٢ ميلا من نهاية الخط الحديدى — بينما كان الأنصار الموجودون فى الشمال لا يزيدون عن كونهم قوات محلية تولت السيطرة على الأقاليم تدريجيا مع انسحاب القوات المصرية الانجليزية منه . وعندما عاد عبد الرحمن النجومى بعد استعادة سنار أرسل الى بربر لاعداد حملة . واستمرت التعبئة وبخاصة فى الجزيرة وأن بقى الغرض منها من قبيل الاحتياط . وبرغم استمرار نشر الدعوة الى الجهاد فلم يكن لدى الخليفة فى نهاية ١٨٨٥ جيش قادر على محاولة غزو مصر .

وتزايد قلق الخليفة فى نهاية العام . ففى نهاية نوفمبر هاجمت المراكز المصرية — الانجليزية القوات المحلية فى دنقلة وقد عززت الامدادات ، وفى ديسمبر كانت قد حشدت قوات تكفى لايقاع ضربة حاسمة بالأنصار وفى ٢٩ ديسمبر أوقعت القوات المصرية الانجليزية بقيادة ستيفنسون وجرنفيل الهزيمة بالأنصار فى معركة جنس . ولاح فى الأفق امكانية غزو عاجل ولكن

المنتصرين لم يواصلوا نجاحهم بل أن هذا الانتصار كان فى الواقع مقدمة لانسحاب جديد ــ فما وافى أبريل ١٨٨٦ حتى كانت جميع المراكز الواقعة جنوب وادى حلفا وقد أخليت على حين أن وادى حلفا ذاتها لم تكن فيها الا حامية مصرية خالصة •

وقــد أثر الجزع القائم على غير أساس فى الشمال على مجــرى العلاقات بين عبد الله والأشراف من ناحيتين فقد اتخذ عبد الله من محمد الخير كبشا للفداء عن هزيمة جنس فاستدعى من دنقلة وسحبت منه قيادة الاقليم فى أوائل ١٨٨٦ • وما كاد يعود الى بربر حتى سحبت منه هى الأخــرى • وهكذا تم التخلص من رجل آخــر من الأنصار الأقوياء الأشراف • وبرغم أن النجومى كان القائد الاسمى للقوة التى جرى اعدادها فى الشمال الا أن عبد الله شك فى صلته بالأشراف فحدد سلطته الى حد كبير وفى سبتمبر ١٨٨٦ عين عثمان الدكيم ــ وهو تعايشى يمت بصلة القرابة للخليفة حاكما على بربر •

وعلى حين خيم شبح الغزو كان الخليفة محمد شريف قــد جــرى تعيينه اسميا بصفته القائد الأعلى للقوات المعدة لمواجهة الغزو ولو أنه لم يغادر المعسكر الموجود خارج أم درمان بتاتا • وأدى عدم تقدم العدو (مصر وبريطانيا) جنوبا الى ازالة عنصر التوتر فعاد السكون الى الجبهة الواقعة على الحدود الشمالية ، ووجد الأشراف فرصــة للتــآمر ضــد الخليفة • ولعب محمد خالد دورا خطرا فى هذه المؤمرات فقد كان يأتمر على جيش كبير قدر بألف فارس ، ٣٠ ألفا من المشاة ، وثلاثة آلاف من الجهادية • ولم يكن مشغولا بعدو خارجى كما كان محمد الخير • وكان الخليفة لفترة طويلة قد حاول اقناعه بالحضور الى أم درمان لتجديد عهد الولاء ولكن بدون جدوى • وفى أول ربيع الثانى ١٣٠٣ هـ (٨ ديسمبر ١٨٨٥) أعلن محمد خالد عزمه على مبارحة الفاشر وذلك بعد أن أرسل قواته أمامه وبدأ جيش دارفور تحركه ببطء شــديد الأمر الذى أنقــذ عبد الله • واشتمل الجيش المذكور على ثلاثة فئات ، القوات القبلية التى تجمعت من التعايشة وغيرهم من البقارة ــ وكان من الطبيعى أن يميل

هؤلاء للانضمام لعبد الله اذا تأزمت الأمور ، أما الفئة الثانية فهى أولاد البلد الذين كان من المتوقع بما يشبه اليقين أن ينضموا الى الأشراف ، والفئة الثالثة هى الجهادية الذين كان انضمامهم الى أحد الطرفين ذا فائدة مؤكدة .

وقد بيت عبد الله النيـة بقـدر الامكان ـ على انهاء طاعة الجهادية لمحمد خالد وكان مندوبه حمدان أبو عنجة الذى كان لا يزال يقاتل فى جبال النوبا وكان من المحتمل أن يستطيع اعتراض جيش دارفور ولكن فى ٢٥ جمـادى الأول ١٣٠٣ هـ (أول مارس ١٨٨٦) كلف أبو عنجـة بدعوة محمـد خالد الى السماح لقواته بالاشتراك فى هجوم على جبل الداير فاذا ما حضر محمد خالد بنفسه كان من الواجب أن يقابل باحترام لأنه كان يبـدو مواليا للخليفـة أيا كانت نواياه . واذا ما اقتصر على ارسـال رجاله وجبت معاملتهم معـاملة طيبة وفى كلا الحالين كان على أبو عنجة أن يحاول كسب مودة الجهـادية وبامكانه فى نهـاية الحمـلة الاحتفاظ بأولئك الذين يودون البقاء معه وبالتعايشة كذلك وحث الخليفة أبو عنجة على أن يعالج الأمور بالطريقـة التى يراها على أن يبقى الأمر فى طى الكتمان .

وفى تلك الأثناء كان الأشراف يتصرفون كما لو كانوا قوة مستقلة داخل أم درمان ويعدون العدة لتخصيص منطقـة الجزيرة لمحمد خالد وقواته عند وصولهم . ولكى يواجه الخليفة مخططهم ويبقى على الاقليم لأبو عنجة وقواته أرسـل يونس الدكيم شقيق عثمان لاحتلاله . ومن الواضح أنه وجد اتفاق بين الأشراف ومحمد خالد لكى يستخدم الأخير قواته لتضييق سلطة الخليفة ان لم يكن للقضاء عليها وسعى الخليفة من جانبه لاضعاف قوة محمد خالد ، وفى أوائل مارس أرسل الى محمد ود سليمان قائد جهادية دارفور المعسكرة فى بارا يأمره بأن يرسل الى أبو عنجة التعزيزات التى قد يتطلبها الموقف وسارع محمد ود سليمان بافشاء هذا الأمر لمحمد خالد .

وحينئذ كان التوتر يتزايد فى أم درمان — وأدرك الخليفة تعذر تجريد محمد خالد من قوته بالاجراءات التى سبقت الاشارة اليها . وفى الخامس من جمادى الثانية الموافق ١١ مارس أرسل سكرتيره الموثوق به المدثر ابراهيم الى أبو عنجة ومعه خطاب شديد السرية جاء فيه أنه جرت العادة فى عهد المهدى على توزيع جميع الأسلحة والذخائر والدروع والملابس ، والجهادية والفرسان بين الرايات الثلاث . ومن ثم فعلى أبو عنجة أن يعترض محمد خالد فى الأبيض ويقوم بتنفيذ التوزيع وعليه أن يأخذ النصيب الخاص بالراية السوداء كما يضع النصيب الخاص بالخليفة محمد شريف تحت اشرافه على أن تحفظ جميع الذخائر فى الأبيض فى انتظار أوامر الخليفة .

وفى اليوم التالى شاعت فى أم درمان أنباء بعثة المدثر واعتقد الأشراف أن تعليمات صدرت لأبو عنجة للقبض على محمد خالد — وأمر الخليفة أبو عنجة من جديد بأن تتخذ تصرفاته طابع السرية التامة مع ارسال تعليمات لقائد المهدية فى الدويم لمنع مرور المراسلات من أم درمان الى كردفان بدون تصريح من الخليفة أو بالعكس ما لم يكن عليها خاتم أبو عنجة . وخلال الأيام القليلة التالية انفجر الموقف فى أم درمان(١) . وقد ضرب عبد الله ضربته الأولى عندما طلب من الخليفتين الأصغر تسليم أتباعهما الخاصين وراياتهما وأسلحتهما والجهادية التابعين لهما على أن تضاف جميع الموارد العسكرية فى العاصمة للراية السوداء تحت قيادة يعقوب . وكما حدث عند موت المهدى قدم الخليفة «على» تأييده العاجل والمخلص لعبد الله . كما وجد الخليفة محمد شريف أن لا قبل له بمواجهة هذه التطورات وتم اعداد منشور يعبر عن الولاء لعبد الله وقع عليه من قبل الخليفتين الأصغر وكلف أبو عنجة بعرضه على محمد خالد ، على أن يعامل الأخير بلباقة متصفة بالحذر الى أن يتضح موقفه . واذا رأى أبو عنجة أن يعتقله فعليه أن يقرأ المنشور على قواته ويبلغهم بأنه قبض

---

(١) فى رجب ١٣٠٣ (ابريل — مايو ١٨٨٦) وفقا لتقرير بورديني .

عليه لخروجه على خليفة المهدى والخلفاء (١) .

وحينئذ أبدى الخليفة مزيدا من التشدد فى مكاتباته مع محمد خالد فأمره بتسليم من لديه من جهادية وأموال لأبو عنجة . وسمح بتقسيم الفرسان فقط وفقا للترتيب الذى سبق وضعه بشأن جيش دارفور ونبه على أبو عنجة بعدم الكشف عن الأمر السابق الخاص بتقسيم الجهادية وأخطره بأن الأشراف لم يعودوا مصدرا للخطر منذ تم تجريدهم من الجهادية .

وتم تنفيذ التعليمات وفى ١٥ رجب ١٣٠٣ (١٩ أبريل ١٨٨٦) كتب أبو عنجة تقريرا عن مجىء محمد خالد الى بارا وبما كان من تصفية قيادته . وحينئذ بدأ أبو عنجة التحقيق مع الموظفين والكتبة الذين عملوا مع محمد خالد حول اختفاء خيول وذخيرة وأدوات حربية أخرى . وبعد عشرة أيام أعلن عدم نجاح معظم جهوده وتقرر نقل ابراهيم رمضان أمين بيت مال دارفور بعد أن عوقب بالضرب الشديد خلال عمليات التحقيق ليصبح أمينا لبيت المال الرئيسى بأم درمان . وبقى محمد خالد سجينا لمدة عام فى الأبيض ثم أرسل الى أم درمان ليكمل فترة سجنه . كما نكل الخليفة بالرجل الذى تدين له المهدية بنجاحها فى كردفان — وهو الياس أم برير — الذى كان قد بقى فى الأبيض بعد مغادرة المهدى لها ثم انتقل الى الخرطوم بعد سقوطها فى أيدى الأنصار وهناك بنى مسكنا خاصا له بعد أن أمر الخليفة باخلاء المدينة . وصاحب ابنه عمر الياس محمد خالد فى تقدمه من دارفور . وأمر الخليفة أبو عنجة بالاستيلاء على الثروة التى أضافها عمر الى أملاكه بحيث ترد أمواله وعبيده وأسلحته الى بيت المال . وسمح لأبو عنجة بتوزيع ما يشاء من خيوله وارسال الباقى الى أم درمان . مع اعتقال عمر نفسه اذا ما رأى أبو عنجة حاجة الى ذلك .

ومن ثم فبعد عام من وفاة المهدى لم يبق من حكام الأقاليم العظام الذين عينهم سوى اثنين . ولم يكن أولهما كرم الله كرغساوى الموجود

---

(١) وثائق المهدية ١/٢٥ ، ٣ ، ١٠٧ .

فى اقليم بحر الغزال البعيد الذى تسوده الوثنية ليمثل خطرا على ســلامة عبد الله . أما عثمان دقنة فى الشرق فكان بمثابة وسيط لا يمكن الاستغناء عنه للسيطرة على قبائل البجة . وكان هو وأتباعه بمثابة جماعة مستقلة بمشاكلها الخاصة وبميدان نشاطها الخاص ولم يكن يخشى من تحالفه مع الاشراف نظرا لكثرة مشاغله الخاصة فضلا عن عدم وجود مصالح خالصة لديه . ولكن أحمد سليمان فى أم درمان انضم صراحة الى فريق خصوم عبد الله . وفى ٢٦ ابريل ١٨٨٦ دارت عليه الدائرة ، عندما اعتقل وصفد بالأغلال . فعند استدعائه لتقديم كشف حساب دقيق عن المبالغ الكبيرة والكميات الضخمة من البضائع التى دخلت بيت المــال فى العام السابق أبدى عجزه عن اجراء ذلك ـ فصودرت بضائعه وبضائع شقيقه محمد (١) أيضا . وحل محله فى أمانة بيت المــال ابراهيم محمد عدلان وهو من أهالى واد مدنى وكان تاجرا ناجحا فى الأبيض الى وقت سقوطها . وقــد عمل فى بيت المــال تحت امرة أحمد سليمان وأرسل الى بربر ليجــرد الغنائم التى جمعت عند سقوط المدينة . وتم تنظيم خزينة المهدية بفضله تنظيما كاملا .

وما انتهى العام الأول من حكم عبد الله حتى كان وضعه قد أصبح أكثر استقرارا مما كان عليه فى أوائل حكمه . فقد حالفه الحظ الى حد ما حين مات محمود عبد القادر وتقاعس البريطانيون عن التقدم بعد معركة جنس . على أن معظم الفضل فى تثبيت سلطته يرجع الى حسن انتهازه للفــرص وسرعته فى التصرف اذا ما قارنا ذلك ببطء الأشراف وأعوانهم وعدم فاعليتهم . كما أنه يدين بالكثير لاخلاص الخليفة على الذى ضمن نفوذه تعــاون الأنصار المتدينين والذى كان بمثابة ضــمير الحــركة المهــدية بعد وفاة مؤسسها . وأخيرا فان اعتماد عبد الله الكامل على مساعدة حمــدان أبو عنجة وحسن تصرفه قد أنقذه من احتمال تحالف محمد خالد مع الأشراف ، ومن ثم مكنه من القضاء على خصومه واحــد بعد الآخر .

---

(١) قــد يكون محمد سليمان هو نفسه قائد جهادية دارفور الذى سبقت الاشارة اليه .

الفصل السابع

الدولة المهدية المحاربة

١ ـ المناطق الغربيـــة

١ ـ الخليفة والجهاد :

أمكن تجنب الخطر المباشر الذى كان ينذر بتفكك الدولة المهـدية وذلك حين استولى عبد الله على السلطة بسرعة وحزم الا أن صراعه مع الأشراف كشف عن التيارات الخفية التى كانت تحيط بالدولة المهدية • وحين فرض سلطته على مركز الدولة كانت الأقاليم النائية لا تزال تشكل مصدرا محتملا للخطر • فبقارة الغرب والفور على وجه الخصوص وقـد ساعدوا المهدى فى رفع النير المصرى لم يكن لديهم أدنى استعداد لمعاونة الخليفة لأنه شخص مغمور النسب نشأ بين ظهرانيهم • والى جانب مشكلة اخضـاع الغرب كانت هناك مشـكلات الحـدود الشمالية والشرقية للسودان •

وقد خيم الهدوء على الشمال بعـد انسحاب القوات المصرية ـ الانجليزية من دنقلة • وفى الشرق بقيت الحبشة تفصلهـا عن السودان منطقة حدود غير محددة بدلا من حدود معترف بها • ولعل الدبلوماسية الناجحة كانت تستلزم عدم التعرض لمصر والحبشة وتركهما فى سلام الى أن يتم لعبد الله اقامة حكمه على قواعد صلبة • ولكنه لم يستطع القيام بذلك ـ فالضمان الأساسى لبقائه فى الحكم كان يقتضى التحرك الدائم الذى اصطبغت به الحركة المهدية فى عهد مؤسسها •

ولقد رأينا كيف استعان عبد الله بالعقوبات الروحانية التى اشتملت عليها المهدية وطوعها لتحقيق أغراضه • وهكذا أيضا نجده يجدد دعوة المهـدية للحكام الملحدين والشعوب غير السودانية • وفى ١٣٠٣ هـ دعا سكان الحجاز ونجد ومصر الى قبول المهـدية • وشهد العـام الثانى من

حكمه ارسال الرسائل للخديوى محمد توفيق والملكة فكتوريا والسلطان عبد الحميد • وارسلت مكاتبات متعددة للملك جون ملك الجبشه فيما بين ١٣٠٢ : ١٣٠٥ — وقد تم تجاهل هذه الرسائل من جانب من ارسلت لهم ومن ثم أصبحوا هدفا للجهاد • ومعنى هـذا من الناحيه العمليه ان عبد الله وجد نفسه مضطرا لاتخاذ موقف متطرف تجاه مصر والحبشه • وقد أدى الجهاد ضـد مصر الى كارثة توشكى : وان أصاب الانصار بعض التوفيق فيما يتعلق بالحبشة •

وقد عبر الخليفة عن سياسته برؤى تنبؤيه مقتفيا بذلك السوابق التى وضعها المهدى ولعله لجأ الى هذه القـوة الخارقة لان مصر كانت فوق كل شيء دوله اسلاميه ان لم تكن مهديه ، على حين أن حديثا نبويا كان يحرم على أتباعه شن الحرب ضد الأحباش - وهناك حضره او رؤيه نشرت فى ٢١ ربيع الثانى ١٣٠٥ هـ (٦ يناير ١٨٨٨) وجاء فيها : قال لى الرسول « اذن لك بغزو الأحباش فى ديارهم ، وعليه •• امرنا حمـدان أبو عنجة يغزوهم بالأنصار الذين كانوا معه • وقد غزاهم فى عقر دارهم وانتصر عليهم بعون الله ••• ثم كبر النبى ايذانا بحرب الأحبـاش عدة مرات وكبرنا معه » •

والواقع أن أبو عنجة لم يخرج من القـلابات قبل ٢٤ ربيع الثانى ومعنى هذا أن الاشارة الى النصر الذى جاء فى هذه الحضرة كان بمثابة توقع لحـدوثه • وقد نشرت حضرة أخـرى فى أوائل شـعبان ١٣٠٥ (منتصف شهر ابريل ١٨٨٨) لم تكتف بتكرار تأكيد التنبؤ بالنصر فى الحبشة بل أكدت كذلك الملامح الأخـرى لسياسة الخليفة وهى الملامح المثيرة للشك • « أتانى سيد الوجود ومعه المهدى والخضر وجلس سيد الوجود عن يمينى ووجهه الشريف متجه نحوى • وجلس المهـدى عن يسارى صامتا تأدبا لرسول الله وجلس الخضر خلفى • وفى هذه الحضرة أخبرنى النبى بأنه اذا برز أعداء الله الحبش الى القتال فان أيديهم ستغل الى أعناقهم وسيكتب لنا النصر عليهم كما أبلغنى النبى أيضا بشأن الترك أن الرعب من المهدية قد أخذ بمجامع قلوبهم ، وأنه سمح بارسال الأنصار

ضدهم فى مصر ثم كبر النبى ضد المصريين مرتين وكبرنا من ورائه كما كبر ضـد الترك والانجليز وكبرنا من بعـده ... واخبرنى النبى ان كل ما اتخذته من تدابير مثل قتل صالح الكباشى وابن ابى روف وما اتخذته فى دارفور وما كان منى مع الشـكريه والبطاحين (١) وتدابيرنا فى العاصمة ، واخبرنى النبى أن الله تعالى جعلنى صاحب هـداية على جميع العـالم ووسعه بين يدى » .

(٢) الثورات القبلية : ماديبو رئيس الرزيقات وصالح رئيس الكبابيش :

من أهم عوامل القضاء على الحكم المصرى فى دارفور عداء قبيلة الرزيقات بزعامة الشيخ ماديبو على . وعندما تولى محمد خالد حـكم دارفور بعد سلاطين اكد ماديبو سيطرته على شكا وتفاهم الاثنان على عدم التعرض لبعضهما البعض . على أن ماديبو لم يهتم كثيرا بالاستجابة لدعوة المهدى المتكررة له بزيارة أم درمان وما كاد المهدى يتوفى حتى أعلن تمرده .

وعندما ترك محمد خالد الفاشر فى طريقه الى المعتقل والسجن فى بارا ترك حكومة دارفور ليوسف ابراهيم ابن السلطان الذى هزمـه الزبير رحمه وقتله فى سنة ١٨٧٤ . وكان مندوب المهدية المحلى فى شكا هو محمد الشيخ محمد كرغساوى الذى تولى شقيقه كرم الله ادارة بحر الغزال . وبدا لمـاديبو أن الوقت قد حان لهـدم ما تم عمله فى السنوات الاثنتى عشرة السابقـة ــ فلو أمكن التغلب على الأنصار الذين يتزعمهم رئيسهم الدنقلاوى لأمكن للرزيقات استعادة السيطرة على منطقة الحـدود بين دارفور وبحر الغزال بينما يعود الحكم فى الفاشر من جديد الى أحد سلالة سـلاطين الفـور .

---

(١) لم تقدم الشكرية أكثر من مساعدة جزئية للمهدية كما أنها عاونت فى امداد كسلا اثناء حصارها وعندما ابت القبيلة الانضمام للخليفة اعتقـل شيخها عوض الكريم احمد ابو سن فى ام درمان حيث توفى فى عام ١٨٨٦ وجردت القبيلة من ابلها وخيلها التى تمثل ثروتها واشتدت الكارثة عليهـا فى المجاعة الكبرى ١٣٠٦ ، والأحداث المتعلقة بصالح وأبو الروف ودارفور والبطاحين سيأتى وصفها فيما بعد ويوجد عرض لكلتا الرؤيتين فى وثائق المهدية / ٢ .

وبدأت الأنبــاء عن قلاقل دارفور تتسرب شرقا فى رمضــان عام ١٣٠٣ هـ (يونيو ١٨٨٦) وأصبح الموقف شديد الارباك للخليفة — فقد أراد الابقاء على سلامة الغرب حتى يوفر ملجــأ له عند الحاجة ولكن الأشخاص الوحيدين الذين كان يستطيع الاستعانة بهم لمواجهة ماديبو ما كانوا الا محمد كرغساوى الدنقلاوى ، ويوسف ابراهيم الفوراوى وكلاهما لم يكونا يميلان اليه • وكانت المشكلة التى واجهته هى كيف يستطيع الافادة منهما ضد الرزيقات دون أن يمكنهما من احراز قوة كافية تغريهما بالانقلاب عليه • أما أبو عنجة فكان لا يزال فى كردفان وكان على عبد الله أن يعتمد عليه باعتباره مدافعا عنه فى وجه شيوخ العرب الاقوياء جدا • وما حل اغسطس حتى كان محمد كرغساوى قد ابلغ عن محاولات قام بها ماديبو لكسب ثقة جهادية الأبيض المتمردين الذين احتفظوا بقوة كبيرة فى جبال النوبا بعد أن هزموا محمــود عبد القادر • ولكن هــذا لم يحدث وتحول الموقف بسرعة الى غير صالح ماديبو اذ اشتبك فى قتال مع محمد كرغساوى • وفى أكتوبر حضر كرم الله على رأس جيش بحر الغزال وطورد ماديبو فى المنطقــة المجــاورة للفاشر وقبض عليه يوسف ابراهيم فى شهر نوفمبر وهو فى طريقه الى جبل مرة •

وقد أرسل الاخوان كرغساوى ماديبــو الى طريق أم درمان ولكن أبوعنجة اعترض طريقه بينما كان فى الأبيض • وكان هناك عداء قديم بينهما يرجع تاريخه الى ما قبل المهدية عندما عامل ماديبو أبوعنجة وهو سجين بكل ازدراء وقسوة • والآن انعكست الآية ، فتوقعا لأوامر الخليفة القاضية بارسال ماديبو الى أم درمان ، وجه أبو عنجة اتهاما الى سجينه الذى لم يلبث أن حكم عليه بالاعدام ويقال أن ماديبو أنب أبو عنجة بقــوله « ليس العبد الوضيع هو الذى يملك ذبحى وانما الله العظيم هو الذى سيذبحنى اذا شاء • وأنا لم أطلب منك الرحمة وانما مجرد العدالة ولكن انى لعبد مثلك أن يكون نبيلا • اننى ماديبو الذى تعرفه جميع القبائل» • وقد أرسل رأسه للخليفة الذى بعث لأبو عنجة بما يفيد رضاه بما حدث •

وهناك زعيم هام آخر تجاهل الاستدعاء لأم درمان وهــو صالح فضل الله سالم شيخ الكبابيش • ولم يتصف موقف عائلته من المهــديه على الاطلاق بالصداقة الحميمه • وفى سنة ١٨٨٣ اعــدم اخــوه الكوم فضل الله سالم بأمر المهدى فى الابيض • وكان عــداء الكبابيش يشــكل خطرا استراتيجيا بالنسبه الى الخليفه نظرا لأن هجرتهم السنويه فى شمال كردفان ودنقله جعل هذه القبيلة سيدة الطرق الواقعه بين مصر العليا وغرب السـودان بحيث شكلوا وسيله لنقــل المعــلومات الى السلطات المصريه الانجليزيه كما كانوا يشــكلون خطرا محتملا على جناح عبد الله • وكانت ثورة ماديبو على اشدها حين اتخذ عبد الله عدة خطوات لاخضاعهم (اى الكبابيش) •

ففى أوائل سنة ١٣٠٤ (سبتمبر ١٨٨٦) عرضت ضمانات الأمن على القبيله مما ادى الى كسب بعض الكبابيش • وبدأ صالح مفاوضاته مع الخليفه وانصاره ولكن الخليفه شك فى أن المقصود من ذلك هو كسب الوقت الى أن يتم له جمع المؤن وتجميع رجال قبيلته • والواقع انه كان فعــلا على اتصال بالقيــادة المصرية الانجليزية التى أرسلت له مددا من البنادق لم يصل منه اليه الا القليــل •

وقبل هذا الحادث كان موقف الخليفة قد تحول من مجرد المراقبه الى العــداء العلنى • وفى ٤ صــفر ١٣٠٤ (٢ نوفمبر ١٨٨٦) نبه على أبو عنجه بتحريض البــدو ضد صالح ومنعه من الوصــول الى أرض قبيلته • وبعد ذلك بشهرين أرسل المبعوثون بنداء أخير لصالح حتى يتوجه الى أم درمان • وعندما فشل هذا العرض أمر عبد الله بقيــة القبــائل بمقاطعة الكبابيش وعدم بيعهم القــوت اللازم لهم وهــدد من يخالف بالعقاب • ثم هاجمهم عثمان آدم حاكم كردفان ؛ ووضع الخليفة خطــة للهجــوم على بلادهم من الجنوب والشرق والشــمال على أن يتعاون أبو عنجه والنجومى فى تنفيذ ذلك • وقد جرى هــذا فى يناير سنة ١٨٨٧ واستمرت الاستعدادات حتى ابريل • وما حان ذلك الوقت حتى كان صالح قد كسب أنصارا كثيرين من مختلف القبائل المتنقلة التى أقسمت

على الاشتراك فى القتال ضـد المهـدية • وكان أبو عنجه على وشـك الرجوع مع جيشه الى أمدرمان وذلك بعد انتهائه من حملته فى جبال النوبا • فكلف عثمان آدم بتولى العمليات ضـد صالح ، مستخدما بعض قواته الخاصة من جنود المهدية تحت قيادة ضابطه سليمان أحمد أكرت ورجال قبيلة دار حامد ، الأعداء القدامى للكبابيش بقيـادة شيخهم سيماوى تمساح (١) ، وبدأت المطاردة وبرغم أن صالح قد قاوم بشـجاعة • فانه حوصر فى النهاية وقتل فى مايو ١٨٨٧

(٣) ثورة دارفور ــ يوسف ابراهيم وابو جميزة :

لم يكن دافع يوسف ابراهيم فى المسـاعدة التى قدمها فيما يتعلق بمطاردة ماديبو هو الاخلاص للمهدية باى حال بل التلهف الى احراج كرم الله من بلاده فى أقرب فرصة ممكنة حتى يستعيد فى شخصه سلطنه دارفور القديمة • وكانت قد وصلت للخليفة بالفعل دلالات على نيـات يوسف ــ فقد أحاط نفسه بحاشية من أعضاء الأسرة المـالكة والموظفين الفوراويين •

وفى جمادى الأولى سنة ١٣٠٤ (فبراير ١٨٨٧) كتب أبو عنجـه بأن مبعوثيه الذين أرسلهم بنـاء على أوامر الخليفـة كجواسيس عادوا يحملون معهم قصة مدارها أن يوسف أعاد النظام الادارى لدارفور الى ما كان عليه فى عهد أسلافه وأنه اتخذ لنفسه لقب سلطان • وفى تلك الأثناء اكتشف يوسف صعوبة ازاحة كرم الله وسرعان ما تدهورت العلاقة بين السلطتين الموجودتين فى دارفور • وشكا يوسف لأبو عنجه كما شـكا كرغساوى للخليفة •

ووقع الخليفة من جديد فى مأزق فلن يخـدم مصالحه لو استطاع أحد الفريقين الانفراد بالسيطرة الكاملة على هـذا الاقليم النـائى من

---

(١) قتل والد صالح كلا من والد سيماوى وعمه
وثائق القـاهرة Cairint 1/40/256 (D 31/1)
وعرف هو نفسه باسم جرايجر (Greiger.) وهو الاسم الذى اعتاد سلاطين اطلاقه عليه .

أملاكه • وفى البداية كان من الواضح أنه يخشى الدناقلة أكثر مما يخشى احتمال استقلال دارفور • وفى خطاب تاريخه ٢٤ جمادى الثانية ١٣٠٤ (٢٠ أغسطس ١٨٨٧) نجد تلخيصا واضحا للخطوات التى اتخذها أبو عنجة فى هذا الشأن ، مع موافقته الواضحة عليها ـ اذ شكا يوسف لأبو عنجة من أن كرم الله قد طلب ضرائب لا يستطيع الاقليم الوفاء بها بسبب ما أصابه من خراب على يد محمد خالد • وكان وكلاء كرم الله منتشرين فى كل مكان بينما لم تبق فى يد يوسف الا الفاشر • وقد أمر أبوعنجة كرم الله بالانسحاب وترك دارفور ليوسف باعتباره حاكما لها على أن يكتفى بمحاربة القبائل المعادية مثل الرزيقات • وأكد الخليفة هذه الاوامر وتم استدعاء الكرغساوية لأم درمان ولكنهم قابلوا هذا الاستدعاء بالتجاهل •

وفى صيف عام ١٨٨٧ أحس الخليفة بمدى خطورة يوسف المحتمله وذلك بعد أن بدت رغبته فى الحصول على الاستقلال وبعد امتناعه باصرار عن تلبية الدعوة للحضور الى أم درمان • ومع أن أبو عنجة ترك الغرب حينئذ الا أنه ترك هناك رجلا يمتاز بالاقتدار هو عثمان آدم الذى اشتهر باسم جانو وهو من التعايشة المقربين للخليفة وقد كلف بحكم كردفان • ومع صغر سنه (حوالى الـ ٢٠ تقريبا) الا أنه كان قد لفت الأنظار بفضل كفاءته واخلاصه منذ تعيينه فى الأبيض سنة ١٨٨٦ • ورأى فيه الخليفة أصلح من يستطيع القضاء على يوسف ابراهيم وكبح جماح كرغساوى الى أن يتم ابعادهم عن الغرب كما حدث بالنسبة الى سواهم من الدناقلة الأقوياء •

وبدأ الاعداد للحملة فى محرم عام ١٣٠٥ (سبتمبر ـ أكتوبر ١٨٨٧) حتى يمكن تجهيز كل شيء قبل بدء فصل الشتاء • وكان الهدف المباشر للحملة هو دارا التى طرد منها يوسف ، كرم الله كرغساوى • وكتب الخليفة الى الاخوة كرغساوى يأمرهم بالانضمام الى عثمان مع جميع رجالهم • وكان من المتوخى بالنسبة الى قوات عثمان أن تضم كل الفرق الكردفانية باستثناء حامية الأبيض •

وقد زود بمنشور يطالب رجال دارفور بطاعته كما زود بمنشورات أخرى للقبائل المختلفه على ان تداع عند وصوله الى دارفور • ويتضح لنـا شك الخليفـة فى الاخوة ترعساوى من خطاب يكلف عثمان ادم بضرورة ابلاغه عن اى بادرة من جانبهم لعدم التعاون ـــ وفى هده الحاله خولت تولى قيـادة قواتهم • وفى النهـايه نجد ان عبد الله يخلع على عثمان سلطات مطلقة وذلك فى ١٤ صفر (اول نوفمبر) •

وبارح عثمان آدم الابيض فى ٢٢ محرم ١٣٠٥ (١٠ اكتوبر ١٨٨٧) وتقـدم عن طريق الاضية : نقطة تجمع قواته ، الى شكا • وهناك التقى بمحمد كرغساوى الذى سلم قواته • اما كرم الله فلم يعد يثير مشـكله بعد أن هاجمه الرزيقات وكبدوه خسائر فادحة • ومن شكا تقـدم عثمان آدم نحـو دارا ـــ وقد ذكر أن تعـداد قواته قد بلغ ١٧١٥٩ رجـلا • واشتبك فى ثلاث معارك مع الفور ترتب على الثالثة منها سقوط دارا فى يده وذلك فى ١١ ربيع الثانى ١٣٠٥ (٢٧/١٢/١٨٨٧) • وحينئذ جمع يوسف ابراهيم قواته ليدخل بهـا فى جـولة ختاميـة مع عثمان • وامتنع يوسف نفسه عن مصاحبة الحملة التى لاقت الهزيمة وهرب هو الى الملجا التقليدى لأسرته ، وهو تلال جبل مرة • وفى ١١ جمادى الأولى ١٣٠٥ (٢٥ يناير ١٨٨٨) سلمت الفاشر بعد معركة أخرى ـــ وكان الخليفة قد أرسل مرسوما تضمن خلع يوسف وتعيين عثمان عاملا عموميا للأقاليم الغربية ، وحينئذ نشر هـذا القرار • واتخذ عثمان من الفـاشر مركزا لقيادته العـامة • وفى رجب ١٣٠٥ (مارس ١٨٨٨) أرسل رأس يوسف ابراهيم الى أم درمان ، وكان قد لقى مصرعه على يد قوة أرسلت تحت قيـادة الخاتم موسى أحد كبار ضباط عثمان وخلفه أخوه أبو الخيرات آخر سلاطنة دارفور الاسميين •

ولم تكن هزيمـة الفـور وتفككهم دليـلا على انتهـاء نزعاتهم الانفصالية ـــ فقـد أمكن لهم فى عام ١٨٨٨ الافادة من عوامل السخط للقيام بحركة جعلت القضاء على المهدية فى الغرب أمرا محتملا • فالى جانب دارفور وجد عدد من السلطنات الصغيرة منها دار تامة ، ودار المساليط

وغيرها من الامارات التى أصبح استقلالها مهدداً بعد أن كشف سقوط يوسف ابراهيم عن قدرة المهدية على مواصلة الهجوم والتوسع وكان من المحتمل القضاء على هذه السلطنات والفور لولا الظهور المفاجىء لاحدى الشخصيات التى وحدتهم فى العمل ضد الانصار بضعة أشهر • ويصف خطاب بعثه عثمان آدم للخليفة فى ٢٩ محرم ١٣٠٦ (٥ أكتوبر ١٨٨٨) القائد الجديد بقوله « يقال ان الرجل الذى يدعى خلافه السنوسى أمضى بعض حياته مع العرب المهريه • وقد كتب أحجبة للنسوة والاطفال وما شابه ذلك • وعندما جاءت قوات المهدية جاء معها وكان يقف فوق محفه ممسكا بقبضة من التراب يقذف بها الانصار ثم هرب مع الاخرين وذهب الى تامة وعاش فى القفار • وعندما جاء الانصار وقبضوا على السلطان ذهب الى أبنائه المضطربين وادعى أمامهم انه أرسل لهم من طرف ابن السنوسى لكى يقضى على الانصار وطلب منهم حمل سلاحهم وتنبأ لهم فى حالة محاربتهم للانصار بافنائهم جميعا فلا تقوم لهم بعد ذلك قائمه • كما قال « ان الريح قد قذفت بى اليكم » • وبدأ يعمل لهم رقى وأحجبة • ولا يعرف اسمه ولا قبيلته أومكان نشأته [١] •

وبعد بضعة أيام وصف جاسوس آخر لعثمان القائد الجديد ، بأنه (أى أبو جميزة) شاب أمرد داكن البشرة ، وأصله غير معروف لدى أتباعه الذين يعتقدون أنه خرج من شجرة جميز ولكن لون بشرته ولهجته يدلان على أنه ينتسب الى قبيلة قرعان •

وقد أحيط هذا الرجل باستمرار بجو أسطورى غامض ويبدو أنه « فقى » أدعى قوة سحرية وأكد أنه خليفة محمد المهدى بن السنوسى الذى كان له نفوذ كبير بين قبائل غربى دارفور • ومن هنا نجده يدعى بأنه أحق بخلافة عثمان الشاغرة التى كان المهدى قد عرضها على السنوسى ولا شك أنه كان يسعى باتخاذ هذه الخطوة الى الحصول على مساندة المهديين المنشقين الذين اعترضوا على زعامة عبد الله •

---

(١) وثائق المهدية ١/١٢ ، ٣ ، ٢٣٥ .

وقد بالغت الأقاويل السودانية فى ذلك الوقت وهى الأقاويل التى نقلت الى المخابرات العسكرية المصرية فى هذه القصة • ولما كان هذا المتمرد يدعى بخلافة عثمان فقد اقترن بالرجل الذى عرضت عليه هذه الخلافة فى الأصل ومن ثم انتشرت الشائعات بأن محمد المهدى بن السنوسى ذاته كان فى طريقه الى أم درمان •

وسرعان ما اكتسب أبو جميزة وهو الاسم الذى أطلق على هذا الزعيم المناهض للمهدية — عددا كبيرا من المؤيدين بما فى ذلك بعض رجال قبيلة المساليط التى بدأت المهدية تمارس الضغط عليها وحجاج مكة الذين وجدوا أن النظام الجديد فى السودان قد اعترض طريقهم ، والفور الساخطون بزعامة أبو الخيرات • وعندما تقدم الى دار تامة أوقع بقوة مهدية هزيمة فادحة فى محرم ١٣٠٦ (١٨٨٨) • وتراجع الأنصار الى كبكابية حيث أمدهم عثمان آدم بجيش جديدبقوده محمدبشارة أحدكبار ضباطه • وقدر تعداد قوة الأنصار الاجمالية فى كبكابية بنحو ١٦٢٥٣ منهم ٣٠٩٤ مزودون بالأسلحة النارية ، ١٨٢٧ من الخيالة و ١١٣٣٢ من المسلحين بالحراب • وعندما خشى محمد بشارة من هبوط معنويات رجاله اذا بقوا فى كبكابية تحرك غربا فى ٢٠ صفر (٢٦ أكتوبر) وهاجم دار المساليط حيث عزم على اتخاذها مركزا لقيادته وهناك أصيب بكارثة فادحة • ويبدو أنه وجد صعوبة فى الحصول على معلومات عن أبو جميزة الذى هاجمه بجيش اشتركت فيه قبائل مختلفة فى ٧ ربيع الأول (١١ نوفمبر) وكانت هذه الهزيمة — كما أبلغ عثمان آدم الخليفة — أسوأ من سابقتها •وحاول الأنصار المحاصرون والمكدودون شق طريقهم للعودة الى كبكابية ولكنهم وجدوا المعسكر مهجورا — اذ أن الحامية التى تركها محمد بشارة كانت قد ولت الأدبار الى الفاشر •

ووجد عثمان آدم نفسه فى مأزق خطير جدا — فقد استولى العدو على معظم ذخيرة الحملة فضلا عما استهلك منها خلال المعركة • وكانت الخسائر ثقيلة كما امتلأت الفاشر بقوات منهارة معنويا • وبرغم أن الحاكم الشاب توقع ثورة علنية تقوم بها القبائل العربية وغير العربية

فى جميع أنحاء دارفور ، الا أنه لم يفقد رباطة جأشه بل انه استعرض قواته خارج المدينة وأعلن عزمه على التقدم غربا • وتوقع أن يخطر أبو جميزة بعزمه‌هذا مما يتيح له فرصة سكون‌تستعيد فيها قواته‌روحها المعنويه‌وتصل فيها الامدادات من شكا ولكن الموقف كان صعبا • وفى ٢٦ ربيع الأول (٣٠ نوفمبر) كتب مبلغا الخليفة بأن الثورة أصبحت عامة فى دارفور وأنه لابد من اعادة فتح كل الأقاليم من جديد • وأبلغ سليمان أحمد أكرت عن أحداث الرزيقات وكيف أنهم ثاروا ثانية وأن بعثة من شيوخ البقارة ولت الأدبار ولم يعثر لها على أثر فى ذات الوقت الذى وصلت فيه أنباء الى الفاشر عن هزيمة محمد بشارة • وكانت القوات الموجودة فى الفاشر فى ذلك الوقت تضم ٥٦٦٥ من حاملى البنادق و ٢٦٨٢ خيالة ، ١٤٢٢٠ من المسلحين بالحراب •

ومن حسن حظ عثمان أن أبو جميزة لم يتعجل التقدم وقيل أن أتباعه رفضوا القتال خارج أراضيهم القبلية وبدأ أتباعه يفقدون حماسهم ويتسربون الى بيوتهم • وبالاضافة الى هذا كانت تعزيزات الأنصار تشق طريقها • وبوصول سليمان أحمد أكرت بلغ تعداد الجيش ٣٦٤١٩ • وفى ١٠ جمادى الأولى١٣٠١ (١٢يناير١٨٨٩) وصل أخيرا الى الفاشرجيش يقوده أحمد فضيل كان قد غادر أم درمان منذ عام كامل تقريبا • وتحركت الأحداث بعد ذلك بسرعة • اذ تقدم الثوار نحو الفاشر وان لم يصحبهم أبو جميزة ، فقد توفى فى دار المساليط وانتقلت القيادة الى أخيه ساغة •

وفى ٢١ جمادى الثانية (٢٢ فبراير) التحم الجيشان خارج الفاشر وكان قتالهما فى ذلك اليوم مريرا وتأكد فى نهايته فوز الأنصار وقتل ساغة فى القتال ، كما هرب أبو الخيرات ثانية الى جبل مره حيث قتله عبيدة بعد ذلك بعامين •

(٤) السياسة القبلية فى الغرب :

فكر الخليفة خلال حكم عثمان آدم للغرب فى اللجوء الى سياسة تؤدى الى تقليل قوة قبائل البقارة المتمردة أو اضعافها • وأدى القضاء على ماديبو بعد ثورته الى ازاحة خطر شيوخ القبائل الكبار • وبناء

عليه استقرت سياسة عبد الله على أسس ثلاث . الاطاحة بشيوخ القبائل الوراثيين التقليديين ، وتهجير القبائل المشكوك فى ولائها للمهدية الى أم درمان ، واستغلال الخلافات القديمة بين القبائل لاضعافها . وكان المظهر الأخير لتلك السياسة هو اللجوء الى طريقة فعالة واقتصادية لاخضاع القبائل ، أى بالعودة الى الأساليب القديمة التى كان يلجأ اليها الحكم المصرى مما كان يناقض أخلاقيات المهدية (١) .

ويمكن أن نجد مثالا لاستبدال الشخص الذى عينه عبد الله ، بالسلطات القبلية المقررة فى منشور للمسيرية جاء فيه . « ... بدافع حبنا وعطفنا عليكم كتبنا لكم المنشورات لكى تجيبوا داعى الله وتهاجروا فى معية ابراهيم صابون الذى جاءكم من عندنا لهذا الغرض ... ويجب عليكم ألا تنصتوا للزعماء المذنبين ... والشيوخ الذين سيطروا عليكم فى عهد الترك لكى يجمعوا الضرائب ... ولو اتبعتم كلماتهم سيوقع بكم دون شك عقاب شديد فى هذه الدنيا والآخرة ، فسوف تخرب أرضكم وتسبى نساؤكم وتنهب ثرواتكم ويسبى بنوكم لأن يد المهدية مبسوطة فوقكم أما عن معارضة زعمائكم المشار اليهم للدين وفشلهم فى اتباع المهدية فقد قررنا عزلهم واتخذنا من الرجل المحترم ابراهيم صابون عاملا على جميع المسيرية (٢) .

على أن مثل هذه التعيينات لم تحتو على ضمانات لأن تقبلها القبائل المعنية ولكى يفرض الخليفة ارادته على المعارضين لجأ كثيرا الى الهجرة التى أصبحت حينئذ تنفذ عن طريق الزيارة الاجبارية لقبيلة أو أشخاص بارزين لأم درمان حيث يصبحون تحت رقابة الخليفة ومعرضين لدعاية لا تنقطع . وكان المهاجرون فى أم درمان بمثابة رهائن فى الواقع وكان بامكان الأشخاص أن ينالوا شرفا مشكوكا فيه (وعد به كرم الله

---

(١) على ان هذه السياسة قد نفذت فى حياة المهدى ضد الحوازمة الذين اعلن انهم قد نقضوا ميثاقهم مع المهدى ، ربما لأنهم لم يشتركوا فى الجهاد ضد الخرطوم . وتوجد مسودة خطاب كتبه الخليفة وهاجمهم فيه فى المهدية / ٣١/٢ ، ٥/١ بتاريخ شوال ١٣٠١ (يولية — أغسطس ١٨٨٤) .

(٢) نفس المصدر ، ٣١/٢ — وثيقة جارى ترميمها .

ومنح لسلاطين) هو اعتبارهم « ملازمين » بالباب الشريف ويتطلب ذلك الشرف ممن وقع عليه الاختيار ملازمة الخليفة والمسجد فى كثير من الأوقات . وكان من الممكن أن يستمر انتزاع القبائل من مواطنها اما لفصل واحد كما حدث فى أكثر من مناسبة ، وأحيانا ما كان النقل المستمر لجماعات خطيرة بوجه خاص موضع اعتبار . وتأيدت سياسة الهجرة الاجبارية أو الاقتلاع فى منشور الشعرة .

وكان من طموحات عبد الله منذ وقت طويل أن يطبق هذه السياسة على التعايشة وغيرهم من البقارة . وكان قد فكر فى تحقيقها خلال حياة المهدي عندما كان محمد خالد حاكما لدارفور ولكن نجاحه فى تحقيق ذلك كان محدودا . وأدى استبعاد محمد خالد وامتداد سلطة عثمان آدم الى دارفور الى اعطائه فرصة جديدة . وقد أسيء فهم الدافع الذى جعل الخليفة يستدعى البقارة ، ويبدو أن هدفه لم يكن اغراق أقاربه البدويين فى خيرات الأقاليم النيلية بقدر ما كان يرغب فى وضع قبائل ، يعرف هو مدى ميلها للفوضى تحت رقابته . ومن المشكوك فيه ما اذا كان وجودها فى أم درمان قد أدى الى زيادة تأمينه ، فالتعايشة عديمو النظام والذين تصعب السيطرة عليهم لم يشكلوا أداة يركن اليها عند نشوب أزمة . وهو ما أوضحته سياسة الخليفة ازاءهم فيما بعد . وعندما تم استدعاؤهم لأم درمان قدمت لهم الرشوة لترغيبهم فى البقاء .. بمعاملتهم معاملة خاصة وعدم التضييق عليهم . ولكن هذا الوضع المفضل الذى تمتعوا به قد منح لهم من قبيل السياسة والعجز لا حبا فيهم .

فمن الخطأ الاعتقاد بأن التعايشة جاءوا مغتبطين الى أم درمان (١) كما يحدث عندما يدخل أبناء الصحراء المتجولون الى أرض خضراء تفيض لبنا وعسلا . ومن الخطأ أيضا الظن بأن بقاءهم فى العاصمة كان استقرارا أقدموا عليه بمحض اختيارهم . فان تتبع استدعاءاتهم

---

(١) مما يثبت ذلك الوثيقة التى بعث بها الخليفة الى عثمان آدم وجاء فيها امره اياه « بالبحث عن الفارين وارجاعهم الى أم درمان بالشعبة والجنزير مع المحافظة القوية» نعوم شقير طبعة بيروت ص١١٣٩ (المترجم) .

يكشف عن عكس ذلك . ففى ١٦ ربيع الثانى ١٣٠٥ هـ (أول ينـاير ١٨٨٨) أرسل الخليفـة الى عثمان آدم طالبا منه ارسال جميـع العرب المشكوك فى ولائهم الى أم درمان قبل مغادرته دارفور . وخص بالذكر قبائل البقارة الثلاث : الرزيقات والهبانية والتعايشة . وقد سبق استدعاء هذه القبائل لمركز قيادته بينما كان فى شكا ولكن التعايشة أحدثوا شغبا ولم يستسغ زعيم التعايشة الوراثى الغزالى أحمد خواف ارتقاء ابن عراف القبيلة للسلطة العامة ، ومن ثم قتل فى الشهر التالى الرسل الذين جاؤوه من قبل عثمان آدم ومعهم عهود بالأمان .

وعنـدما أبلغ عبد الله بهـذا التمـرد كتب فى ٢٠ جمادى الثانية (٣ مارس) لعثمان مزودا اياه بخطابات للتعايشة على أن يتم توزيعها عند الحاجة . ووجه أحد هذه الخطابات للقبيلة بصفة عامة وشيوخها بصـفه خاصة . وهى تبلغهم عفوه عن أخطائهم السابقة اذا انضموا فورا لعثمان آدم . أما الغزالى فتقرر عزله من زعامته حيث أنه حنث بيمينه وكان على التعايشة أن يعزلوه فهو وأتباعه أعداء للمهدية . ووجهت رسالة أخـرى للغزالى ذاته ذكـر فيها بزيارته للخليفـة فى الأبيض وحلفه يمين الولاء للمهدى . وعرف حينئذ أنه حنث بيمينه وولى الأدبار بعد مهاجمة رجال قبيلته ذاتها الذين عاونوا المهدية وأمر بالتوجه الى عثمان آدم مع اعطائه الأمان ، وأكد له بأنه اذا لم ينفذ هـذا فسيتم القبض عليه ووضعه فى السجن . والخطاب الثالث لشخص اسمه صالح حوا ــ ومن الواضح أنه قائد التعايشة الذين خضعوا لعثمان . وقد صدرت اليه التعليمات بالقبض على الغزالى وأنصاره والانضمام بجميع قواته الى عثمان .

ويبدو أن الخليفة استنفذ صبره سريعا ففى ١٢ رجب (٢٥ مارس) أرسل لعثمان آدم انذارا تجرى اذاعته فى شـتى أنحاء بلاد التعايشة على أن يتم القضاء على القبيلة اذا ما كانت لا تزال ترفض المجىء . وبعـد القضاء على حركة الفور كان على عثمان أن يقـوم بتكوين جيش قبلى لاستخدامه ضدهم . وهكذا كان استغلال الخلافات الموجودة بين البقارة نوعا من السياسـة . فكان من المتوخى تخـريب أرض التعايشة ووقف

زراعاتهم حتى يضطروا للاذعان عن جوع • والانذار الذى اشتمل على هذه التعليمات القاسية يمثل قطعة طويلة من السب والقذف (١) وقد وجه الانذار الى جميع التعايشة بوجه عام وقلاده بيتا بيتا وفرعا فرعا ورجلا رجلا كبيرا وصغيرا وبدأ بذكر رسالة المهدى الالهية وسعادة من يلبى الدعوة والعقوبات التى تنتظر الكفرة . ولوم التعايشة لفشلهم فى تلبية استدعاءات الخليفة المتكررة بالانضمام الى سلك المهدية وعثمان آدم • ويلحق ذلك بقوله لو كان ذلك بسبب انكاركم للمهدية فقد خرجتم على الاسلام وأصبحتم كفارا (حمانا الله من هذه الحالة) ولو كان ذلك لعدم ايمانكم بوعد الله واخترتم العمى على المهدى فان شاء الله فان ما أصاب الكفار والضالين فى القديم والحاضر سيصيبكم • واذا كان ذلك لأنكم ترون أنفسكم أكبر من أن تتبعونا وتحسدونا على ما ترون وتتمنون فعل مثله ــ أفلا تعلمون أن القوة الالهية تزين ما تأتى به ومصيره الزوال وأن الله يضع سره فى أضعف خلقه ؟ » •

ثم ينتقل عبد الله الى تهديد رجال قبيلته بالخراب والدمار « فان كان لديكم القوة على محاربة المهدية فاستعدوا اذن وسوف لا يفيدكم ذلك لأنكم ضعاف وليس لكم قوة وأنتم رأيتم ما فعلته المهدية لمن هم أقوى وأكثر عددا وأكثر ثروة منكم فما الذى تستطيعونه مع قلة عددكم وضعفكم وقلة حيلتكم ؟ » •

وهذا هو الانذار الأخير الذى يجرى ارساله ــ وعلى التعايشة عند استلامهم اياه أن ينضموا الى عثمان آدم بدون تأخير والا كان عليهم أن ينتظروا العقاب الذى تأجل طويلا • فاذا ما استسلموا حصلوا على الأمان لأنفسهم وجميع أملاكهم ولن يجدوا الا ما يسرهم •

« ولكن اذا اعتزمتم المماطلة فى ترك دياركم وكانت أموالكم وأولادكم ودياركم أعز عليكم من الله ورسوله والجهاد فى سبيله فان الله أكبر عليكم ، الله أكبر عليكم ، الله أكبر عليكم(٢) • واستعدوا لقتال الله

---

(١) المهدية ٣١/٢ ، ٥ ، ١٥٠ عريج وقلادة هما عشيرتا التعايشة .
(٢) هذا هو الترديد الثلاثى لصيحة الحرب المهدوية .

ورسوله أينما تولون وجوهكم فى الأرض فان قوة الله تحيط بكم وأغلال القوة على أعناقكم » .

وحمل عبد الله شيوخ التعايشة وزر سلوك قبيلتهم ... « ان ذنبكم وذنب كل من معكم الكبار والضعاف النسوة والأطفال والمرضى معلقة بأعناقكم وسيحاسبكم الله عليها يوم القيامة ، ويستمر عبد الله فى رسالته منذرا اياهم بعجزهم عن مقاومة الأنصار فى القتال « ان المخرج الوحيد أمامكم هو الهرب والتفرق فى البلاد فهل تهربون وحدكم وتتركون النساء والأطفال والكهول والأرامل واليتامى والعجزة لأنكم شيوخهم وزعماءهم وهربكم وحدكم وتركهم أمر لا يليق باستغلالكم لهم طويلا اذن فما دام هؤلاء الأفراد الضعاف ينتمون اليكم ويعملون لحسابكم فأنتم مسئولون عن أخذهم معكم فى صحبتكم وحملهم معكم . ومن ليس له ثور يركبه عليكم باعطائه واحدا ليحمله وأولاده (١) . ومن ليس له حمار تعطوه واحدا ومن ليس له بقرة تعطوه بقرة لتحمله وأطفاله . لا تتركوهم فى الديار لكى لا يحيق بهم غضب جنود الله وسخطهم لأنكم أنتم الذين احتجزتموهم طوال هذه المدة مبعدين اياهم عن طريق الهدى . ومن ثم فان هربكم بأنفسكم وترككم اياهم من ورائكم سيكون عارا يلحق بكم بين القبائل وأيضا ستسألون عنهم فى يوم القيامة بين يدى الله ... والمهدية باذن الله ستأخذكم جميعا . ولن ينقذكم من يدها البعد فى المسافات أو التفرق فى الأرض لأنه لا يمكن لأى منتصر أن ينتصر على الله ولا يستطيع هارب أن ينجو منه وما علينا الا البلاغ وأنتم بالخيار بين سلوك طريق الجنة أو النار والسلام » .

وقد اتبع عثمان آدم الخطة التى وضعها عبد الله ـ فبعث بالانذار الى التعايشة وبدأ يعد قوة قبلية ليقاتلهم بها . ونجحت سياسته فى اخضاع القبيلة . وفى ١٧ رمضان (٢٨ مايو) أبلغ الخليفة أن الغزالى وغيره من الزعماء سلموا أنفسهم للحملة . ونبه عليه عبد الله بمعاملة التعايشة معاملة طيبة وارسالهم لأم درمان . وتقرر اعتبار أملاكهم فيئا

(١) درج البقارة على استعمال الثيران باعتبارها دوابا للحمل .

ومن ثم تصادر لحساب الخليفة . ولكن عثمان أمر باستخدامها فى تعجيل رحيلهم . وخاب أمل القوات القبلية التى عبأها أو التى عاونته ضــدهم فيما طمعت فيه من غنائم . وفى ٦ شوال (١٦ يونيو) تقــدم التعايشه لعثمان آدم بالمئات وبنـــاء عليه قسموا الى جماعات فى طريقهم الطــويل الى النيل الأبيض (١) . أما وصف الترتيبات التى أعدت لاستقبالهم فى مهجرهم فيتضمنها خطاب أرسله الخليفة الى أبو عنجة فى ٢٩ ربيع الثانى ١٣٠٦ هـ (٢ يناير ١٨٨٩) .

وببركة الله وصل أقرباؤنا منذ بعض الوقت الى بارا . ومن هنـــا (أم درمان) قررنا تعيين بعض الأخوة ، عبد الباقى عبد الوكيل ، السنوسى ومحمد عثمان خالد لتيسير ترحيلهم وأرسلنا الزاكى عثمان ليبعث بدواب كافية لنقل رجال عبد الباقى .. الآن نحمد الله لأن أول الأقارب وصــل الى « شاباشا » ومنها سيتم ترحيلهم الينا بالبــواخر . والبواخر على استعداد لاحضارهم فــور وصـــولهم وباذن الله سيصلون قريبــا الى العاصـــمة (٢) .

وسنعرض فيما يلى الدور الذى لعبه التعايشة فى السنوات الأخيرة من حكم عبد الله . فمغادرتهم لدارفور لم تنه الاضطرابات القبلية فى ذلك الاقاليم فقد آثار تمرد أبو جميزة موجة جديدة من التمرد القبـــلى واحتاج عثمان آدم بعد انتهاء معركة الفاشر الى العــودة من جديد الى تهـــدئة

---

(١) كتب الخليفــة الى ابى عنجة ايضــا بتاريخ ٨ محرم ١٣٠٦ هـ معبرا عن رضـــاه لهجرة الوف من التعايشة والرزيقات والهبانية والحمر وغيرهم ما يلى « بعد السلام نعلمك انه بحمد الله قد انتهى امر التعايشـــة فحضروا من بلادهم بأكملهم والآن قاموا من الفاشر وأولهم قد وصل جبل الحلة وهم كثار حتى لقد يبلغون من عائلة المجاهد نحو ٦٠ الفا وكون ذلك مما يزيد المسرة فى الدين حررنا لك هذا ثم ان الهبانية حاضرون جميعهم بعد التعايشة بواسطة المكرم عثمان آدم ومن بعدهم يحضر قبائل متفرقة من اهالى الناقة واخلافهم رزيقات وغيرهم نســـاء ورجال والله ينصر الدين ويخذل الكافرين » .

نعوم شقير : تاريخ الســودان وجغرافيته طبعة بيروت ص ١١٣٩ (المترجم) .

(٢) مهدية ١/٢٦ ، ١/٦ ، ١/٤٤٧ .

القبائل • وبعد تلك الواقعة بقليل أرسل عثمان الى جميع الأنحاء والاقاليم مقـدما ضمانات الأمان • ولكن القبائل ماطلت فى أمر المجىء اليه ومن ثم بدأ يعد لحركة عسكرية ضدهم وكان بنى هلبة نواة حركة العصيان بين العرب ، بينما اثبت الفور حول جبل مرة — كما كان الحـال دائما معهم — أنه لا سبيل اليهم • وفى ٢٩ رجب ١٣٠٦ (٣١ مارس ١٨٨٩) كان عثمان فى طريقه لاخضاع بنى هلبة وكتب بأن تعداد قواته ١٧٧٢٢ رجل يحمل ٦٤٠٩ منهم أسلحة نارية وبينهم ١٨٧١ من الفرسان • وجرى الهجوم على بنى هلبة والفور وفى شوال (يونيو) أرسلت حملة لمطاردة بعض التعايشة الذى هربوا من أم درمان فى طريقهم الى بلادهم •

وحينئذ أدرك عثمان آدم أنه لا سبيل للاحتفاظ بدارفور الا بالعدول عن سياسة الغزو والارهاب واستبدالها بالحكومة المستقرة • وبناء عليه عقد اجتماع قبلى كبير فى دارا • وأرسلت الخطابات للقبائل تعرض عليها ضمانات الأمان وجاء كثيرون من العرب وغيرهم لمقابلة الحاكم •

ولمـا كان موسم المطر قد أقبل وكان لابد من تفرقهم سريعا حتى يبدأوا الزراعة عين عثمان ضابطا من الأنصار للاشراف عليهم • « ليعملوا فى الاشراف عليهم ولفحص أحوالهم ليلا ونهارا ، ولاعطائهم أوامر بزراعة الأرض وليؤدوا الصلاة والراتب » (١) وجرى اختيار شخص لكل قبيلة فيما عدا القبائل كثيرة العدد • وطمع عثمان فى نشر هذا النظام بالتدريج فى المناطق الجنوبية • وأمر الضباط بالاقامة بين ظهرانى القبائل وحذرهم من الاستيلاء على أى شىء منهم باستثناء الضريبة الشرعية التى تحصل فى وقت الحصاد • وأعيد ما نهبه الأنصار الى أصحابه • وفى ٢٤ شـوال (٢٣ يونيو) لخص عثمان آدم نتائج عملية التهدئة بما ذكره من اعادة النظام فى منطقة الفاشر ودارا والتويشة وجبل ميدوب وفى مناطق أخرى كانت الفرق التأديبية تمارس عملها وأبدى معظم سكان الجنوب خضوعهم بينما أبدت القبائل الشمالية خضوعها لأحد معارضى عثمان •

---

(١) الراتب هو مجموعة من الآيات والاحاديث والادعية كلف المهدى انصاره بقراءتها يوميا .

الفصل الثامن

الدولة المهدية المحاربة

٢ ـ المناطق الشرقية

١ ـ توطيد الحكم المهدوى فى المناطق الشرقية :

اشتملت المناطق الشرقية للدولة المهدية على ثلاثة قطاعات لكل منها تاريخ سياسى وعسكرى مستقل الى حد كبير • وتركز القطاع الشمالى حول سواكن حيث كان القتال بمثابة مبارزة طويلة المدى بين عثمان دقنه والقوات المصرية الانجليزية • وقد سبق ان عرضنا للمرحلة الأولى من هذه المبارزة وسنعرض فى فصل تال الى مراحلها الأخرى • وفى القطاع الأوسط كانت كسلا نقطة الارتكاز بالنسبة الى المقاومة المصرية وعندما سقطت هذه البلدة فى أيدى المهديين تحولت الى قلعة تصدت للأحباش ثم للايطاليين وحمت السودان من الهجمات التى وجهت اليه مما يعرف الآن باقليم أرتريا . وقد امتد القطاع الجنوبى ما بين أعالى نهر العطبرة وأعالى النيل الازرق حيث وجدت ثلاث مراكز هامة هى القضارف أو سوق أبو سن وهى مركز الشكرية وسوقها الرئيسى والقلابات (١) والجيرة وهذه المدن كانت تمثل مدن الحاميات فى شمال المنطقة وجنوبها •

وقد بدأ حصار مصطفى على هدل لكسلا فى شهر نوفمبر ١٨٨٣ واستمر ٢٠ شهرا • وقد تصدت الحامية ــ تحت قيادة حاكمها أحمد بك عفت ــ لقوة المهدية التى تفوقها كثيرا ، بشجاعة ولمدة طويلة • وأدى وجود مركز الميرغنية فى بلدة الختمية المجاورة الى تعزيز قوة خصوم المهدية كما لعب بطانة سيد محمد عثمان الميرغنى الثانى وأتباعه دورهم فى القتال • ولكن كما هو الحال بالنسبة الى بقية المراكز المصرية المحصنة فى

---

(١) عرف الاقليم باسم اقليم القلابات . كما أطلق على المدينة الرئيسية اسم المتمة .

السودان استهلكت قوة الفرق الحكومية تدريجيا بسبب نقص الامدادات بينما ازداد الأنصار قسوة • وفى شعبان ١٣٠٢ (مايو ١٨٨٥) تم إخلاء بلدة الختمية التى نهبها بعد ذلك مباشرة المتمردون •

أما مراكز القطاع الجنوبى فلها قصة مختلفة • فلم تكن بالقضارف الا قوة تقوم على غير النظاميين الذين يعسكرون بها وكانت فى الأصل مركزا تجاريا وبها كان يزرع الدخان تحت اشراف الاوربيين وبقى راس قبيلة الشكرية ، القبيلة البارزة فى المنطقة ، وهو الشيخ عوض الكريم أحمد أبو سن على ولائه التام لحكومة مصر • ولكن ابنه عبد الله عوض الكريم انضم للمهدى وتولى زعامة أبناء القبيلة الذين انضموا للمهدية فى تلك الآونة • وقد استسلمت القضارف تلبية لنداءاته فى ابريل ١٨٨٤ • وحينئذ أرسل الأنصار كتابا للقلابات يدعونها فيه ايضا للانضمام للمهدية • وكانت القلابات سوقا هاما للتجارة مع الحبشة كما كانت مركزا لجاليه التكارير فى السودان • وكان المسئول المحلى بها من قبل الحكم المصرى شخص يدعى صالح بك ادريس أو صالح شنقة وهو من التكارير البارزين وله أتباع يزيدون على الأربعة آلاف من الرقيق يحملون السلاح النارى للمحاربة فى صفه حين ينشب القتال ويفلحون أراضيه فى وقت السلام • وبالاستعانة بهؤلاء بعد تعزيزهم برجال قبيلته وقوات الحكومة، استطاع مواجهة الثورات المحلية الصغيرة فى أوائل المهدية • ولكن مع سقوط القضارف تعرض مركزه للحرج وعندما تسلم الدعوة التى أتته من شيوخ الأنصار طلب مهلة قدرها ثلاثة أشهر مدعيا أنه فى حاجة الى وقت طويل لاقناع قواته بضرورة التسليم . وفى تلك الآونة كتب لأحمد عفت وغوردون طالبا العون والمساعدة ولم يكن أيهما طبعا فى موقف يسمح له بذلك • واستؤنف القتال الجدى فى أواخر ١٨٨٤ واستطاع صالح أن يصمد ، وفى نوفمبر ساعدته قوات حبشية • بينما تعرضت حامية الجيرة على نهر ستيت فى هذه الفترة لهجمات مماثلة من الشكرية وغيرها من القبائل •

وفى تلك الأثناء سعت السلطات الانجليزية والمصرية الى سحب حامياتها وأبرمت معاهدة فى يونيو ١٨٨٤ مع الملك جون ملك الحبشة سمحت له باستعادة منطقة الحدود (التى تعرف الآن باسم ارتريا) • وكان قد سبق اقتطاعها منه لحساب مصر بشرط أن يساهم فى تسهيل انسحاب حاميات الحدود • وبناء على هذه الاتفاقية أرسل ضابط مصرى ؛ سعد رفعت ؛ من قبل الحاكم البريطانى لشواطىء البحر الأحمر لاستدعاء القوات من القلابات — وقد ضم رفعت مغامراته فيما بعد فى تقرير شيق يتصف بالتواضع (١) • ففى صحبة ٢٥ من غير النظاميين شق طريقه الى أسمرة • ومن هناك كتب لملك الحبشة الذى أرسل له حرسا لمرافقته الى عدوة • وهنا نشأت صعوبة — اذ لم يكن سعد مزودا بهدايا للملك واضطر لشرائها من جيبه الخاص وان اعترف بأن الحكومة عوضته عنها فيما بعد — وتحرك سعد ثانية فى ٢٣ أغسطس ١٨٨٤ مزودا بقوة من الأحباش ليرفع الحصار عن القلابات واتخذ طريق اكسوم فعبر تاكازى الى غندار ومن هناك أوصله الطريق الى أطراف القلابات • وقد أحرز الأحباش الذين انضمت اليهم قوات صالح بك انتصارا على الأنصار وسلمت المؤن الحكومية للحامية لقائد الأحباش وبدأت القوات المصرية تحركها مع عائلاتها فى طريق العودة الى الشاطىء •

ولم يتم ذلك بسهولة ؛ فقد دبر صالح ادريس ابلا وبغالا لنقل الحرس ونبه على زعماء الأقاليم الحبشية باعداد أدوات لركوب النسوة والأطفال • وتولى الجنود حمل زملائهم المرضى العاجزين عن السير على نقالات • وفى الطريق الى غندار رفض أحد الزعماء الحبش غير الموالين امداد اللاجئين بالمؤن • ومن ثم اضطروا للبقاء فى اقليمه أحد عشر يوما اقتاتوا فيها على الفاكهة والنبات البرى • وأرسل سعد الى الملك جون شاكيا تلك المعاملة ولم يعطهم الزعيم ما احتاجوا اليه الا أخيرا وبعد أن وصل رد الملك • وبينما كانوا فى غندار دعى سعد لمقابلة الملك بعد أن نبه عليه بالاستغناء عن الادلاء ودواب النقل الخاصة بحرسه • وأبلغ بأنه

---

(١) تقرير رفعت Report RifIat

ليس من حقه طلب المؤن والرجال والدواب له ، فالمعاهدة لم تنص الا على حق المرور بأمان فى الحبشة وكان معنى تنفيذ هذه التعليمات جعل مهمة سعد فى حيز الاستحالة • ولهذا سعى الى مقابلة الملك وقدم له احتجاجا على ذلك وختم احتجاجه بالاشـارة الى أن تقاريره ستنشر فى الصحف وتقرأ فى أوربا وغيرها « وأن هذا العمل لا يتفق مع كرم الملوك وانى اذا لم أجد مساعدة فانى أفضل الانتحار على أن أرى مهمتى تفشل • وقـد كوفىء سعد على تصرفه الجـرىء ، اذ ألغى الملك جون تعليماته وأعيد التصريح بامداد البعثة بما تحتاجه • وبرغم ما أحاط بما تبقى من الرحلة من صعوبات ومخاطر الا أن اللاجئين تقدموا بشجاعة وعندما وصلوا الى بلاد الرأس ألوله زعيم أسمرة قوبلوا بكل المجاملات العسكرية فقـد رحبت بهم فرقة موسيقية وقام محاربو الزعيم باستعراض عام . وأخيرا وصلوا الى ميناء مصوع حيث تسامت الفرق أجرها وهكذا أتمت هـذه البعثه مهمتها الصعبة باصرار ونجاح •

وكانت القلابات قـد أخليت فى ٢٨ فبراير ١٨٨٥ ولم يتم انقـاذ الجيرة الا بعد أربعة أشهر عندما وصل جيش حبشى الى المناطق المجاورة لها • وأمكن هزيمة الأنصار وابعادهم • وفى ٢١ رمضان ١٣٠٢ (٤ يوليو ١٨٨٥) استولى الأحباش على المؤن ثم انسحبوا مع القوات المصرية وأخذ الأخيرون سبيلهم الى مصوع • أما المدافعون عن كسلا فلم يكن لهم مثل حظ سابقيهم برغم شجاعتهم • فقـد ضيق عليهم الخناق عقب سـقوط الختمية وأوشكت مخازن الغلال على النفاذ وتم الاجهاز على جميع دواب النقل الموجودة بالمدينة بل أنه جرى أكل الجلود الجافة والصمغ • وأخيرا لم يجد الحاكم بديلا عن الاستسلام • وكما حدث فى أماكن أخرى رأت الحاميه أنه من الأفضل لسلامتها أن تطلب شروط السلام من المهدى ذاته بدلا من الوقوع تحت رحمة القائد المحلى • وبناء عليه أرسلت الرسائل الى أم درمان التى أجاب عنها المهدى فى ٣ شعبان ١٣٠٢ هـ (١٨ مايو ١٨٨٥) بارسـال مندوبين عنه لقبول الاستسلام . وكان على رأسهم الحسين ابراهيم ود زهرة وهـو عالم بارز من أرض الجزيرة • وقـد

واصلت الحامية صمودها لفترة أخرى على أمل أن يأتى الأحباش بزعامه الرأس الوله لانقـاذها ـ ولـكن ذلك لم يتحقق • وفى ١٦ شـوال (٢٩ يوليو) استسلم أحمد بك عفت لمبعوثى المهدى •

والى حين لم تمس حياة الحاكم السابق وان استخدمت وسـائل العنف المعهودة مع الضباط لاستخلاص ما لديهم • وفى ١٠ من ذى القعدة (٢١ أغسطس) استولى عثمان دقنة على المدينـة • وأعلن الحرب على الرأس الوله • وفى الواقعة الأولى التى جرت فى كوفيت هزم الاحباش ولكن الرأس الوله استدعى قوات جديدة • وفى الواقعـة الثانية هزم الأنصار هزيمة فادحة • ونجح عثمان فى العودة الى كسلا وخلال غيبته حاول أحمد عفت وبعض الضباط السابقين والأشخاص البارزين التآمر لاستعادة المدينة • ولكن المؤامرة اكتشفت وعند عودة عثمان قتل الحاكم مع اثنين من الموظفين وأكبر تاجرين أجنبيين فى المدينة • وعقب ذلك عاد عثمان دقنة الى سواكن تاركا ابن أخيه قائدا على كسلا •

٢ ـ القلابات والمعارك الحبشية :

لم يحاول الأحباش الذين عاونوا سـعد رفعت فى اخـلاء حامية القلابات الاستيلاء على هذا الموقع ـ فلم تمض خمسة أيام على انسحاب الحامية حتى احتل محمد ود أرباب الموقع باسم المهدى • وقد تم هـذا فى ٥ مارس ١٨٨٥ ولم يكن الحاكم الجديد الا أحد أقرباء صالح ادريس وهذه الحقيقة تبين الأهمية المستمرة للتكارير فى هذا القطاع • واستمرت ادارة محمد ود ارباب نحوا من عامين ولكنها انتهت بنشوب القتال مـع الأحباش ـ فعلى الجانب الآخر من الحـدود كان اقليم الرأس الشجاع عدار (١) ، الذى لجأ اليه كثيرون من الهاربين من المهدية ومنهم صـالح ادريس ذاته وشيخ قبيلة الحمران **Hamran** على الحدود والمضـوى عبد الرحمن الذى انقلب على المهدية وهرب ناجيا بحياته للمرة الثانية • وسرعان ما تزايد التوتر بين الأحباش والحاكم المهدى ، ووصل الخلاف

---

(١) وردت هكذا فى كتـاب شـقير وارشيف المهـدية أما الكتـاب الأوربيون سلاطين واورفالدر ووتجت فيطلقون عليه اسم ـ ادال .

الى فمته عندما عجز محمد ود ارباب عن منع أحد أتباعه من الغزو وتعكير السلام عبر الحدود ولهذا عبر رأس عدار الحدود واخترق البلاد الواقعة تحت حكم المهدية فى يناير ١٨٨٧ على رأس قوة كبيرة من الأحباش وقتل محمد ود ارباب أثناء القتال • كما وصل فى تقدمه الى نقطة تقع فى منتصف الطريق بين القلابات والقضارف • وبعد انتصار الأحباش على الأنصار انسحبوا تاركين القلابات مهجورة •

واشتد قلق الخليفة عندما وصلته هذه الأنباء للمرة الاولى ولكنه استعاد اطمئنانه عندما تبين له عدم رغبة العدو فى الاحتفاظ بمكاسبه • وتم تنظيم قوة تحت قيادة يونس الدكيم • وفى ٦ جمادى الاولى ١٣٠٤ هـ (٣١ يناير ١٨٨٧) عبر عبد الله الى الشاطىء الشرقي ليودع جيشه وداعا رسميا • وفى تلك الاونة أرسل لحمدان ابو عنجه ليتعجل عودته من كردفان • وعندما احتل يونس القلابات من جديد سار على سياسة استفزازية — فقام أحد ضباطه واسمه عربى دفع الله بشن الغارات وقام بنفسه بالاستيلاء دون وجه حق على قافلة لتجار من الحبش وصادر بضاعتهم ثم بعث بهم مكبلين بالأغلال الى ام درمان • وكان من الواضح أن الخليفة نفسه يعد العدة للقتال • وفى ٢٧ رجب ١٣٠٤ (٢١ابريل ١٨٨٧) وصل أبو عنجة وجيشه الى ضواحى أم درمان (١) وقد جرى لهم استقبال رسمى فى استعراض عسكرى كبير • وفى تلك الأثناء كتب الخليفة للملك جون داعيا اياه الى الرضوخ للمهدية ويتهمه بالسماح بالغارات على مسلمى الحدود ، فضلا عن اعطائه حق اللجوء لصالح ادريس وغيره من المرتدين • وانذاره باعلان الحرب عليه ما لم يعد جميع الأسرى المسلمين ويسلم اللاجئين اذا ما رغبوا فى العودة — اما اذا لم يرغبوا فعليه بأن يسلم اقرارات عليها أختامهم بارتدادهم وكفرهم على أن يتعهدوا بتجنب

---

(١) يحدد سلاطين (النار والسيف ص ٤٢١) أواخر شهر يونيو تاريخا لعودة أبو عنجة — أما أورفالدر ص ٢٢١ ، ٢٢٤ فيحدد لعودته يوم ٣١ يوليو ١٨٨٧ الموافق لعيد الأضحى .

وقد حددت هذا التاريخ استنادا الى وثيقة هى خطاب من الخليفة لأبو عنجة . انظر وثائق المهدية ١/٢٥ ، ٤ ، ٣٨ .

القيام بأعمال عدوانية فى المستقبل(١) • وقد بقيت هذه الرسالة بدون أى رد وأن تلقى الرأس عدار أوامر من الملك جون لكى يجهز حملة ضد الأنصار •

وقد وصلت هذه الأنباء ليونس الدكيم عن طريق جواسيسه ونقلها بدوره للخليفة الذى أمر أبو عنجة فى ١٩ محرم ١٣٠٥ (٧ أكتوبر ١٨٨٧) بالتقدم بقواته الى القلابات وقد جرى بعض التأخر فى المراحل الأولى للتقدم لأن مجموعتين من رجال أبو عنجة كانتا فى جنوب الجزيرة فى محاولة لقمع التمرد القبلى الذى قامت به قبيلة رفاعة الهوى بزعامة شيخها من عائلة أبو روف • (٢) وقد انتهت تلك الحركة بقتل الزعيم ذاته وسيق الأحياء ممن بقوا من قبيلته الى أم درمان حيث عاشوا فى ذل ومهانة . وقد خشى الخليفة أن يؤدى تعيين أبو عنجة حاكما على القلابات الى سوء تفاهم مع يونس الدكيم فأرسل تعليمات كان يأمل فى أن تؤدى الى تحسين الوضع • وكان على القائدين المشتركين أن يعملا متعاونين وألا يسمحا لأحد بايجاد الفرقة بينهما وأن من المستحسن أن تكون لقوات كل منهما معسكرات خاصة • وكان على القاضى المصاحب لأبو عنجة أن ينتقل للعمل مع رجال يونس • وقد نصت التعليمات أيضا على أن يصدر القائدان مجتمعين كل القرارات التنفيذية • وكان على أبو عنجة أن يحث رجاله على أن تكون علاقاتهم حسنة مع رجال يونس على أن الخليفة قرر صراحة فى النهاية أن على يونس أن يطيع أبو عنجة •

وعند وصول أبو عنجة الى القلابات ووجه فى الحال بمشكلة خطيرة ــ فقد تكرر بين قوات الحدود الشرقيه ما حدث فى الغرب تحت زعامة أبو جميزة : اذ تجمع الناقمون حول شخصية أسطورية • وأعلن تكرورى اسمه آدم محمد أنه النبى عيسى الذى تحدد مجيئه بعد المهدى

---

(١) يؤرخ شقير (فى كتابه تاريخ السودان وجغرافيته جـ ٣ ص٤٦٩) هذا الخطاب بجمادى الأولى ١٣٠٤ / مارس ١٨٨٧ . ووفقا للتاريخ الجريجورى يجب ان يكون المقابل هو يناير ــ فبراير ١٨٨٧ . وقد اخطأ ونجت (المهدية ص ٣٣٣) فى ترجمة الخطاب فجعل تاريخه فى يوليو سنة ١٨٨٧ .

(٢) انظر الفصل السابق .

مؤكدا علم الخليفة المسبق بصحة رسالته • وسرعان ما انضم اليه بعض الضباط الذين يحتمل أن معظمهم جاءوا من دارفور أو من المناطق الواقعة الى الغرب منها • ولعل يونس نفسه كان على علم بالمؤامرة أو لعله على الأقل لم يكن قادرا على السيطرة عليها • ووصلت أنباء المؤامرة الى الخليفة الذى أقر فى ٧ ربيع الثانى (٢٣ ديسمبر) حكم الاعدام على المتآمرين كما أمر بتفريق الوحدات التى كانت تحت قيادتهم على ضباط آخرين وطالب بتجديد عهد الولاء له وفى ذات اليوم أرسل منشورا للأنصار فى القلابات منددا فيه بمدعى النبوة وأرسل ثلاثة من الأنصار البارزين فى أم درمان بالنيابة عنه حاملين معهم هذه الرسائل •

وبعد يومين عدل عبد الله عن قراره الأول وبعث بكتاب جديد قرر فيه اعدام آدم نفسه مع وزيره على أن يعفى عن بقية المتآمرين البارزين اذا أعلنوا رضوخهم للقائدين . ولكن قراره الثانى وصل متأخرا فقد أعدم الضباط قبل وصول القرار للقلابات واضطر الخليفة أن ينهى الاجراءات فأصدر منشورين حذر الأنصار بوجه عام فى أولهما من مصير المتآمرين وأمرهم فيه بالابلاغ عن أى حالات الدعاية المماثلة بينما عرض المنشور الثانى للرؤية التى شاهد فيها المتآمرين وهم يصلون عذاب النار دون أن يستطيع أحد انقاذهم من ذلك العذاب حتى وأن توسط الخليفة فى هذا الأمر •

وعاد يونس بعدئذ الى أم درمان ومن الواضح أنه لم يعزل من قيادته حيث أن خطابات الخليفة لأبو عنجة فى الأسبوع الأول من جمادى الأولى (أواسط شهر يناير ١٨٨٨) أعطت تعليمات بشأن الترتيبات الخاصة بعودته • وبمجرد تحرر أبو عنجة من زميله قام بغزوة للحبشة فقسم قواته الى أربعة أقسام يقودها على التوالى أحمد على (الذى كان قد انضم اليه وشيكا ومعه الامدادات) عبد الله ابراهيم ، والزاكى طمل ، وعربى دفع الله وجميعهم من القادة المشهود لهم بالخبرة والكفاءة • ثم غادر القلابات فى ٢٤ ربيع الثانى (٩ يناير ١٨٨٨) وبعد تسعة أيام وصلوا

الى غاصمة الرأس عــدار واشتبكت القوتان فى قتال انتهى بانتصــار الأنصار • وفى اليوم التالى دارت المعركة مع القوات الرئيسية للرأس عذار وقد أطلق الأحباش نيرانهم من أربعة مدافع قبل أن يصل حاملوا السلاح من الأنصار الى مدى نيرانهم ولم يتوقف الأنصار عن التقــدم وان امتنعوا عن اطلاق النار الى أن اقتربوا من أعدائهم وفى نهاية ساعة من القتال تراجــع الأحباش واستولى الأنصار على غنائم كثيرة • وفى ٧ جمادى الأولى (٢١ يناير) تابع الأنصــار سيرهم وبعد يومين دخلوا غندار العاصمة القــديمة دون مقاومة تذكر ثم عادوا بغنيمتهم وأسراهم الى القلابات • واستطاع الرأس عدار نفسه النجاة وان وقع أطفاله فى أيدى الأنصار واقترح أبو عنجة جعلهم رهائن سكن استبدالهم بصالح أدريس •

وفى ٢٣ جمــادى الثانية (٧ مارس) أخطــر الخليفة أبو عنجة بأن يونس فى طريق عودته للقلابات • ولم تطل اقامته لأنه استدعى مع المشرف على خزينته فى ٧ رجب (٢٠ مارس) لأم درمان • وحينئذ تقرر أن تتبع جميع القوات الموجودة فى القلابات أوامر أبو عنجة ووضعت الخزينة كما وضع القضاة تحت اشرافه . وتقرر الاعــداد لحملة صيفية ثانية • وفى ٧ شوال (١٧ يونيو) كان أبو عنجة ورجاله يواصلون السير من جديد ؛ ولم يحقق تقــدمهم نتائج تذكر وفى ٢١ ذو القعــدة (٣٠ يوليو) بدأ مسيرته عائدا للقلابات وأثبتت أمطار الحبشة مدى ايذائها للجيش وحالته الصحية • وقرر الخليفــة عندئذ الترحيب بقائده المظفــر مرة ثانية فى أم درمان وأرسلت باخرة الى أعالى النيل الأزرق لنقله ولكنه استخدم ابلا فى الجزء الأخير من الرحلة.ودخل أم درمان ابلا فى ٢٨ صفر ١٣٠٦ هـ (٢ نوفمبر ١٨٨٨) ثم عاد ثانية الى مقر عمله بالقلابات فى ١٦ ربيع الثانى (٢٠ ديسمبر ١٨٨٨) حيث بدأ الاعداد لاشتباك آخر مع الحبشة • وفى ٩ جمادى الأولى ١٣٠٦ هـ (١١ يناير ١٨٨٩) وصلت كتابات من الملك جون يعرض فيها السلام حولها أبو عنجة للخليفة وان واصــل فى ذات الآونة تقوية مركزه • ولكن الرد الذى وصل للملك جون كان مثيرا ومن

ثم قرر القيام بحملة ضـد الأنصار وقبل أن تبدأ الحملة تقدمهـا تغيرت قيادة القلابات اذ سقط أبو عنجة عليلا وتوفى فى ٢٧ جمادى الأولى ١٣٠٦هـ (٢٩ يناير ١٨٨٩) وسرت ـ كما جرت العادة ـ شائعات عن موته مسموما رغم أنها لم تقم على أساس ، اذ أنه بقى فى منزله فترة بسبب مرضه قبل حملة الصيف . وقـد أسف لموته جنوده وجاءت وفاته فى وقت حـرج بالنسبة لحامية القلابات .

وأعقب وفاة أبو عنجة خلاف حول من يخلفه فى القيادة وعزم الخليفة بادىء الأمر أن يولى القيادة لأحمد على أحد أقاربه المقربين وفعلا دعا الجهادية بالقلابات لتقديم الولاء له بصفته القائد المحلى الأعلى للجيش . وكان هـذا فى ٤ جمادى الثانية ١٣٠٦ هجرية (٥ فبراير ١٨٨٩) ولكن هذا الاختيار لم يقابل بالرضا محليا . وبناء عليه أرسل الخليفة مجموعة من الوكلاء اقترحوا للقيادة الزاكى طمل ونال هذا الاختيار رضا عبدالله . وكان الزاكى شأنه فى ذلك شأن أبو عنجة ينتسب الى قبيلة المندلا التابعة للتعايشة . ولا شك أن تعيين رجل كان عبدا فى الأصل للقيادة العليا كان مصدرا لاستياء أحمد على تماما كمـا كان تعيين سلفه بالنسبة ليونس الدكيم . ولكن يبدو أن تعيين الزاكى فاز برضاء الجيش .

وقد أتم الزاكى تحصين القلابات واستعد لمواجهة هجوم الملك جون ولم يطل به الانتظـار ففى مارس زاد اقتراب القوة الحبشية التى كان يقودها الملك نفسه وفى معيتة جاء رأس عـدار والرأس ألوله وأيضـا صالح ادريس . وقام الأحباش بهجومهم فى ٩ مارس واخترقوا خطوط الدفاع السودانية وعندما أوشكوا على كسب المعركة انقلب النصر الى هزيمة ـ اذ أصيب الملك جون خلال المعركة ونقل الى خيمته حيث توفى فى ذات الأمسية . وبموته فقد الأحباش روحهم المعنوية وقبل أن يصبح اليوم التالى كانوا قد بدأوا انسحابهم ولحق بهم الأنصار الذين هاجموا قسما من الجيش أمكن دحرة بسهولة .

وسقط قدر كبير من الغنائم فى أيدى الأنصار ومنها تاج الملك المتوفى وسيفه . كما تم اكتشاف جثة الملك التى كان الأحباش يحملونها لدفنها . وأرسل الرأس الى أم درمان للعرض مع بعض العلامات الأخرى التى تثبت انتصار المهـــدية .

وفى أم درمان طغت الغبطة بالنصر على الخليفة وطبع تقرير الزاكى الذى وصف فيه أحـــداث المعركة ووزع فى الأنحاء والأقاليم . ولكن الواقع أن انتصار القلابات جر على المدى البعيد كارثة للمهـــدية تشبه الكارثة التى وقعت بالأحباش . فعندما زالت قبضة الملك جون القوية عن الحبشة تعرضت الى حين للتفكك والانقسام . واغتنم الايطاليون الذين سبق لهم احتلال أملاك مصر فى مصوع فى ١٨٨٥ . فرصة هذه الأحداث فتقدموا الآن الى الداخل وأنشأوا مستعمرة ارتريا فى عام ١٨٩٠ . وهكذا عسكرت قوة استعمارية أوروبية فى مواجهة القطاع الأوسط من مناطق شرقى السودان ــ وكانت هذه القوة تشكل عدوا محتملا يفوق فى خطورته الملكية الحبشية الاقطاعية التى كانت المهدية تستطيع مواجهتها على قدم المســـاواة .

وهكذا ... كان من نتيجة النصر الذى تم احرازه فى القلابات فى عام ١٨٨٩ فقدان كسلا التى استولى عليها الايطاليون فى عام ١٨٩٤ .

الفصل التاسع

الدولة المهدية المحاربة

٣ — مصر

اتخذت الخطوة الأولى نحو القيام بحملة على مصر فى حياة المهدى عندما صدرت الأوامر الى عبد الرحمن النجومى الذى أرسل فى فبراير ١٨٨٥ لمواجهة حملة الانقاذ ، بالبقاء فى المتمة . على أن حالة قوات النجومى لم تكن تبعث على التفاؤل فلم يتوفر له المال اللازم لدفع رواتب الجند فرجع الكثيرون منهم الى أم درمان . ولم يؤد استصراخ محمد الخير حاكم بربر ليقدم عونا ماليا الا الى الاحتجاج بأن الأنصار يجمعون ضرائب غير شرعية فى اقليمه . وحاول النجومى ورفاقه التكيف مع الموقف باستدانة الأموال وفرض الاتاوات على الشائقية وغيرهم من أحلاف « الترك » . وقد قام هؤلاء بدورهم بالشكوى للمهدى . وقد انتشر وباء الجدرى وغيره من الأمراض بين رجال الجيش .

وقد تم هذا قبل وفاة المهدى بشهر — وأدت هذه الصدمة ثم صراع الخليفة مع منافسيه من أجل الاستئثار بالسلطة الى تأجيل الخطة الطموحة الخاصة بالزحف على مصر الى حين . وفى أغسطس بعث الخليفة بالنجومى ليتولى المساعدة فى العمليات التى بدأت ضد الحامية المصرية فى سنار فلم يصل الا بعد سقوطها ، وفى سبتمبر كان قد رجع الى العاصمة . وقد شهد أواخر العام تصاعد خطر الهجوم من جهة الشمال الذى أدى الى جنس . ولكن هذا الخطر زال كما رأينا فى أوائل عام ١٨٨٦ بعد أن أخلى الانجليز والمصريون النقاط العسكرية التى كانت موجودة جنوب وادى حلفا . وفى أبريل ١٨٨٦ كان النجومى موجودا فى بربر حيث كان يقوم بتنظيم نقل قواته الى دنقلة — وبدا للمرة الثانية امكان تنفيذ خطة الجهاد ضد مصر .

وكان شك عبد الله فى الأشراف وأولاد البلد يزداد ـ وكان يحتمل أن ينضم هؤلاء الأخيرون الى الأشراف فى أى صراع ينشب بينه وبين هؤلاء .

وبرغم خدمات النجومى المخلصة للمهدية الا أن شكوك الخليفة حامت حوله لأنه من الجعليين فضلا عن أنه كان أكفأ من أنجبه أولاد البلد من الجنود وأكثرهم شعبية . ولعله خشى فى أغسطس ١٨٨٥ اتحاد النجومى مع محمد عبد الكريم الذى تولى الاستيلاء على سنار ـ وبدأ مهتما باستدعاء القائدين لأم درمان ، وتخوفا من تحول سنار الى قاعدة لمنافسيه أعلن فى منشور الشعرة حق المهدى فى اخلائها كلية : « سنار أصحابى لا يسكنوا فيها ـ ولا يبدأوا منها غزوا ـ والذى يسمع الانذار ويموت فيها ليس من أصحابنا » (١) .

وسرعان ما عاودت الخليفة شكوكه فى النجومى بعد أن عاد الأخير لقيادة الحملة الشمالية . وفى يوليو ١٨٨٦ بعث عبد الله بأحد مساعديه المقربين وهو بقارى من قبيلة الهبانية اسمه مساعد قيدوم ليعمل اسميا كوكيل للنجومى . ولكن الحقيقة هى أن مساعد قيدوم كلف بمراقبة قائده لحساب الخليفة . وفى أكتوبر ١٨٨٦ غادر النجومى بربر مع آخر قواته ووصل الى العرضى التى أصبحت مركزا لقيادة عملياته فى ٩نوفمبر .

وهناك بقيت القوة الرئيسية للحملة المهدية لمدة عامين ونصف . ولا شك أنه وجدت بعض فصائل متقدمة الى الشمال احتكت بين الحين والآخر بالقوات المصرية وهاجمت القرى النيلية الواقعة بالقرب من وادى حلفا من قاعدتها فى صرص . ولم يبد فى الأفق ما يؤذن ببداية الغزو المرتقب وذلك برغم وصول مبعوثين فى ابريل ١٨٨٧ الى وادى حلفا يحملون معهم « انذارات » من الخليفة للخديو محمد توفيق والملكة فيكتوريا والسلطان عبد الحميد وتدعوهم الى الخضوع للمهدية . وكانت هذه الانذارات على شكل تحذير للحكام الذين أشرنا اليهم . والواقع

---

(١) مخطوطة النجومى ص ٩٨ .

ان بدء الهجوم على مصر تقرر تأجيله بسبب احداث السودان ككل وبسبب المشاكل الخاصة باعداد حملة الشمال . فالفترة الممتدة من يونيو ١٨٨٦ الى مارس ١٨٨٩ كانت كما رأينا ــ فترة أزمات متوالية فى المناطق الشرقية والغربية . ويبدو أن الخليفة وقد واجهته هذه الأخطار شديدة الالحاح آثر تغليب السكون والهدوء فى الشمال محتفظا بجيش قوى كقوة احتياطية فى العرضى لمواجهة أى تهديد قد يتطور . وبالاضافة الى ذلك فان توتر العلاقات بين النجومى ومساعد قيدوم كان كفيلا بشل مبادرات القيادة الشمالية . وفى ديسمبر ١٨٨٧ كتب الخليفة الى النجومى ليؤنبه على اهماله لمساعد ورجاله وسماحه بقيام خلافات بين الطرفين . وقد أبدى النجومى من جانبه ولاءه واخلاصه للخليفة ودحض الاتهامات التى وجهها مساعد اليه .

وفى أوائل ١٨٨٨ قرر النجومى تأكيد حقوقه باعتباره قائدا للحملة فأرسل قواته الأمامية تحت قيادة صفية عبد الحليم مساعد لاحتلال صرص التى لم تقو فيها قبضته حتى ذلك الوقت . وتوقعا منه لحدوث هجوم مصرى انجليزى بعد أن وصل لعلمه مجىء السردار جرانفيل الى الحدود ؛ أرسل مساعد قيدوم فى ١٨ يناير على رأس امدادات معتزما أن يلحق بها بنفسه . وعندما نقل خبر هذه الاجراءات الى الخليفة أسرع فى تحطىء النجومى وأمر باعادة مساعد الى العرضى على أن يبقى رجاله فى صرص تحت قيادة عبد الحليم . وفى رسالة أخرى منع النجومى من فصل أو تعيين أو تأديب أى عامل دون موافقة الخليفة المسبقة . وأرسل الخليفة تعليمات الى النجومى بشأن مسلكه مع مساعد قيدوم وفى فبراير كتب النجومى بما يفيد بعودة العلاقات الطيبة بينهما .

وفى مارس تلقى النجومى اذن الخليفة له بزيارة أم درمان وعين مساعد قيدوم قائدا بالنيابة عنه خلال غيبته . وبدأ رحلته فى ٩ رجب ١٣٠٥ (٢٢ مارس ١٨٨٨) أما ما دار بينه وبين الخليفة فلم يعرف الا مما ذكره شقير . وتذهب روايته الى أن الخليفة سخر بالنجومى بسبب فشله فى التقدم نحو مصر وأهانه على ملأ من الناس .

وعلى كل حال فقد تم التوصل الى قرار باحياء مشروع الغزو وشغل النجومي نفسه خلال عودته الى دنقلة بتعبئة قوات جديدة للجهاد . وفي المتمة وجد أمامه رجال قبيلة البطاحين ، التى أعدم ٦٧ من ذويها علنا أو عذبوا فى أم درمان بأمر من الخليفة بسبب عدم رضوخهم . ومثل هؤلاء لم يكن من الممكن أن يكونوا جنودا موالين للمهدية وأخطر النجومى عن خسائرهم الفادحة بسبب هرب بعضهم . وعندما وصل الى مروى فى منطقة الشائقية قرأ نداء الخليفة للجهاد وعين مندوبين للتعبئة . ووصل الى دنقلة فى ٣ محرم ١٣٠٦ (٩ سبتمبر ١٨٨٨) . وفى الشهر التالى اتخذ الخليفة خطوات جديدة لتعبئة القبائل النيلية فى الشمال وذلك بتعيين محمد الخير الحاكم السابق لبربر وعلى سعد فرح زعيم الجعليين للاشراف على تعبئة القبائل .

واستمر التوتر فى العلاقات بين النجومى ومساعد قيدوم . وجريا على أسلوبه المعتاد فى مثل تلك الخلافات أرسل الخليفة ثلاثة مندوبين للتحرى والافادة . وبعد قليل استدعى مساعد لأم درمان ولكن غيبته لم تطل حيث عاد ثانية الى العرضى فى ٢٧ صفر (٢ نوفمبر) بمكانة متزايدة . وبصفته وكيلا للنجومى أصبح يشترك فى المسئولية مع المندوب المحلى للخزينة عن الادارة المحلية . وفى تلك الأثناء بقى المندوبون الثلاثة فى العرضى وتقررت استشارتهم فى جميع الشئون ذات الأهمية . وأخيرا فى ٢٧ جمادى الثانية (٢٨ فبراير ١٨٨٩) وصل يونس الدكيم من أم درمان بصلاحيات واسعة النطاق .

ومما ساهم فى تعويق فاعلية الحملة نقص الأغذية ــ فطريقها من بربر يجرى فى مناطق لا تتجاوز الأراضى الزراعية فيها حدود شطئان النيل وجزائره . وعلى مدى أكثر من عامين عسكرت قوات متزايدة من الجند المصحوبين بعائلاتهم فى هذه الأرض الجرداء بينما نقصت القدرة الانتاجية للقبائل النيلية أولا بسبب سلوك الأنصار الفوضوى وثانيا بسبب التعبئة العامة . وخلال العام الأول الذى قضاه النجومى فى دنقلة اضطر لمطالبة ابراهيم محمد عدلان المشرف على الخزينة بارسال غلال من أم درمان ــ وهذا

الاجراء كان مربكا بسبب صعوبات النقل • ونكرر نقص الأغذية فى العام التالى (١٣٠٦) بصورة أكثر خطورة بسبب ضعف فيضان النيل • وفى أول ربيع الأول (٥ نوفمبر ١٨٨٨) ذكر النجومى فى تقرير له ان الجهادية عمدوا الى السلب والنهب بسبب ما كانوا يعانونه من نقص فى الغذاء والكساء • وفشلت الانذارات والسجن والغرامات التى فرضها ضباطهم فى كبح جماحهم ومن ثم أرسل النجومى دوريات ليلية من الخيالة • وكان قد تلقى فى اليوم السابق كتابا من الخليفة ينبه عليه فيه بابقاء سواقى دنقلة فى حالة صالحة للعمل وألا يدرج فى قوائم التعبئة أكثر من رجل واحد من العاملين عليها •

ويبدو أن نقص الغذاء كان العامل الحاسم فى التحرك نحو مصر • وعندما أخطر النجومى فى نوفمبر بتعيين محمد الخير وعلى سعد لتعبئة القبائل النيلية اقترح بالنسبة لظروف المجاعة تحرك القوات الموجودة فى العرضى قبل وصول التعزيزات • وبناء على أوامر الخليفة عقد مجلسا فى أوائل يناير ١٨٨٩ لاعداد الترتيبات اللازمة للتحرك شمالا ، الذى مضى بعض الوقت قبل أن يتم : وسبب التأخير غير واضح ولعل مرجعه وصول يونس الدكيم لتسلم ادارة دنقلة ويبدو أن شهرى مارس وابريل انقضيا والنجومى مشغول بتسليم عمله ليونس واعداد الترتيبات النهائية لتحركه هو شخصيا • وقد غادر دنقلة نحو الشمال فى ٣ رمضان (٣ مايو) وفى ٥ شعبان (١٠ ابريل) أرسل الخليفة أربعة مبعوثين بانذارات نهائية للخديوى والملكة فيكتوريا والمندوب البريطانى بالقاهرة • أرفق فيها عدد من الوثائق التى تثبت انتصار المهدى الأخير على الملك جون (يوحنا) ملك الحبشة •

وتحركت الحملة على الشاطىء الغربى للنيل وقبل أن تلتقى بقوات عبد الحليم مباشرة تسلم النجومى من الخليفة نسخة من كتاب الزاكى طمل فى وصف انتصاره على الأحباش فى القلابات • وبتأثير هذه الأنباء المشجعة تقدم الأنصار ولكنهم واصلوا تقدمهم بثمن فادح اذ لم يحصلوا على جرايات منذ مغادرتهم العرضى ، ومن ثم اضطروا الى التهام التمر

عديم النضج والمتصف بالمرارة وطحنوا نوى البلح وحتى دواب النقل التي حملت متاعهم التهموها — وساروا يحدوهم الامل فيما ينتظرهم من ترحيب أهل القــرى المصرية بهم ومساعدتهم لهم وهم في طريقهم الا أن نكسة محزنة كانت في انتظارهم ٠

وصل الأنصار الى مدى الرؤية من الأعداء لأول مرة عندما عسكروا في ٢٨ يونيو في معتوقة على الضفة الغربية جنوب وادي حلفا ٠ واعتزموا التقدم من هذه النقطة الى بنبان الواقعة على بعد ٢٥ ميلا شمال أسوان ٠ وكان من المعروف أن بنبان من المراكز القوية التي يحتمل أن يوجد فيها كثير من المتعاطفين مع المهــدية ٠ وذلك لأنهــا كانت مركزا لاقليم امتلأ باللاجئين والتجار من دنقلة ممن حافظوا على اتصالهم بالحكام الجدد في وطنهم الأصلي ٠ وقرر النجومي أن يتخذ خطا لمسيرته وتقــدمه طريق الصحراء مبتعدا تمــاما عن النيل حيث كانت مراكب الأعــداء المسلحة بالمدافع تقوم بأعمال الدورية ٠ وكان يأمل في أن تمد القرى الصــديقة جيشه بالغذاء والمــاء ٠

وفي أول يوليو تحرك الأنصار من معتوقة وتابعت القوات المصرية والانجليزية الموجودة في وادي حلفــا مراقبتهم وهم يشقون طريقهم في الصحراء حيث بلغ عددهم ما يقرب من ٥٠٠٠ محارب وأكثر من ٨٠٠٠ من الأتباع ٠ وباتوا تلك الليلة في الصحراء ، وفي فجر اليوم التالي وصلوا قرب أرجين وهي قرية على مسيرة أربع ساعات شمال وادي حلفــا ٠ ولم يقابلوا هناك بأدنى ترحيب ولم يجدوا سوى مراكب العــدو تقطع عليهم البحر وقواته ترسو على شطئانه لتقطع عنهم الماء ٠ ولثلاثة أيام قاتل الأنصــار ليشقوا لهم طريقا الى النهر ٠ وفي ٤ يوليو استأنفوا رحلتهم الشاقة نحو الشمال ٠ وفي ١١ ذي القعــدة (١٠ يوليو) وصلوا الى بلاجة ومنها كتب النجومي للخليفة وليونس الدكيم واصفا ما عليه جيشه من حال يرثى له ٠ فكثير من الأنصار ماتوا ومعظم الجهادية هجروهم الى الأعداء بما فيهم جميع رجال المدفعية وعددهم ٣٥ لم يبق منهم ســوى ثلاثة ٠ كمــا نفقت جميع الخيول ودواب الحمل تقريبا وترك جانب من

الذخيرة وجميع المدافع على الطريق عدا واحد بسبب نقص وسائل النقل وحتى تابع النجومى الخاص بحمل الماء هجره ، ولم يبق معه من حرسه الخاص سوى ثلاثة أو أربعة أشخاص .

وعسكر الأنصار فى بلاجة لمدة ١٨ يوما وصل جرانفيل خلالها لتسلم القيادة . وفى ١٦ يوليو أرسل للنجومى رسالة يدعوه فيها للتسليم أهم ما جاء بها : أكتب اليك هذا يا ولد النجومى لأعلمك أن قائدى الباسل وودهوس باشا أخبرنى بتهجمك على الحدود فجئت لأرى بعينى الحالة الراهنة وعلى أثرى ألوف من العساكر البريطانية المصرية ... وكنت صممت على سحقك ومحو أثرك وأثر أنصارك عن وجه البسيطة بلا انذار ولكن عند حضورى الى هنا وجدت أنكم قوم مستضعفون مساكين تموتون جوعا وعطشا . وأنا عالم بسوء حالك أنت وعالم أنك فريسة لغيرة ذلك الخليفة الكذاب الذى جعل ابن عمه يونس عاملا فى مكانك ... وارسلك أنت والأعراب الذين يخشى شرهم لأنه يعلم أنكم ستهلكون بسرعة . وأنتم فيما نعلم ، طالبون بنبان وتظنون أن أهلها ينصرونكم فاعلموا أن بنبان تبعد عنكم مئات من الأميال وتفصلكم عنها مفازة طويلة لا ماء فيها . بل هى ان وصلتم اليها فانكم تلاقون فيها جيوشا بريطانية ومصرية متعطشة لشرب دماء الأعداء . وعليه فاذا تقدمت الى الأمام فأنت هالك لا محالة واذا رجعت الى الوراء فان جيوش حلفا واقفة لك بالمرصاد واذا بقيت حيث أنت مت جوعا وعطشا . بهذا أدعوك الى التسليم لكى لا يموت العاجزون من النساء والأطفال فاذا سلمت سلمت أنت ومن معك من الأمراء والأعوان . وأما اذا أبيت التسليم فليس أمامك الا الهلاك (١) .

هذا الخطاب وما انبنى عليه من اثارة لأحاسيس الخوف والتمرد ، أتى برد فعل مخالف لما قصد به — فقد جاءت اجابة النجومى غير متوقعة .

« ... ونقول لك انا ما بعثنا من طرف السيادة الا لرعاية الناس

---

(١) هذا والرد عليها موجود فى مهدية / ١

والمسلمين وادخالهم فى سور الرحمة والهداية أجمعين • وليس حضورنا الى بنبان فقط كما تقول ولسنا نقصدها بالذات بل المقصــود بالذات الوصول الى جميع البلاد وادخال أهلها فى الدين بمعونة الله رب العباد فمن صدق وآمن واتبع وسلم الأمر لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ومهــديه (عم) وخليفته عليه الرضوان وسلم جميع ما كان معــه من الأسلحة والجباخين آمناه على نفسه وماله وولده له مالنا وعليه ما علينا ومن خالف واتبع نفسه وهواه وأبى الا جماحا فالسيف حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو أحكم الحاكمين • هذا وأعلم أن جوابك المذكور وغيره من الأجوبة الواردة منك الى الاخوان الثلاثة أرسلت الى سيدى يونس مع أحد الرسولين ومنه الى سيدنا ووسيلتنا الى الله خليفة المهدى (عم) للاطلاع عليها وحضور الرد لكم من لدنه بما فيه الكفاية •••

••• أما ما ذكرته من كثرة عساكرك وقرب وصولهــا •• فذلك لا يهولنا ولا يخيفنا بل لا نخشى أحــدا الا الله تعالى ولو الثقلين الانس والجن فلقد كنا قبل هذا متربصين بكم وقائمين على جهادكم وشن الغارة عليكم وبما أن الله أخرجنا من ظلمات موالاتكم وقربكم فاعلم انا باقون على قتالكم وجهادكم واستئصالكم حتى لا ندع على وجه الأرض منكم داعيا ولا مجيبا أو يفوز بالشهادة من يفوز ويلاقى الله تعالى فنحقق ذلك ولا تغتر بعساكرك ومدافعك ••• وفيما سبق من اهلاك رجالكم ورؤساء دولتكم كهكس وغوردون وأشباههم مع كثرة جنودهم وعدتهم وعددهم كفائه فان أسلمت وسلمت جميع المدافع والجبخانات والأســلحة سلمت وعليك أمان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومهديه (عم) وخليفته عليه الرضوان والا فهذا حجة عليك وذنبك وذنب من معك مطوق فى ذمتك » •

وبينما النجومى فى بلاجة تلقى امدادات عوضته الى حــد ما عن خسارته الأخيرة وأوصلت قوته المحاربة الى نحو ٣٣٠٠ مقــاتل • وفى ٢٨ يوليو استؤنفت المسيرة الشاقة عبر الصحراء وكتب النجومى بذلك فى اليوم السابق ما يحتمل أنه خطابه الأخير الى الخليفة • وبرغم كلماته الجريئة التى وجهها لجرانفيل نجد نغمة اليأس ترفرف على هذا الخطاب

الذى مكن عبد الله من التحقق للمرة الأولى من أن حكم دولة مهدية عالمية أمر بعيد المنال • وفى خلال الـ ٢٣ يوما التى بقيهـا الأنصـار فى مصر لم يتصل بهم أحد سواء للانضمام لعقيدتهم أو للاشتراك معهم فى تجارة • واشترك جميع المصريين فى تعويق الأعداء سواء بمنع الغذاء عن الأنصار أو بحمل السلاح ضد السودانيين ولم تصـل منهم رسائل أو رسـل أو معلومات ـــ هذا اذا استثنينا أحد شيوخ العبابدة الذى كان يلعب دورا مزدوجا • وأشـار النجـومى الى استحالة الاعتماد على المصريين الذين لم يقبلوا المهدية وهكذا لم يكن لمـا أشيع سابقا عما يبطنونه من ايمان المهدية فى أعماقهم أساس من الصحة •

وجاءت النهاية فى ٣ أغسطس بجوار قرية توشكى على الضـفة الغربية للنيل ، حيث حصل جرانفيل هناك على نصر سـاحق وحاسم • وحمل النجومى ذاته محتضرا بعيدا عن الميدان بعد أن جرح ثلاث مرات فى المعركة وأسر الجمل الذى حمل جثته بعد أن دافع عنه بشجاعة حفنة من رجاله • وهكذا ذابت الحملة المهدية ونقـل الى المعسكرات المصرية الانجليزية أكثر من خمسة آلاف رجـل من اللاجئين والأسرى • ومرة أخرى تكرر ما حدث بعد معركة جنس اذ توقع السودان تقدم القـوة الانجليزية المصرية الى أم درمان •

ان الاتهام الذى جاء فى رسالة جرانفيل عن تعمد عبد الله ارسال النجومى فى مهمة ميئوس منها ليقضى عليه وعلى القوة المقاتلة لأولاد البلد أمر شائع فى السودان الى يومنا هذا وهو سبب أساسى للغيوم التى تحيط بسمعة الخليفة لدى أهل بلده • ولعل هذه التهمة لها نصيب من الصحة فمن المؤكد أن النجومى لم يحصل بتاتا على ثقة عبد الله كما حصل عليها زملاؤه أبو عنجة وعثمان آدم بل وعثمان دقنة • ومن المحتمل أن عبد الله استطاع أن يتحمل صدمة القضـاء على جيش أولاد البلد بفتور أكثر مما لو كان ذلك الجيش من البقارة أصحاب الراية السوداء • ومن ناحية أخرى فان هناك ملابسات تبرر ما حدث • ففى عام ١٣٠٦ هـ مثل عام

١٣١٥ هـ عندما سار محمود أحمد ضد كتشنر أخطأ الخليفة تقدير القوة المصرية الانجليزية وامكانياتها • ومن المحتمل أنه الى ما بعد موقعة العطبرة كان تقدير عبد الله لهم مرتبطا بما حدث لأسلافهم ــ هكس الذى قضى عليه مع رجاله من المصريين فى شيكان وغوردون الذى حوصر ثم أغتيل فى الخرطوم ، وتقهقر بعثة الانقاذ ، وانسحاب الحامية الشمالية بعد جنس ، والعمليات الفاشلة ضد عثمان دقنه كما كان للخليفة عذره فيما توقع من ترحيب المصريين بالمهدية • ولعل المعلومات الخاطئة عن هذين الأمرين لا سوء النية المتعمدة هى التى أدت الى فشل الحملة • فالنقص الفادح فى المؤن الذى أدى الى انهيار معنوية البعثة وشجاعتها لم يكن نتيجة خطة وضعها الخليفة للقضاء على جيشه ذاته أو حتى نتيجة اهمال اجرامى من جانبه • فأحداث عام ١٣١٥ ترينا أن مشاكل الامداد تعذر التحكم فيها من قبل السلطات بأم درمان • بل ان هذه المشاكل لم تتغلب عليها الجيوش الأوروبية بوجه عام حتى القرن التاسع عشر •

ولعل أفدح أخطاء الخليفة فى شأن هذه الحملة كان تعيينه ليونس الدكيم حاكما على دنقلة • وجرى تبرير التعيين فى الظاهر بأن يونس استطاع تسوية الخلافات بين مساعد والنجومى ؛ وهى الخلافات التى أعاقت تقدم الحملة • ولكن يتضح من خطاب الخليفة لعثمان آدم أنه عين يونس عاملا عموميا وكان أعلى مكانة من كلا القائدين الآخرين • ولقد أدى تعيينه الى علو نفوذ البقارة فى القيادة العليا لقوة تقوم أصلا على أولاد البلد • واختيار يونس لهذه المهمة يكشف عن افتقاد الحكم السليم لدى الخليفة ــ حيث أن سجل يونس فى القلابات لم يكن براقا بأى حال من الأحوال ولم تكن لديه الكفاءة اللازمة لمواجهة الموقف الحساس والخطير الذى وجد نفسه يواجهه فى دنقلة •

الفصل العاشر

السياسة والتطورات الداخلية بعد معركة توشكى

١٨٨٩ — ١٨٩٢

١ ــ الخليفة وسياسة تجميد الموقف فى الشمال :

يبدو أن هزيمة النجومى الفادحة فى توشكى كانت مفاجأة للسلطات المهدية فى العرضى وأم درمان • ولعل اسراع الخليفة فى اعادة تقييم سياسته وتعديله لها كلية خير ما يبرئه من تهمة تعمده ارسال الحملة عن عمد الى الكارثة التى حلت بها • وكما حدث عقب معركة جنس توقع الجميع فى السودان ان انتصار القوات الانجليزية المصرية فى توشكى سيتلوه تقدم مباشر صوب أم درمان • وقد بنى هذا التوقع على عدم ادراك للحقائق وان أدى هو والمجاعة التى اجتاحت السودان الشمالى فى ذلك الحين الى تعديل كبير ــ وأن يكن مؤقتا فى سياسة الخليفة • وقد اتصفت تلك السياسة الجديدة ــ التى ظهرت بوادرها منذ سبتمبر ١٨٨٩ بوجه عام بأنها تقوم على تهدئة السودانيين الشماليين المقيمين حول النيل • ومن مظاهرها الأخرى محاولة تحويل الطاقة الدافقة للجهاد الى السودان الشرقى وبذل جهد جاد لتحسين الوضع الاقتصادى مع تكوين رصيد من القمح والذخيرة على وجه الخصوص كأساس لا غنى عنه للعودة الى سياسة شن الحرب •

وكان رد الفعل المهدى الأول لهزيمة توشكى فى اقليم دنقلة هو سحب القوات المتقدمة الى ساواردة فى منطقة سوكوت حيث وضعت تحت قيادة حمودة ادريس البقارى • وفى تلك الأثناء تدفق اللاجئون عبر الحدود الى مصر تدفعهم المجاعة وفقدان الثقة فى المستقبل • وفى الأسابيع الخمسة التالية لتوشكى انتقل الى مصر أكثر من ٢٦٠٠ من سوكوت ومحس وكتب كثير من الأعيان الى السلطات الانجليزية والمصرية ليعرضوا عليها

التسليم والمساعدة فى اعادة سلطة الخديو • ووصلت بهذا المعنى رسائل من شيوخ ســوكوت ومن جارهم الجنــوبى زبير دياب زعيم المحس الوراثى ، ومن المناصير الذين يقيمون فيمــا وراء دنقله ، ومن شيوخ هؤلاء الجعليين الذين كانوا يقيمون فى ذلك الحين فى الشــمال • وفى السودان الشرقى كتب القائد الدنقلاوى القوى محمد عثمان أبو قرجة لحاكم عام ساحل البحر الأحمر فى سواكن معبرا عن أمله فى تقدم القوات المصرية ـ الانجليزية •

وقد بالغت السلطات البريطانية فى تقدير أهمية هذه الرسائل التى تدل على التعقل وعلق القائد العسكرى فى مصر بسذاجة على ذلك بقوله « وهذا ينم عن الكراهية المتزايدة للحكم الحــالى فى السودان بدليــل كثرة الشيوخ والعمــد الذين يرغبون فى العــودة الى حــكم ســمو الخديو (١) » وما أن اتضح انعدام النية فى التقدم الى داخل السودان حتى توقف سيل الرسائل والنداءات • ويبدو أن مؤشرات نوايا مصر وانجلترا قد وردت ـ ولعل هذا من قبيل السخرية ـ فى بيان أدلى به الوزير المصرى مصطفى رياض قصد به التحريض على ثورة السودانيين على الخليفة • هــذا البيان ، الذى حمله الجواسيس الى الســودان فى أكتوبر ١٨٨٩ ، قارن بين ما تمتع به السودانيين « من سلام تام ورخاء ، تحت الحــكم الخديوى ، وبين حالتهم البائسة ••• منــذ بدء عصيان المهدى » • وبعد أن ندد البيان بزعماء المهدية لسفكهم دماء المسلمين ومنع الحج هدد السودانيين بمصير النجومى اذا ما سدروا فى غيهم • ولكن هذه الكلمات الحازمة انتهت بخاتمة ضعيفة وبتحريض غامض على الثورة ضد حكومة المهدية • « ونحن ننصحكم بالابتعاد عن هؤلاء الزعماء الذين ربما يخربون بلادكم ويرملون نساءكم وييتمون أطفالكم فى سبيل اشباع رغباتهم الذاتية »•ولم يقدم البيان أى وعد بتأييد مصر عسكريا لمثل هذه

---

(1) FFF (Frontier Field Force. Staff Diary and Intelijgence report) 200, 2 Minute OF Maj. Jen. R.H. de Montmorency dated 12 Oct. 1889.

الثورة اذا نشبت ــ فقد جاء بالبيان : « ان صاحب المعالى الخديو المنصور أبدا رحيم برعيته أكثر من الأب لأبنائه • ورغبته الشديدة أن يرى بلادكم فى أمان ورخاء • ولهذا السبب توقف عن استعادة بلادكم بالقوة لأن ذلك سيسبب اراقة الدماء والبؤس بينكم » (١) •

وبينما كانت نتيجة هذا البيان غير المقصودة هى عدم حفز اتنعاش ولاء السودانيين للخديو فان الخليفة كان يسعى بنشاط لاقامة علاقات أفضل مع رعيته المقيمين على المجرى الرئيسى للنيل ؛ وحين كتب فى ٧ محرم ١٣٠٧ (٣ سبتمبر ١٨٨٩) الى بعض الضباط الموجودين مع يونس الدكيم فى دنقلة ذكر أن المجاعة هى عقاب الله الذى أنزله بسبب المظالم التى حدثت • « ان المجاعة عقاب من الله للظلم فاذا لم يقف الظلم واذا لم يكف الظالمون عنه واذا لم تطبق العقوبات الشرعية فسيقع بلا شك بلاء أعظم • اعملوا بمقتضى هذا • امنعوا الجيش من التعدى والظلم وتخريب الزرع ودخول المنازل غير مسموح به » (٢) •

ومما يشبه ذلك أن الأنصار بدنقله منعوا فى ٢٥ صفر (٢١ أكتوبر) من التعدى على المناصير الذين كانوا يتبعون بربر • وفى نوفمبر استدعى يونس الدكيم أحد شيوخ المحس الى دنقلة وبحث معه سبب سوء الحالة فى بلده واستمرار الهجرة الى داخل مصر • وأعطى الشيخ تأكيدات بحسن معاملة المحس مستقبلا بحيث يعمل لهم كل ما يمكن عمله • وفى بيان للخليفة بتاريخ ١٢ جمادى الأولى ١٣٠٧ (٤ يناير ١٨٩٠) ضد المظالم واقترافها أشير خاصة الى عدم شرعية تحصيل الرسوم فى الأسواق على أيدى الأنصار • وسنشير فيما بعد الى ما جد على سياسة المصالحة من تطور وذلك بتشجيع التجارة مع مصر وتعيين موظفين من أولاد البلد •

وفى خلال عام أمكن لهذه السياسة أن تؤتى بعض الثمار ، وذلك حين تحول اتجاه الهجرة الى الجانب المضاد • وقد تضمن تقرير رسمى

---

(١) Ibid. 205. 5—6

(٢) المهدية ٢/٣٢ ، ٧ ، ٢٥٦ •

للمخابرات عن المدة من ١٤ ــ ٢٧ سبتمبر ١٨٩٠ زيادة عددية فى طلبات العودة الى السودان • وعلى العكس من هذا فان سياسة الخليفة فى السودان الشرقى لقيت فشلا ذريعا بعد توشكى •

٢ ــ فشل الجهاد فى السودان الشرقى :

أدى فشل جراهام فى القبض على عثمان دقنة فى عام ١٨٨٤ الى عدم حدوث تغيير فى وضع الأنصار بالنسبة الى القوات المصرية الانجليزية التى كانت تتولى الدفاع عن سواكن وذلك حتى عام ١٨٩١ • وقد شاهد عام ١٨٨٥ خروج حملة أخرى غير ناجحة من سواكن • ذلك أن الحكومة البريطانية ــ وقد أثارها سقوط الخرطوم ــ تعاقدت على مد خط حديدى يربط سواكن ببربر ووضعت جراهام على رأس قوة تتكون من البريطانيين والهنود بالاضافة الى المصريين وكلفته بضمان « القضاء على قوة عثمان دقنة » • وعرفت المعركة التى جرت عقب ذلك باسم «معركة زريبة ماكنيل» ــ وهى معركة دموية برغم قصرها نشبت فى تاوفريك بين الأنصار والقوات التى كان يقودها السير جون ماكنيل والتى كانت تقوم بانشاء نقطة أمامية على الطريق الى تماى • حدث هذا فى ٢٣ مارس وفى ٣ أبريل قام جراهام بهجوم آخر على تماى وتمنيب وفشل مرة أخرى فى القبض على عثمان دقنة • ومن ثم تخلت الحكومة البريطانية عن مشروع غزو السودان خاصة وأنها لم تكن متحمسة لذلك منذ البداية • وهكذا تأجل مشروع مد الخط الحديدى وغادرت معظم قوات الحملة سواكن فى شهر مايو •

ولم يحدث شىء هام خلال عامى ١٨٨٦ ، ١٨٨٧ • وازداد نقص تعداد حامية سواكن وان عززت استحكاماتها مع توالى محاولات الأنصار لاحكام الحصار من حولها • ولكن حرمان الأنصار من أى قوة بحرية أدى الى فشل جهودهم وان نجحوا فى حصر نشاط القوات المصرية داخل نطاق الحصون بينما لم يمتد نفوذ الحكام البريطانيين العامين لشواطىء البحر الأحمر مع ما لهم من ألقاب طنانة الى خارج سواكن ذاتها وحفنة من جزره والموانى الواقعة على طول الساحل • ونما معسكر للأنصار

فى هندوب على مرمى من مدافع مقر الحاكم العام بينما ظلت طوكر على دلتا الجاش تمثل القاعدة الرئيسية لعثمان ومصدره الرئيسى للمؤن •

وفى عام ١٨٨٦ بدأ يعرف اسم كتشنر وتبرز مكانته • فقد عين فى ذلك العام حاكما عاما لسواحل البحر الأحمر وخصص كثيرا من جهده لتقوية استحكامات سواكن • وفى ١٧ يناير ١٨٨٨ قاد هجوما على هندوب يحدوه الأمل فى أسر عثمان دقنة وكان المهاجمون قاب قوسين أو أدنى من الفوز به وان تعرضوا لخسائر كثيرة وأصيب كتشنر ذاته برصاصة فى فكه • وهاجم الأنصار سواكن فى سبتمبر ولكن الامدادات أرسلت من القاهرة وأمكن القيام فى ١٨ ديسمبر بطاعة على الخطوط الأمامية انتهت بفك الحصار عن الحامية •

وقد أدى التكوين العنصرى المتباين لقوات المهدية التى أحاطت بسواكن الى اضعاف فاعليتها • فعدم وجود تقارب فكرى بين قبائل البجة (أهل الرطانة) من جهة وبين من يتكلمون العربية من قوات الحملة الشرقية سواء أكانوا من البقارة أو أولاد البلد أو من الجهادية كان قد أدى الى وجود هوة عميقة بين الطرفين • وفى ربيع الأول ١٣٠٦ (نوفمبر ١٨٨٨) شكا ضباط الجهادية للخليفة مما أصاب الجيش من تدهور بسبب نقص المؤن والسلاح والخلافات بين كبار القادة •

وفى ١٦ جمادى الأولى ١٣٠٦ هـ (١٨ يناير ١٨٨٩) أرسل الخليفة أربعة مندوبين من بينهم محمد خالد الذى استعاد الآن حظوته والطاهر المجذوب — لدراسة الموقف • ونقل المعسكر الى طوكر وزيدت القوات فى ١٩ رجب (٢١ مارس) بفضل ما أرسل من تعزيزات تحت قيادة محمد عثمان أبو قرجة الذى كان مسئولا فى الفترة الأخيرة عن القيادة فى كسلا والذى أصبح مرؤوسا لعثمان دقنة • وأدى وصول أبو قرجة الى اضافة عامل آخر من عوامل عدم التناسق حيث أنه كان دنقلاويا من ذوى المكانة فى المهدية ، ومن ثم تجسمت الخلافات بين البجة والعناصر العربية فى المنافسة بين عثمان دقنة وأبو قرجة •

وقام المندوبون بتحقيق علنى أمام جميع رجال الحملة وذلك فى ٢٩ رجب (٣١ مارس) وقدم الضباط بيانا بما يشتكون منه اشتمل على ١٣ نقطة تدور كلها حول سوء استغلال الأموال والغلال المخصصة لتموين القوات • وبرغم أن عثمان دقنة لم يهاجم شخصيا الا أن بعض الموظفين الماليين من المسئولين كانوا من أقاربه ونسبت المأساة الى سوء الادارة • وانتهى التحقيق دون نتيجة بسبب المظاهرة المسلحة التى قام بها رجال قبائل البجة • وكتب عثمان دقنة الى الخليفة يخبره بأنه تجنب سفك الدماء •

وقد ازدادت المنافسة بين أبو قرجة وعثمان دقنة وضوحا منذ ذلك الوقت • ومع استمرار شكوى الأخير أمر الخليفة فى ١٢ شعبان (١٣ أبريل) وكلاءه ببحث مشكلة العلاقات بينهما ولكنه فى نهاية الشهر فرض تسوية ثبت عثمان دقنة بمقتضاها فى قيادة الجيش على أن يكون أبو قرجة وكيله فى الاشراف على الخزينة • ولكن سلطات أبو قرجة حددت بشدة وتقرر ألا يعمل الا بعلم عثمان ونصيحته فى جميع الأمور ، واحتفظ الموظفون الماليون الذين سبق لعثمان دقنة أن عينهم بمناصبهم وكان على أبو قرجة أن يعمل بالتعاون معهم على أن يظلوا خاضعين لأوامر عثمان ويرجعوا اليه فى جميع الأمور • وتقرر اعداد كشف حساب عن كل شهر على أن يعتمده عثمان ثم يرسل الى أمين بيت المال فى أم درمان كى يعرضه بدوره على الخليفة •

وأطلق الخليفة يد عثمان دقنة فى جميع الأمور الأساسية برغم بعض التحفظات التى وضعت لتلافى سوء استعمال السلطة أو انقاذا لماء وجه أبو قرجة وبرغم ذلك فقد كان واضحا أن عبد الله أدرك أن لا غنى له عن عثمان فى الشرق ومن ثم كان عليه أن يساعده • ومن ثم صرف النظر عن التهم والشكاوى التى وجهت ضد عثمان والمندوبين • وفى ٢٤ رمضان (٢٤ مايو) كتب الوكلاء تقريرا يفيد بانتهاء الأزمة رسميا وذلك بعد اعلان المصالحة التى تضمنت قبول أبو قرجة وكبار ضباطه أوامر الخليفة •

هذا هو ما كان عليه الموقف فى شرق السودان عندما عرفت أنباء

هزيمة النجومى فى توشكى بعد ثلاثة أشهر . وفى ١٦ من ذى الحجه (١٣ أغسطس ١٨٨٩) استدعى الخليفة عثمان دقنة الى أم درمان . وفى ٩ من محرم ١٣٠٧ (٥ سبتمبر ١٨٨٩) أرسلت تعليمات مشابهة لمحمد خالد . فوصلا لام درمان فى شهر اكتوبر حيث اتخذت قرارات سياسية اتضحت طبيعتها فى الشهور القليلة التالية . ولم يعد محمد خالد للشرق ولكن عثمان خرج فى شهر ديسمبر ومعه خطابات للقبائل تحثها على التعبئة . وكان هدف الخليفة هو انعاش الدعوة الى الجهاد فى منطقة سواحل البحر الأحمر بهدف تشتيت انتباه السلطات الانجليزية المصرية فقد كان من المقرر أن يتقدم عثمان دقنة بقواته نحو ميناء القصير المصرى .

وتضافرت الظروف على فشل هذه الخطة الجريئة . وقد بقى أبو قرجة بلا حراك خلال غيبة عثمان وشغل نفسه خفية بمراسلات مع سواكن تنم عن خيانته . فلم يكن متحمسا لمواصلة القتال ولكن الثراء والأرض التى حصل عليها خلال المهدية أبقت على تبعيته للنظام ولو ظاهريا . وقد استدعاه الخليفة فى ١٢ من شعبان ١٣٠٧ (٣ أبريل ١٨٩٠) وفى ١٦ فبراير ١٨٩٠ توفى الطاهر المجذوب أول حلفاء عثمان وأكثرهم نفوذا فى الشرق . وبعد أن وصل عثمان ذاته الى كسلا لم يبد رغبته للتقدم الى ما هو أكثر من ذلك برغم أن الخليفة أرسل له فى مارس ومرة أخرى فى مايو ليتعجل تقدمه نحو طوكر . وكان لديه من الأسباب ما يدعوه الى التوقف عن الجهاد لأن شرقى السودان كان يعانى اذ ذاك من قمة المجاعة العظمى .

وتابعت السلطات العسكرية الانجليزية — المصرية فى كل من سواكن والقاهرة مجرى الأحداث بالسودان باهتمام . وغلب على فكر العسكريين البريطانيين نفاذ الصبر والسخط على الهزائم والفشل اللذين منوا بهما فى السودان منذ عام ١٨٨٤ فكانوا متحمسين لاستعادة هيبتهم التى ضعضعها الأنصار . وبرغم أن الفريق العسكرى حصل على تأييد قوى من جانب الرأى العام والصحافة والملكة فيكتوريا الا أن أفكارهم لم تجد حماسة من جانب بيرنج فى القاهرة أو من قبل الحكومات البريطانية

المتعاقبة سواء أكانت حكومة أحرار يرأسها جلادستون أو حكومة محافظة يرأسها لورد سولسبرى • وكان الأحرار فى راى الشعب البريطانى هم الأكثر استحقاقا للوم نتيجة لفشل حكومة جلادستون فى انقاد حياة غوردون كما أنها كانت مسئولة من الناحية السياسية عن حملتى جراهام الفاشلتين ضد عثمان دقنة فى عامى ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ • وبرغم ان سولسبرى والمحافظين قد تولوا الحكم من أغسطس ١٨٨٦ الى أغسطس ١٨٩٢ الا أنهم لم يصيخوا سمعا لرأى العسكريين فيما يتعلق بشرقى السودان ـ ولو بصورة محدودة ـ حتى فبراير ١٨٩١ •

ولا شك أن الانتصار فى معركة توشكى قد أرضى السلطات العسكرية البريطانية حيث يمكن اعتباره الهزيمة الكبرى الأولى التى منى بها الأنصار على أيدى القوات المصرية أو الانجليزية وذلك رغم أنه لم يتعد كونه اجراء دفاعيا ـ وبرغم توقعات السودانيين لم يستقر الرأى على التقدم جنوبا بمحاذاة النيل • وبعد معركة توشكى بدأت السلطات العسكرية تمارس ضغطا مستمرا ومتزايدا فى سبيل التقدم فى المناطق المجاورة لسواكن ويظهر هذا فى المذكرات المرفقة بتقارير المخابرات المرسلة من سواكن الى القائد العام المساعد فى لندن • وتزعم هذا الاتجاه هولد سميث (Halled Smith.) الحاكم العام لسواحل البحر الأحمر ، والسردار جرانفيل (Grenfell) ودورمر (Dormer) القائد العام بمصر •

وقد صورت المذكرات التى أرسلت فيما بين أغسطس وديسمبر ١٨٨٩ اضمحلال قوة المهدية فى منطقة طوكر ورغبة القبائل المحلية فى عودة الحكم المصرى ، وعجزها عن التخلص من الحكم المهدوى دون مساعدة • وفى أوائل ١٨٩٠ برزت مسألة أخرى • ففى ذلك الحين كان التبادل التجارى مع القبائل المحلية مستمرا عن طريق سواكن • وأدى استيراد القمح الى التخفيف من الصعوبات التى ترتبت على المجاعة الى حد ما واعترضت الأجهزة العسكرية بشدة على هذه السياسة حيث أنها كانت بمثابة المساهمة فى اطعام العدو ، بينما نظرت السلطات السياسية

الى الأمر نظرة مخالفة ــ حيث كان من المرغوب فيه كسب مساعدة القبائل التى لم تلتزم بالمهدية التزاما كاملا • وبقى على كتشنر ــ باعتباره قائما بأعمال السردار فى صيف ١٨٩٠ ــ أن يعمل على تعديل السياسة الرسمية• ففى مذكرتيه المؤرختين ١٩ يوليو ، ١٢ أغسطس لفت النظر الى أهمية هندوب باعتبارها سوقا للأنصار ، والى كثرة هروب جهادية الحكومة من سواكن ، وأهمية قمح سواكن بالنسبة الى عثمان دقنة فيما يتعلق بتموين قواته استعدادا لمهاجمة مصر • وفى ١٢ أغسطس أغلق القائم بأعمال الحاكم العام ميناء ترنكتات الواقع تحت الادارة المصرية فى وجه التجارة وبعد بضعة أيام أخرى منع خروج الغلال من سواكن بحجة اقامة محجر صحى منعا لانتشار وباء الكوليرا •

وأحرز هذا الاجراء نجاحا فوريا ومرضيا • وكتب كتشنر فى مذكراته بتاريخ ٢١ سبتمبر : « يبدو أن ايقاف امداد الدراويش بالحبوب من سواكن تنفيذا لاجراءات الحجر الصحى (الكارنتينة) أدى الى النتائج المتوقعة فتفرق المعسكر الموجود فى هندوب بالاضافة الى أنه نبه قبيلة الهندوب (فى الهدندوة) الى أهمية الابقاء على علاقة طيبة مع الحكومة » (١) •

وجاءت مذكرة دورمر أكثر صراحة اذ جاء فيها ما يلى : أن الخوف من الكوليرا كان مفيدا على الأقل من احدى النواحى ، اذ أنه أمدنا بحجة لوقف السياسة الانتحارية الخاصة بالتجارة الحرة فى الغلال وامداد الدراويش الثوار (دون الأهالى البؤساء المساكين) بالغذاء الذى يمكنهم من مواصلة أعمالهم العدائية ضد الحكومة » (٢) •

وبينما أدى وقف الاتجار فى الغلال الى اكمال الأثر الذى أحدثته المجاعة وهو جعل الجهاد فى الشرق أمرا مستحيلا ، فان السلطات العسكرية كانت تبحث عن وسائل أخرى لاقناع بيرنج وسولسبرى بالسماح لها بالهجوم • وكانت هذه الحجة قد اكتشفت خلال شهرى فبراير ومارس عندما أثارت مذكرات دورمر وهولد سميث المخاوف من

---

(١) Suakin Series 116, 2

(٢) Ibid.

الاحتلال الايطالي لكسلا • ومن ثم أرسل بيرنج لسولسبرى يزكى احتلال طوكر ولكن سولسبرى رفض المشروع • وتضمن تقرير المخابرات لشهر يوليو عريضتين أرسلهما شيوخ الهدندوة للخديو والحاكم العام يطلبون فيها ارسال قوة لاستعادة الاقليم وقد جاء فى العريضتين ما يلى : « بلغتنا الأخبار بأن الجيش الايطالي يتقدم بالتدريج نحو كسلا وعلى بلادنا ولكننا نرغب فى حفظ بلادنا للحكومة السابقة وليس لدينا سواها فى الدنيا » (١) •

وبعد تآمر كتشنر مع القائم بأعمال الحاكم العام فى أغسطس عاد درومر وجرانفيل الى الهجوم ومرة أخرى وضعت رغبة الأهالى المحليين فى المقدمة ولكن أشارت مذكرة كتبها جرانفيل فى شهر ديسمبر الى مرور الممنوعات الى الأنصار فى ميناء تحت الادارة الايطالية • وتابع بيرنج ، الذى تفاوض دون جدوى خلال الصيف مع ايطاليا بشأن الحقوق المصرية فى السودان ، ضغطه على سولسبرى للاستيلاء على طوكر وأخيرا أعطى هذا موافقته بتاريخ ٧ فبراير ١٨٩١ • وقد سبق هولد سميث فى سواكن هذا القرار بسلسلة من التحركات ضد المراكز المهدية وتم الاستيلاء على هندوب فى ٢٧ يناير • وفى ٨ فبراير غادر هولد سميث سواكن الى ترنكتات ومنها تقدم الى عفافيت ، التى كانت معسكرا للمهديين بجوار المركز المصرى السابق فى طوكر الذى تحول الى أطلال • ولم يقدر كل من هولدسميث وبيرنج مدى قوات عثمان دقنة ، وفاجأ الهجوم الذى قام به الأنصار فى ١٩ فبراير القوة الانجليزية المصرية التى استطاعت رغم ذلك أن تلحق الهزيمة بالأنصار • وهرب عثمان دفنة واتجه مباشرة الى أم درمان — وبرغم الدور الذى سيلعبه فى الأعوام التالية من حكم المهدية الا أنه فقد مكانته ومركزه القديمين • وكان سقوط طوكر تتمه لهزيمة توشكى التى حدثت قبلها بثمانية عشر شهرا — ويمكن أن نعتبر هذين

---

(1) Suakin Series : 110, 6.

الحدثين معا دليلا على توقف الجهاد المهدوى • ومنذ ذلك الوقت كان على الخليفة أن يتخذ موقف الدفاع فى وجه القوة المتزايدة للقوات العسكرية الخارجية •

٣ — المجاعة الكبرى وسياسة الخليفة الاقتصادية الجديدة :

سبقت الاشارة الى المجاعة الكبرى التى اجتاحت السودان ابتداء من عام ١٣٠٦ هـ وهى السبب الرئيسى لفشل الجهاد فى كل من شمال السودان وشرقيه • وقد شملت تلك المجاعة بصفة عامة المناطق التى تولى الخليفة الحكم فيها • وكان محصول عام ١٣٠٦ هـ (أواخر ١٨٨٨) سيئا ولم يصبح محصول الغلال كافيا الا فى أواخر ١٨٩٠ • وزاد الموقف سوءا فى بداية المجاعة بسبب وجود ثلاثة جيوش كبيرة اتخذت معسكرا لها فى كل من دنقلة والقلابات ودارفور • وقد أبلغ النجومى فى أوائل ربيع الأول ١٣٠٦ هـ (نوفمبر ١٨٨٨) عن سوء حال القوات الشمالية • ويبدو أن المجاعة تأخر موعدها فى الغرب اذ لم يشر اليها عثمان آدم قبل شهر ذى الحجة ١٣٠٦ هـ (أغسطس ١٨٨٩) • ولم تطرأ فى البداية صعوبات كبيرة فى المنطقة الواقعة بين القضارف والقلابات ولكن مشترى الحبوب بدءوا يأتون من المناطق المجاورة لشراء الكميات الموجودة •

هذه هى المشكلة التى واجهت أبو عنجة عقب عودته للقلابات فى ربيع الثانى ١٣٠٦ (ديسمبر ١٨٨٨) • فبينما كانت الحامية فى أشد الحاجة الى الغلال كان أهالى المنطقة يبيعون الغلال للتجار من أقاليم كسلا وسواكن وبربر • ومن ثم أصدر أوامره لجميع كبار المنتجين لكى يحضروا غلالهم الى سوق القلابات بينما كلف صغار الزراع الذين كانت تعوزهم دواب النقل بجلب غلالهم للقضارف وثلاث مراكز أخرى • ومنع نهائيا بيع الغلال خارج هذه الأسواق •

وقد أمر الخليفة بايقاف هذه التعليمات • ففى خطاب تاريخه ١٦ من جمادى الأولى ١٣٠٦ (١٨ يناير ١٨٨٩) كتب لأبو عنجة يخبره بأنه كان من واجبه أن يطلع عبد الله فى البداية على مسألة بهذه الأهمية العامة • وكان الخليفة قد خول أمناء بيت المال فى أم درمان وكسلا باصدار تصاريح

لشراء الغلال — ومن ثم تقرر الاستمرار فى البيع لحاملى تلك التصاريح على الا يسمح ببيع اى شىء للمشترين الذين لا يحملون تصاريح — فقد كان الخليفة يخشى انتشار الشائعات عن منع نقل الغلال من هذه المناطق •

وقد تزايدت حـدة المجاعة فى فترة دقيقة بوجه خاص ، اذ أنهـا حدثت فى الوقت الذى هاجر فيه التعايشة الى أم درمان — اذ أن امداد قوافلهم بالمؤن أثناء مرورهم فى كردفان كان يمثل مشكلة حادة ، وعندما وصلوا الى أم درمان زودوا بغلال منخفضة السعر نسبيا • وزاد الموقف سوءا فى أم درمان بسبب اندفاع سكان الضواحى البؤساء اليها هربا من التضور جوعا فى قراهم ليتضوروا جوعا فى العاصمة • ويذكر أورفالدر وسلاطين وشقير قصصا صارخة عن السودانيين وما أصـابهم من مآس وأن يكن اللاجئون — وفقا لمـا ذكره سلاطين — هم الأكثر تعرضا لسوء الحال من سكان المدينة • وقد خفف جزئيا من حدة المـأساة فى العاصمة الغلال التى جلبت من الشيلوك بفاشودة •

وأدى اصرار الخليفة على الحصـول على غلال لقواته المسلحة فى أم درمان بأى ثمن الى اسقاط ابراهيم محمد عدلان المسئول عن خزينة بيت المـال • وقد أثبت منذ خلف أحمد سليمان فى أبريل ١٨٨٦ كفاءته العظيمة فى ادارة الشئون المـالية ، وبرغم استغلاله لوظيفته الا أنه تمتع بشعبية كبيرة لدى جماهير الشعب واستخدم نفوذه لحمـاية الفقراء من الأعباء المتزايدة التى تحملوها بسبب ما كانت تفوضـه عليهم الطائفـة العسكرية المتزايدة من تكاليف • ويبدو أنه أثار حسد يعقوب وأن يكن من الصعب فى غيبة الشواهد الوثائقية المباشرة تحديد العوامل الشخصية التى دفعت يعقوب الى ذلك • ومن الممكن ألا يكون دور يعقـوب فى القصة أكثر من مجرد الناطق باسم التعايشة (بصفته القائد المساعد للراية السوداء) — وكان التعايشة — وفقـا لمـا يذكره سلاطين — شـديدى التحامل ضد عدلان •

وكان قد حدث نزاع بين عدلان والخليفة فى عام ١٣٠٦ هـ جـرد بعده أمين بيت المـال من مكانته ثم حبس — ويبدو أن حبسه النهائى قد

جرى فى جمادى الأولى سنة ١٣٠٧ هـ (يناير ١٨٩٠) — وذلك بعد انتهائه من جولة قام بها فى الجزيرة لجمع الحنطة اللازمة للقوات الموجودة فى أم درمان • وقد فشل فى جمع ما فيه الكفاية لارضاء سيده لأنه أبى الاستيلاء على الغلال بالعنف والقسوة كما طلب الخليفة • وقيل أن يعقوب عيره بأنه ذهب فى أجازة قضاها مع رجال قبيلته الخوالدة والمغزى المقصود هنا هو أنه قدم الحماية لرجال قبيلته على حساب التعايشة • وهناك قصة أخرى تصور عدلان وهو يحدث الخليفة بأنه نفر قلوب رعيته بسبب محاباته للتعايشة ثم يقدم له استقالته من منصبه بسبب ذلك •

وأيا كانت تفاصيل النزاع فقد قبض على عدلان وحبس • واستطاع فى حبسه أن يرشو حارسه ادريس الساير حتى يسمح له بالعودة لمنزله ليلا ، وهناك حرق أوراقه وخبأ ثروته • وبعد قليل من الأيام — ربما فى أول رجب (٢١ فبراير) شنق فى السوق وقابل مصيره الأخير بكبرياء وشجاعة كبيرين •و قد جرى اعدامه بصفة رسمية اذ أعلن عنه بنفخ النفير الكبير ، أمبايا ، وحضر الاعدام يعقوب على رأس الفرسان وكذلك الخليفة على بن محمد حلو • ولما لم يكن سبب سقوطه قد أعلن فقد سرت الشائعة فى ذلك الحين بما كان من تبادله المراسلات مع مصر • ولا يوجد أدنى دليل على صحة ذلك : فقد مات لأنه لم يستطع أو لم يشأ تقديم خدماته الكاملة لسياسة الخليفة القاسية بشأن ضرورة امداد أم درمان بالغلال بأى وسيلة من الوسائل •

وبعد سقوط عدلان وضعت الخزينة لفترة قصيرة تحت اشراف كل من محمد الزاكى عثمان والعوض المرضى والأول من التعايشة ولعله قصد بتعيينه ترضيتهم بينما وفر العوض المرضى الخبرة الفنية اللازمة لادارة الشئون المالية — وكان قد سبق للعوض العمل ككاتب أول فى كسلا تحت حكم المصريين • ولم يكن هذا الازدواج فى الاشراف الا اجراء مؤقتا بدليل أن الخليفة أخطر عثمان دقنة فى الخامس من شعبان عام ١٣٠٧ه (٢٧ مارس ١٨٩٠) بأنه قد تم تعيين النور ابراهيم الجريفاوى أمينا للخزينة •

وكان النور من تجار الخرطوم أثناء الحكم المصرى ثم عين أمينا للخزينة المحلية ببربر ومن هناك استدعاه الخليفة وقد حدد اول عمل له عقب وصوله لأم درمان فى ١٦ من رجب (مارس) وهو تكرار الجولة التى قام بها عدلان فى الجزيرة بحثا عن الغلال ومنحه سلطات كاملة على العمال المحليين بهدف جلب الحنطة لأم درمان وطلب منهم الطاعة التامة لجميع أوامره •

ويختلف العنف الذى اصطنعه الخليفة فى الجزيرة عن الخطوات الاقتصادية التى اقترنت بسياسة التهدئة التى اتبعها فى الشمال حيث فتح باب التجارة مع مصر تخفيفا عن سكان دنقلة وبربر وتعزيزا لخزينة أم درمان • وشجع حمودة ادريس ، بتوجيه من الخليفة ، سكان الأقاليم على التوجه الى وادى حلفا والاتجار معها بل وصل به الأمر الى حد امدادهم بمال من خزينة الأقاليم لشراء غلال وملابس وبهارات • وكانت المعلومات التى جاء بها مثل أولئك التجار مفيدة للقواد المهدية • وعمل الخليفة خلال هذه الفترة التى اتسمت بالحرية التجارية على منع تحصيل ضرائب فادحة من التجار القادمين من مصر • وتم تبادل البضائع المستوردة بالصمغ العربى الذى كان حكرا لخزينة أم درمان • وعندما أصبح النور أمينا على الخزينة حاول ارغام التجار الذين دخلوا السودان من مصر على التوغل الى أم درمان حتى تستفيد هذه البلدة ماليا منهم وكان هذا الاجراء مضادا لرغبات التجار ودون شك ضد رغبات الأسواق الوسيطة فى أبو حمد وبربر •

وقد لقى تخفيف حدة السياسة التجارية فى الشمال مزيدا من التشجيع فى أوائل عام ١٨٩٠ عندما أرسل محمد خالد (وهو دنقلاوى سبق له العمل بالتجارة) مع أمناء آخرين لدراسة الأحوال فى أبو حمد ودنقلة ولاتخاذ اللازم نحو تشجيع التجارة • وسرعان ما لمس الناس ما ترتب على وجوده من أثر حسن • وقد استدعى فى فبراير للاستشارة ولكنه عاد فى أبريل ليشغل مركز يونس الدكيم باعتباره حاكما لدنقلة • وفى ذات الوقت عين الجعلى على سعد فرح على دنقلة ولكنه توفى فى

طريقه اليها • وما حل شهر يونيو حتى كان أبو قرجة فى بربر وأن اقتسم القيادة مع التعايشى عثمان الدكيم — وبرغم ذلك فان كل الدلائل فى ذلك الوقت كانت تشير الى أن الخليفة قد عدل عن سياسته التى قامت على استئثار التعايشه واعوانهم وحدهم بالمراكز الكبرى • ففى المناطق الواقعة على المجرى الرئيسى للنيل على الأقل استعاد « أولاد البلد » سلطانهم •

واتضح اتجاه محمد خالد نحو التجارة من خطاب أرسله الى تاجر فى صعيد مصر وعد فيه بحماية جميع التجار وصرح لهم فيه بالتصرف فى تجارتهم حيثما شاءوا مع تأمين عودتهم لمصر (١) واستبدل حمودة ادريس بأقدم قواد النجومى عثمان محمد عيسى الذى عرف باسم عثمان الأزرق وهو دنقلاوى آخر • وقد تلقى تعليمات محمد خالد بتشجيع انتقال التجار عبر نقطة الحدود فى ساورده ، واعداد الترتيبات بحيث لا يستأنف أى من الفريقين على جانبى الحدود القتال الا بعد اعطاء اخطار بذلك أو مهلة مناسبة للفريق الآخر (٢) • وما كان تجار مصر ليغفلوا عن الافادة من الفرص الجديدة التى منحت لهم — وجاء فى تقرير عن شهر أغسطس أنهم حصلوا — بعد سداد الرسوم التى فرضتها السلطات المهدية عليهم — على مكاسب تبلغ ١٠٠٪ فيما يتعلق بالمنسوجات ، ٢٥٠٪ بالنسبة الى الزيت ، ٣٠٠٪ بالنسبة الى السكر ، ٤٠٠٪ بالنسبة الى الصابون •

وانتعشت التجارة أيضا مع سواكن ولكن المظهر العسكرى هنا كان أكثر وضوحا • وبالاضافة الى تجارة الغلال التى اعترضت عليها سلطات سواكن باعتبارها مسئولة عن امداد العدو بالمؤن اللازمة له لمواصلة الجهاد فقد كانت هناك تجارة كبيرة فى الرصاص وغيره من المواد الحربية مع الحجاز (مع اعتبارها من المحظورات) بل ومع سواكن نفسها • وتنبهت السلطات الانجليزية المصرية لذلك وأكدت على انتعاش تجارة الرقيق عبر البحر الأحمر لدفع ثمن هذه الذخائر • ومجرد الاشارة الى تجارة الرقيق وانتعاشها كان ورقة رابحة لدفع السياسة البريطانية نحو

---

(١) FFF, 233, 4

(٢) Ibid. 231, 2

العمل . ولكن تصدير الرقيق من السودان فى تلك الآونة كان محصورا فى اضيق الحدود ــ فالسوق المحلى كان قادرا على امتصاص الكثير من الرقيق الموجودين كما أمر الخليفة بمنع تصدير الرجال وذلك لاحتياجه اليهم فى الجهاد .

والواقع أن السلعة الوحيدة المصدرة التى أشارت اليها خطابات الخليفة لعثمان دقنة هى العاج الذى كان حكرا على خزائن المهدية . وفى ٩ من رجب عام ١٣٠٧ هـ (أول مارس ١٨٩٠) أبلغ الخليفة عثمان دقنة بأن عمر كيشة ــ وهو من تجار سواكن ــ قد أعطى له عاج خزينة أم درمان فسافر به لكى يبتاع بثمنه ذخائر . وشدد خطاب آخر تاريخه ٩ من شوال (٢٨ مايو) على الأهمية العاجلة للحصول على البارود والقصدير وعين عمر كيشة ليقوم بدور مندوب بيع سن الفيل تحت اشراف عثمان دقنة . وأشارت مراسلات أخرى الى نفس الموضوع الى أن أوقف الاستيلاء على طوكر هذا النوع من التجارة السودانية ، التى ساهمت الى حد كبير طوال استمرارها فى ملء مخازن أم درمان التى كانت خاوية .

وفى تلك الأثناء حاول الخليفة تشجيع انعاش الزراعة وكان هذا هو موضوع حديثه الى الضباط اللذين تجمعوا فى عيد الأضحى عام ١٣٠٧ (أغسطس ١٨٩٠) وبعد سنة تخللها سقوط طوكر : أعلن فى الخطاب الذى ألقاه بعد الاحتفال أنه لا يفكر فى ذلك الوقت الا فى السلام وأنه سيحافظ على هذه الخطة ما لم يتعرض الهجوم من الخارج . وبناء عليه تحتم على جميع شيوخ الأقاليم وأمرائها العودة الى قياداتهم حتى يولوا كل اهتمامهم الى تحسين زراعة أراضيهم (١) وأعاد الخليفة فى العام التالى تأكيد حديثه السابق .

٤ — ثورة الأشراف ونتائجها :

لم يدم « لأولاد البلد » الوضع المتحسن المتمثل فى تعيين محمد

---

(1) Eastern Sudan Series (E S) : 12, 5

خالد وعلى سعد وعثمان محمــد عيسى وأبو قرجة الا لفترة وجيزة •
اذ بدت معالم المتاعب التالية فى الربع الأول من عام ١٨٩١ • ففى خلال هذه الشهور تهددت وضع الخليفة أخطار داخلية وخارجية • ففى الشرق ضاعت طوكر ، وفى الشـمال زار الخديو توفيق وادى حلفـا فى يناير ١٨٩١ وتلت ذلك فى شهر مارس مناورات قام بها الجيش المصرى على الحدود • واعتبرت السلطات السودانية هذين الحادثين بمثابة مقدمة للغزو • وفى أم درمان وصل الخلاف بين عبد الله والغزالى أحمد خواف الى قمته وقبض على شيخ التعايشة الوراثى واحتجز فى السجن لبضعة أشهر بعد تحرك رجال قبيلته فى أوائل ١٨٩٠ من أم درمان • وبعد عام تقريبا أمكنه (أى الغزالى أحمد خواف) الافلات للغرب ولكنه طورد واغتيل • وأثبت هذا الحدث عجز عبد الله عن الاعتماد على رجال قبيلته فقد كانوا عبئا عليه أكثر مما كانوا عونا له مما دفعه الى محاولة ارهابهم ثم مصالحتهم •

وسرعان ما طغت أزمة دنقلة على هذه المشـكلة • فقد خشى عثمان محمد عيسى أن يقوم المصريون والانجليز بالزحف على ساواردة ولهذا أرسل الى العرضى يطلب تعزيز قواته • وتصادف فى ذلك الحين أن محمد خالد كان متغيبا لأنه كان يقوم بجولة فأصدر نائبه مساعد قيدوم أمره بارسال امداد من أولاد البلد • وأثار هذا خلافا بين مساعد ومحمد الطيب البصير قائد أولاد البلد • وعند عودة محمد خالد قرر الغــاء أوامر مساعد وأعطى تعليماته باجراء استعراض عام • وقــدم مساعد وعربى دفع الله (الذى تولى قيادة الجهادية) شكاوى مفادها أن البقارة والجهادية غير راضين عن أجورهم وجراياتهم • وقــد أهمل محمد خالد هــذه الشكايات ومن ثم أقسم المتذمرون على قتله هو وأولاد البلد واكتشف أمر المؤامرة ولكن محاولات محمد خالد لعزل عربى ونزع سلاح الجهادية باءت بالفشل • وكتب كل من الفريقين الى الخليفة شاكيا ووجه عربى اتهاما خطيرا لمحمد خالد بأنه يضعف ولاء الجهـادية ويفكر فى الهرب الى مصر •

حدث هذا فى مارس عام١٨٩١ — وأرسل الخليفة ، وفقا للتقليد الذى جرى عليه فى علاج مثل تلك الخلافات ، وكلاء عنه لدراسة الموقف • ومن الأهمية بمكان أن أحد أولئك الوكلاء كان الحاكم السابق يونس الدكيم — وقد وصلوا العرضى فى شهر أبريل وأرسلوا كلا من عربى ومساعد الى أم درمان • وبدأ نجم محمد خالد فى الأفول ثانية من الميدان بعد أن تسلم يونس قيادة الجهادية والبقارة • وبعد ذلك بوقت قصير تم استدعاء محمد خالد — وبرغم أنه غادر دنقلة دون أن يبدو ما يدل على عدم الرضى عنه الا أنه وضع فى السجن عقب وصوله الى أم درمان • وعندئذ استعاد يونس صلاحياته باعتباره حاكما لدنقلة • ورغم ذلك كان الموقف فى الاقليم أفضل مما كان عليه خلال فترة حكمه السابق • واستمرت عودة اللاجئين من مصر • وذكر فى أغسطس ١٨٩١ أن عددا كبيرا منهم قد طلب العودة • وفى نوفمبر ١٨٩٥ طلب عدد من الدناقلة من ولفريد سكاون بلنت (Wilfrid Scawen Blunt) — أثناء زيارته لوادى حلفا — أن يتوسط فى مسألة السماح لهم بالعودة الى بلادهم — وجاء سرده للحادث شيقا : (وقد ذكروا لى أنهم سينالون « الأمان » هناك ، وأن الخليفة صرح بعودة اللاجئين وانهم يستطيعون استعادة أراضيهم دون عقبات وان حدة الاستبداد قلت عما كانت عليه ، وانهم سيكونون أكثر راحة هناك مما هم عليه هنا وان سكان دنقلة نقصوا كثيرا عما كانوا عليه بسبب استمرار الهجرة على مدى سبع سنوات من جراء المجاعة بحيث أصبحت الأرض متوفرة لكل الراغبين فى العودة ••• وأخبرونى بأن الخليفة يأخذ العشر نوعا ولكن البقارة المكلفون بالتحصيل من قبل الحكومة يستبدون خلال التنفيذ وأيضا أن أحدا لا يجازف باظهار ثرائه فكل زيادة فى الثراء مصيرها الى بيت المال وان التدخل فى شئون الناس قد توقف ما داموا قانعين بزراعة القليل من الفدادين والعيش على ما تنتجه • وان زادت أموالهم فما عليهم الا اخفاؤها تحت الأرض • وقد استطعت أن أفهم منهم أنهم يعتبرون استقلال بلادهم عن الحكومة (المصرية) ميزة طيبة بعد أن انتهى الظلم

الشديد الذى تعرضوا له » (١) •

وفى أم درمان كان سخط الأشراف قد ازداد منذ الانهيار المفاجىء لمركزهم فى عام ١٨٨٦ — وقد وصل هـذا السخط الى قمته فى نوفمبر ١٨٩١ — وكانت لهم طائفة كبيرة من المؤيدين المحتملين هم أولاد البلد عامه وبخاصة الدناقلة العـاملون على الأنهـار والمستقرون على أرض الجزيرة • وكانت شكاواهم متعددة — فقد أهين الخليفة محمد شريف وجرد من المركز الذى اعتقـد أنه حق له وأهمل أولاد المهدى وتركت أرامله ليعشن فى ضيق وضنك وفقـدت القبائل النيلية نفوذها السابق وأصبحت بضائعها وأراضيها وأرواحها تحت رحمـه البقـارة عديمى النظام • كما كانت لهم شكاواهم الاقتصادية (٢) فأراضى المزارعين كانت عرضة للمصادرة بينما ارتفعت ضريبة الغلال — وهى عشر من الناحية الاسمية — الى النصف وتذمر التجار بسبب الرسوم المتكررة التى كانت تفرض على تجارتهم خلال نقلهـا • وشكا الملاحون من الاستيلاء على بعض مراكبهم ومن الضريبة التى فرضت على الباقى واعترض أصحاب الابل على الضريبة التى كانت تفرض على دوابهم بينما شكا المقيمون بجوار النهر يوميا من الرسوم المفروضة على المعديات (أو ضريبة المعابر) وكانت كل هذه الرسوم تؤثر على أولاد البلد أكثر مما تؤثر على البقارة•

ويذهب أورفالدر الى أن زج محمد خالد فى السجن هـو الذى عجل بقيام الثورة • وقد سبق ذلك خلال شهر أكتوبر عقـد اجتماع حضره الخلفاء الثلاثة وقاضى الاسـلام أحمد على فى منزل أحمد شرفى (جد الأشراف) • وقدم الخليفة محمد شريف احتجاجاته الصارخة التى كادت تؤدى الى معركة بالأيدى ، ولكن أمكن فى النهاية التوصل الى

(1) W S Blunt : My Diaries pt I, 1888 — 1900, 201, London 1921

(٢) النقاط التالية وردت فى تقرير المخابرات — مصر (I. R. E) — رقم ١ ، ٢ باعتبارها مسائل وعـد الخليفة بمعالجتها عقب مصالحته مع الخليفة محمد شريف . وهناك احتمال بأنها كانت تمثل الشكاوى التى كان أولاد البلد يأملون فى أن تعالج فى حالة حدوث انقلاب ناجح . ومن المحتمل أنها ورد ذكرها فى رسائل بعث بها محمد شريف الى أنصاره .

مصالحة شكلية . ومع ذلك لم يغير أى من الطرفين موقفه . فقد أعدت مؤامرة لاغتيال عبد الله ولكن تم افشاء سرها على يد جعلى كان مشتركا فيها ؛ مما دفع المتآمرين الى التعجيل بتنفيذ خطتهم فتجمعوا فى مدفن المهدى ومن حوله فى مواجهة منزل عبد الله وكان يتزعمهم الخليفة محمد شريف وفتحت مخازن السلاح السرية ووزعت الأسلحة على حين تنبأ أحمد سليمان بانتصار الأشراف .

وفى تلك الأثناء أمضى عبد الله أمسية الاثنين ٢٣ نوفمبر وليلته (١) فى تجميع القوات واقامة نطاق حول الثائرين . وكلف الحرس الخاص بحماية منزله ومنع وصول المؤن والتعزيزات الى الأشراف . وسلح التعايشة ووضعوا بين منزله وبين الأشراف بينما أحتل يعقوب وأحمد فضيل المسجد بقوات قبلية وجهادية (٢) وما وافى الفجر حتى كان قد تم تطويق الأشراف ولكن عبد الله حاول تجنب الاشتباك لما قد يترتب عليه من خروج التعايشة عن طوعه وانتهازهم فرصة الموقف وتأزمه لنهب أم درمان والافلات الى دارفور — ومن ثم فانه شدد على قواته لمنع اطلاق النار كما أرسل قاضى الاسلام مرتين ليعقد اتفاقا مع الثوار ولكن الوساطة رفضت وحوالى الساعة العاشرة صباحا فتح الأشراف نيرانهم . وأجاب عليها رجال عبد الله برغم أوامره ولكن اطلاق النار من كلا الجانبين كان متقطعا غير منتظم ولم يتسبب عنه الا القليل من الخسائر . ومرة أخرى أرسل عبد الله وفدا من المفاوضين على رأسه الخليفة على بن محمد حلو وفى هذه المرة قوبلت البعثة بالرضا واستمرت المفاوضات طوال الليل .

وفى يوم الأربعاء ٢٥ نوفمبر تم الاتفاق على شروط تعهد عبد الله

---

(١) يتبع هذا السرد تأريخ سلاطين وشقير له . وجاء سرد الأحداث كما يصفه أورفالدر شديد الشبه بهذا ولكنه يذكر أنه لم تحدث اضطرابات حتى يوم الأربعاء .

(٢) كان أحمد فضيل منذ وقت قصير قد خلف فضل المولى صابون فى قيادة الجهادية .

بتنفيذها وحلف على ذلك • وتقرر العفو الشامل عن جميع المشتركين فى الحركة على أن ينال الخليفة محمد شريف كل مظاهر التكريم وفقا لمركزه ويخصص له مكان فى مجلس الدولة كما يستعيد رايته التى صودرت منه فى سنة ١٨٨٦ ويسمح له بضم المتطوعين ، كما صرح له أيضا مع أبناء المهدى وأرامله بتلقى مبلغ شهرى من الخزينة ، على أن يسلم الأشراف بدورهم أسلحتهم ويقدموا الطاعة الكاملة لعبد الله • ولم يوضــع البند الأخير موضــع التنفيذ الا بعد صعوبات كثيرة ، وظل رجال الحرس الخاص والجهادية يحملون سلاحهم بالمسجد ليومين أو ثلاثة أخرى بعد توصل الخلفاء الى مصالحه •

وقــد قام الخليفة ـــ وقد اطمأن الى زوال الخطــر المباشر على سلطته بتحريات سرية • وبعد حوالى ثلاثة أسابيع قبض على سبعة من الأعيان الذين اتهموا بالاشتراك فى الثورة وكان من بينهم أحمد سليمان واثنان من سكرتيرى الخليفة • ولكى يبرر سلوكه هذا بعد العفو العام الذى أصدره استعان الخليفة بسلطة المهدى وبما نسبه اليه من تعليمات أعطــاه اياها فى حضرة نبوية ـــ واستعان فى سبيل تعزيز تصرفه ببيان المهدى الصادر فى ١٧ ربيع الأول ١٣٠٠ هـ • الذى منح عبد الله صلاحيات مطلقة • ونقــل الأعيان السبعة بالباخرة فى النيل الأبيض حتى فاشودة حيث ضربهم الزاكى طمل حتى الموت •

وحينئذ بدأ الخليفة يوجه ضرباته الى قوات الخليفة محمد شريف وأعوانه وخاصة الجهادية والأشراف والدناقلة بالجزيرة • وفى ١١ جمادى الثانية ١٣٠٩ (١٢ يناير ١٨٩٢) أشــار أحمد السنى وهــو مندوب للخليفة فى غرب الجزيرة الى الاجراء الذى اتخــذه لاعتقال الجهادية الموجودين فى منطقته فى معتوق والكوة وجزائر النيل الأبيض وأشار الى الترخيص الذى منحه له الخليفة محمد شريف لاعفائهم من كل تدخل فى شئون ممتلكاتهم • ولكنهم وضعوا فى معتوق انتظارا لأوامر عبد الله وقبض أيضــا على ستة من الأشراف فى الجــزر بينهم ابن محمــود عبد القادر الحاكم السابق لكردفان والقائد المساعد لجهــادية الخليفة محمد شريف •

وفى ٢٤ جمادى الثانى (٢٥ يناير) وصف احمد السنى كيف تم له اعتقـال الدناقلة بالكوة : « وعندما كنا فى بلدة معتوق خرجنا متجهين مباشرة الى الكوة ليـلا ... وبتنا فى العراء خارجها بعـد ان أحكمنا الحراسة على كل القرية ، دون أن يشعر بنا أحد . وبعد صـلاة الفجر نبهنا على جميع الرجال من سكانها بالخروج من منازلهم الى السـاحة الواقعة امام القرية ... وبعد ذلك امرناهم بالتفرق بحيث يكون رجال كل قبيلة فى مكان واحـد . وعندما تم ذلك اخطرنا الدناقلة بأننا أمرنا بالقبض عليهم وارسالهم الى سيدنا خليفة المهدى . وطلبنا منهم اذا كانوا من الرجال المخلصين المطيعين أن يسلموا سلاحهم . والا فليذكروا ما يعن لهم من قول . وكان هذا يا سيدى بعد أن وضعنا قدرا كافيا من الجهادية المستعدين بسلاحهم . وعندما شاهدوا هذا المنظر المخيف أجابوا علينا بالطاعة .. وفـورا تم اعتقالهم ووضعوا فى الأغلال كما وضعنا عليهم حراسـة كافيـة . وعندئذ اتجهنا الى بقية القبائل وأعطيناهم أمان الله ورسوله وأمان خليفة المهـدى وأبلغناهم برضاكم عنهم ... وبعدئذ قدمنا للدناقلة كشوفا مكتوبة ليدرجوا فيها جميع ممتلكاتهم وقد أجابوا كما هو مكتوب فى البيان المرسل لسيدى يعقوب فيما عدا الغلال بسبب عدم علمهم بكميته حاليا ... ولمـا كان قاضى الاقليم حاضرا معنا فقد صدق على بياناتهم بطريقة شرعية . وبعدئذ عينا عددا كافيا من الاخوة الذين ذهبوا الى بيوتهم وأحضروا الأشياء التى كتبوها فى البيان المرفق باستثناء قلة من المواد والأشياء والبيوت الخ .. وجميع هؤلاء الأشخاص مع دوابهم وعبيدهم موجودون فى الكوة تحت حراسة مشددة فى انتظار ما تصدرونه من قرار بشأنهم (١) .

وقد بقى الدناقلة منكودو الحظ محجـوزين فى الكوة حتى شهر رمضان (أبريل) عندما تقرر الافراج عنهم بعد مصادرة ثلث ممتلكاتهم لبيت المـال . وقبل ذلك الوقت كان الخليفة محمد شريف نفسه قـد

---

(١) نعوم شقير : طبعة بيروت ص ١١٦٨ — ١١٦٩ .
وثائق مهدية ١/٩ ، ٣ ، ٢٠ .

جرد من آخر ما له من سلطة وألقى به فى السجن . فبعد قليل من احتفال الرجبية الذى جرى فى ٢٦ فبراير عقد اجتماع كبير فى أم درمان حضره الأعيان أمر عبد الله بالقبض عليه . حدث هـذا فى ٢ مارس ١٨٩٢ — وسرعان ما صدر قرار بسجنه على يد مجلس مكون من قاضى الاسلام أحمد على ، ٤٥ آخرين من الأعيان يبدو أنهم كانوا جميعا ممن انضموا للمهدية فى حياة المهدى . وطبع الحكم بمطبعة الحجر ووزع وكررت مسئولية الخليفة محمد شريف عن ثورة الأشراف ثم ما كان من مصالحته لعبد الله . وبعد ذلك جاء ذكر خروجه عن الطاعة لعـدم أدائه صلوات الجمعة وعدم ممارسته الحياة العامة وفقا للمهدية ونظمها : « وبناء عليه اجتمع رفقاء المهدى ، قضاة الشرع الحنيف ، أمراء وعمد وأعيان وسألوه عن كل هذا الأمر وسبب نقضه للعهد . واعترف بكل شيء مقابلا اياهم بأقبح المقال وتفوه بما يؤدى الى سوء الحال .. حتى قال : ان الغوث معه وفى حزبه وأن نصرة المهدية تحت قدمه وان الصحابة اعترضوا على النبى صلى الله عليه وسلم وغـير ذلك من سـوء المقال ... وما زالوا يراجعونه بالقول اللين الحسن وتلوا عليه منشـور المهـدى فى خليفته والمنشور الذى وجه اليه خاصة وأمره فيه باتباع خليفته وعدم خروجه عن أوامره فعند ذلك أظهر التوبة والندم واقتضى نظـر أصحاب المهدى طبق الوجه الشرعى وضعه بالسجن تأديبا له ولولا اظهار التوبة عمـا حصل منه لكان جزاءه أعظم من السجن ... » (١) .

وبعد هذه الفترة عاد الأشراف الى ما كانوا عليه من عجز سياسى منذ سنة ١٨٨٦ — وبقى محمـد شريف نفسه سجينا حتى عام ١٨٩٦ ، ولم يفرج عنه الا عندما أقنع الغزو الانجليزى المصرى لدنقلة عبد الله بأهمية مصالحة خصومه وتوحيد السودانيين فى وجه الخطر الخارجى .

---

(١) وثائق مهدية ٤٧/١ ، ١٠ ، ٢٢٤ .

الفصل الحادي عشر

اوتوقراطية التعايشي

١٨٩٢ - ١٨٩٦

١ ــ الأحوال الداخلية :

تبدو السنوات الخمس التى مضت بين الاستيلاء على طوكر وتقدم كتشنر نحو دنقلة ، من الناحية التاريخية ، وكأنها فترة التقاط أنفاس أتيحت للخليفة قبل أن يواجه ما اتخذ من خطوات ثابتة لاعادة احتلال السودان . أما بالنسبة للسودانيين فقد بدت بصورة مخالفة ــ فلم يحدث أن أحكمت سيادة عبد الله بقدر ما أحكمت فى السنوات التى تلت ثورة الأشراف ، فقد أمكن اذلال أقوى مراكز المعارضة ــ وبرغم أن الخليفة كان على استعداد تام فى أى لحظة لاستخدام العنف ارهابا لرعيته الا أن ضحاياه فى هذه الفترة كانوا أفرادا أكثر منهم قبائل كتلك التى ضغط عليها فى السنوات الأولى من حكمه . وعندما استفاق السودان بعد مجاعة ١٣٠٦ هـ الكبرى ، استرجع شيئا من رخائه خاصة بعد أن توقف سيل الحملات العسكرية الكبرى من الناحية العملية ونال حكم الخليفة جانبا من الرضا حتى من بين القبائل النيلية التى عانت كثيرا من السياسة التى سبق له اتباعها . واقتصر الخطر الذى هدد المهدية فى تلك السنوات على الجانب الخارجى بعد أن أحاطت بالحدود حلقة من القوى الاستعمارية المترقبة .

وسيطر على الرأى العام البريطانى الاعتقاد بأن حكم الخليفة يمثل استبدادا غير محتمل وأن السودانيين تواقون للتخلص منه بمساعدة خارجيه . ولكن ادارة المخابرات العسكرية المصرية بدأت تتنبه وهى تحت اشراف الماجور (سير ريجنالد فيما بعد) ونجت بأن الأمور فى السودان لا يمكن أن تفهم بمثل هذه البساطة ــ وقد قدم شخص يدعى

مصطفى الأمين تقريرا واضحا عن مجرى الأمور فى ذلك الحين ، وأدمج تقريره فى التقرير العـام لادارة المخابرات لشـهر ديسمبر ١٨٩٢ (١) ومصطفى الأمين تاجر جعلى من أم درمان وهو رجل له بعض النفوذ ومن أقرباء قاضى الاسلام أحمد على • ومن ثم فانه كان على اتصال بالهيئة الحاكمة وان لم يكن لديه من الأسباب ما يدعوه الى الرضى عنها • وقد ترك تقريره احساسا قويا بأمانته فهو لم يحاب الخليفة ولم يحاول الانزال من قدره كما أنه لم يحاول تقديم التأكيدات المعتادة عن ولائه السرى لحكومة الخـديو وهو امتنـاع أكثر مدعاة للاهتمام ، حيث أنه كان يأمل بتقـديم تقريره أن يضـمن الافراج عن أخيه المحبوس فى سجن سـواكن •

وتقرير مصطفى الأمين له أهميته لأنه لا يرينا عهد الخليفة كمجرد عهد استبدادى لا تغيير فيه الا من حيث تفاوت مستوى العسف الصادر عنه وهو ما نستشفه من كتابات أورفالدر وسلاطين ، بل باعتباره حكما يغير أسسه وأساليبه بمرور الزمن وتغير الظروف وهـو حـكم كان بالاضافة الى ذلك يسعى خاصـة فى تلك الحقبة بالذات ، للتخلص من عيوبه بحيث ينال مزيدا من رضا السودانيين • ولعل مصطفى الأمين كان يحتل مركزا مرموقا أو لعله كان مراقبا دقيق الملاحظة ـ وقـد أيدت وجهات نظره تقارير المخابرات التالية كما أيدتها بمحض الصدفة عريضة الدناقلة اللاجئين فى مصر التى قـدموها الى بلنت فى عام ١٨٩٥ والتى سبق الاقتباس منها فى الفصل السابق •

وقد أوضح مصطفى الأمين أن الدولة المهدية قد تحولت فى عهد عبد الله الى مملكة اسلامية عادية اذ أبدى الخليفة عزمه الصريح على أن ينتقل الحكم من بعـده الى أكبر أبنائه عثمان • ومن ثم فلم يكن من المحتمل أن يغير موت عبد الله من الموقف حيث أن عثمان كان يستطيع أن يضطلع بمسئوليات الحـكم بمساعدة يعقوب • ولم تعد للخليفتين

---

(1) IRE, 9, 6 - 9 كان ثيوبولد (Mahdia, 176) هو أول من أدرك مغزى هـذا التقرير الذى لم يذع فى حينه •

الأدنى منه مرتبة أى أهمية سياسية ــ فلم يكن « على محمد حلو » يتمتع الا بسلطة اسمية بينما تم توجيه ثورة الأشراف توجيهـا سيئا مما أتاح لعبد الله تثبيت سلطته أكثر من ذى قبل وذلك بازاحة أبرز الساخطين •

أما عن العلاقة بين السودانيين وحكومتهم فقد بين مصطفى الأمين ما اتصف به حكم الخليفة فى البداية من عسف شديد حتى أن قبائل مثل الجعليين كانت على استعداد للرجوع الى الحكم المصرى • ولكن الموقف تغير بعد ذلك ــ اذ تم الاعتراف بتفوق البقارة وقضى على الانقسامات الداخلية بينما كان الخليفة من جهة أخرى يسعى بشىء من النجاح الى « اقامة نظـام حكومى أكثر اعتدالا وشعبية » كما أصبحت الضرائب الأساسية أخف وطأة مما كانت عليه فى عهد المصريين وان كان الخليفة عرضه لأن يتقدم بمطالب فجائية يحتمل أنها زادت مجموع الضريبة الى أكثر مما كان عليه قبل المهدية • وعلى كل فقد كان موقف السودانيين ازاء الضرائب يتميز بالتفاؤل اذ أنهم وقد انقضى توقع عودة الحكم المصرى وطنوا أنفسهم على التكيف مع الواقع •

وهكذا كان مصطفى الأمين يلمس تزايد مسـاندة السـودانيين بالتدريج للنظام الجديد ومن ثم حذر ونجت من أن أى غزو للسودان تقوم به الحكومة المصرية سيقابل بالمقاومة من جانب نفس القبائل التى كانت أكثر مطالبة بعودتها • وان مثل تلك المعارضة ستزداد مع الأيام • وقـد استقر البقارة المهاجرون فى أماكنهم الجديدة وتعايشوا سلميا مع السكان الأصليين • وفى نفس الوقت نما شعور بأن أى تقـدم مصرى معناه محاولة المساس باستقلالهم وكان هـذا الشعور على أشـده فى أم درمان وأضعف ما يكون فى أطراف أملاك الخليفة •

وقـد أكد مصطفى الأمين تخلى عبد الله عن سياسة الهجوم على الأقل فى ذلك الوقت ، واكتفائه بالدفاع عن ممتلكاته الكثيرة بدلا من زيادتها • ولكن بازدياد تدعيم الموقف الداخلى كان من المحتمل العودة الى الجهـاد ، وذلك رغم أنه لم يكن من المحتمل أن تقوم مصر بالغزو طالمـا هى واقعة تحت الاحتلال البريطانى • ومن جهة أخرى فان الخليفة

ما كان ليقبل تعرض حدوده للتهديد وقد عبأ قواته لمقاومة الاعتداء من جميع الجهات بل أنه اعترض على التجارة الخارجية وان سمح لنفسه فى هذا المجال بالخضوع لآراء محمد الزاكى عثمان حاكم بربر الذى كان من جانبه مهتما بارضاء الجعليين .

ويبدو ان تقرير مصطفى الامين يعطى صـــورة حقيقية للموقف فى السودان خلال فترة الازدهار القصيرة للاوتوقراطيه التعايشيه . ومما لا جدال فيه ان حكم عبد الله كان مطلقا بالفعل وأنه كان فى اساسه يعتمد على القوات الخاضعه له . وقد اتخذ الخليفة خلال تلك السنوات عدة خطوات لتاكيد سيادته فبدأ يبتعد عن شعبه وبدلا من حضور الاستعراض الذى كان يجـرى فى يوم الجمعه وهـــو من الاجراءات الأولى التى اتخذتها الدولة المهدية المحاربة ومن أبرز مشخصاتها فانه اكتفى بالظهور أربع مرات فى الاعياد الكبرى عندما كان يخرج محاطا بحرسه الخاص . وفى مرات أخرى أناب عنه يعقوب أو أخاه الاخر السنوسى احمد . وفى أوائل ١٨٩٣ بدأ فى اقامة سور كبير حول الحى القائم فى أم درمان الذى كان يضم منزله الخاص ومساكن يعقـــوب وغيره من الأعيان ومساكن حرسه الخاص . وقد بدأ بناء السور بفرض السخرة على سكان الجزيرة الذين أرغموا على الهجـــرة الجماعية للعمل فى بناء السور خلال فترة التحاريق من عام ١٣١٠ هـ . وفى ذات الوقت كان عبد الله يعزز حرسه الخاص بحيث يجعله قوة ثابتة قوية .

وفى الوقت الذى نشبت فيه ثورة الأشراف كان جهادية كارة أهم حاميات أم درمان على حين أن البقارة المهاجرين كانوا يساندون حكم عبد الله وأن يكونوا مثارا للشك .

ويبدو أن الخليفة قـــد شعر بعد ذلك الى حاجته الى قوة مسلحة أكثر ارتباطا بشخصه . ويرجع عدم ثقته فى جهادية كارة ـــ الى جانب عدم اتصافهم بالنظام بصفة عامة ـــ الى أن معظمهم فى الأصـــل كانوا يعملون فى الجيش المصرى القديم ومن ثم فولاؤهم مشكوك فيه فى وقت أصبح من الممكن فيه حدوث اعتداء جديد من جانب مصر . وبناء عليه

فبرغم عدم تسريح جهـادية كارة الا أنه ما لبثت أن حلت محلهم قـوة « الملازمية » الجدد • وكان الملازمية فى الأصل جماعة من المراسيل آثر من كونهم فصيلة عسكرية استخدمها الخليفة لوضع المشكوك فى ولائهم من كبار الدولة تحت الرقابة • ولم تلغ هذه الجماعة وان زيد حجمها منذ عام ١٨٩٢ وأصبحت تشكل قـوة للحراسة • ولم يأت عام ١٨٩٥ الا وقـد بلغ تعدادها ٩٠٠٠ أو أكثر من ذلك (١) • وقد قسمت الى ٣ فصائل تحت القيادة العليا لعثمان بن الخليفة • ويبدو أن أقل من نصف الملازمية كانوا من الجهادية وغالبية هؤلاء كانوا من الرقيق الذى جيء بهم من فاشودة ومن حدود المقاطعة التى كان محمود أحمد يحكمها فى الغرب • وكان الباقون من العرب الأحرار معظمهم من الغرب وأن يكن بينهم بعض الشبان الذين ينتسبون الى عائلات جعلية عريقـة • ومنع انضمام الدناقلة والمصريين نهائيا اليهم • ونظم الجهادية والعرب كل على حـدة • وادراكا من الخليفة لأهمية انتظام دفـع الرواتب والجراية فى المحافظة على ولاء قوات حرسه وروحها المعنوية أنشأ خزينـة خاصـة (بيت مال الملازمية) وخصص لها موارد الجزيرة •

وفى سنوات الأوتوقراطية التعايشية يبدو من الواضح أن شخصين آخرين غير الخليفة شغلا مركزين على جانب كبير من الأهمية وهما أخوه يعقوب وابنه عثمان • ولا شك أن كليهما لعبا دورا هاما فى وضع سياسته وان يكن من الصعب جدا تقدير نفوذ كل منهما • وفى أرشيف المهـدية لا نجد دليـلا على وجود من يشارك الخليفة سيادته • ويتضح لنـا مما تبقى من أوراق يعقوب أنه كان مشـغولا بتفاصيل الادارة • وفى بعض الشئون المـالية كانت ترسـل صـور من الأوراق له وللخليفة • أما عن مجلس العائلة الذى كان يعقد فى الغالب يوميا فلا يوجد لدينا سـجل من أى نوع له • واذا كان قد تبقى شيء من أوراق عثمان فلا يحتمل أن

---

(١) قدر سلاطين (CRES 1895.) العدد الكلى للملازمية بتسعة آلاف . وفى كتابه النـار والسيف ص ٥٢٤ يقـدر العدد بما يتراوح بين ١١ الفـا و ١٢ الفـا .

تضيف شيئا الى ما ورد فى أوراق يعقوب فيما يتعلق بحقيقة وضعه فى نطاق الاوتوقراطية • ومن ثم فاننا مضطرون للرجوع الى الاشارات العابرة فى تقارير المخابرات وما رواه كل من أورفالدر وسلاطين ويوسف ميخائيل • ولكن ما جاء فى تقارير المخابرات والى حد كبير فيما كتبه أورفالدر وسلاطين لا يضيف كثيرا الى الفكرة الشائعة عن يعقوب وعثمان •

أما يوسف ميخائيل فقد ادعى أن الخليفة استشاره فى بعض المناسبات • ولعله على الأقل كان فى موقف يسمح له بالحصول على معلومات من الدرجة الأولى • وكان فى ذلك الحين كاتبا للراية السوداء وله مخبرون من بين مراسلى الخليفة •

ويتضح لنا من الصورة العامة التى جاءتنا عن يعقوب هو أنه شخص قدير وحقود وماكر • وعليه تقع مسئولية اعدام موظفين كبار من أمثال ابراهيم محمد عدلان ، والزاكى طمل وقاضى الاسلام أحمد • ودون أن نحاول الحكم على شخصية يعقوب نجد أن بامكاننا أن نجد فيه الممثل القوى لتفوق التعايشة • وبصفته وكيلا للراية السوداء كان يتولى المسئولية الخاصة عن العناية بالبقارة المهاجرين وتوفير وسائل معيشتهم • وفى الشهور الأخيرة للحكم المهدى تصادم مع عثمان بشأن معاملة أولاد البلد ولعله كان له أثر سيء على عبد الله وأنه كان يشكل عقبة فى وجه تنفيذ السياسات الأكثر كرما التى كان الخليفة يحاول تنفيذها من وقت لآخر • وسواء أكان مرجع هذا الى سوء طبعه أو حقده أو لمجرد ضيق أفقه السياسى فانه يتعذر علينا الادلاء بحكم قاطع •

أما عثمان فهو أكبر أبناء عبد الله من امرأة تعايشية تزوجها قبل المهدية • وكبقية أولياء العهد اندمج عثمان فى شبابه مع صحبة سيئة ودارت حول مغامراته الفاجرة قصص كثيرة ولكن والده قرر اعداده لوراثة العرش فتم نفى أعز أصدقائه الى النيل الأبيض وشهر به عبدالله علنا فى المسجد • ومنذ ذلك الحين بدا عثمان يتصرف بمزيد من التعقل والحكمة واشترك بدوره فى ادارة الأمور كقراءة التقارير الواردة من الأقاليم والاشتراك فى دورات تفتيشية بأم درمان • وكان تعليمه وفقا

لمقاييس العصر والمكان مناسبا وأظهر ذكاء واتساعا فى الأفق خلال تنـاوله المشاكل التى أحاطت بحكومة أبيه فى أواخر عهدها • ورغبـة فى تجنب أى عداء قد ينشب بين عثمان وعمه دفع عبد الله ابنـه الى الزواج من بنت يعقوب • وقد أثبت هـذا الارتباط قلة تأثيره اذ سرعان ما زاد التنافس بين العم وصهره • وقد أطلق الخليفة على ابنه عثمان فى المرحلة التى تم له فيها الزواج أى حوالى ١٨٩١ تقريبـا لقب « شيخ الدين » وكان له من العمر اذ ذاك نحو ١٨ عاما واشتهر بهذا اللقب •

وخلال هـذه السنوات التى اتسمت بالسـلام نسبيا حدثت ثلاث حوادث روعت سـكان أم درمان وهى : اعتقال ثم قتل كل من القـائد الكبير الزاكى طمل فى سنة ١٨٩٣ وقاضى الاسلام على فى عام ١٨٩٤ ثم خليفته الحسين ابراهيم ود الزهرا فى ١٨٩٥ • ومن الصعب بعد مرور هذه الفترة الطويلة من الزمن الكشف عن الأسـباب الحقيقية التى أدت الى سقوطهم وان يكن محتملا أن الأولين فقدا حياتهما ثمنا لتزايد نفـوذهما وقوتهما •

فبعد انتصار الزاكى على الأحباش فى معركة القلابات استدعى لقيادة قوة تقرر ارسالها الى فاشوده لقتال الشيلوك ، فمنذ انسحاب كرم الله فى عام ١٨٨٦ لم تبق فى بحر الغزال أى حامية مهدية وعاش الشيلوك مستقلين تحت زعامة الملك عمر • وأثناء المجاعة الكبرى التى نشبت عام ١٣٠٦هـ ـ أرسل الخليفة مركبين مشحونين برجاله لجمع الزكاة من الشيلوك ولكنهم رفضوا الاستجابة لهذا الطلب وان قبلوا ارسال ألفى أردب من الغـلال كمعونة تنم عن الارادة الحرة • وعندما انتهت المجاعة قرر عبد الله انزال عقابه بالشيلوك والاستيلاء على أراضيهم حتى يكسب لقدمه موضعا فى الجنوب ، وبذلك يضمن مصدرا هاما للغلال والرقيق • وغادرت «الحملة المنصورة» بقيادة الزاكى طمل أم درمان فى أواخر عام ١٨٠٣ هـ (منتصف عام ١٨٩١) ولم تعد الا بعد غيبة دامت أكثر من عام • وفى تلك الفترة قتل الملك عمر واكتسحت أرضه ولكن الشيلوك قاوموا الأنصار بعنف • ومع أن الحملة جلبت عددا كبيرا من الرقيق الا أنها فشلت فى تأكيد الاحتلال

الدائم للاقليم • واعترف الأنصار بشخص يدعى عبد الفاضل خلفا للملك عمر •

ومن أم درمان عاد الزاكي الى الحدود الحبشية • وبدا مطمئنا الى رضا الخليفة عنه ولكن عبد الله ويعقوب تزايد شكهما فى ثرائه العظيم الذى حصل عليه من الغزوات • وانتشرت شائعات فحواها ازماعه انشاء قوة من الأتباع واعتزامه اعلان استقلاله • أضف الى ذلك أن العلاقات توترت بينه وبين التعايشة فى القسم الشرقى من قيادته • وبرغم أن عبدالله كتب فى مارس ١٨٩٣ بقصد تعزيز سلطته الا أن هذا الخلاف لم يقو مركزه لدى الخليفة وأخيه • وفى نهاية زيارة قام بها الى أم درمان حيث عومل بكل ما يليق بالأمراء من تكريم قبض عليه وأرسل فورا الى السجن حيث ألقى فى كوخ حجرى محكم الغلق وترك ليموت جوعا •

وفى مايو ١٨٩٤ اعتقل أحمد على قاضى الاسلام وقذف به الى السجن • وقد استطاع خلال الاثنى عشر عاما التى مارس فيها منصبه الحصول على قسط كبير من الثروة ، وبعد اعتقاله صودرت جميع ثروته ومات فى السجن (١) وخلف أحمد على فى وظيفة قاضى الاسلام الحسين ابراهيم ود الزهرا الذى كان المندوب الأكبر للمهدى فى عام ١٨٨٥ ، عند تسليم كسلا • ولم يدم شغله لهذه الوظيفة الا فترة قصيرة وجاء سقوطه فى عام ١٨٩٥ بسبب صلابته واصراره على تنفيذ مبادىء الشريعة التى

---

(١) نفهم من سلاطين (النار والسيف ص ٥٧٥) بأن اعتقال احمد على قد تم فى ٢٠ فبراير ١٨٩٥ اى قبل مغادرته لأم درمان بأيام قليلة ولكن هذا الاعتقال لم تعلم به القاهرة الا فى يونيو ١٨٩٥ (I↑E, 27, 2) وذكر انه تم بناء على امر الخليفة فى ٢٤ مايو ١٨٩٤ وهناك مصادر أخرى لنبأ الاعتقال فى تقارير المخابرات السرية فيما بين هذا التاريخ وهرب سلاطين. وبالاضافة لذلك فان سلاطين فى كتابه النار والسيف ص ٥٠٥ يؤرخ للاعتقال بموعد سابق لوصول انباء سقوط كسلا لأم درمان . أما شقير (تاريخ حـ ٣ ص ٣٦١) فيحدد شهر يونيو ١٨٩٤ تاريخا لوفاته .

درسها بالأزهر (١) ومات هو أيضا فى السجن (٢) .

---

(١) شقير (حـ ٣ ص ٥٦٣ ، ص ١١٨٠) طبعة بيروت يكتفى بذكر « انه وقف عند حد الشرع — وقضى فى عدد مسائل على خلاف ما اراد التعايشى » .

شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٥٦ وقد جاء فيه ربما اعتمادا على روايات شفهية أو ذكريات « انه كان ذا راى مستقل فى تطبيق الشريعه وكان لا يعمل بالمنشورات اذا تعارضت نوعا ما معها كما امر المهدى نفسه بذلك . ولكن أصبحت للمنشورات قداسة فى آخر حكم المهدية لا يسلم من يعمل بغيرها وتشدد فى موقفه ازاءها حتى سيق الى السجن ومات فيه صبرا » .

ولعل اشمل سرد للأحداث المتعلقة بالحسين وسقوطه اعطى بواسطه يوسف ميخائيل « وصلت حالة معقدة من دنقلة تتعلق ببعض الانصار الذين ظلموا بعضا من رجال دنقله . فتقدموا بشكوى عن حقهم لقاضى دنقله فأحالها هذا الى قاضى القضاة فى أم درمان . وقاضى العموم ود الزهرا كان رجلا متقدما فى السن ودارسا للشريعة وعندما عرضت القضية توجه الانصار للأمير يعقوب حتى ينبه على القاضى بالحكم لصالحهم وأرسل الامير يعقوب للقاضى ود الزهرا قائلا « الحالة الخاصة برجال دنقله ونزاعهم مع الانصار لا تصدر فيها حكما ضد الأنصار بل اصرفهم دون تغيير للوضع » فأجاب القاضى : يا سيدى يعقوب أنا رجل أتبع الكتاب والسنة ولا احيد عن الحق ولا احشى لومه لائم فيما يتعلق بالشرع ولكنى احكم وفقا للحق المقبول » ثم قام غاضبا من مجلسه فاستشاط الامير يعقوب غضبا وقال : « ان القاضى الحسين ود الزهرا قد انحرف عن الاسلام ويجب أن يموت » وذهب الى الخليفة المهدى قائلا : « ان الحسين ود الزهرا انحرف عن الاسلام فى حضور عدد من الانصار وأمام القاضى حسين ود جيزو الحمرى وفى الحال جيء بشهود شهدوا ضده بأقوال باطله وحبس فى الحجرة المربعة التى مات فيها القاضى أحمد على .

(٢) من الصعب التوفيق بين التقارير المتضاربة عمن شغل المنصب بعد سقوط أحمد على . فالتقرير الخاص بعزل أحمد على فى مايو ١٨٩٤ (IRE, 27, 2) يذكر ايضا ان خلفه كان سليمان الحجاز ونيل محكمة أم درمان وتأكد هذا فى تقرير تال كما أكده روسنيولى (Rossignoli) الذى هرب من أم درمان فى اكتوبر ١٨٩٣ (Ibid, 32, 10) أما سلاطين الذى هرب فى فبراير ١٨٩٥ ، فيذكر ان الحسين ابراهيم ود الزهرا قد خلف احمد على . وفى (GRES "1895" 11) المكتوب فى ابريل ١٨٩٥ يذكر سلاطين ان الحسين استبدل بسليمان وألغى لقب قاضى الاسلام . وفى كتاب « النار والسيف ص ٥٤٥ الذى كتب غالبا بعد اكتوبر ١٨٩٥ ذكر سلاطين أن الحسين كان لا يزال يشغل منصب قاضى الاسلام ولكنه غير مرضى عنه وقد استخلص هذا من تقرير جاء فى (IRE, 38) . ينسب ما فقده من ثقة الى ما كان من هروب سلاطين ووفقا للمرجع =

وبخلاف هـذه النوائب التى لحقت بكبار الضباط فقد كانت هناك تطورات تستحق الذكر فى الأقاليم الوسطى خلال السنوات الخمس التى أعقبت ثورة الأشراف • ففى الشهور الأولى لعام ١٨٩٣ وردت تقارير عن نشوب ثورة فى جنوب كردفان تهدد سلامة الخليفة ، وان اتضح ان الأمر كان مبالغا فيه • وفى عام ١٨٩٤ ، ظهرت أزمة نقدية ولعل سببها مرتبط بتزايد التجارة الخارجية مما أدى الى تصدير البهارات • فقد تزايد هبوط العملة السودانية منذ وفاة المهدى • واستمر تزييف العملة برغم العقوبة الشديدة المترتبة عليه • ورغب الخليفة فى ادخال ريال جديد يمكن استعماله فى المبادلات الخارجية • ومن ثم يعوض النقص فى المجيدى التركى والريال النمساوى • وأخذ شخص يدعى وقيع الله المحسى على عهدته اعداد قالب لا يمكن تقليده ولم يأت يوليو ١٨٩٤ حتى كان ريال وقيع الله قد نزل الى السوق ولكنه لم يكن أسعد حظا من سابقيه . وقد فوجىء الخليفة فى أحد الأيام عند دخوله للمسجد بقصاصة من ورق موضوعة فى المحراب وتحمل الكلمات « يا غبى أنت تستخدم عملة مصنوعة من حديد » •

وبناء عليه عقدت جلسة خاصة لتنظيم وضرب النقود وسحب التكليف بضرب النقود من المختصين الذين تولوا أمرها سابقا وأعطيت بناء على أمر الخليفة للنور ابراهيم الجيريفاوى (الذى خلف فى أمانة بيت المال العوض المرضى) وعبد المجيد عبد الله •

وفيما بين أكتوبر ١٨٩٤ وفبراير ١٨٩٥ نزل ريال جديد للسوق وهـذه « العملة الجديدة » كانت أسوأ من العملات السابقة واستبدلت

= السابق (Ibid 41) فان عزل الحسين وحبسه جاء قبل أكتوبر ١٨٩٥ ببعض الوقت نتيجة خلاف ترتب على طرد يونس الدكيم من دنقله . وقد استدعى يونس فى يونيو ١٨٩٥ . ومن المحتمل أن سليمان عمل قائما بأعمال القاضى بعد سقوط احمد على بينما تسلم الحسين الوظيفة فى أواخر سنة ١٨٩٤ . وبعد شهور قليلة مارس فيها سلطته سجن وقتل وذلك فى يوليو أو اغسطس سنة ١٨٩٥ على وجه التقريب . والمرجع السابق (Ibid 41) يذكر أن هـذا حدث قبل نهاية عام من تاريخ تسلمه للوظيفة .

الريالات السابقة بالريال المجيدى بأسعار تتراوح بين ضعفين ونصف الى ثلاثة أضعاف وثلاثة أرباع ، بينما استبدلت العملة الجديدة بواقع ٨ لكل مجيدى واحد .

٢ ـ الحدود الشمالية والشرقية :

أدى تعيين يونس الدكيم من جديد حاكما لدنقله فى سنة ١٨٩١ الى استئناف جزئى للقتال على الحدود التى كانت فى حالة سكون خلال عهد محمد خالد . وعموما بقيت الحدود مفتوحة بصورة طبيعية للتجارة ولم تجر أى محاولة ثانية لغزو مصر وان تخللت هذه الفترة بعض غزوات نزل فيها الأنصار عادة على قرى غير محصنة وعادوا منها بما اغتنموه . وقد قاد الكثير من هذه الهجمات المحارب الجرىء عثمان محمد عيسى . وفى ابريل ١٨٩٢ ، هاجم صرص وفى الشهر التالى قام بهجوم شمال وادى حلفا .

وأهمية هذه الغزوات وما تلاها تكمن فيما سببته من متاعب أكثر من كونها عمليات حربية ذات قيمة وان تكن اثنتان منها على وجه الخصوص تستحقان الذكر . ففى يوليو ١٨٩٣ خرج عثمان محمد عيسى من الصحراء على رأس قوة تتألف من ٣٠٠ ـ ٤٠٠ رجل واحتل لأربعة أيام بلدة باريس فى الواحة الخارجية . وقد أدى هذا الى قلق السلطات العسكرية الانجليزية المصرية لأن باريس نقطة تقع فى داخل الدولة المصرية وعلى الطريق القديم المعروف باسم درب الأربعين الذى يصل بين دارفور وأسيوط . وهى تقع على بعد ٢٣٠ ميلا من صرص النقطة العسكرية الواقعة على حدود مصر وعلى بعد ١٩١ ميلا من أسيوط ، ١٤٥ ميلا فقط من اسنا . وقد علق القائم بأعمال السردار على التقرير بما يلى : « ان هذا الحدث المؤسف له بعض الأهمية لأنه يكشف عن السهولة التى يمكن بها اختراق جناح الحدود والخطر الذى يهدد المدن الكبيرة فى الصعيد مثل أسيوط وجرجا .. الخ (١) واتخذت الخطوات فورا لتعزيز الدفاع عن باريس .

---

(١) IRE 16, 1.

وشبيه بالجرأة التى تميزت بها هذه الغارة ما كان من غارة أخرى جرت فى نوفمبر ١٨٩٣ وقام بها عثمان عيسى فى صحراء النوبة ، ففى هذه المرة هاجم على رأس ٣٠٠ رجل الموقع الحصين الذى سيطر عليه العبابدة بجوار آبار مرات فى منتصف الطريق بين أبو حمد وكورسكو . وقد هزم المهاجمون ولكن شيخ العبابدة قتل أثناء القتال واهتزت معنويات الحامية الى حد كبير مما أدى الى ارسال قوة صغيرة من الفرق النظامية لتستقر هناك . ولعل غزو باريس والمرات كان بمثابة حركات كشفية اعدادا لهجوم كامل ولكن أحداث الحدود الشرقية حولت الأنظار عن هذا الاتجاه . وبالاضافة الى ذلك فان يونس الدكيم لم يكن من نوع الرجال الذين يتصفون بالكفاءة سواء فى ميدان الهجوم الشاق أو ميدان الصمود القوى . وقد بدا لرجال اقليمه رجلا شديدا ولكنه كان يعيش حياة خاصة لينة يمارس فيها « حياة مرحة خفيفة » مع رجال حاشيته السود فى اجتماعات موسعة لتناول الشاى « مستهلكا فى كل منها ١٢ قرصا أو أكثر من السكر (١) وفى ٢ محرم ١٣١٥ هـ (٢٥ يونيو ١٨٩٥) استدعى هذا الابيقورى على عجل الى أم درمان فغادر مقره وهو يرتعد فرقا . وفى ٦ صفر (٢٤ يوليو) أرسلت الخطابات لابلاغ أهل دنقله بتعيين محمد بشارة حاكما جديدا بدلا منه . وكان من أقرباء الخليفة وعمل تحت قيادة عثمان آدم (٢) الذى شابهه شجاعة وذكاء وأعيد حمودة أدريس الذى سبق أن عزله يونس الى نقطة الحدود فى ساوارده واستؤنفت الغزوات على الحدود المصرية حتى قبيل الهجوم الانجليزى المصرى .

وكمن الخطر المباشر على حكم المهدية فى الحدود الشرقية — فهنا تزايدت قوة الدول الأوربية بصورة واضحة . واستطاعت ايطاليا انشاء مستعمرة أريتريا على حساب الحبشة فى عام ١٨٩٠ ، واحتلت القوات الانجليزية المصرية طوكر فى عام ١٨٩١ وحلت القضارف الآن مكان القلابات كمركز عسكرى فى القطاع الجنوبى . وفى شهر سبتمبر ١٨٩٣

---

(١) IBE, 37, 4–5

(٢) انظر الفصل السابع .

أى بعد اعتقال الزاكى طمل تولى القيادة هناك أحمد على المنافس القديم للزاكى . وفى ذلك الحين كانت كسلا المركز العسكرى للقطاع الأوسط ومحور الدفاع عن السودان بعد سقوط طوكر ، تحت قيادة حامد على شقيق أحمد . وكان الخليفة على علم منذ أمد طويل بالأطماع المتعلقة بهذا الجزء من أملاكه كما تلقى صحفا من مصر علم منها بأمر المفاوضات الجارية بين انجلترا وايطاليا بشأن الحدود الشرقية فى صيف ١٨٩٠ . وقد علق على ذلك محنقا « بأن الناس لا يستطيعون مع الأسف التوقف عن تقسيم أرض لا يملكونها (١) .

وفى عام ١٨٩٣ وجدت دلالات على أن عبد الله كان فى سبيل اعداد خطة للهجوم على طوكر وأرتريا . وأخذ عثمان دقنه ــ الذى اتخذ له قاعدة على نهر عطبره ــ فى مهاجمة القبائل الموجودة بين هذا الخط والحدود الانجليزية المصرية . وفى شهر ديسمبر جرت عملية عسكرية بالغة الأهمية أدت الى توغل أحمد على فى داخل أرتريا حيث أصيب بكارثة ــ فقد هزم الأنصار فى اغوردات فى ٢١ ديسمبر وأصيبوا بخسائر فادحة وكان أحمد على نفسه بين المقتولين . وأعقب هذه الهزيمة تعديل لبعض القيادات العسكرية الرئيسية . فأرسل أحمد فضيل الذى خلف فضل المولى صابون (ربما فى سنة ١٨٩١) كقائد لجهادية كاره (٢) بامدادات الى الحدود الشرقية ليعمل مكان أحمد على . وخلفه على قيادة جهادية الكاره ابراهيم الخليل أحمد شقيق محمود أحمد الذى خلف عثمان آدم فى سنة ١٨٩١ كحاكم للغرب . وفى ذات الوقت حل مساعد قيدوم فى كسلا محل حامد على .

وعندما وصل أحمد فضيل الى كسلا نقل معظم القوة المهدية الى القضارف حيث تتوفر المؤن وبقى مساعد قيدوم فى كسلا بحامية قليلة العدد . وكانت الحالة المعنوية للأنصار فى الشرق قد تدهورت وفى شهر مايو ١٨٩٤ استدعى أحمد فضيل وكل قواته الى أم درمان ، مما

---

(١) FFF, 246, 5; S, 121, 9.

(٢) نسبة الى جبل كاره .

أتاح للايطاليين الفرصة التى كانوا يترقبونها • فقد تم فى ١٥ ابريل ١٨٩١ الوصول الى اتفاق انجليزى ايطالى اعترفت بمقتضاه ايطاليا بمطالب مصر وحقوقها فى السودان بما فيها كسلا على أن يسمح لهـا باحتلال كسـلا مؤقتا اذا تطلب القتال مع المهدية ذلك • وكانت الحكومة الايطالية منـذ فبراير ١٨٩٤ تقترح القيـام بالاشتراك مع السلطات الانجليزية المصرية بمحاربة الأنصار ولكن هـذا الاقتراح رفض • وعند انسحاب أحمـد فضيل قـرر الايطاليـون الاستيلاء على كسـلا • وأخطرت الحكومة البريطانية بأن هـذا العمل لا يمس أى مسألة تتعلق بالأراضى • وتم تنفيذ الهجوم فى ١٧ يوليو بنجاح حاسم وكان قد سبق لأحمد فضـيل مغادرة أم درمان قبل الهجوم بثمانية أيام على رأس امدادات ولكنه فشل فى العودة اليها فى الوقت المناسب • وهرب مساعد قيدوم الى قوز رجب على نهر العطبرة حيث انضمت بقية قواته الى عثمان دقنـه •

ووصلت الأنباء الى أم درمان بعد أسبوع ، وقد قلق الخليفة قلقـا شديدا ــ فبسقوط كل من طوكر وكسلا على التوالى يكون الأوروبيون قد اخترقوا قطاعين من حدوده الشرقية • وأعقب ذلك اعداد حفل درامى لاعلان تصميم عبد الله على استعادة البلدة المفقودة • وركب الخليفة فى موكب عام محاطا بحرسه الخاص الى شاطىء النيل وقد اقتاد حصـانه مندفعا نحو المـاء وشهر سيفه مشـيرا به نحو الشرق ثم صاح صـيحة الحرب « الله أكبر على الايطاليين » وعند عودته الى منزله عقـد مجلسا ليقرر الخطوات التالية الواجب اتخاذها •

وبرغم نزوع الخليفـة الى النضال الا أنه لم يتقـرر الهجوم على الايطاليين • وقيل ان أقاربه أقنعوه بعـدم الهجوم لأنهم خشوا حدوث ثورة اذا هزم الأنصار مرة أخرى • وكان فى حاجة الى قائد يركن اليه ــ فعثمان دقنـه أكثر القواد الموجودين خبرة فقد طوكر ، وهروب مساعد قيدوم الأخير من كسلا آثار غضب الخليفة وعدم رضاه فأطلق عليه اسم « حليمة » (كما لو كان جارية) وأحمد فضيل شغل بمنازعات تافهـة مع زميله النور عنقره • وفى هـذه الظروف اقتصر ما اتخـذه الخليفة من

احتياطات عسكرية على مجرد تعزيز خط العطبرة بثمانية آلاف رجل تحت قيادة عثمان دقنه وحامد على فى قوز رجب والنقط الصغيرة فى امسوبرى والفاشر . وأعدت قوة أخرى — ربما فى حجم كل من القوات السابقة ، تحت قيادة أحمد فضيل لتعسكر فى القضارف .

وقد احتفظت الحدود الحبشية فى تلك الآونة بهدوئها . فبعد الفوضى التى أعقبت وفاة الملك يوحنا الرابع فى سنة ١٨٨٩ ظهر منيليك ملك شوا باعتباره أقوى الحكام الأحباش وأعلن نفسه امبراطورا . واعتبر الايطاليين أشد خطرا على حكومته من المهديين . وفى ١٨٩٣ ألغى معاهدة أوتشالى (ucciali) التى سبق له التوقيع عليها مع ايطاليا فى ٢ مايو ١٨٨٩ بعد أن حاولت ايطاليا تفسيرها بحيث تسمح لها بالسيطرة على علاقات الحبشة الخارجية . وتوقعا منه لحدوث صدام بينه وبين الايطاليين بعث بمندوب مسلم اسمه محمد الطيب الى أم درمان برسالة شفهية مضمونها الحفاظ على السلام بين الحكومتين الافريقيتين . واتسم رد الخليفة عليه بالجفاف وعدم الترحيب « ... لسيد الأحباش منيليك نخبرك أن محمد الطيب الذى أرسل من قبلك طلبا للسلام وصل الى بلادنا وأبلغنا شفهيا برغبتك ألا وهى طلب السلام . والمذكور محمدالطيب عائد اليكم فاذا كنتم راغبين فى السلام كما ذكر مبعوثكم فاكتبوا لنا بذلك كتابا رسميا عليه ختمكم تطلبون فيه ذلك حتى يمكننا النظر فيه واعطائكم ردا شافيا والسلام على من اتبع الهدى (١) » .

وقد أرسل هذا الكتاب فى صفر ١٣١٣ (يوليو — أغسطس ١٨٩٥) وبرغم لهجته المتعالية فان منيليك استأنف مراسلاته فى العام التالى . وقد وصلت بعثته الثانية الى أم درمان بعد أن تعدل الموقف الى حد كبير — فقد انتصر منيليك فى عدوة على الايطاليين واخترقت القوات الانجليزية المصرية الحدود الشمالية للسودان .

---

(١) وثائق المهدية ، ٣٤/١ ، ١٢ ، ٢٢ .

٣ ـ الجنوب :

خلال هذه الفترة برز خطر جديد سبق له الظهور هو التقدم الأوروبى صوب النيل الأعلى حيث كانت سيطرة المهدية أقل احكاما منها فى بحر الغزال ، وحيث استمر أمين باشا على ادارته للاستوائية باسم الخديو برغم مضى زمن طويل منذ انتقال السودان الجنوبى لحكم المهدى • واستمرت قوات مصر محتفظة بالاشراف على النقط العسكرية حتى ودلاى وشواطىء بحيرة البرت •

وواجه أمين أزمة ساخنة فى مايو ١٨٨٤ عندما تلقى رسالة من كرم‌الله بعد سقوط بحر الغزال يطلب فيها تسليم الاستوائية للمهدية • وكانت قوات أمين مبعثرة فضلا عما كانت تعانيه من نقص المؤن حيث لم تصل مراكب بخارية من الخرطوم منذ مارس ١٨٨٣ •

وكان لكرم الله حلفاء طبيعيون فى التجار والموظفين الدناقلة فى الاقليم • وأملا فى كسب الوقت أرسل أمين وفدا يعرض التسليم بشروط ولكن كرم الله رفض عروضه وبدأ يتقدم نحو لادو عاصمة الاقليم • وبناء عليه نقل أمين مركز قيادته الى دوفيلى الواقعة على النيل وقسم ما لديه من قوات الى فرقتين على أن تتولى الفرقة الأولى الدفاع عن القطاع الشمالى مما بقى من اقليم الاستوائية أى من دوفيلى الى الرجاف بينما تتولى الفرقة الثانية حراسة خط التقهقر من دوفيلى الى ودلاى • ولكن كرم‌الله انسحب فجأة بصورة غير متوقعة الى بحر الغزال حيث بقى •

وبقى أمين أكثر من عامين لم يتعرض له فيهما أحد الى أن وصلت الحملة التى نظمها ستانلى (H.M Stanley)لانقاذه وسحب قواته • وتقابل أمين وستانلى على بحيرة البرت فى ٢٩ ابريل ١٨٨٨ • وقرر الجند رفض الخروج من البلاد فمعظمهم جنوبيون لا رغبة لهم فى ترك أوطانهم• وكان هناك أيضا نسبة من العرابيين القدامى الذين لم يرغبوا فى العودة

الى مصر (١) وحدث تمـرد خلال غياب ستانلى المؤقت • وفى ١٨ أغسطس تم أسر أمين وجفسون ــ وهو من ضـباط ستانلى ــ فى دوفيلى على يد قوات يقودها فضل المولى محمد الضابط السودانى • وفى هـذه الآونة كانت هناك قوة مهدية جديدة تتقدم من الشمال • ففى ١١ يونيو ١٨٨٨ ترك عمر صالح ــ وهو قائد جعلى نشأ فى شكا ــ أم درمان فى أسطول يتكون من ثلاثة مراكب بخارية ، وتسعة مراكب شراعية عليهما ١٥٠٠ من الأنصار • وقد وصل الى لادو فى ١١ أكتوبر وبعث برسـله لدعوة أمين للتسليم • وقد أعدم الرسل فى دوفيلى على أيدى الثـوار الذين قرروا مقاومة الأنصار • ووقع اشتباك فى الرجاف قتل فيه الأنصار حاكمها الذى اختاره الثوار • وأفرج عن أمين وجفسون اللذين اتجها جنوبا الى ودلاى ومنها الى تنجورو المعروفة باسم ماهاجى الواقعة على بحيرة البرت • ولما فشل عمر فى الاستيلاء على دوفيلى انسحب الى الرجاف • أما ستانلى فعاد فى يناير ١٨٨٩ وتحرك فى ١٠ ابريل نحو زنجبار •

وهكذا تنازعت فئتان من أجل السيطرة على النيل الأعلى : الأنصار تحت قيادة عمر صالح وقاعدة عملياتهم فى الرجاف والقـوات السابقة فى الجيش المصرى التى رفضت ترك البلاد ، وهؤلاء اتخذوا لهم فضل المولى محمد قائدا ، وفى نفس الوقت سعت الدول الأوروبية الى الحصول على محميات ومناطق نفوذ فى افريقيا الاستوائية • وكانت أعالى النيـل من أكثر المناطق حساسية : فقبل المهدية كانت هـذه البقاع الممتـدة حتى البحيرات العظمى خاضعة للسيادة العثمانية والحكم المصرى • وطـوال بقاء أمين بالاستوائية كان لمصر أن تدعى بحقها فى أعالى النيل • وأدى انسحابه الى تزايد النشاط الدبلوماسى الذى صحبه كثير من التوتر بين الدول الكبرى • فقد اهتم الانجليز ــ بصفتهم الحكام الفعليين لمصر ــ بمنع أى دولة أخرى من السيطرة على منابع النيل ، وكانت هذه الرغبـة

---

(١) أنظر كتاب المديرية الاستوائية للدكتور جميل عبيد ومنه يتضح ان الدافع الاكبر لرفض الجنود العودة لمصر دافع وطني هو الحفاظ لهـا على أملاكها والحفاظ على تبعيتها ، وتبعيتهم لمصر والخشية من وقوعهم فى قبضة الاستعمار الانجليزى الذى كانوا له من الكارهين .

تحمل فى طياتها أطماعا استعمارية . وعن طريق شركة افريقيا الشرقية البريطانية (التى سجلت فى عام ١٨٨٨ وان تأسست فى تاريخ سابق لذلك بكثير) وبتشجيع من سير وليم ماكينون تزايد النفوذ البريطانى بسرعة فى افريقيا الشرقية الاستوائية وأخذ فى منافسة التوسع الألمانى الاستعمارى . وانتهى السباق على هذا الاقليم بين بريطانيا وألمانيا باتفاق عقد فى أول يوليو ١٨٩٠ اعترف بالمناطق التى تشتمل الآن على كينيا وأوغندا باعتبارها مناطق نفوذ بريطانية وأعلن أن هذه المناطق تمتد غربا الى مناطق تقسيم المياه الغربية وشمالا الى « أطراف مصر » وهو تعبير كان يعوزه التحديد . وأدى اتفاق آخر فى العام التالى مع ايطاليا الى تأمين المصالح البريطانية فى وجه الدول الاستعمارية الأخرى فى المناطق الواقعة الى الشرق من النيل .

وعلى كل ففيما بين عامى ١٨٩٠ و ١٨٩٨ تزايد خطر التوسع الاستعمارى البلجيكى والفرنسى صوب الضفة الغربية للنيل وبحر الغزال وكان ليوبولد الثانى ملك البلجيك قد أسس عام ١٨٧٩ جمعية الكنغو الدولية . وفى مؤتمر برلين (١٨٨٤ — ١٨٨٥) اعترفت الدول الأوروبية بسيادة ليوبولد الشخصية على دولة الكنغو الحرة التى كان البلجيكيون يديرون شئونها فى الواقع . وبعد ذلك بخمس سنوات كانت الكشوف البلجيكية لحوض الكنغو الواسع واحتلاله لا تزال جارية . وقد وقع ماكينون ، الذى ساهم فى تمويل مشروع ليوبولد فى الكنغو فى البداية اتفاقا فى ٢٤ مايو ١٨٩٠ ، مع سلطات الحكومة الحرة تخلت بمقتضاه شركة افريقيا الشرقية لحساب الحكومة الحرة عن كل ما قد يحق لها فى خط تقسيم المياه الغربى للنيل (١) وهكذا انفتح السبيل أمام البلجيك للتقدم نحو النيل الأعلى غربا فى ذات الوقت الذى أغلق فيه فى وجه الألمان شرقا . ولم يكن ماكينون يعمل باسم الحكومة البريطانية ولا مبرر لما ادعاه ليوبولد من أن لورد سالسبورى وافق على الاتفاقية .

---

(١) E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, London 1909, ii, 582.

وبرغم ذلك فقد ثبت أنها مفيــدة لليوبولد فى مجال المساومة فلم يتأخر فى الاستفادة من شروطها .

ووصلت حملة بلجيكية الى ودلاى فى ٩ أكتوبر ١٨٩٢ تحت قيــادة ضـــابط يدعى ميــلز (Mi'z) (١) الذى كان قد بعث برسالة فى ٢٥ سبتمبر (٢) أبلغ فيها فضل المولى اعتراف مؤتمر برلين بحكومة الكنغــو الحرة ــ وذكــر ميلز أنه جاء لامتلاك حدودها الشماليــة والشماليــة الشرقية ، وكان مما جاء بالرسالة « ان الحكومة المصرية انسحبت تمــاما من السودان والاستوائية كما تعلمون وتخلت عنكم نهائيا . ولا أمل فى احتمال عودة الحكومة المصرية الى الاستوائية أو أن عونا ما سيأتيكم منها فأنتم لا تتبعون أى حكومة وجلالة الملك (ليوبولد الثانى) يرغب الآن فى التفاهم التام معكم على كل شيء ومعى الآن خطاب يحمــل ختم جلالته يدعوكم فيــه الى طاعتنا . وبنــاء على ذلك ستصبحون مثلنــا أى من موظفى حكومتنا » .

وقد قبل فضل المولى الدعوة وفى ١٩ أكتوبر عقدت اتفاقية(٣) دخل بمقتضاها الموظفون المصريون والقوات المصرية سابقا فى خدمة حكومة الكنغو الحرة وقبلوا الاحتفاظ بوظائفهم باســمها وأن يرفعــوا علمها

---

(١) وكان القائد الأعلى هو كيرخوفن (G. Von Kerekhoven) الذى قتــل فى الطريق وللمزيد عن هــذه البعثة وآثارها على تاريخ الكنغو انظــر :

L. Lotar : La Grande Chronique de L'uele IPCB, XIV. 1946.

(٢) المهدية ، ٣٤/١ ، ٣ ، ٩١ . ويذهب لوتار (Uele, 136 - 7) الى أن الرسالة قد ارسلت فى ١٥ سبتمبر . ويبدو بوضوح أن رسالة ملز ورسالة أخرى بعث بها ترجمانه الى فضــل المولى (Mahdia 1 34. 5 110) تحملان تاريخ ٢٥ سبتمبر ويطلق لوتار على فضل المولى اسم فاتلمولا Fatelmoula .

(٣) وثائق المهدية ٣٤/١ ، ٣ ، ٧٦ .

هــــذا هو المصـــدر العربى الذى تحدث عنه لوتار فى كتــــابه (Uel , 146) باعتباره مفقودا ويبدو أن لوتار يحدد تاريخا لهــذه الواقعة فيما بين ٩ ــ ١٦ أكتـــوبر وكان هناك أيضا اتفاق تاريخه أول نوفمبر .

ووثائق المهدية . ٣٤/١ ، ٣ ، ٨٠ .

ويطيعوا قوانينها وأصبح لقب فضـل المولى بعـد ذلك هو مدير خط الاستواء .

ولم يتمتع فضل المولى بهذا اللقب طويلا — فقد وطد الخليفة العزم حينئذ على احكام قبضته على النيل الاعلى . وارسل ابو قرجه فى اواخر ١٨٩٢ ليتولى القيادة فى الرجاف وان كان القصد من تعيينه هو ازاحته من الشمال حيث تزايدت مكانته ، وقد بذل محاولة جدية للسيطرة على الجنوب . واتخذت خطوة أكثر جـدية فى محرم ١٣١١ هـ (اغسطس ١٨٩٣) ، عندما أرسل عربى دفع الله على رأس قوة تتكون من ٣٠٠ رجل فى مركبين بخاريين وكان بين من نقلوا مع الحملة محمد خالد سجينا .

ووصل عربى الى الرجاف فى ربيع الثانى (أكتـوبر) وأرسـل فى الحال تقريرا سيئا عن ادارة أبو قرجه . فخزينة الاقليم أديرت بغير امانة ومعسكر القيادة العامة غير محصن والجيش تعمه الفوضى بينما لم تكن توجد رقابة كافية على المسجونين الذين أرسـلوا للرجاف كما لم تتوفر لهم كفايتهم من التموين وقد عولجت جميع نواحى القصـور هـذه فنقل المسجونون الى جزيرة تحيط بها مياه مليئة بالتماسيح وبدأ عربى بعد ذلك فى استعادة سلطة المهـدية على الاستوائية وأخضـع اللاتوكا الذين كانوا يقيمون الى الشرق من النهر ، وأرسل ٣٥٩ من الرقيق الى أم درمان . وأشير الى تلك الغزوة فى مجموعة من المكاتبات تاريخها ١٢ جمادى الثانية ١٣١١ هـ (٢١ ديسمبر ١٨٩٣) وفى ذات الوقت طلب عربى تخصيص ثلاثة مراكب بخـارية لنقـل البريد بين الرجاف وأم درمان . وازدادت مشكلة المواصلات شدة مع مضى الوقت .

وقرر عربى بعد ذلك الدخول فى مواجهة مع فضل المولى فخرج من الرجاف فى ٣ رجب ١٣١١ (١٠ يناير ١٨٩٤) ليتقـدم فى بلاد الآزاندى حيث وجد أن فضل المولى قد تحرك فعـلا فى اتجاه النيـل . فتبعه الى منطقة ودلاى حيث لحق به فى ٢٢ رجب (٢٩ يناير) .

وفى المعركة قتـل فضل المولى وسقطت أوراقه بما فيها المعـاهدة

التى وقعت مع ميلز فى يد عربى الذى أرسلها فورا الى أم درمان مع بعض مظاهر نصره التى اشتملت على أربعة أعلام لحكومة الكونغو الحرة .
ولخص عربى المعلومات التى حصــل عليها بشأن الأطمــاع الأوروبية فى الجنوب فى تقرير جاء به « وعندما حكم الله على المتمرد فضل المولى بالموت وجدنا فى منزله عدة مكاتبات جاءته من حكومات المسيحيين مثل حكومة البلجيك والانجليز متضمنة أنباءهم وأهدافهم . وبين محتوياتها وجــدنا خطابا بالعربية يحــوى معلومات عن عقد اتفاقيــة بين حكومة البلجيك وحكومة الانجليز (تقول) بأن الأرض الشرقية للاستوائية بكل حدودها تذهب الى دولة الانجليز بينما تذهب الأرض الغربية بكل حدودها الى حكومة البلجيك . وقد وصــل القادة الحربيون للحكومتين المذكورتين فى الحقيقة الى قرب الأقاليم المتفق عليها ــ فالقوات البلجيكية توجــد الآن فى اقليم نيام نيــام على بعد خمسة أو ستة أيام من حدود المهــدية . وقوات الحكومة الانجليزية موجودة الآن فى تنجورو على شاطىء النيــل الأبيض ... وجاء رحيل المتمرد فضل المولى نفسه من الازاندى واستقراره على النهر بنــاء على أمر من قائد القوات البلجيكية بالاستقرار بجــوار دوفيلى كما أمره برفع علم المسيحيين هناك والاستيلاء على الاقليم قبــل أن يتم استعداد الانجليز تماما ومن ثم بدأت الخلافات . وقد سمعنا ... أن أعــداء الله المسيحيين يشــيعون بأنهم جاءوا للاســتيلاء على كل الســودان من هذا الطريق بادعائهم أن هذا هو أسهل الطرق وأقربها الى بلادهم . ولمــا كان الأهالى هنا من الزنوج فيمكن خداعهم وخاصة أن الطريق ذاته يمر بوادى هذا النهر المتصل بأنهار بلادهم (١) » .

وقد قام عربى بعد انتصاره على فضل المولى بحملة ضد المعــاقل الشرقيــة للبلجيكيين . وحــدثت ثلاث معارك فيما بين رمضان ١٣١١ وجمــادى الأولى ١٣١٢ (مارس ــ نوفمبر ١٨٩٤) ترتب عليها اخــلاء ٨ محطات بلجيكية على الشاطىء الغربى وفى بلاد الآزاندى . وفى ديسمبر

---

(١) وثائق المهدية ٣٢/١ ، ١٧/١ ، ٧٣/٢ .

هزم عربي ـ رغم أنه لم يسجل ذلك ـ أمام ضابط بلجيكي وانسحب الى الرجاف .

وما لبثت أن بدت نتائج بعـد الرجاف وانعزالها . وقد بدأت أول معارك عربي مع البلجيك عقب مغادرة مركب بخاري لأم درمان ببضـعة أيام . وعندما كتب المجموعة التالية من التقرير فى ١٢ شوال ١٣١٣ (٢٧ مارس ١٨٩٦) لم تكن وصلته أنبـاء من الخليفـة على مـدى عامين وكان قد حاول اجراء اتصالات برية على الشاطىء الشرقي للنيل ، ولكن الحملة التى أرسلت مع الياس على كانونه ابن الزعيم السابق للغـدايات تورطت فى قتال مرير مع النوير قتل فيه الياس وانسحب عربي الى بور تاركا نصف رجاله بالرجاف وكان يقدم المساعدة لبعض الدنكا حتى يقبلوا نقل بريده الى أم درمان .

وأمكن فى صفر ١٣١٤ (يوليـو ١٨٩٦) اعادة الاتصال فوصلت ٣ مراكب بخارية تحت قيادة عمر صالح الى فاشودة ولكن صغراهم هى الوحيدة التى أمكنها المرور من منطقة السدود . ورغم أنها أحضرت معها امدادات لعربي الا أن الحامية الاستوائية خسرت بحضورها أكثر ممـا كسبت ـ وقد كتب عربي فى تقرير له بعد عامين : « لقد تغير حال الأنصار عما كانوا عليه وانهارت روحهم المعنوية منذ اليوم الذى وصلت فيه باخرة عمر صالح بسبب ما ذكره لهم عن المهـدية وما أصابها (حديث لا أهمية لذكره) وما فعله الايطاليون المسيحيون فى كسلا وما الى ذلك حتى فقدوا معنوياتهم وعزمهم على القتال » .

وبينما كان عربي يقـاوم محاولات البلجيك لاختراق النيل الأعلى كانت هنالك فرقة أخرى من الضباط والجنود تتحرك شمالا من نهر بومو بهدف الوصول الى حفرة النحاس وهى المنطقة التى كان يتم فيها استغلال مناجم النحاس فى جنـوب دارفور على حدود الدولة المهـدية . هـذه

الحملة (١) وصلت كاتواكا Ka uaka (٢) على نهـر الأده (Adda) على مسافة قليلة من حفرة النحاس فى مارس ١٨٩٤ وكان هـذا هو نهاية تقدمها • وحاول طابور آخر تقدم من الجنوب فى هذا الشهر (٣) كسب موقع له فى منطقـة حمـد العباس موسى (٤) زعيم قبيلة الفـاروكى Faruki الى الجنوب الشرقى من حفرة النحاس • والتقت هـذه الحملة بحمد فى يوليو وفى الشهر التالى وقعت اتفاقية بينهما قبل بمقتضاها هذا الزعيم حماية حكومة الكنغو الحرة وأخذ على عاتقه توفير الاتصال بينها وبين حدود دارفور (٥) •

وسرعان ما وصلت أنباء تقدم البلجيك فى منطقة بحر الغزال الى محمود أحمد ومنه أبلغت للخليفة • وأرسل محمد معاونه الخاتم موسى عبر بحر العرب ليواجه الخطر وكان زعيم كاتواكا على اتصال بالأنصار الذين أبلغوا بضعف المعقل البلجيكى على نهر الادة Adda • ولم يكن انسحاب البلجيك من هذه الأقاليم خشية المهدية وانمـا بسبب الاتفاقية الفرنسية البلجيكية المعقودة فى أغسطس ١٨٩٤ (٦) التى تقرر بمقتضاها

---

(١) أنظر L. Lotar, la Grande Chronique de Bomu, IRCB, IX/3, 1940, 80 - 85; S. Santandrea, The Belgians in West Bahr El Ghazal, SNR, XXXVI, 2, Dec; 1955 188 - 91.

(٢) يعرف سانتاندريا (ص ١٩٠) الكاتواكا ـ طبقـا لمـا أخبره به بعض سكان الاقليم فيطلق عليها اسم كوتى ـ واكا ، وهى عشيرة تدخل فى نطاق قبيلة كرش القيمة فى هذه المنطقة .

(٣) Lotar : Bomu, 92 — 116, 123 – 6.

(٤) يذكر لوتار (فى مصدره السابق ص ٧٥) ان حمد الذى تطلق عليه المصادر البلجيكية اسم فقى حمد أو فقى أحمد) هو ابن يوسف سلطان اوداى ولكن شكل اسمه لا يدل على ذلك ويذكر سانتاندريا (ص ١٩٠) أنه ادعى ذلك فى محاولة منه لتعزيز سلطته .

(٥) Slatin : Fire and Sword, 509 – 511.

ويطلق سلاطين على حمد اسم « سلطان حمد ود موسى ـ كما نشر ابل وثائق اخرى متعلقة بهذه الفترة .

A, Abel : Traduction de documents Arabes concernant le Bahr – el gazal (1893 – 1894) in Bulletin de l' Académie Royale des Sciences coloniales, XXV/5, Brussels 1954. 1385 - 1409.

(٦) انظر الفصل التالى .

فصل حدود حكومة الكنغو الحرة عن بحر الغزال • وقد بلغت هـذه الاتفاقية للضباط البلجيك فى المنطقـة خلال شـهر ديسمبر وبدأ اخلاء مواقعهم عقب ذلك • ومن ثم فتح الباب بالنسبة للمناطق الشمالية فى بحر الغزال لتدخل منها المهدية وتتوغل ثانية وسلم حمد للخاتم المعاهدة وبعض المستندات الأخرى المتعلقة بالتحرك البلجيكى • ونقلت هذه الأوراق الى أم درمان حيث ترجمها سلاطين فى أوائل عام ١٨٩٥ •

الفصل الثاني عشر

القضاء على الدولة المهدية

١ ـ الخلفية الدبلوماسية لاسترجاع السودان :

تلقى كتشنر الساعة الثالثة من صباح يوم ١٣ مارس سنة ١٨٩٦ برقية تحيطه علما بأن الحكومة البريطانية تخوله التقدم بالجيش المصرى نحو عكاشة داخل أراضى المهدية وكان ثمة تفكير فى اعادة احتلال اقليم دنقلة • وسرعان ما نسق كتشنر وكرومر الخطط اللازمة ثم أرسل قرار الحكومة البريطانية الى الخديو عباس الثانى ووزارته • وفى الواقع أن سلامة مصر الاقتصادية والحربية كانت تقتضى استعادة السودان ولكن هذا السبب الذى تم الاستناد اليه فى عام ١٨٩٦ لم يكن حينئذ أكثر مساسا مما كان عليه منذ اثنى عشر عاما • وحين استشار كرومر حكومة سولزبرى فى نوفمبر ١٨٩٥ بشأن تخصيص الاعتمادات اللازمة اما لبناء خزان فى أسوان أو فى القيام بحملة على السودان أحيط علما بعدم وجود أى احتمال فى ذلك الوقت للموافقة على قيام مثل تلك الحملة • ومن ثم فان الموافقة على ارسال حملة الى دنقلة لابد وأن تكمن دوافعها فى ثنايا الموقف الدولى خلال الشهور الأولى من عام ١٨٩٦ (١) •

---

(١) الأسباب المعروفة عن الخلفية الدبلوماسية توجد فى كتاب :

langer, Diplomacy of Imperialism.

ولكن يجرى الآن اعادة النظر فى هذه الأسباب فى ضوء بحوث وثائقية أشمل ومن ثم يجب اخذها بشىء من التحفظ . ولمزيد من الدراسة انظر :

A. J. P. Taylor : Prelude to Fashoda, The Question of the upper Nile, 1894 - 95 – KHR, IXV. 1950, 52 FF.

وتوجد بعض المعلومات عن السياسة الفرنسية فى النيل الأعلى فى :

CIN, Sandereon. Emir Sulayman ibn Inger Abdullah, S. N. R. XXXV/1, 1954, 22 - 74.

ويدرس مسترساندرسون الآن الصراع بين انجلترا وفرنسا حول اعالي النيل خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٨٩٠ و ١٨٩٩ .

وقـد توفرت حجة ارسال الحملة حين هزمت القوات الايطالية فى عدوة فى اول مارس ١٨٩٦ • وكان قد تقرر منذ شهر يناير امكان القيام بمظاهرة عسكريه على النيل للتخفيف من ضغط المهـدية على الجناح الايطالى فى كسلا • وأدى انتصار الحبشة الى طلب ايطاليا المساعدة من جديد • وتزايدت الشبهة فى وجـود نوع من التعـاون أو الاتفـاق بين القوات الحبشية والمهدية • هـذا هو الموقف الذى أدى الى برقية ١٣ مارس •

أما السبب الحقيقى للقرار البريطـانى المفاجىء فيرجع الى عوامل أكثر عمقا مما يمكن تصوره حيث لم يكن الهدف مجرد القيام بمظاهرة بل قصد به الى استعادة اقليم دنقلة بأسره •

وقد أيد الرأى العام البريطانى بحماس شديد فكرة التقدم نحو النيل ذلك أن المهانة والغضب اللذين كانا قد استبدا به حين ترامت اليه أنباء مقتل غوردون كانا لا يزالان يفعلان فعلهما بعد عشر سنوات • وأدى نجاح حكومة المهدية فى البداية واستمرارها فى البقاء الى نمو العداء الذى غذاه عدم الرضا عن العلاج المؤقت للأحـداث والوصف المتوتر لاراقة الدماء والاستبداد كما جاء فى بعض الكتب مثل :

Mahdiism & the Egyptian Sudan, Ten Years Captivity in the Mahdi's camp, & Fire & Sword in the Sudan.

وقد شابت تصريحات الرجال المتصلين بشئون السودان وأحداثه اندفاعات عاطفية ولكن ليس من الانصاف أن نعتبر هذه الحالة النفسية مجرد تعبير عن الرغبة لأخذ ثأر غوردون ، برغم أن مثل هذا الثأر كان مفهوما ومتوقعا لدى السودانيين (١) •

(١) نسب يوسف ميخائيل لعثمان شيخ الدين الحديث التالى عن الخليفة « واعلم مؤكدا أن للبريطانيين عليك ثأرا ، هو الانتقـام لهكس ، والانتقام لغوردون ، والانتقام للبريطانيين الذين قتلتهم فى بلاد السودان . وان للمصريين عليك ثأرا عظيما للانتقام لجميع رجالهم تركا ومصريين ولحكم بلادهم وهم قادمون الآن للأخذ بثأرهم واستعادة حكمهم .
مخطوطة يوسف ميخائيل (١) ص ٩٩ .

وتلخص كلمات ونجت موقف كثير من معاصريه كما توضح الروح التي صبغت ادارته الطويلة للسودان « ان قيام سـودان جديد وافضل على اشلاء غوردون وكل أولئك الضباط والرجال الشجعان الذين مضوا نحبهم خلال قيامهم بواجبهم باخلاص ، هو الامل المتقد لكل من يرجو لمصر الرخاء من كل قلبه (١) •

وهكذا كانت الارض ممهدة تماما فيما يتعلق بالرأى العام البريطاني، لمحاربة الخليفة عندما تواتى الظروف • وقد تزايد خطر التوسع البلجيكى الفرنسى الاستعمارى نحو اعالى النيل منذ عام ١٨٩٥ • وقـد تازمت الأمور فى ١٨٩٤ — ففى ذلك العام عرف أن الفرنسيين يخططون للتقـدم نحو لادو أو فاشودة • ويبدو أن اعلان الحماية البريطانية على أوغندا فى ١٢ أبريل عام ١٨٩٤ أدى الى اعطاء دفعة اخيرة للشروع فى مفاوضات مع ليوبولد الثانى على أمل الوصـول الى اتفاق يؤدى الى حماية المصالح البريطانية والمصرية فى مواجهة أطمـاع حكومة الكنغو الحرة وفرنسا • ووجـد فى ذلك الحين اتجاه لدى البريطانيين للاطاحة بالدولة المهـدية بالتقدم فى وادى النيل ومن ثم كان الاعتراف دوليا بأعالى النيل كمنطقة نفوذ بريطانية أمرا مرغوبا فيه الى أقصى حد •

وكان ليوبولد قد اقترح فى عام ١٨٩٢ أن يتنازل عن ادعائه — طبقا لاتفاقية ماكينون — بتأجير بريطانيا للأراضى له • ولم يتم بحث هـذه الفكرة فى حينهـا وأن بدأت مفاوضات بشأنها فى مارس ١٨٩٤ انتهت بتوقيع معاهـدة بين الكونغو وانجلترا فى ١٢ أبريل • وقد أدت هـذه المعاهدة الى تحقيق أطماع بريطانيا فى الحصول على منطقة نفوذ لها فى أعالى النيل • وتركت الضفة الغربية شمالا حتى فاشودة وغربا حتى خط طول ٣٠° شرقا لليوبولد مدى الحياة • كمـا ترك باقى حوض بحـر الغزال غرب هذا الخط لليوبولد وخلفائه • وهكذا أقيم حاجز حال بين الفرنسيين وبين الوصول الى كل من بحر الغزال وأعالى النيل وأصبح للبلجيك الحق فى احتلال هذه الاقاليم وهو ما شرعوا دون ابطاء فى تحقيقه

---

(١) ingate : Mahdiism p. 491

بينمــا قبلت طلبات بريطانيا ومصر (ولم تكن هنــاك تفرقة بين الاثنين فى نظر هوايتهول) من حيث المبدأ وأصبح من الممكن وضعها موضـــع التنفيذ يوما ما .

ولم يكد يتم توقيع الاتفاق بين الكونغو وانجلترا حتى تقــدمت الحكومة الفرنسية ــ وهى تجهل ما حدث ــ لتعرض على ليوبولد تسوية مناسبة بشأن حدود أوبانجى المتنازع عليهــا بين حكومة الكنغو الحرة وأفريقيا الفرنسية (١) بشرط السماح لفرنسا بمنفذ يصلها بأعالى النيل . واهتم ليوبولد الآن بتأخير اعلان اتفاقيته مع بريطانيا بقدر ما كانت بريطانيا مهتمة بسرعة اذاعتها . وحلا لهذا الاشكال وضع اتفاق جديد مع بريطانيا (وقع عليه فى ١٢ مايو ١٨٩٤) يتفق مع الأول وأضيف لمرفقاته « التأكيد بأن أطراف الاتفاقية لا يجهلون ادعاءات تركيا ومصر بشأن حوض النيل الأعلى » . ومن الصعب أن تدرك كيف كانت هذه الادعاءات ذات فعالية فى ايجار لم يصادق عليه كل من السلطان والخديو .

وفى الواقع لم يكن من المتوخى من الاتفاقية أن تستمر طويلا ــ وحذر السفير البريطانى فى باريس من أنها ستؤدى الى افساد العلاقات بين فرنسا وانجلترا . وتقرر فى شــهر يونيو حذف عبارة من الاتفاقية مضمونهــا الســماح لبريطانيا بممر عبر أراضى الكنغو وذلك نتيجــة لاعتراضات ألمــانيا . وأثارت فرنسا حــق بريطانيا فى تبنى الدفاع عن ادعاءات العثمانيين والمصريين . وجــرت المطالبة بالغاء الاتفاقية وقبل ليوبولد الدخــول فى مفاوضــات مع الفرنسيين . وفى ١٤ أغسطس تم التوقيع على اتفــاقية فرنسية كونغــولية جبّت الاتفــاقية الانجليزية الكونغولية السابقة . ففى مقابل اجراء تســوية مناسبة على الأوبانجى قبلت حكومة الكنغو الحرة التنازل عن كل ما احتلته والتعهد مستقبلا بعدم ممارسة أى تدخل سياسى من أى نوع غرب خط ٣٠° شرقا وشمال

---

(١) لمزيد من المعلومات عن النفوذ البلجيكى فى الأوبانجى والنزاع مع فرنســا الذى انتهى بالاتفاقية الفرنســية الكونغولية انظر :

L. Lotar : La Grande Chronique de L'ubangi IRC. VII/2,1937

خط ٣٠ر٥° شمالا وكان معنى هذا ألا يكون لليوبولد حق فى أن يؤجر أكثر من منطقة لادو شمالا (١) وأن هناك فيما عدا هذه المنطقة مساحة كبيرة تشمل بحر الغزال ومعظم النيل الأعلى لم تعترف الحكومة الفرنسية بادعاءات بريطانيا فيها كمنطقة نفوذ لها .

وعلى كل فان الفرنسيين كانوا على استعداد للتفاوض مع بريطانيا وكان من المحتمل أن يقبلوا الادعاء البريطانى كجزء من تسوية عامة كتلك التى تم التوصل اليها فيما بعد طبقا للاتفاق الودى المعقود فى عام ١٩٠٤ . ولكن المفاوضات قطعت وزاد الخلاف فى السنوات الأربع التالية . وفى ١٧ نوفمبر ١٨٩٤ نبه مجلس الوزراء الفرنسى على وزير المستعمرات بضرورة احتلال أكبر مساحة ممكنة من الأراضى توقعا لزحف بريطانيا من أوغندا . ولم تتحقق الخطط الفرنسية وان عرف منها ما يكفى لانذار بريطانيا . وفى ٢٨ مارس ١٨٩٥ أعلن سير ادوارد جراى باسم الحكومة « أن حملة فرنسية ترسل الى أرض معروف مدى ما لنا فيها من حقوق منذ أمد طويل ــ سيعد عملا غير ودى وسينظر اليه فى انجلترا بهذا المنظار » .

وتبين أن القيام بحملة بريطانية من أوغندا فكرة غير صالحة ومع ذلك جددت فرنسا استعداداتها للتقدم فى أعالى النيل . ولم يكن الهدف الفرنسى مبدئيا هو احتلال وادى النيل بل الحصول على وضع يمكن فرنسا من ارغام انجلترا على مفاوضتها فى سبيل اجراء تسوية عامة لأوجه الخلاف الرئيسية دون أن تتأثر بذلك هيبة فرنسا . وكان من شأن امتداد النفوذ الفرنسى الى أعالى النيل أن يقوى مركز الحكومة الفرنسية كما يساعد على تهدئة الرأى العام بسبب ما فقدته فرنسا من مكانة فى مصر . وفى نوفمبر ١٨٩٥ وافق وزير الخارجية على ارسال حملة للنيل الأعلى بقيادة الكابتن مارشان كما أن ليوبولد بالاتفاق مع فرنسا أعد حملة وجهتها النيل لاحتلال قطاع لادو متعاونا فى ذلك مع بعثة مارشان الذى

---

(١) وبالسماح بهذا تخلى الفرنسيون بلباقة عن تأييدهم السابق لادعاءات مصر .

أعدت له الأوامر النهائية فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٩٦ ولكنه لم يبدأ تحركه فعلا من برازافيل قبل مارس ١٨٩٧ • كما فرضت فرنسا نفوذها على الحبشة • ومع توتر العلاقات بين منليك وايطاليا عقب الغاء معاهدة أوتشيالى Uccidlli طلب حاكم الحبشة معونة فرنسا وسمح سرا بمرور السلاح عن طريق الصومال الفرنسى • وتزايد النفوذ الفرنسى فى الحبشة عقب انتصار عدوة وبعد أن تسلم مارشان أوامره • وقد وصل لاجارد Lagarde حاكم الصومال الفرنسى الى أديس أبابا فى مارس ١٨٩٧ فى مهمة خاصة وحصلت الحبشة على تأييد فرنسا القوى لكل ادعاءاتها فى الضفة اليمنى من النيل الأبيض بين خطى ٥° ــ ١٤° شمالا بينما كانت ثلاث بعثات فرنسية للاستكشاف تأمل فى التقدم عبر الحبشة فى اتجاه السوباط وأعالى النيل •

وتزايدت خطورة التقدم الفرنسى المزدوج وضوحا مع مضى الوقت، كما تناقصت الحجة الأساسية له ــ الا وهى الخطر الذى حاق بكسلا من جراء تهديد المهدية لها • ولا شك أن هذا الخطر كان حقيقيا فى البداية ــ ففى الاحتفال الرجبى ٢٧ رجب ١٣١٣ (١) (١٣ يناير ١٨٩٦) عقد الخليفة ــ وفقا لما جرت عليه العادة ــ مجلسا من كبار قادته وقيل أنه قرر فيه اعداد حملة لاسترجاع كسلا من الايطاليين (٢) على أن تشترك قوات أحمد فضل وحامد على وعثمان دقنة فى تنفيذ هذه العملية • وتقرر أيضا ارسال امدادات للشمال لاستعراض النشاط فى منطقة الحدود •

وبرغم أن خطة الخليفة أفادت من ظروف الحرب الدائرة بين منليك والايطاليين الا أنه لا توجد شواهد على أن الحاكمين الافريقيين كانا ينسقان عملهما • وكما أشرنا سابقا (٣) عرض منليك عقد اتفاقية مع عبد الله فى سنة ١٨٩٥ خلال بحثه عن حلفاء ضد الايطاليين ولكنه تلقى ردا رسميا

---

(١) اى الاحتفال بالاسراء والمعراج فى ٢٧ رجب من كل عام .
(٢) IRE 44, 2 — 3
(٣) انظر الفصل السابق .

غير مشجع ثم كتب ثانية فى ١٥ أبريل ١٨٩٦ معلنا نبأ انتصاره فى عدوة وكرر اقتراحه بشأن عقد اتفاقية .

وفى ١١ يونيو أرسل مبعوثا آخر باقتراحات شفهية للخليفة . وأجاب عبد الله على هذه الاقتراحات فى ربيع الثانى ١٣١٤ (سبتمبر – أكتوبر ١٨٩٦) فى رسالة حملها مبعوثه الخاص محمد عثمان خالد . وبرغم أن القوات المهدية فى تلك الآونة كانت قد طردت من دنقلة الا أن الخليفة لم يتنازل عن تعاليه نحو صاحب انتصار عدوة فكتب اليه « وأما ما يتعلق برغبتكم فى تحقيق السلام بيننا وبينكم فاعلموا أنه لا يوجد بيننا وبين الأوروبيين الا علاقة الحرب ، ونحن لا نقبل مجيء الأوروبيين الى بلادنا الاسلامية من أجل الشراء والبيع أو بحجة الترحال . فاذا كان موقفك مثل موقفنا بحيث ترفض دخول الأوروبيين لبلادك الا فى حالة الحرب وبحيث لا تتصل بهم كما هو حالنا فيمكن فى هذه الحالة عقد اتفاق سلام بيننا وبينكم (١) .

وعاد محمد عثمان خالد من الحبشة فى أوائل ١٨٩٧ ولم يستطع منليك قبول شرط عبد الله من أجل السلام ولكن كلاهما لم يرغبا فى قطع حبال الاتصال مع بعضهما البعض ؛ ففى أواخر ١٨٩٧ تركت بعثة أخرى الحبشة الى السودان وكان بين أعضائها شخص اسمه محمد بشرى سبق ارساله من قبل الخليفة الى منليك وعاد الآن بخطاب معتمد من امبراطور الحبشة ورسالة شفهية . وفى نفس الوقت تقريبا أرسل منليك مبعوثه السابق محمد الطيب مرة ثانية بخطاب معتمد ورسالة شفهية .

وكانت هذه البعثة الأخيرة على جانب من الأهمية . وعندما وصل المبعوثون لأم درمان فى ذى القعدة ١٣١٥ (مارس – أبريل ١٨٩٨) كانت قوات كتشنر قد وصلت الى العطبرة وقوبل الضيوف هذه المرة بتشريف كبير ووضعت ترتيبات متعددة للترحيب بهم . وأصبح ابراهيم رمضان

---

(١) وثائق المهدية ١/٣٤ ، ١٢ ، ٢٤ .

الذى كان لشهور قليلة سابقة المشرف على الخزينة العامة رئيسا للبعثة . ورغبة فى ارضاء المسيحيين من أعضاء البعثة تقرر عدم ذبح الحيوانات اللازمة لطعامهم على أيدى المسلمين . وأهمل مؤقتا تنفيذ قانون المهدية الخاص بتحريم المشروبات الروحية حتى يمكن تقديم عرق البلح للأحباش . كما أقيم مهرجان خاص للضيوف أطلقت فيه النيران من الترسانة .

وجاءت اللحظة الحرجة للبعثة عندما قدم الأحباش للخليفة فى مقابلة سرية علما فرنسيا أعطى لمحمد الطيب من لاجارد فى حضور منليك ووفقا ليوسف ميخائيل « طلب المبعوث من الخليفة رفع هذا العلم على حدود مملكته ليكون ملكا مستقلا على مملكته وينال حماية فرنسا (١) » وبناء على ذلك أخفى الخليفة العلم فى منزله . ويبدو أنه وضع فى الاعتبار احتمال استخدامه لمواجهة التقدم الأخير لكتشنر ووجد فى ذلك تأييدا من عثمان شيخ الدين . أما يعقوب فلم يبال كثيرا بهذه الفكرة (٢) . وذكر يوسف ميخائيل أن الخليفة تنازل لمنليك عن بعض تلال بنى شنقول . وهذا الاقليم يقع على حدود القوتين وعاش زعيمه المحلى مستقلا بالفعل عن الخليفة . وبعد هذا التسليم طرده الأحباش من بنى شنقول واحتلوا الاقليم . ويكشف حادث العلم عن خطة لاجارد فبينما يتفاوض مع منليك لفتح طريق الى النيل يتخذ سياسة أخرى مفادها محاولة اقناع عبد الله بأن يقبل حماية فرنسا وفى كلتا الحالتين لم يصبه التوفيق فى نهاية الأمر .

ويظهر أنه برغم تحسن العلاقات بين منليك والخليفة فيما بين عامى ١٨٩٥ و ١٨٩٨ وبرغم تقدم المفاوضات الخاصة بعقد تحالف بينهما منذ الصيف السابق للاحاطة بعهد عبد الله ، الا أنه لم توجد أى محالفة رسمية أو أى مشروع محدد لتبادل التعاون فى وجه الضغط الأوربى . وبمقارنة سياسة عبد الله السلبية كما جاء وصفها فى خطابه بتاريخ ربيع الثانى

---

(١) مخطوطة يوسف ميخائيل (١) ص ٩٦ .

(٢) يحدد يوسف ميخائيل موعدا ، لوصول البعثة التى جاءت بالعلم ، سابقا لوصول محمود أحمد لأم درمان (أوائل ١٨٩٧) ومن بقية الشواهد تبدو استحالة ذلك زمنيا .

١٣١٤ هـ ، بسياسة منليك وسماحه بدخول الأوروبيين والافادة من آرائهم مع ايجاد توازن بين قواهم المتنافسة فى سبيل الاحتفاظ باستقلال الحبشة نجد أن سياسة الأخير كشفت عن حكمة أكثر ومرونة أعمق . هذه المرونة السياسية والمهارة الدبلوماسية لعاهل الحبشة اذا قورنت بسياسة حاكم السودان ، هى صاحبة الفضل الى حد ما فى التفاوت فى مدى ما حققه كل منهما من نجاح فى التعامل مع الامبريالية الأوروبية العدوانية السائدة فى ذلك العصر . وقد بلغت سياسة منليك قمة نجاحها فى عدوة بينما انتهت سياسة عبد الله بأشكالها المتعددة بالفشل فى كررى .

٢ — الغزو الانجليزى المصرى لدنقلة وعطبرة :

وصفت أحداث الغزو الانجليزى المصرى الذى أدى الى استعادة السودان من وجهة نظر الفاتحين فى كتابات كثيرة معاصرة ألفت بعد ذلك (١) ومن ثم فان هدف الكتابة التالية هو مجرد تلخيص المراحل الأساسية للحملات مع ادراج بعض المعلومات الاضافية من المصادر السودانية .

واستخدمت القوات المصرية والسودانية فقط فى المراحل الأولى للاسترجاع . ومعظم السودانيين الذين اشتركوا فى هذه العملية هم أصلا من أهل الجنوب وبقايا الجهادية السابقين وفى كثير من الحالات كانوا من أسرى المعارك الذين يغيرون ولاءهم بسهولة كبيرة وفقا لمجريات الأحداث كلما ألقت بهم المقادير سواء فى أيدى المصريين أو المهديين . وتركت

---

(1) Hill : Bibliography, 139 - 40, 142 - 3

H. S. L. Alford & N. D. Sword : The Egyptian Sudan, its Loss and Recovery. lond. 1890.

ومن الكتاب الصحفيين

G. W. Steeven : With Kitchener to Khartoum. Lond 1898.

اما السرد الكلاسيكى فقط أعطاه

Winston Churchill . The River War lond. 1899

وهناك تقييم حديث وموجز لأحداث الحملة أعطاه

Theobald . Mahdiya, 189 - 236.

هذه القوات تحت قيادة ضباط من البريطانيين كمـــا تولى كتشنر ادارة المعارك طيلة مدة الحملة • وتولى كرومر بصفته مدنيا اشرافا اسميا على نشاطاته ولكن كتشنر تمتع بثقته التامة وكذلك بثقة الحكومة البريطانية وجرى التعامل مـــع الحكومة الخــديوية بصفة عامة باعتبارها شريكا صـــوريا •

أما عن الخليفة فقد بدأ حشد قواته قبل تحرك القوات المصرية وكان هدفه ــ كما هو متوقع ــ تنفيذ سياسته الهجومية التى أعلن عنها فى الرجبية •

وفى الحادى عشر من رمضان ١٣١٣ هـ (٢٥ فبراير ١٨٩٦) كتب أحمد السنى الوكيل الأكبر فى منطقة الجزيرة بما يفيد أنه أعلن أوامر الخليفة الخاصة باستدعاء جميع المهاجرين ، أى البقارة ، الذين استقروا فى ذلك الاقليم • وبعد أسبوعين أعلن انتهاء التعبئة • وفى الرابع عشر من شوال (٢٩ مارس) أى بعد بداية التقدم الانجليزى المصرى تلقى أحمد السنى أوامر أخرى لارسال جميع المهاجرين والجهــادية وقوات الحرس • كما استدعى ضباط الجزيرة والنيل الأبيض لمقابلة الخليفة•وفى السابع عشر من ذى القعدة (٣٠ أبريل) ذكر أحمد السنى مرة أخـــرى ما يفيد اتمام التعبئة •

وفى هذه الآونة ، صدرت الأوامر فى ١٨ مارس عام ١٨٩٦ للقوات المصرية فى الشمال للتقدم • كما بدأ انشاء الخط الحــديدى • وفى ٢٠ مارس تم الاستيلاء على عكاشة واستعدت القوة المهدية على الحدود فى شىء من التمهل للتقدم • ومن قاعدته فى ساوردة تقــدم حموده أدريس أولا الى كوشا فى ٢ أبريل ثم فى ٢٨ أبريل الى فركة أو (فركت) •

وفى أول مايو جرى اشتباك فى نقطــة متوسطة بين فركه وعكاشه اندحر فيه الأنصار واضطروا للانسحاب • وتعرض حموده للتأنيب لمـــا أبداه من تخاذل واستبدل به المحارب العتيق عثمان محمد عيسى فى قيادة القوات فى فركه • ومع امتداد الخط الحديدى جنوبا تزايد تعرضه لتهديد

غارات المهديين وأصبح من الضرورى فى أوائل يونيو ابعاد الأنصار عن فركه • فأرسلت حملة لهـذا الغرض ووقعت معركة فركه فى ٧ يونيو وفيها هزم الأنصار وقتل حموده أدريس وتم الاستيلاء على ساورده فى اليـوم التـالى •

وحينئذ كان الجزء الشمالى من اقليم دنقله قد أصبح تحت سيطرة مصر وانجلترا وان بقيت قوة مهدية كبيرة فى مركز القيادة الاقليمى فى العرضى حيث كان الحاكم الشاب محمد بشاره ومعاونه مساعد قيدوم • وقد تأخر تقدم القوات البريطانية والمصرية لسببين أولهما ضرورة الانتظار فى المعسـكر الرئيسى الجديد فى كوشه الى أن يسـمح الفيضان بمجىء المراكب البخارية من مصر فى أوائل أغسطس بالاضافة الى انتشار موجة فجائيـة للكوليرا فى أواسط شهر يوليو وعدم انحسارها قبل نهايته • وفى ٢٣ أغسطس بدأ التقدم من ساورده • وكانت القوة المهدية متمركزة فى الحافر على الضفة الغربية شمال العرضى • وهنا صـمد محمد بشارة فى انتظار الهجوم المتوقع على موقعه الحصين • وتقدمت القوات البريطانية المصرية على الجانب الشرقى ومن ثم اقتصر القتال على المراكب البخارية الثـلاثة فقط التى تولت ضرب موقع المهـدية بالنيران • وعلى كل فان الأنصار ثبتوا فى مواقعهم وصعدت المراكب النيل متظاهرة بنقل القوات عبر النيل جنوب الحافر • وهنا نجحت الخدعة وأخليت الحافر فى ليـلة ١٩ ــ ٢٠ سبتمبر •

وبرغم أن محمد بشارة لم يفقد الأمل فى الاحتفاظ بالعرضى الا أن الموقف كان ميئوسا منه وسقط بقية الاقليم دون مقاومة • وتم الاستيلاء على العرضى فى ٢٣ سبتمبر وسنام المقابلة لمروى بعد ثلاثة أيام • وفقـد الخليفة شمال السودان من وادى حلفا الى أرض الشائقيـة • وأصبح المسرح معـدا الآن للمرحلة الثانية من الاسترجاع وهى المرحلة التى لم تتوقع لهـا الحكومة البريطانية تلك الصورة عندما أعلنت الأمر بالتقدم فى مارس ١٨٩٦ • ولكن الظروف ساعدت كتشنر عندما ذهب فى نهـاية العـام الى انجلترا ليطلب الاذن له بالقيام بتقدم ثان • فقد أصبح التقدم

الفرنسى للنيل الأعلى آمرا وشيك الوقوع كما أن حمــلة دنقلة كانت قليلة التكاليف وسريعة وناجحة • ومن تم عاد كتشنر بانصلاحيات التى سببها ووعد بامداده بقوات بريطانية لمساعدته اذا احتاج الأمر •

وشعلت انحملة فى الشهور التالية باعداد العــدة للتقــدم وما حل شهر مايو ١٨٩٧ حتى كان الخط الحديدى قد وصل الى كرما على ان كتشنر قرر اتخاذ تخطيط جديد يساعده على التقدم فى اراضى المهدية • فمد الخط الحديدى عبر صحراء النوبة ليصل مباشرة الى النيل عنــد أبوحمد حيث يمكن منها التقدم أو الهجوم على نقطة التقاء الطرق الهــامة فى بربر • وكانت تلك خطة ثوريه لحل مشكلة غزو السـودان وكان من الممكن تحقيقها بفضل التفوق التقنى لدى القوات الغــازية مما أدى الى أخذ الخليفة على حين غرة •

وبرغم أن عبد الله لم يستطع تحــديد الاتجاه الذى يمكن أن يأتى منــه التقدم الا أنه توقع مصيبا أن احتلال دنقله ما هو الا خطوة أوليــة فى سبيل غزو كامل للدولة المهــدية • وفى سبتمبر ١٨٩٦ أو حوالى ذلك الوقت أرسل يونس الدكيم الى بربر وهكذا وضع هــذا الموقع الهــام تحت أمرة قائد له خبرة بالحدود المعــادية • وجعلت المتمه مركزا لتجمع الحطام الباقى من جيش دنقله بينما تركزت القوات الرئيسية فى أم درمان ذاتها • وكما حدث فى مناسبات سابقة عندما بدأ الغزو من الشمال أمرا وشيك الوقوع وضع الخليفة خطته على أساس اغراء الغزاه بالتقدم الى أطراف العاصمة ثم مهاجمتهم •

وأرسلت الأوامر الى محمود أحمد لكى يحضر على رأس القــوة الرئيسية بالغــرب الى أم درمان بعد أن يترك حاميــة رمزية فى كل من دارفور وكردفان •

وتحركت قوات الغرب ببطء ومشقة نحو النيل الأبيض واستغرقت فى ذلك شهورا عديدة • وشابه هــذا التحرك فى ضــخامة جحافله وأثره الاستدعاءات السابقة للبقــارة وتم تخريب البلاد التى اخترقها رجال القبائل • ومن حسن الحظ أن محصول عام ١٨٩٦ فى الجزيرة كان وفيرا

وبفضل ترتيبات أحمـد السنى وعنايته أرسلت كميات كبيرة من المحصول الى أم درمان • وخصص الجانب الأكبر مما بعث به لحرس الخليفـة وعندما أولم يعقوب للضيوف المجتمعين على أطراف أم درمان تجاوزت المؤن حـد الكفـاية •

وعسكرت قوات محمود فى كرارى واستدعى يونس الدكيم من بربر فى شهر يونيو نظرا لأن نيـة عبد الله اتجهت الى اعطاء محمود القيـادة العليا على جميع المنطقة الواقعة شمال أم درمان • ومن واقع ذكـريات الخليفة ومستشاريه عن بعثة الانقاذ فى عام ١٨٨٤ ــ ١٨٨٥ قرروا اتخاذ قاعدة أساسية لقوات محمود فى المتمة حيث يؤدى الطريق الصحراوى من اقليم دنقله عبر جكدول وأبو طليح الى النيل • وهـذه المدينـة كانت العـاصمة القبلية للجعليين الذين كان اخلاصهم موضـع شبهة عبد الله • وبعد استشارة زعيمهم عبد الله سعد فرح أصـدر الخليفة قرارا بنزوح أهل المتمة بممتلكاتهم القابلة للحمل الى أى موقع يختارونه على الضـفة الشرقيـة •

وازاء هـذا الأمر قرر عبد الله سعد ورجاله المقـاومة • ووصلت الأنبـاء لمحمود فى الثانى والعشرين من محرم ١٣١٥ (٢٣ يونيو ١٨٩٧)• وفى اليوم التالى وصل اثنان من رسل عبد الله سعد لمروى وقدما لكتشنر رجاء زعيمهم الحصول على سلاح وذخيرة ورجال ان أمكن لمساعدتهم فى ثورتهم • وكان من المحـال الاستجابة لهـذا الطلب فى وقت مناسب ــ فطليعة قوات محمـود كانت قد بدأت مسيرتها والذخـيرة والامدادات أرسلت من أم درمان • وفى ٢٨ محرم (٢٩ يونيو) انضم محمـود الى جيشه • وفى ٣٠ محرم (أول يوليو) هاجم الأنصار المدينة الثائرة • ومع ما اتصفت به مقاومة الجعليين من شجاعة الا أنه لم يكن هناك أدنى أمل وقتل عبد الله سعد أثنـاء القتال وأرسلت رأسه الى أم درمان مع رسالة عثر عليها فى جيبه تكشف عن أن الثورة لم تكن مدبرة وانما شرع فيها عقب عودة الزعيم الجعلى من أم درمان •

ولقد كان انتصار محمود أحمد فى المتمة بمثابة مأساه بالنسبة الى

قضية المهـدية اذ سـجل الدم المراق الكراهية الموجودة بين أولاد البلد والحكم التعايشى المطلق الذى استمر سائدا منذ اعتلاء عبد الله للحكم • وحول الانتصار السهل قوات الحمـلة عن هدفها الأصلى وهو الجهـاد ضد الغـزاه • وانغمس المحاربون القبليون وقد اتخمـوا بغنائمهم من الجعليين فى فوضاهم التقليدية • ووجد محمود أن من المستحيل اخضاعهم للنظام وكان من المستحيل تنفيـذ أوامر الخليفة المتكررة بجمـع الغنائم وارسالها لأم درمان وبقى (الأنصار) مجمدين لشهور عديدة فى المتمـة دون رابط يربطهم ولا ضابط وكانوا على أهبـة الاستعداد عند ظهـور أية بادرة ــ للرحيل محملين بما حصلوا عليه من غنائم • كما ثبت أن هذه الثورة كانت مجرد حركة محلية • وأمكن بسهولة القضاء على تمرد صغير آخر نشب بالقرب من بربر ولم تبد بادرة أخرى للتمرد خلال ما تبقى من حكم الخليفـة •

ولم يتنبه الخليفة فى بادىء الأمر الى تراخى قوات حملة الشـمال أو الى عدم كفاءة قائدها • ولم يكن متصورا أن العدو سيتقدم بغـير طريق جكدول لأن محمـود كتب فى ١٩ صـفر (٢٠ يوليو) ليسـأل الخليفة عن الموقف الذى عليه أن يتخذه اذا تقدمت القـوات الانجليزية المصرية نحو بربر : فهل يشتبك الأنصار معهم فى القتال فى بربر تلقائيا ؟ • وهل يتقدم محمود مع اقتراب العدو أم يسحب حامية بربر ؟ وقد اعتبر الاتجاهين الأول والأخير غير صائبين • وبعد أسبوع جاء رد الخليفة مؤيدا ضرورة تركيز القوات فى بربر وتحصين الخوانق والجنادل الواقعـة الى شمال هـذه النقطة بحيث يمكن ارسال الامداد وقت اللزوم سـواء من أم درمان أو من رجال عثمان دقنـه • وأدرك الخليفة أنه اذا اسـتولى العـدو على بربر فان الامتداد المفتـوح للنهر حتى السـبلوقه سيتيح لمراكبه احداث خسائر كثيرة • ولهذا حث محمود على اتخـاذ اجراءات عاجلة قبل أن تستطيع القوات الانجليزية المصرية الاستيلاء على كل من بربر والعطبرة •

وسوّف محمود لمـدة شهر • وفى الثـانى من ربيع الأول (أول

أغسطس) كتب ليطلب مزيدا من المدافع ورجال المدفعيـة بالاضافة الى ١٠٠٠ بندقيـة على الاقل لقواته العربيه لاستخدامها عندما يتولى العرب حراسة التحصينات ونقط المراقبـة • ولم يكن من الممكن سـحبها من الجهادية (الذين كانوا فى العدة هم الذين يستعملون السلاح النارى) حتى لا يؤدى ذلك الى انحطاط معنوياتهم • وكشف خطاب اخر يحمل نفس التاريخ عن انشغال محمود بالخطر المقبل عليه من جكدول • فقد تلقى نبـا بان أحد أبنـاء عمـومة عبد الله سـعد كان هناك على رأس امدادات من الأعداء وأن غلب على ظنه أنهم انسحبوا • وعلى كل فقد طالب بارسال قوات كافيـة لحراسة المتمـه الواقعة فى مؤخرة تقـدمه المنتظر وجاء رد الخليفة العاجل على مطالبة محمود المتكررة بالسـلاح بأن الثقة بالله خير من ألف سلاح • وجاء فى هـذا الرد أن لدى محمود كميات وافرة من السلاح وأن هناك مؤنا كثيرة فى بربر كما انه يستطيع الحصول على مزيد منها من الجعليين • أما طلب رجال المدفعية فيحال الى يعقوب حيث أن هذه هى مسئوليته •

وجرت هذه الاجابة فى الوقت الذى حدث فيه تطور هام فى الشمال• فالخط الحديدى الصحراوى الذى وجهت عناية خاصة من أجل الاسراع فى مده منذ مايو ١٨٩٧ وصل فى أواسط شهر يوليو الى منتصف الطريق الى أبو حمد وأصبح الاستيلاء على هذه النقطة الأمامية للمهدية على درجة عاجلة من الأهمية • وكانت أبو حمد فى يد قوة يقودها محمد الزين حسن الذى كان يخضع لأوامر محمود أحمد وعلى اتصال به • وفى ٢٩ يوليـو غادرت مروى الى أبو حمد قوة بقيـادة ماجور جنرال هنتر (Hunter) ولحقت بها قوة قبلية من العبابدة تحت قيادة عبد العظيم بك حسن خليفة قادمة من المرات للمساعدة فى العملية • وأظهرت الحامية المهـدية التى فاقها المهاجمون عددا مقاومة باسلة • ولكن المركز (أى أبو حمد) سقط فى النهاية وأسر محمد الزين ذاته فى ٧ أغسـطس •

وعلم محمد الزاكى عثمان (الذى أعيد مؤخرا لبربر كحاكم مدنى تحت رئاسة محمود) بأنبـاء هـذه الكارثة فى العاشر من ربيـع الأول (٩ أغسطس) كما بلغت محمود ذاته بعد يومين من تاريخه • وتوقع محمد

الزاكى أن يصل العدو الى القرب من بربر خلال عشرة أيام وطلب المساعدة بالحاح • ويبدو أن محمود أصابته نوبة نشاط فقد أكد للخليفة عزمه على الخروج على رأس قوات الجيش الى بربر فى الغد او اليوم التالى له • أما فى ذلك الحين فكان مشتغلا بجلب الامدادات الى المتمه من الضفة الشرقية • وأمن الخليفة على خططه ولكن المدد المرتقب لم يصل الى بربر برغم مضى ١١ يوما بعد ذلك وان بدأت احدى الوحدات العسكريه تحركها • ونسب محمود تأخره للصعوبات التى وجدها فى نقل الفرق من الضفة الشرقية ولكنه أصبح مستعدا للتحرك فى آخر الأمر • وهنا ظهر عذر آخر للتأخر • فقد تلقى محمود تقريرا بأن ٨٠٠ من رجال العدو ، ٩٠٠ من فرسانه موجودون فى جكدول ومن ثم رأى تأجيل التحرك الى أن تصله اوامر من الخليفة •

وقد كتب بهذا فى ٢٣ من ربيع الأول (٢٢ أغسطس) وفى ٢٨ من ربيع الأول (٢٧ أغسطس) أجاب الخليفة مكررا تعليماته الأولى بوجوب تقدم محمود لمساعدة بربر ، على أن تبقى حامية فى المتمه لمراقبة جكدول ولم توضع هذه التعليمات موضع التنفيذ حيث أدت عوامل قهرية الى عجز محمود عن تنفيذها • وفى ٢٩ ربيع الأول (٢٨ أغسطس) كتب تقريرا للخليفة يبين فيه ما اعتقد أنه الخطة الانجليزية المصرية للحملة ••• تقدم مزدوج تصعد فيه المراكب البخارية النهر من أبو حمد بينما تتقدم القوات والقبائل عن طريق جكدول • وبعد ثلاثة أيام كتب تقريرا عن أحداث هامة فعلا • ذلك أن محمد الزاكى ، وقد تمردت احدى الحاميات وتخلت عنه ، أخلى بربر وانسحب للجنوب ولكى يخلص نفسه من التعرض للوم الخليفة على سلوكه أبلغه بأن جيشه امتنع عن التحرك الى بربر • وقد سلم الخليفة بالأمر الواقع وبرأ محمود من شبهة التخاذل •

ولا شك أن محمود بتسويفه أضاع فرصة ثمينة لايقاف تقدم مصر وانجلترا على النيل • وفى ٣١ أغسطس دخلت قوة استكشافية من العبابدة الى بربر تحت قيادة عبد العظيم • وفى ٦ سبتمبر تم احتلالها رسميا

بواسطة هنتر وهكذا تتابعت الأحـداث كما توقعها عبد الله فيما مضى • وقامت المراكب الانجليزية المصرية برحلات استكشافيه متكررة صـعودا على النيـل حتى مدخـل خانق سبلوقة وتفحصت استحكامات محمـود وتجمعات القوات المهدية حيثما مرت بالقرب منها • وعندما كشف هبوط مستوى النيل عن مناطق ضحلة شـمال العطيرة وهدد ذلك بقطع خط المراكب عن قاعدتها فى بربر أنشىء مرسى بجوار ملتقى عطبرة بالنيـل • وتطور هذا المرسى خلال الشهور التالية ليصبح معسكر عطبرة والقاعدة الأمامية لكتشنر •

وأضاع محمود أحمد والخليفة الأربعة أشهر التى تلت سقوط بربر فى الاعداد لخطط وخطط مضادة عقيمة • وفى اوائل شهر سبتمبر رأى الخليفة ومستشاروه عدم صلاحية المتمه كقاعدة وفكروا فى سحب الحملة مع رجال محمد الزاكى الى السبلوقه حيث يصبح الخانق والجنادل خطا طبيعيا للدفاع يمكن عنده ترتيب مقاومة جدية فى وجه قوات متفوقة • وأجاب محمود بأنه يفضل البقاء فى المتمه حيث أنها مركز التقـاء للطرق المحتملة لتقدم العدو وذكر أن انسحابه من وجه العـدو قد يؤدى الى تخلى كل قواته عنه •

وقبل الخليفة وجهة نظر محمود ولكن الموقف ظل متدهورا وتسربت القوات من المتمه للخارج • ولم يؤد وصول رجال محمد الزاكى الى تعزيز القوة الأصلية ، لمـا اتصف به سلوك رجالها من فوضى • وفى شهر أكتوبر بدأ نقص واضح فى الغلال وفى أسابيع قليلة تحول التسرب التدريجى من قوة المتمه الى فيضان عارم • ولمواجهـة ذلك اقترح محمود أحمـد فى السابع من جمادى الأولى (٤ أكتوبر) القيام بعمل يائس يقتضى التقـدم الى بربر اعتقادا منه بضعف حاميتها بالاضافة الى أنه كان يرى أن هبوط منسوب المـاء فى النيل وجفاف طريق جكدول يؤديان الى عرقلة حـركة العدو فى البر وعن طريق النيل • واقترح التقدم على جانبى النيل ليجتاز بربر ويخترق المنطقة الواقعـة فيما وراءها حيث يتوفر القمـح • وأصر الخليفة على أن تناقش الخطة بمعرفة كبار قادة الحملة ، بحيث يعلنون عن

موافقتهم بالتوقيع عليها بكل أختامهم • وبرغم أن مجلس الجيش فى اجتماعه المنعقد بتاريخ ١٩ جمادى الأولى (١٦ أكتوبر) وافق رسميا على المشروع الا أن من الواضح أنهم فضلوا البقاء فى المتمه • فقد هوجم المعسكر آنذاك بمراكب العدو وأصبح تقدم القوات الانجليزية المصرية أمرا متوقعا •

ولم يحدث التقدم المرتقب وأصبح موقف الأنصار بسبب الهجمات التى تعرضوا لها والمجاعة ثم هروب القوات أمرا غير محتمل • وفى أوائل ديسمبر حاول الخليفة رفع معنويات أتباعه • وأعد استعراضا خرجت فيه قوات أم درمان الى خارج البلدة كما لو كانت فى طريقها للسير شمالا • وارسل السكرتير الخاص للخليفة المدثر ابراهيم فى ١٨ رجب (١٣ديسمبر) بخطاب خاص لمحمود وضباطه وجه لهم فيه اللوم لأنهم تسببوا فى سقوط بربر بسبب تباطئهم • وطلب منهم سرعة التصرف حيث أن العدو أصبح قريبا بالاضافة الى نقص الغذاء وتعرض الجيش ذاته للتفكك • ومرة أخرى أعلن مجلس قيادة الجيش عزمه على التحرك نحو بربر ولكن خطابه للخليفة بذلك تحول الى طلب المؤن • وردا على ذلك وعد الخليفة بارسال الغلال ولكن المعسكر الكبير خارج أم درمان تفكك وعادت حامية العاصمة المتضخمة الى المدينة •

ونسبت الشائعات التى سرت فى ذلك الحين التخلى عن نية ارسال قوات مساندة الى النزاع على القيادة • وقيل أن الخليفة « على » عرض أن يتولى هذه القيادة فى محاولة منه لتعزيز موقفه ولكن العرض سحب عندما رفض عبد الله امداد القوة بالسلاح النارى • ورأى عبد الله عندئذ وضع عثمان شيخ الدين على رأس القيادة ولكن سرعان ما ثار النزاع بين عثمان الذى كان من رأيه توزيع البنادق على أولاد البلد وبين يعقوب الذى كان حاقدا على ابن أخيه ومتخوفا على زعامته للتعايشة • والواقع أن تحرك أى مجموعة كبيرة من القوات من أم درمان كان أمرا غير ممكن بالفعل بسبب صعوبات الامداد • وبدا أن السبب الذى كان مسئولا الى حد كبير عن هزيمة النجومى قد بدأ يمهد حينئذ لسقوط

محمود أحمد وشــل محاولات الخليفة لمساعدته وأصبحت حامية أمدرمان الكبيرة عاجزة بالفعل عن الحركة لأنها فى حالة ابتعادها عن قاعدتها كان يتعذر عليها الحصول على جرايتها •

وتأكدت هذه الناحية بما اتخذه الخليفة من اجراء بعد عودة المدثر ، اذ أرجأ موافقته الرسمية على التقدم نحو بربر الى أن يتم ارسال القمح الى المتمه ، وقد أرسلت المؤن الى وادى بشاره على الجانب الشــمالى لخانق سبلوقه وان تعذر على محمود استحضارها بسبب دوريات مراكب العدو • وبناء عليه دعا الخليفة ومستشاروه فى الرابع عشر من شــعبان (٨ يناير ١٨٩٨) محمود مرة ثانية للانسحاب الى السبلوقة مستندين فى ذلك الى امكان محمود الحصول على القمح الذى تم ارساله فى الوقت الذى يتيسر فيه ارسال المزيد من المؤن ــ هذا الى تيسير الصمود فى وجه العدو بسبب طبوغرافية الموقع فضلا عن امكان محمــود القيام بعملياته على جانبى النيل بالتعاون مع جيش أم درمان •

وترك اتخاذ القرار كليــة لتقــدير محمود • وقد افاد فى ٢٢ شعبان (١٦ يناير) باعتراضه كليــة على الفكرة فقد كان يخشى أن يؤدى أى انسحاب الى هرب أعداد كبيرة • كما أعلن اصراره ورجال قيادته على العبور الى الشاطىء الشرقى والتقدم نحو العدو • ومرة أخرى وأخــيرة يرضخ الخليفة لقراره • وأصدر الخليفة الآن أمره لعثمان دقنــه الذى كان يعمــل مستقلا فى الشهور الأخــيرة على الضــفة الشرقية والذى أبى الاستجابة لدعوة محمود للانضمام اليه ، بضــم رجاله الى قوات محمود ، ووصل شندى فعلا فى السادس عشر من رمضان (٨ فبراير) • ومرة أخرى لم تكن الزيادة فى الكم لتعنى الزيادة فى الكيف أو فى القوة فالأحداث السابقة أظهرت مدى صعوبة الجمع بين قوات البجه والعرب فى قوة مقاتلة موحدة بينما كان عثمان دقنه بخبرته الطويلة فى القيادة الحرة زميلا مقلقا لقريب الخليفة الشاب •

وبناء على هذا القرار جرت العمليات دون تأخير وتم فى التاســع والعشرين من رمضان (٢١ فبراير) تجميع القوات على الشاطىء الشرقى•

ولم يكن هنالك بد من التقدم بحذاء النيل بسبب الحاجة الدائمة للمـاء برغم ما يؤدى اليه ذلك من تعرض خط السير لمراكب العدو ومدافعها • وعندما وصلوا الى عطبرة تفجر النزاع بين محمود الذى أراد الاستمرار فى السير بحذاء النيل والقيام بهجوم مباشر على حصن عطبرة وبين عثمان دقنـه الذى اقترح سير الجيش من الداخل الى أعلى مصب نهر عطبرة حتى يتجنبوا لفت نظر العدو ومراكبه وحتى يتيسر لهم اما ضرب حصن عطبرة أو ضرب بربر ، ولكى يتمكنوا من الحصول على الغذاء عن طريق الغزو أو حتى على الأقل من ثمـار الدوم • وبالرجوع الى الخليفة فى شأن هـذا الخلاف ارتأى تأييد خطة عثمان •

وفى الخامس والعشرين من شوال (١٩ مارس) وصل الجيش وهو جائع ومرهق الى العطبرة وكان الجنود يهربون بالمئات الا أن أعدادا تدعو الى الدهشة بقيت ثابتـة فى انتظار العدو وقد حصـنوا معسكرهم فى أم دبيع بالخنادق وأنشأوا زريبة • وفى تلك الأثنـاء كان كتشنر الذى أضيفت لقوته فى السودان فرقة انجليزية يتحرك فى ذلك الحـين صاعدا العطبرة بحثا عن الأنصار • وبعد وصـول كتشنر بعدة أيام الى القرب من المعسكر لم يكن قد قر قراره على الهجوم ولكنه قرر أخيرا أن يقـذف بقواته ضد المعسكر فى يوم الجمعـة الكبير الموافق ٨ ابريل • وقتـل ثلاثة آلاف سودانى كما جرح أكثر من ٤٠٠٠ ولم تزد الخسائر الانجليزية المصرية عن ٥١٠ فردا من بينهم ١١٤ من البريطانيين وأسر محمود أحمد نفسه وقد توفى عام ١٩٠٦ برشيد وهو أسير بينما هرب عثمان دقنـه مع بقيـة أتباعه •

٣ — الغزو الانجليزى المصرى للسودان — المرحلة الأخيرة :

تزايد مركز السلطات الانجليزية المصرية قوة فى شرق السودان قبل معركة عطبرة بفضل استعادة الايطاليين لكسلا الأمر الذى تم فى عيـد ميلاد عام ١٨٩٧ • ودخلت القوات الوطنية التابعة للايطاليين فى خـدمة مصر التى استعانت بهم فى القيام بالهجمات التى أدت الى الاستيلاء على النقط المهدية الخارجية للفاشر وأصوبرى على العطبرة • وهكذا حرم عثمان دقنه

من مصدر نفوذه فى تلال البحر الأحمر . وعندما هزم الأنصار فى شـهر ابريل هرب الى القضارف ثم اتجه مباشرة الى أم درمان .

وفى هذه الآونة كانت المحاولات الفرنسية المتقدم صوب أعالى النيل مستمرة واضـطرت بعثـة قادمة من الحبشة أعدها مركيز دى بونشان (de Bonchen) تحت اشراف لاجارد الى العـودة بعد وصـولها الى ملتقى نهر بارو (Baro) بنهر بيبور (Pibor) فى ٣٠ ديسمبر ١٨٩٧ . وفى مارس ١٨٩٨ تقدمت حملة حبشية مصحوبة بأوروبيين من أعضاء بعثـة بونشان على مجرى نهر السوباط ووصلت الى ملتقاه بالنيل فى ٢٢ يونيو . وعادت البعثة بعد أن رفعت علمى فرنسا والحبشة هنـاك . وبعد أيام قليلة ، فى ١٠ يوليو ، بدا فى الأفق ما هو أشد خطرا على مشاريع بريطانيا فى منطقة النيل الأعلى ، ألا وهو وصول بعثة مارشان أخيرا الى النيـل واتخاذها فاشودة مركزا لهـا . ولم توجد أى قوة مهدية على النيـل الأعلى تستطيع الوقوف فى وجه الفرنسيين . أما القوات الموجودة تحت قيادة عربى دفع الله والتى انقطعت الصلة بينها وبين أم درمان ، فقد قامت بغزوة ناجحة فى منطقة الآزاندى فى يناير ١٨٩٧ ثم عادت الى قواعدها فى الرجاف.وهناك فى الثانى عشر من رمضان سنة١٣١٤ (١٤ فبراير ١٨٩٧) اشتبكت مع قوة بلجيكية ، هى الحمـلة التى أرسلها ليوبولد الى أعالى النيل لتعمل على الاتصال بحملة مارشان ، وهزم الأنصار فى هذا الاشتباك كما قتل ٩٣ منهم فى القتـال من بينهم عمر صالح . وأطلق سراح بعض المسجونين من قبل حكومة المهدية ومن بينهم محمد خالد ومحمد عثمان أبو قرجه بأمر البلجيك . أما عربى فاتجه الى بور مع حطام جيشه بعد أن نفذت ذخيرته واقتصر سلاح رجاله على الحراب التى أخذت من القبائل المحلية . ولم تصل رسائله ــ التى وصف فيها انهيار آخر جيوش المهدية على النيل الأعلى ــ بتاتا للخليفة فقد كتبها فى يوليو ١٨٩٨ وسقطت فى أيدى البريطانيين فى شهر نوفمبر .

وأمضى كتشنر الشهور الأربعة التالية بعد انتصاره على محمـود أحمد فى الاعداد للزحف النهائى على أم درمان ورابطت القوات الانجليزية

المصرية فى معسكراتها الصيفية • ووصلت ثلاثة مدافع مع امدادات أخرى بريطانيـة ومصرية فجاوزت قوة الحملة ٢٥٨٠٠ رجل ثلثها تقريبا من البريطانيين • أما عن الخليفـة فكان منصرفا لاعداد العـدة للمواجهـة المنتظرة — ومع أن الموقف كان حرجا بالنسبة اليه الا أن اليأس لم يتطرق اليـه • وقد حصن خانق السبلوقه وشاطىء النيـل فى المسطح المجاور لأم درمان • وأعد جيشا كبيرا من الحرس الخاص وأتباع الراية السوداء للقتال • وبدا فى الامكان الوفاء بوعوده المتكررة بشأن الحصـول على انتصار نهائى فى الصراع مع الكفرة خارج أم درمان • كما أرسل مركبان صعدا للنيل الأعلى لجلب القمح من الشيلوك •

ولم يحاول الخليفة الافادة الكاملة من ظروفه بل انه قـرر سحب القوات من السبلوقه بدافع الخوف الذى سيطر عليه من جراء صـعوبة امداد القوات بالمؤن بعيدا عن العاصمة • وهكذا لم تقف أى قوة فى وجه التقدم الأخير للقوات الانجليزية المصرية • وفى أول سبتمبر ١٨٩٨ عسكر المهاجمون فى العجيجة على الشاطىء الغربى للنيل على بعد ستة أميال من أم درمان • وكانت هناك على الجانب الشرقى قوة جعلية صديقة من غير النظاميين وهؤلاء استطاعوا بمساعدة المراكب الاسـتيلاء على موقع فى مواجهة أم درمان • وأقيمت بطارية مدافع على الفور بدأ منها قصف المدينة بالنار وكان قبر المهدى هدفا خاصا للقصف • وحدثت المعركة مع جيش المهدية فى السهل الواقع حول العجيجة بين تلال كرارى والركن المنعـزل لجبـل صوركاب surkah (١) • وقد سـبق أن وصفت المعركة بأدق تفصيلاتها فى كتب أخرى مما يدعو الى عدم تكرار الوصف هنـا • وقد بدأت فجـر ٢ سبتمبر وانتهت فى منتصف النهار وقتـل خلالها يعقوب وآخرون ممن يلونه مركزا فى ساحة القتال وواجه الحرس الخاص ورجال الراية السوداء — بشجاعة عظيمة وان تكن حمقاء — المدافع الميكانيكية

---

(١) فى الكتابات البريطانية المعاصرة لذلك الوقت أطلق عليه اسم جبل صرغام Surgham كما أطلق على العجيجه Igayga .

التى أحدثت كما فعلت فى معركة العطبرة مذبحة عظيمة وسقط قتيلا نحو أحد عشر ألفـا من الأنصار ونحو ستة عشر ألف جريح مقابل خسارة لم تتجاوز ٤٨ قتيلا ، ٣٨٢ جريحا بين القوات الانجليزية المصرية • وأثارت هذه المذبحة الدموية النقد فى بريطانيا برغم احساس الرضا والغبطة للقضاء على البربرية والانتقام لغوردون •

وعندما رأى الخليفة أنه خسر المعركة ولى الأدبار ومع ذلك لم يصب عزمه أى فتور وحاول دون طائل تجميع قواته فى أم درمان • واذ فشل فى ذلك غادر عاصمته مع تقدم القوات الانجليزية المصرية نحوها• وتلقى قواد المهدية الذين بقوا على قيد الحياة نداءات شخصية من السلطات الجديدة لتسليم الأدوات والوثائق الموجودة تحت أيديهم وتولت الادارة العسكرية مهام الحكومة الصعبة •

وقد أخرج جسد المهدى من مثواه الذى أصابه التدمير وأحرق بناء على أمر كتشنر الذى أقر بأن الرأس قد جرى دفنه فى وادى حلفا •

وفى ٩ سبتمبر عاد الى أم درمان أحد المركبين البخاريين اللذين سبق للخليفة ارسالهما لاحضار غلال من الشيلوك وقرر بحارته أنهم وجدوا فى التاسع والعشرين من ربيع الأول ١٣١٦ (٢٣ أغسطس ١٨٩٨) قوة أوروبية معسكره فى فاشودة ، وأنهم بادلوها اطلاق النار ثم عادوا بمركبيهما الى الرنك وهنا بقيت احدى المركبين مع القائد بينما أرسلت الثانية لاحضار نجدات من الخليفة • وفى الحال أقلع كتشنر الى فاشوده ليواجه مارشان على النيل الأعلى • ومن هنا تفجرت مشكلة دولية أدت بعد أن وصلت بانجلترا وفرنسا الى حافة الحرب الى تأكيد قبضة انجلترا ومصر على أعالى النيل ومهدت الطريق لعقد الوفاق الودى •

وبقى الخليفة الهارب لأكثر من عام مثار اشكال للحكم الجديد وقد اتخذ طريقه الى شرق كردفان حيث طمع فى تأليب أنصاره وتجميعهم• وفى هذه الشهور الأخيرة الممتلئة بعوامل الضيق واليأس عادت المهدية الى الاستناد للحضرات والرؤى التى يراها الخليفة والتى كانت مظهرا من مظاهر المهدية الأولى ثم تنوسى استخدامها مع بروز أوتوقراطية

التعايشية ومن ذلك ما جاء من أنه « فى احدى الليالى ، رأى أحد الاخوة سيدنا خليفة المهدى (عم) ومعه حرسه الخاص فسألت ما هذا ؟ قيل لى : هذا هو خليفة المهدى (عم) وحرسه الخاص ، تجمهروا لارتداء جببهم ... بالمكان الذى يجب عليهم أن يتدثروا بها فيه . عند ذلك رأيتهم وقد دثروا بدثار انفلق منه ضوء ساطع ومن بعد دثر باقى أفراد الجيش فرأيت الضوء يعم أرجاء المعمورة . وبعد أن انتهى ذلك رأيت الخليفة متجها برأسه الى الشرق ومعه الرايات والجيش حتى دخل أم درمان دون أن يقابله أى عائق . فقلت أين ذهب الكفار ؟ فقيل لى : ان الكفار كلهم قد لاقوا حتفهم وطهرت الأرض منهم . وفى خلال ذلك رأيت جميع الكفار موتى وجثثا هامدة وشكرت الله على ذلك » (١) .

ولم يزد أمل الخليفة فى العود الظافر الى أم درمان عن كونه حلما . وفى أوائل ١٨٩٩ انضم أحمد فضيل للخليفة . وأحمد فضيل هو الذى احتفظ بالقضارف على رأس قوة مناسبة حاميا جناح المهدية من الهجمات التى يتم شنها من كسلا . ولما لم يستطع الوصول الى أم درمان فى الوقت المناسب للاشتراك فى المعركة حاول الرجوع الى القضارف حيث شغل بالقتال مع قوة أرسلت من كسلا للاستيلاء على المدينة . وفى مسيرته الطويلة غربا نحو كردفان عابرا النيل الأزرق والنيل الأبيض تبخر جيشه ولم يلتق بالخليفة أخيرا الا ببقية قليلة منه .

وبرغم ذلك استطاع الخليفة الحصول على مزيد من العون ولكن قوة أرسلت ضده بقيادة ليفتنانت كولونيل ف. و. كتشنر (F. W. Kitchener) شقيق الفاتح أمكنها أن تجده فى ٣٠ يناير ١٨٩٩ بجوار شركيله (Shir kayala.) مع قوة نظامية من نحو ٧٠٠٠ رجل تقريبا انسحبت بلباقة من الميدان دون قتال . وبعد انتهاء موسم الأمطار بدأ الخليفة ، الذى كان مقيما بجبل قدير ، مسيرته شمالا نحو جزيرة آبا . ومن المحتمل أنه قصد بمسيرته أم درمان . وبرغم المظهر القوى للحكومة الجديدة فى السودان الا أنها كانت تعانى من عوامل ضعف كثيرة . فقد

---

(١) المهدية ٤٢/١ ، ٣ ، ٨ .

نظر المصريون المتطرفون الى التوقيع على الاتفـاق الثنائى فى شهر يناير ١٨٩٩ باعتباره تنازلا لبريطانيا عن المطالب الوطنية فى السودان • وثارت الفرقة السودانية بأم درمان بتحريض الضبـاط المصريين الساخطين فور ابرام الاتفاقية•ونظرا لاعادة القوات الانجليزية الى مصر بعد أيام قليلة من الاستيلاء على أم درمان بدا وكأن الادارة لا تستند فى ادارتها الا على قصبة مرضوضة • وبالاضافة الى ذلك استثير السودانيون بما حدث فى الصيف • فبعد معركة كرارى استسلم الخليفة محمد شريف وأرسل ليعيش فى شكابا بجوار واد مدنى•وفى ٢٧ أغسطس قبض عليه وعلى اثنين من أبنـاء المهدى بتهمة التخطيط لثورة مهدية ، وحاول أتباعهم انقاذهم عنوة ومن ثم حدثت معركة حوكم بعدها الخليفة محمد شريف وأبنـاء المهدى عسكريا وقتلوا رميا بالرصاص •

ومن ثم توافر الاحتمال فى حصول الخليفة عبد الله على عون مناسب اذا استطاع الوصول الى القرب من أم درمان ومن ثم أرسل فيلق على عجل بقيـادة سير رجنالد ونجت ليلتقى بالخليفـة فى الطريق وكان مع ونجت ٣٧٠٠ رجل ومع الخليفة نحو ٥٠٠٠ رجل وحدثت المعركة فى ٢٤ نوفمبر عند أم دويكرات بجـوار موقع كوستى الحالية ومرة أخـرى اكتسحت المدافع الميكانيكية صفوف الأعداء وبعد انتهاء القتال عثر على خليفة المهدى وقد انكفأ على وجهه قتيلا فوق مصلى من فراء الخروف وعن يمينه الخليفة على وعن يساره أحمد فضيل وكان عثمان شيخ الدين أقل حظا من أبيه حيث حمل جريحا من الميدان ومات فى العام التالى سـجينا فى رشيد • وهكذا أسدل الستار على المهدية •

الفصل الثالث عشر

النظام الإدارى فى عهد الخليفة

١ ـ الأقاليم وموظفوها :

لم يحدث أن استقرت حدود حكومة المهدية استقرارا نهائيا ، فالثورة والاخلاء والاحتلال والهجوم الخارجى ـ كل ذلك أدى الى مكاسب أو خسائر لكل من الفريقين المتصارعين . وحتى الأقاليم الداخلية تغيرت معالمها مع ضم مقاطعات لبعضها البعض أو فصلها عن بعضها البعض وتحويلها لتبعية غيرها لأغراض عسكرية ، مالية أو ادارية . ولا توجد المادة الكافية لوصف الأقاليم وما أصابها من تركيب أو تفكك خلال حكم الخليفة . والوصف التالى يمثل بالضرورة صورة تقريبية للأوضاع فى أواخر حكمه لا فى بداياتها .

ويمكن التمييز بين الأقاليم العسكرية والمدنية (١) فالأولى كانت تمثل مناطق الحدود التى أخذت على عهدتها حماية القلب النابض لحكومة المهدية ، وحكامها كانوا بالتبعية من القواد العسكريين . وقد وضعت بمراكز تلك الأقاليم وفى النقاط العسكرية التابعة لها حاميات من الجهادية ومقاتلى القبائل وكانت لها خزائنها الاقليمية اللازمة لامداد قوتها المحلية المسلحة بما يلزمها . وأقاليم هذا النوع هى دنقلة، واقليم حدود سواكن (ومركزه الرئيسى فى طوكر حتى سنة ١٨٩١) واقليم الحدود الحبشية (المعروف باسم عمالة القلابات وفيما بعد باسم عمالة القضارف نسبة لقاعدته الجديدة) ودارفور . وبرغم أن كلا من كردفان وبربر لم يكونا من أقاليم الحدود الا أنهما اعتبرا من هذا النوع . وقد ضمت كردفان

---

(١) لم توجد هذه التفرقة فى وثائق المهدية والمؤلف هو المسئول عن وضع هذه المصطلحات وأيضا عن الاصطلاح الخاص « باقليم حدود سواكن » واقليم الحدود الحبشية » .

ودارفور لصالح عثمان آدم ومحمود أحمد فى اقليم واحد كبير فى الغرب (عمالة الغرب) ومع ذلك ظلت كردفان تحت ادارة نائب حاكم (وكيـل) من الأبيض ويحتمل أنها احتفظت بخزينتها الخاصة(١) ولم يعد اقليم بحر الغـزال تحت سـيطرة المهـديين عقب انسحاب كرم الله كرغساوى . وكشفت سهولة احتلال فاشودة على يد مارشان عن عدم سيطرة الخليفـة على النيـل الأبيض . ولعل سيطرة المهـدية على بحر الجبل كانت أكثر وضوحا برغم أن عربى دفع الله لم يكن يحكم الا محلة خصصت للمنفيين والمعاقبين بالاضافة الى قاعدة للغارات فى بلدة الرجاف .

وتكونت الأقاليم المدنية (Metropolitan) من الأراضى النهرية والمناطق الملاصقة لها ابتداء من حجر العسل شمال السبلوقة الى خط عرض ١٢° شمالا وشمل امتدادها الجنوبى مناطق قبلية لم يكن للخليفة فيها أكثر من نفوذ مشكوك فى أمره . وقد تبعت جميـع الأقاليم المدنية خزينـة أم درمان من الناحية المـالية ولم تكن لهـا قوات قائمـة بذاتها أو حكام عسكريون . وبرغم أن الرئيس الأعلى فى كل منها حمل لقب « عامل » مثل حاكم الاقليم العسكرى الا أنه كان أصلا موظفا ماليا أو محصـلا . ومن أم درمان شمالا حتى حجر العسل امتد اقليم غرب الحلفاية (غرب اقليم الحلفاية أو غرب الاقليم) ومقابله على الضفة المواجهة اقليم شرق الحلفاية (شرق اقليم الحلفاية أو شرق الاقليم) ومن حجر العسـل الى سوبا (Suba) على النيل الأزرق وجنوب أم درمان كان هناك اقليم النيل الأبيض (غرب البحر الأبيض) تحده بلدة شباشا (Shabasha) على مجرى النيل الصاعد ومن شباشا جنوبا حتى أرض الجمع كان هناك اقليم الشط (عمالة الشط) (٢) مشتملا على أرض الجمع بأكملها . وعلى الشاطىء الشرقى للنيل الأزرق وجد اقليم النيل الأزرق (شرق العديك

---

(١) يوجد وصف موجز لحكومة كردفان فى :

G. A. Reid : , Story of a Mahdist Amir S. N. R. IX / 2, 1926, 79 - 82.

(٢) يذكر « Reid » ان شط « Shatt » دخلت ضمن حدود كردفان خلال ادارة محمود احمد . S. N. R. IX/2, 80.

البحرى (١)) .

وقد تغير الحد الجنوبى لهذا الاقليم من وقت لآخر وان بقى دائما شمال أبو حراز عند التقاء الرهد مع النيل الازرق والى الجنوب تقع أقاليم أبو حراز وود العباس . وقبل اعادة فتح السودان ضمت البلاد الواقعة على النيل الازرق من العيلفون وما بعدها جنوبا مع ارض الجزيرة فى اقليم واحد تحت اشراف أحمد السنى . أما قبل تعيين أحمد السنى فلم تكن الجزيرة اقليما موحدا بل مجموعة من الاقاليم واطلق على الجزء الواقع شمال خط يبدأ من القداسى على النيل الأزرق الى ود الزاكى على النيل الأبيض اسم اقليم الخرطوم (قسم الخرطوم) واعطت عبود وودمدنى اسمهما لاقاليم أخرى تقع فى الجنوب ووصل الحد الجنوبى للمناطق التى تسيطر عليها المهدية الى أرض الفونج بجبل ادريس .

والقول بأن الاقاليم المدنية كانت أقساما مالية اكثر منها وحدات ادارية جاء من واقع قيام محصلين آخرين بالعمل داخل حدودها وخارجها الى جوار العملاء الاقليميين . ومن ثم كان هناك الاقليمان الفرعيان « عمالة البادية الشرقية وعمالة البادية الغربية » والأولى حددت اقليميا فى ربيع الثانى ١٣١٣ (سبتمبر ــ أكتوبر ١٨٩٥) باعتبارها واقعة بين حجر العسل وجزيرة الرهد وتمتد شرقا حتى قايلى (Qayli) وقد ضمت بذلك أصحاب الابل من البدو فى تلك المنطقة . وفيما بين عامى ١٣١٢ هـ و ١٣١٤ هـ تحددت معالم اقليم تابع آخر عرف باسم أطيان الغنائم يقع جنوب اقليم الحلفاية . واختص أحمد السنى بالاضافة الى ما قام به من اشراف ادارى عام ــ بالاشراف على الشئون المالية والتحصيل من البقارة المهاجرين فى الجزيرة الذين كونوا بذلك اقليما ثانويا جديدا .

وتوقفت نوعية الهيئة التى تشرف على اقليم ما على نوعية الاقليم ذاته سواء أكان عسكريا أم مدنيا . وعند اعادة الفتح كان جميع الحكام العسكريين ــ مع الاستثناء الوحيد الخاص بعثمان دقنه ــ تعايشية من ذات الفرع الذى يضم الخليفة والذى عرف باسم الجبارات وتحت

---

(١) كان اسم « العديك » يطلق فى الماضى على النيل الأزرق .

اشرافهم وجد قادة تابعون لهم ومحصلون وشيوخ قبليون • واشتمل الترتيب الاقليمى أيضا على أمين للخزينة ووكيل قضائى (١) وكان الموظفون الماليون مسئولين أمام كل من الحاكم المحلى وأمين خزينة أم درمان الذى يتصلون به سنويا لتقديم الحساب النهائى له • ويتم اختيار القضاة الاقليميين وأحيانا أمين بيت مال الاقليم بواسطة الحاكم المحلى على أن يخطر الخليفة بالاختيار • ولكل حاكم كاتبه الخاص الذى كان يشغل دائما بالمكاتبات المطلوبة من الخليفة • ويتلقى أولئك الكتاب تعيينهم من عبد الله ويستلزم تكليفهم الطاعة الخالصة لحكامهم « مثل الجثة بين أيدى غاسليها » بالاضافة الى طبيعة وظيفتهم القائمة على الكتمان • ويبدو أن تعيين الكتاب كان مرتبطا بالحكام أكثر منه بالأقاليم ومن ثم صدر تعيين جديد لكاتب عثمان آدم عندما تولى محمود أحمد عمالة دارفور •

وتزايد عنصر البقارة فى القوات العسكرية التابعة لحكام الأقاليم خلال عهد الخليفة • وبرغم أن الوحدات أو القوات النيلية واصلت القيام بدورها فى القتال حتى النهاية الا أنها لم تكن محلا للثقة كما فاقها الجهادية والبقارة من حيث العدد وزاد الاعتماد على القادة الذين يرجعون الى أصل بقارى • ومن بين رجال محمود أحمد وكبار قواده لم يكن هناك الا واحد فقط من أصل نيلى كما يبدو وهو الشائقى العطا أصول • ووجد تفاوت طبيعى فى حجم القوات الاقليمية والخليط الذى تتكون منه وفقا للمسئوليات الملقاة عليهم ومدى ما يصيبها من تغير ، فعلى سبيل المثال انكمشت القوة التى كانت بالقلابات عندما انتهى مع موت الملك جون التهديد القادم من الحبشة •

ويمكن التعرف بوضوح على التكوين القبلى للقوات المهدية من واقع هيئتى القوات التى وضعت باقليم دنقله فى عام ١٨٩٦ • فالقوات الأمامية فى سوارده كانت تحت قيادة حموده ادريس الذى كان كمساعديه الثلاثة

---

(١) ذكر ونجت فى (GMRES (1890) 8.) أن تغيير هؤلاء الموظفين سنويا كان هو القاعدة ولكن الواقع هو انهم — باستثناء نواب الخزينة — استمروا فى تولى وظائفهم طالما كان الخليفة راضيا عنهم •

الرئيسيين بقاريا من الهبانية • أما القوات القبلية المعبأة فكانت مقسمة الى أربعة أرباع مسلحة بالحراب والسيوف ومكونة أساسيا من ربعين للبقارة تحت قيادة ضابط من الهبانية وربع من كل من الدناقلة والجعليين• والواقع ان الربعين النيليين كانا مطعمين بكثير من البقارة • وتم امداد الجهاديه بالأسلحة النارية وكان أكبر قادتهم هما اثنان من التعايشة بينما كان الضباط الذين يقلون عنهم مرتبة « رؤوس الميات »[1] على وجه التأكيد من السودانيين اى من غير العرب • وتولى حموده أيضا الاشراف على قوة من فرسان البقارة وقوة من راكبى الابل معظمها من الجعليين والدناقلة تحت قيادة دنقلاوى ومحسى [2] •

أما عن الجيش الرئيسى فى العرضى فكان صورة مكبرة للتكوين السابق وان بدا فيه نفس التنظيم العام وكان للحاكم العسكرى محمد بشارة مساعد هبانى هو « مساعد قيدوم » الذى كان يليه فى مركز القيادة • وتكون معظم حرسه الخاص الذين انقسموا الى خمس فرق من السودانيين المسلحين بالأسلحة النارية وجميع قادة هذه الفرق كانوا من البقارة وبينهم اثنان من التعايشة • واشتملت فرق المحاربين القبليين أيضا على أربعة أقسام أو أرباع اثنان منها من البقارة وواحد من الدناقلة وواحد من الجعليين والشايقية وكان هناك ثلاثة أرباع من الجهادية كل منها تحت قيادة رجل تعايشى له مساعدون من السودانيين • أما الفرسان والاباله (فرق تركب الابل) فكان تركيبها مماثلا لتلك التى كانت فى سوارده • ووجدت قوة مدفعية تولى قيادتها العليا مصرى يساعده سودانى تدرب فى القاهرة • وجلب معظم رجال المدفعية لدى الخليفة من الجيش المصرى السابق فى السودان • وأخيرا ترك المركب البخارى الذى كان موجودا اذ ذاك لقيادة ضابط محسى وميكانيكى مصرى [3] •

---

(١) هذا الاصطلاح يشبه الاصطلاح التركى (يوزباشى) ويعنى رئيس المائة وهى الوظيفة أو الدرجة المقابلة لكابتن وعربت الكلمة التركية واستخدمت فى الجيش المصرى •

(٢) I R E, 48, 16 - 17

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ ، ٣٤ — ٣٥ والمركب هى الظاهرة التى استخدمها المهدى •

وكان التكوين العام للهيئة الادارية فى الأقاليم المدنية يتميز بالبساطة كما كان يتفق مع الاغراض المالية المطلوبة • واعتمد هذا التنظيم على وجود أربعة موظفين كبار هم المحصل وقائد الجهادية والكاتب وأمين بيت المال • وعند اعادة فتح السودان لم يكن بين المحصلين بقارة •

أما الجهادية الذين عاونوا فى جمع الضرائب مثلما فعل الباشبوزق فى عهد المصريين فكانوا بمثابة قوة بوليسية أكثر منهم حامية عسكرية • وقوادها كانوا دائما من التعايشة • ووجد بعض القبط والمواليد بين الكتبة والامناء•وكانت تتبع أحمد السنى الذى تولى حكم الجزيرة ومنطقة أخرى كبرى على الجانب الشرقى للنيل الأزرق هيئة كبيرة العدد • فبخلاف قائد جهاديته كان لديه أربعة كتبة ثلاثة منهم من المواليد والرابع جعلى وعمل الكاتب المختص بالمكاتبات كوكيل محصل • وعمل اثنان ككتبة لحسابات الجزيرة والضفة الشرقية • وقسمت الجزيرة والضفة الشرقية الى ٣٠ قسما كل منها تحت اشراف ضابط له لقب وكيل • وكل وكيل اقليمى يتبعه كاتب ومندوب أو مناديب بحسب الحاجة •

والمشكلة الأساسية التى لم يستطع « عبد الله » حلها هى تحقيق الرقابة الفعلية على الحكام العسكريين لأن تباعد المسافات بين أنحاء السودان جعل ذلك أمر صعبا • وقد بدأ الخديو اسماعيل مشروعه لانشاء الخط الحديدى ادراكا منه لهذه الصعوبة ولكن محاولاته لم تثمر وتعذر اعادة تشغيل الخط البرقى الذى كان بمثابة الأداة الرئيسية للرقابة والسيطرة الادارية فى عهد المصريين خلال الحرب والثورة باستثناء حلقة اتصال وحيدة بين الخرطوم وأم درمان • وورث الخليفة عددا من المراكب البخارية من العهد السابق استطاع تشغيلها خاصة لنقل القوات والغلال على النيل الأبيض واعتمد الاتصال عبر معظم بلاد الخليفة على الابل ووضع نقل البريد (الهجانة) (١) تحت اشراف كرار بشر العبادى الذى عمل مع المصريين قبل المهدية باعتباره وكيلا للبريد بكردفان • وقد أصر

(١) يلزم التنويه بأن هذه الفرق شبيهة فى وظيفتها بفرق البريد الحكومية فى عهد الأمويين والعباسيين .

الخليفة على أن تصله دائما مراسلات وافيـة من حكام الأقاليم وكذلك كان الحال بالنسبة لمراسلاته التى كانت رغم ايجازها متوالية . أما الأوامر العاجلة وطلب البيانات فى حالة تأخر مراسلات أحد الحكام فكانت ترسل مع مخصوص .

ولم يحاول « عبد الله » ممارسة الرقابة على الأقاليم بمروره شخصيا عليها لتفتيش أعمال وكلائه . ولعله لم يجرؤ على ذلك فان تركيز قواته فى أم درمان ضمن له خلافته وأعطاه فيما بعد النصر على الأشراف وان اعتمدت سيطرته على عزيمته الثابتة ووجوده الشخصى . وظل حتى النهاية يمثل رأس جماعة ناجحة فى نضالها ولعـله كان يخطىء لو تغيب عن مركز قوته حيث كثر منافسـوه وأعداؤه المستترون . وفى الأزمات استعان بالأمناء الذين أرسلوا فى بعثات خاصة وجرت العادة على أن يشترك ثلاثة أو أربعة فى كل من تلك البعثات وكان يتم اختيارهم من بين رفاق المهدى . ومن ثم فانهم كانوا رجالا من ذوى المكانة الدينية الخاصة والأسبقية فى الحركة . وكان فى اختيارهم تشريف لهم ـ وهو أمر هام منذ استبدل رجال هـذه الطبقة بالتعايشة فى شئون السلطة الدائمة . وكان من شأنهم أن يكونوا أكثر موضوعية فى تقاريرهم من البقارة ذاتهم لو كلفوا بكتابة تقارير عن زملاء لهم من القبيلة . وقد أرسلت بعوث من هـذا النوع لبحث مؤامرة « النبى عيسى » فى القلابات عام ١٨٨٧ ولعـلاج مشكلة العلاقات بين البجه والعرب سنة ١٨٨٩ ثم لاعادة الاستقرار الى دنقـله بعد معركة توشكى (١) .

٢ ـ الادارة المركزية ورجالها :

كانت أم درمان هى قلب حكومة المهدية وعاصمتها جغرافيا واداريا وقد أطلق عليها « بقعة المهدى » أو « البقعة » وهو تعبير سبق اطـلاقه على الأماكن الأولى التى استقر بها المهدى فى الغرب . وتطورت أم درمان من مجرد معسـكر الى مدينة كبيرة تمتد نحو ستة أميال على الضـفاف

---

(١) انظر ما سبق ، الفصلين الثامن والعاشر .

الغربية للنيل • وفى قلب المدينة وجدت المنطقة التى جمع فيها عبد الله أكثر أقاربه اخلاصا بالاضافة الى حرسه الخاص وهذا الجزء من أم درمان هو الذى أحيط بالسور العظيم الذى لم يبق من آثاره الآن الا باب واحد قرب شاطىء النيل • وبالقرب من هذا السور أو داخل نطاقه أقيمت المبانى المركزية للمهدية وحكومتها • أما مبانى المسجد فكانت ملاصقة لمدفن المهدى ومنزل الخليفة • وعلت هذا المدفن قبة كما جرى العرف بالنسبة لمدافن شيوخ السودانيين وبناء هذا المدفن فوق الحجرة التى مات فيها المهدى كان عملا دينيا عاما قاده الخليفة • وشابه منزل الخليفة المتاهة من كثرة حجراته وهو المبنى الوحيد فى أم درمان الذى يتكون من طابقين • وبالقرب منه وجد بيت يعقوب وليس بعيدا منهما « بيت الأمانة » أو دار صناعة السلاح وأدوات الحرب بملحقاتها • وتكون « بيت المال » أو دار الخزانة من مجموعة أخرى مختلطة من المبانى تشتمل على ادارات ومخازن بالاضافة الى مطبعة حجر ودار سك للنقود •

وكان يلى ذلك سوق الرقيق ومصنع يحتكر صناعة الصابون • كل هذه المبانى كان موقعها مجاورا للنهر حيث نقل مقر بيت المال بواسطة ابراهيم محمد عدلان ووجد أيضا بالقرب من النهر وان يكن أكثر تطرفا نحو الجنوب السجن الرهيب الذى عرف باسم « الساير » نسبة الى اسم مأمور السجن ادريس الساير • وشغل السوق مساحة شاسعة من الأرض غربى المدينة وعلى حافتها وكان مقسما الى عدة أقسام وفق أنواع التجارة والبضائع •

وتكون الجزء الأكبر من أم درمان من مساكن مختلطة بعضها ببعض دون تخطيط تفاوتت بين منازل من الطوب وأكواخ من اللبن تفصلها عن بعضها البعض حارات ضيقة • وكان المسجد هو نقطة البداية بالنسبة لجميع الطرق الرئيسية • وأحدها يتجه شمالا الى الحجرة وهو فضاء خال تتجمع فيه الفرق قبل قيامها بالحملة فى اتجاه مصر • وحمل هذا الطريق الاسم المشئوم « درب الشهداء » (١) والثانى يتجه من الباب

---

(١) فى الاسلام الشهيد هو المسلم الذى يموت محاربا للكفرة .

الغربى للمسجد نحو الصحراء حيث تتم المسيرات كل يوم جمعـة وعرف باسم درب العرضه • واتجه طريق ثالث نحو الجنوب مارا بدار صـناعة الأسلحة والكاره ، وهو الحصن القـديم الذى أصبح قشلاقا ومقـرا للجهادية ، الى حيث تتجمع الحملات المتجهة للجنوب والغرب والى حيث يتم تموين المراكب القاصـدة لأعالى النيل • وعرفت هذه النقطة باسم حجرة القصير نسبة الى قلعة القصير ووجدت حجرة ثالثة على الشاطىء الشرقى للمجرى الرئيسى للنيـل قامت منها الحمـلات ضد الأقاليم الحبشية • أما الخرطوم فبقيت مهجورة • ونقـل سكانها الى أم درمان بعـد وفاة المهدى كما نقلت الخامات من مبانيها لبناء مقبرة المهـدى • ولم يبق بهـا عاملا سوى الترسانة (دار الصناعة البحرية) التى ربطت بأم درمان بخط برقى •

وتركزت فى شخص الخليفة عبـد الله السلطة الادارية فى حكومة المهـدية واعتمدت عليه كليـة فلم ينفـرد هو بكل السلطة فى التنظيم الحكومى فقط بل انه أيضا كان المحرك الأول لهـذه الأداة • ولم تقلل الرفاهية المتزايدة فى حياته ولا انحرافاته الصحية ـ وأحدها على الأقل كان بالغ الخطورة ـ من قدرته على السيطرة على شئون الدولة • ولم يكن من الممكن الوصـول الى قرار سياسى على أى درجة من الأهميـة دون الرجوع اليه • والواقع أن الأمر بقى طوال حكمه فى يده هو وحده •

ومن المسلم به أنه كان يستشير يعقـوب وفى أواخـر أيامه كان يستشير عثمان شيخ الدين بانتظام • وهنـاك اشارات الى خلافات مرة وقاسية حدثت بين شقيقه وابنه ولكن من المحال التأكد من نوع ما كان لكل منهما من تأثير على تصرفاته واجراءاته أو اثبات عدم صدق ولائهما له (١) ومن المؤكد أن الخليفة كان له مستشارون آخرون • فيظهره يوسف ميخائيل فى أواخر أيامه وهو يطلب استشارة أهل البصـيرة من رجال قبيلته الذين استطاعوا بفضل أحاديثهم عن الذكريات المجيدة التأثير فى

---

(١) يمكن الرجوع الى هذا الكتاب بشأن العلاقات بين يعقوب وعثمان وأيضا بشأن وضعهما فى حكومة المهدية .

عثمان شيخ الدين ووضع حد لاستهانته • وتضمن العمل الروتينى الذى كان يقوم به يوميا الاجتماع فى المسجد برجال قضائه وكبار الشخصيات حيث كان يملى قراراته ويفحص مخالفات اتباعه • وقد ذكر أحدهم فيما بعد لنعوم شقير « أن هذه الساعة كانت من أشــق الساعات عليهم وفى مناسبات خاصة كان يعقد اجتماعا لمجلس الحكومة يدعى اليه الأحيــاء من رفاق المهدى البارزين • وفى أحد هذه الاجتماعات صـــدر القــرار بالقضاء على الخليفة محمد شريف • وفى اجتماع آخر عقد فى ٢٣ شعبان ١٣٠٩ (٢٤ مارس ١٨٩٢) أعطيت للخليفة سلطة مصادرة جميع المراكب النيلية لصالح الخزينة (١) » ولا شك أنه قصد بهــذا القــرار الأضرار بالدناقلة باعتبارهم أهم أصحاب القوارب ولمــا كان كل من هذا القرار والقرار السابق له الخاص بالقضاء على الخليفة محمد شريف مما يثــير سخط القبائل النهرية فان هدف عبد الله من أخذ الموافقة عليهما بواسطة مجلس من شيوخ معظمهم من أولاد البلد أمر واضح • وأخيرا فقد كانت هناك المجالس أو الاجتماعات التى تعقد بانتظام بمناسبة الرجبية (٢٧ من رجب) وعيد الأضحى (العاشر من ذى الحجة) وكان من عادة الخليفــة أن يحدد فى الرجبية سياسته بالنسبة للعام التالى •

وكما كان الحال فى عهد المهدى فان الوظيفتين الرئيسيتين بقيتــا كما هما أى أمين بيت المــال وقاضى الاسلام • أما الترسانة ودار صناعة الأسلحة فكان لكل منهما رقباء كما كان « حكمدار البوليس » رجــلا مهما فى أم درمان مسئوليته الأساسية هى حفظ النظام فى الأسواق •

ولم يمتد استئثار البقارة والتعايشة على وجه الخصوص بالمناصب الى أكثر من وظائف الحكام العسكريين والقادة الرئيسيين لأنه لم يكن لديهم صلاحية للمراكز الكتابية أو الفنية فاحتاجوا لخدمات مجموعة من الأتباع المدربين أخذ معظمهم من « أولاد البلد » ومن ثم تعرضت أمانة بيت المــال لأحداث مؤلمــة حيث شغلت هــذه الوظيفة بأفراد ينتمون

---

(١) القرار الصادر عن هذه الجلسة موجود فى مكتبة جامعة كيمبردج MS. Or 234.

نقوم لا يضع فيهم الخليفة الا قليلا من الثقــة • فأحمد سليمان المحسى عزل وسجن • وابراهيم محمد عدلان من ود مدنى شنق •

وخلال معظم ما بقى من حكم للمهدية تولى أمانة بيت المــال النور ابراهيم الجريفاوى(١) وأصله غير مؤكد وان يكن من غير البقارة ، وعوض المرضى وهو من الموظفــين الذين عملوا مع الحكم المصرى السابق وقد نقــل الجريفاوى الى دار سك النقود بينما عزل عوض المرضى مرتين من منصبه ، وشغل أمانة بيت المــال فى العــام الأخير ثلاثة أفراد أحــدهم ابراهيم رمضان الذى رافق محمد خالد فى رحلته المشئومة من دارفور •

وقد أمدتنا قائمة أعدت بعد استعادة السودان مباشرة (٢) بفكرة عامة عن الهيئة التى عملت فى الحكومة المركزية وفى الادارات الفنيــة • وبتحليلها نجــد أنه من بين ١٥٢ موظفــا مسجلا بها كان هناك ٦٣ من المصريين الأقباط أو المولدين ، وانتسب ٣٨ القبائل الشمالية النهرية ، ٣٢ من غير العرب « سودانيون » ومن الباقين ٨ جاءوا من عرب كردفان ودارفور ، ٦ من الشعوب غير العربيــة فى ذات الاقليم أو ما يقــع الى غربه ، واثنان من العبايدة ، وثلاثة من أصول غير معروفة •

ومما يلفت النظر الطريقة التى تم بها توزيع العنــاصر البشرية بين الأعمال المختلفــة ــ ففى بيــوت المــال المركزية الأربعة ، اذا استثنينا الأقسام الملحقة بها مثل شئون المراكب وسك النقود والمطبعة ــ نجــد بين العاملين فيها ١٢ شماليا ، ١٠ مصريين من القبط أو المولدين وأربع فقط من أصول أخرى أحدهم هو أمين بيت مال الحرس الخاص الذى

---

(١) سلاطين : النار والسيف ص ٢٧٧ ويذكر أن جــد النور تكرورى؛ Hill. فى كتابه .Biog. Dict ص ١٧٦ يرى أنه كان شائقيا ولعــل لقب الجريفاوى ينسب الى قرية الجرايف على النيل الأزرق على بعد عدة اميال من الخرطوم •

(٢) توجد هذه القائمة فى صورتين الاصل العربى موجود فى وثائق : المهدية ١/٤٣ ، ٨ ، ٢ والترجمة الانجليزية التى طبعت فى 68 - 54 ,10 ,Sir وقد قارنا بين الاثنين ولاحظنا أن القائمة العربية حذفت صناع الترسانة واسما او اسمين آخرين ولكنها عموما أوضح من الترجمة الانجليزية وأدق •

كان من التعايشة • وكانت للجعليين أهمية خاصة فى ادارة بيوت المـال • وكان المشرف على دار صناعة الأسلحة من دارفور ولكن مساعديه كانوا اثنين من المولدين وجعلى ، أما المشرف على الترسانة فكان مولدا وكاتبه من المحس •

ولم يكن العنصر الجعلى بارزا فى الوظائف الفرعيـة حيث يحتاج الأمر الى فنيين مدربين أكثر مما يحتاج الى هيئة كتابية • وفى المطبعة كان المشرف عليها واحد من كتبتها الدناقلة بينما الكاتب الآخر ورئيس العمال والمشرف على التجليد من المولدين • وكانت الهيئة القائمة بالعمـل فى الورش المحيطة بدار الصناعة لانتاج الذخيرة واصلاح الأسلحة كلهـا بدون استثناء من المصريين أو المولدين • ويبرز العنصر السـودانى بين الفنيين العاملين بالترسانة حيث يصـل عددهم الى ٢٩ من بين ٤٧ عاملا بينما كان الباقون وعددهم ١٨ من المصريين أقباطا ومولدين • وقد أبقى الخليفة لبضع سنوات على نظام التلمذة الذى أشرف بمقتضاه المصريين والمولدين الفنيـون ممن حصلوا على تدريب فى العهـد السابق ، على اعداد جيل جديد من الصناع الذين أخذ بعضهم من الجنوب •

وقد احتاجت الادارة المركـزية لخدمات عدد كبير من الكتـاب • وبخلاف أولئك الذين لهم اتصال بالأقسام ممن سبقت الاشارة اليهم فان القائمة تحوى أسماء أربعة كتاب لكل من الخليفة ويعقوب ، ٣ كتاب لكل من عثمان شيخ الدين وجماعة الراية السـوداء ، وأربعة لجماعة الراية الخضراء واثنان للحرس الخاص • ومن بين هؤلاء الكتبة العشرون انتسب أحد عشر لأصول نهرية بما فى ذلك بعض الجعليين ، ستة للعنصر المصرى سـواء من القبط أو المولدين واثنان من الغرب من غير العرب وواحـد جنـوبى •

وهناك حقيقة هامة تبرز مع تحليل هذه القائمة وهى أن نحوا من ربع الى ثلث الموظفين فى الأقسام الرئيسية كانوا ممن سبق لهم العمـل مع الحكم المصرى ــ وحتى اذا استبعدنا من الرقم الاجمـالى ٥٣ من الحرفيين فان النسبة تكون أعلى اذ عمـل ٤٤ موظفا من بين ٩٩ لـلدة

لا تقل عن ١٤ عاما فى السابق مع الادارة المصرية . وكثير منهم شغل وظائف مماثلة خلال العهدين وفى كلا الحكومتين . فالخدمة البرقية شغلها كلها رجالها السابقون دون تغيير وعمل أمين الزكاة فى الخزينة العامة كمشرف حسابى لخزينة الخرطوم والكاتب الأول كان كاتبا بسنار واثنان آخران عملا ككتاب قبل عهد المهدية . ويمكن الكشف عن وظائف مماثلة عند فحص حالة العاملين بالخزائن الأخرى ودار الصناعة وبين الكتاب الخصوصيين وشغل مكانان على الأقل فى الترسانة البحرية برجال عملوا بها تحت حكم المصريين . والاستمرار فى هيئات العاملين بين العهدين المصرى والمهدى أكبر بكثير مما عرف على وجه الاجمال . ومع أنه كان هناك انقطاع أو استبعاد مؤقت لمثل هؤلاء خلال مرحلة جهاد المهدية الا أنهم أعيدوا لأعمالهم خلال حكم الخليفة . ومن الواضح أيضا أن الأوتوقراطية التعايشية اعتمدت حتى فى أوجها على القبائل النهرية والمولدين فى القيام بالأعمال الروتينية وفى تحرير المراسلات التى اعتمدت عليها ادارتها . ولا يوجد من ينكر وجود عداوة خفية بين البقارة وأولاد البلد اشتعل أوارها أحيانا قبل ثورة الأشراف وتمرد المتمه . ولكن لا يجب لهذه الأحداث الدرامية الحمقاء أن تخفى العلاقات الطبيعية التى أزاح عنها الستار التاريخ الادارى لحكومة المهدية .

٣ ـ الزراعة ، التجارة ، والمال : الخزائن المركزية :

كانت الصورة الاقتصادية للسودان خلال حكم الخليفة قاتمة ، فقد استنزفت الزراعة فى سبيل امداد التنظيم العسكرى المتضخم بما احتاج اليه . وما لم يتول أمره المحصلون تولاه الجنود الجائعون أو الخارجون عن النظام وقلبت التعبئة القبلية والهجرة الاجبارية للسكان التوازن الاقتصادى . فقد طرد مزارعو الجزيرة جزئيا من أراضيهم التى وضعت فى أيدى البقارة المهاجرين .

وانتشرت الأوبئة والمجاعات وأخصها مجاعة ١٣٠٦ هـ التى بقيت فى الذاكرة فترة طويلة . وعلى كل فمن العدل أن تدرس الأحوال فى ظل الحكم المصرى قبل أن نصدر الحكم بتدهور الموقف خلال عهد

الخليفة . ومن الأحكام الخاطئة ذلك الذى جرى تناقله بأن السكان انكمشوا خلال المهدية من ثمانية ملايين الى مليونين لأنه انبنى على معلومات متناقلة ووقتية ولم يستند الى احصائيات معروفة فلم يسبق للادارة المصرية قبل المهدية ولا للحكم الثنائى فيما بعد أن قام بتعداد رسمى .

ولعل دراسة الفرق العسكرية التى جرى تحركها أو تسريحها وغيرها من المواد الاحصائية الموجودة فى أرشيف المهدية بالخرطوم كفيلة باعطائنا صورة أكثر دقة للتعداد فى عهد حكومة المهدية مما قدم سابقا .

وقد فشلت الاجراءات التى اتخذها « عبد الله » من حين لآخر لمنع الاضرار بالمزارعين ، وحاول العمل خلال نداءات وتعليمات أصدرها لعماله وان تعذر عليه ضبط سلوك وكلائه العسكريين وموظفيه لأنهم لم يملكوا الا قدرا محدودا من السيطرة على رجالهم ومما يوضح الموقف خلال المرحلة الأخيرة من الحكم تلك المراسلة التى تبودلت فيما بين محمود أحمد والخليفة فقد مسحت شواطىء النيل وجزره من المتمة وشندى شمالا بواسطة قوات محمود بحثا عن الغلال .

ومع تزايد الأزمة اتجهت بعض الفروع جنوبا مع الشاطىء الشرقى الصاعد حتى الاقليم المواجه لأم درمان . ولم يستطع محمود ايقافهم عند حدهم وتعامل الخليفة معهم بخير ما استطاع ولكن القوة الدينية التى استند اليها وقفت عاجزة أمام الأنصار الجياع ممن يحملون السلاح . ولم يكن فى الامكان وضع حد لسلوكهم الا بآخرين فى مثل استماتتهم. أما أوامر الخليفة المتطرفة التى لم تكن تقبل المناقشة فلم تكن دليلا على قوته وجبروته بقدر ما كانت الدليل على عجزه ازاء المارد العسكرى الذى صنعته يداه .

ولقد أساء عجز الخليفة عن حماية المزارعين الى رخاء دولته ولكنه أدرك على الأقل أهمية الزراعة وضرورتها وحاول أن يحد بشدته من عنف قواته ومحصلى الضرائب وان لم يصب فى ذلك سوى قليلا من النجاح .

ولم تجد التجارة منه حتى هـذا القـدر المحـدود من التعاطف والمعونة فعبد الله بصفته منتسبا لقبيلة رعوية اتصفت بالتأخر والعزلة لم يكن فى نفسه الا القليل من التعاطف على تجار وادى النيل . وأكدت اتجاهاته الدينية تفكيره العقلى . وأدى التصاقه بالمهدى الى تقوية الجانب الغيبى فى طبيعته كما أعماه حماسه الدينى عن الاعتبارات الاقتصادية فجميـع العالم بالنسـبة له خارج حكومة المهـدية « دار حرب » لا علاقة له به الا علاقة الغزو والحرب ومراسلاته مع منليك (١) تكشف عن هـذا الاتجاه ومن ثم فان وجود تجارة خارجية أمر غير شرعى ومناقض لمبادىء المهـدية . وفيما يتعلق بمصر فان عداء الخليفة للتجارة عززه خوف طبيعى جدا من الجواسيس .

ويتمثل اتجاه عبد الله فى نداء صدر عنه فى سنة ١٣٠٤ هـ ووجه الى التجـار القـادمين من مصر فى وقت كان فيه جهـاد المهدية ضـد مصر أمرا متوقعا ومنتظرا وقد جاء فيه ما يلى :

« وحيث أن أهالى السودان الآن فى حكم المهدية وموضوع أمرها الدين والالتفات لمـا ينفع فى الآخرة من الأعمال المقربة الى الله كالجهاد ونحوه لا الانشغال بالدنيا وان جهتكم الحاضرين منها الآن هى فى حكم الكفرة والمواصلة بين أهاليها وبين أهل البلاد التى هى فى حكم المهدية لا تصح وان حضوركم على ذمة التجارة فقط لا غير فمن باب الأصلح فى الدين فقـد رأينـا أوفقيـة عدم بيـع البضائع التى حضرتم بها فى السودان ... وان شاء الله بعد دخول بلادكم فى حكم المهدية وانتزاعها من أيدى الكفـرة يكون الاتصـال التـام فيما بينكم وبين أهالى السـودان (٢) .

ومع ذلك وبرغم المنغصات والعقبات ظلت التجارة مستمرة طـوال حكم عبد الله . وقد وجدت ثلاثة طرق للتجارة أحدها يمر ببربر شمالا الى الحدود المصرية فى كورسكو أو أسوان ، والثانى يمر ببربر شرقا الى

---

(١) أنظر الفصل الثانى عشر .
(٢) وثائق المهدية ٢/٣١ ، ٤ ، ١١٢ .

سواكن ، والثالث يخترق كسلا الى مصوع • ولا يمكن تحديد مقدار التجارة التى كانت تتخذ من الطريق الأخير سبيلا لنقلها وان أمكن الحصول على بعض أرقام خاصة بالتجارة مع الحدود المصرية وسواكن من ادارة المخابرات • ففيما بين ٢٠ ديسمبر ١٨٩٢ ، ٢٨ يناير ١٨٩٤ قدرت صادرات السودان الى مصر بمبلغ ٨٢٩٧ جنيه والواردات بمبلغ ٨٤٢٩ جنيه وكانت تجارة سواكن أكثر قيمة مما ساعد على اعادة التوازن ففى ذات الفترة بلغت قيمة صادرات سواكن ٩٠٩٠٩ ووارداتها ٤٧٢٩٧ وذكر أن أهم الواردات خلال عام ١٨٩٠ كانت السكر والبن والزبدة والزيت وبضائع مانشستر والجبن والعطور بخلاف المهربات من الدخان والحشيش والأفيون وأحيانا الذرة كما جاء قدر طيب من الدقيق من سواكن بصفة مستمرة قبل غلق أبوابها (١) هذا بخلاف المواد الحربية مثل الرصاص وملح البارود التى كانت تهرب من الحجاز • أما أهم صادرات السودان فكانت الصمغ وسن الفيل وحتى عندما لم تكن التجارة الخارجية مقيدة سواء من قبل الخليفة أو السلطات الانجليزية المصرية فان عوامل عدة تضافرت على تثبيطها ــ فموقف التجار الأجانب (المصريون على سبيل المثال) كان شائكا فتجارتهم بل وأرواحهم كانت تحت رحمة الموظفين المحليين والضرائب كانت عالية وهى أصلا ٢ ½ ٪ تدفع كزكاة عن قيمة البضائع ولكن عندما أصبح ابراهيم الجبريفاوى أمينا لبيت المال فرضت ضريبة أخرى قدرها ١٠٪ وهى العشور (٢) وكانت تدفع فى عام ١٨٩١ فى كوكرايب على طريق سواكن بربر وفى العرضى وبربر وكسلا والقضارف • وكان على التجار استخراج شهادة بما دفع كزكاة وعند وصول البضائع لأم درمان يدفع « عشر » آخر هناك •

---

(١) G M R E S (1890), 10
بخصوص غلق ابواب سواكن انظر ما سبق بالفصل العاشر .

(٢) قصد بها منذ فجر تاريخ الاسلام الضريبة على التجارة او البضاعة المستوردة وقدر العشور ١٠٪ .

والعـامل الثالث الذى عاق التجارة هو عدم وجود عملة طيبة الأمر الذى تسبب فى أزمة فعلية فى أوائل حكم الخليفة . وكانت العمـلات المتداولة متنوعة منها الريال الأسبانى والنمساوى (ماريا تريزا) (١) والتركى (المجيدى) وقد أطلقت أسماء دارجة على المسكوكات المختلفة وان أطلق عامة على العملة السودانية اسم « مقبول » وقد حاول الخليفة فى أوائل عهده ـ متبعا فى ذلك سنة المهـدى ـ علاج مشكلة العمـلة باعلان سريان قيمة العملة رسميا وفقا لمـا هو مدون عليها بصرف النظر عن قيمتها الفعلية .

وقد ازداد الموقف سوءا فى الأعوام التالية مع توالى التدهور فى العملة المهدية . فقد اكتشف أن استبدال الفضة بجانب أكبر من خليط معدنى فى صناعة العملة يحقق كسبا طيبا لبيت المـال . وفى عهد ابراهيم محمد عدلان نقصت كمية الفضة فى الريال المهدى من سبعة أثمانه الى نصفه . وأنقص النور ابراهيم الجريفاوى وزن الريال بمقـدار الثمن وتزايد الهبوط فيما بعد حتى اقتصر استخدام الفضة على مجرد طـلاء خارجى سرعان ما يصيبه التآكل . وبالاضافة الى هذا فان استمرار تزييف العملة أدى الى أزمة ١٨٩٤ فى النقد والى اصدار « العملة الجديدة » ولم يترتب على هذا الاجراء أى تحسن واقعى (٢) .

وتميز السنوات الأخيرة من عهد عبد الله بتقدم ملموس فى الشئون المـالية سواء المتعلق منها ببيت المـال ونظامه أو بالضرائب المفروضة . وصاحب تطور نظام الحرس الخاص وتزايد رجاله بعد عام ١٨٩٢ انشاء خزينة خاصة عرفت باسم « بيت مال الملازمية » ومن المؤكد أن هـــذه الخزينة كانت موجودة فى عام ١٨٩٤ حيث ورد فى تقارير شهر فبراير من ذلك العام « أن الضرائب التى تجمع من البلاد الواقعة على الضفة الشرقية للنيل الأزرق خصصت لتغطية أجور حرس الخليفة الخاص » (٣) وكان

---

(١) عرف بالاسم التركى العربى ريال خشلى بمعنى ريال الطائر نسبة الى النسر النمساوى المرسوم على العملة .

(٢) انظر ما سبق فى الفصل الحادى عشر .

(٣) Report of Muhammad Hindi, I R E, 23, 2

باشكاتب فاشوده أول أمين لهـذه الخزينة وسرعان ما خصصت لهـا أيضا ضرائب الجزيرة • وعند استعادة السودان كانت هذه الخزينة تتلقى بالاضافة الى ما سبق ايرادات اقليم الحدود الحبشية (١) •

وهناك خزينة أخرى خاصة يرجع انشاؤها الى ما قبل هروب سلاطين فى فبراير ١٨٩٥ وهى خزينة الخليفة الخاصة وأطلق عليها سلاطين « بيت مال الخمس للخليفـة » وأطلق عليها شـقير « بيت مال الخليفة للخمس والفىء » • وعرفت فى العادة باسم « بيت مال الفىء » • وليس من شك فيما كان للخليفة من خزينة خاصة (غير رسمية) لبيته منذ بداية حكمـه أو ما قبل ذلك • ولكن يبدو أن تحول هذه الخزينة الى ادارة حكوميـة صاحب زيادة الأوتوقراطيـة التعايشية بعـد ثورة الأشراف • والخمس المشار اليه (ولا يقصد به الخمس حرفيا) كان يمثل جزءا أو جانبا من البضائع والأموال التى تؤخذ كغنيمة فى الحرب أو من القبائل المتمردة • أما الفىء فشمل اقليم دنقله بأكمله وكما هو ظاهر أيضا جميع الجـزر والمناطق التى تشمل اقليم الحلفاية والكاملين التى كانت ملكا للخـديو سابقا • وامتلكت الخزينة الخاصة عددا كبيرا من المراكب ويبـدو أن مصادرة المراكب حدثت أكثر من مرة • ففى عام ١٨٩٠ تقرر اعتبار جميع المراكب ملكا لبيت المـال وتم الاستيلاء عليها (٢) ومرة ثانيـة فى عام ١٨٩٢ (٢٣ شعبان ١٣٠٩) صدر القرار العالى للمجلس الكبير الذى سبقت الاشارة اليه بمصادرة جميع المراكب الموجودة لحساب بيت المـال اذا ظهرت حاجة طارئة اليه كما تقرر أن تدفع ضريبة سنوية (٣) • ويبدو برغم عدم الاشارة الى الخزينة الخاصة فى القرار أو الدكريتو السابق فانه هو الذى تلقى المراكب المصادرة فى هذه المناسبة بالاضافة الى الضريبة

---

(١) وثيقة بدون أرقام انظر وثائق المهدية /٢ التى جمعتها المخابرات العسكرية المصرية فور سقوط ام درمان .

(٢) G M R E S (1890), 9

(٣) Cambridge University Library, M. S. Or. 234 C. F. report of Ahmad Muhammad Kawi in I R E, 27, 4

السنوية وليس بيت المال الأصلى . وقد أشير الى الضرائب فى تقرير أعد بعد اعادة الفتح مباشرة ثبت منه أن بناء مركب كان يحتاج أولا الى ترخيص لا بد من الحصول عليه من أمين بيت المال الخاص الذى يحدد بالتبعية الضريبة التى تؤخذ من المراكب . ويذكر هذا التقرير فى جزء آخر منه أن مراكب بيت المال الخاص كانت تسلم للمعديات (ربما فى المنطقة المجاورة لأم درمان) التى كانت تؤجر للتجار أو تستغل بواسطتهم (١) وتلقى بيت المال الخاص أيضا العشور على البضائع القادمة من بربر لأم درمان وجانب من ميزانية الخزائن الاقليمية وكل الرقيق القادم من الأقاليم (٢) .

وهكذا فقد بيت المال الأصلى موارد ذات قيمة للدخل وأصبح يعرف فى هذا الوقت باسم « بيت مال العموم » لتمييزه عن بيت المال الخاص وبيت مال الحرس الخاص وأيضا لتمييزه عن قسمين أقل دخلا هما خزينة ادارة الحرب وخزينة شرطة السوق بأم درمان(١) . وقد جاءت موارد بيت مال العموم من الأقاليم المدنية باستثناء تلك الأقاليم (الجزيرة أو الضفة الشرقية للنيل الأزرق) التى خصصت لخزينة الحرس الخاص ، والضرائب الأساسية وهى زكاة الفطر . والأخيرة كانت بمثابة ضريبة رأس على كل فرد تدفع فى نهاية شهر رمضان . وجمع جانب كبير من الزكاة عينا خاصة من الذرة واحتفظ بيت مال العموم بكشوف حساب

---

(١) S I R, 60, 147

(٢) Slatin : Fire and Sword, 539.

G R E S (1895) 8

ولعل المقصود هو الذكور من الرقيق وحدهم حيث كانوا يدرجون فى الجهادية والحرس الخاص .

(٣) Slatin, F and S., 540; G R E S (1895) 8-9

ويبدو أن استقلال هاتين الخزينتين كان مؤقتا حيث أن بعض بنود الدخل والصرف فيهما وردت أيضا فى حسابات بيت مال العموم فى عام ١٣١٤ ــ ١٣١٥ . وهناك خزينة اخرى مؤقتة هى الخاصة بالجهادية وقد ذكرت فى تقرير محمد هندى فبراير ١٨٩٤ (IRE. 2, 2) وخصص لها الدخل الوارد من الاراضى الواقعة على الضفة الغربية للنيل الأزرق التى كانت تدفع لخزينة الحرس الخاص .

شهرية تبين كميات الحبوب التى يجرى تسليمها من هـذا المصدر وغيره وكيفية توزيعها • أما النقد الذى كان يتم تسلمه عن الزكاة أو الفطر فكان قليلا بالنسبة لما سبق • ومن الموارد المربحة للدخل مصادرة (تجريد) أموال الأعداء والمخالفين • ومثلت الغرامات التى كانت تفرض على المدخنين ومن يتناولون المشروبات مصدرا منتظما للدخل بالنسبة الى هذا البند • وعوضت الخزينة ما كانت تعانيه من نقص أحيانا بالضغط على أشخاص من ذوى الثراء المعروف • وهكذا جرى فيما بين شهرى صفر وجمادى الثانية ١٣١٥ ارغام الياس أم برير ، الذى ساهم كثيرا فى قيام الدولة المهدية ، على دعمها فى وقت انحلالها • وأخذت منه أموال وأملاك قيمتها ٨٤٩٠ ريال ، تتفاوت بين مبلغ ستة آلاف ريال أخذت منه نقدا فى شهر صفر ، وبين حمار قيمته ريال أخذ منه فى شهر ربيع الثانى •

ومن أساليب الحصول على الأموال من أصحاب الثراء ما جاء تحت بند (تبرعات) وهو أشبه بما عرف فى التاريخ البريطانى باسم الاكراميات • وقد قدم تجار الصمغ والسمسم تبرعات أو اكراميات منتظمة وتم الحصول على مبالغ أخرى من بعض الأفراد (دفع أحدهم ٢٠٠٠ ريال فى احدى الحالات) وتحت بند « مساعدات » ورد مبلغ يزيد على عشرة آلاف ريال فى شهر صفر ١٣١٥ هـ • وقد تلقى بيت مال العموم شأنه شأن بيت المال الخاص حظا طيبا من الغنيمة ففى شهور قليلة من عامى ١٣١٤ ــ ١٣١٥ ، لم تندثر كشوف حساباتها (١) ، حدث نسرد الجعليين بالمتمة ؛ وبرغم الكثير الذى تسرب لدى محمود أحمد الا أن مالا كثيرا دخل بيت المال لا يقل عن مائة ألف ريال تحت بند

---

(١) توجد صور فوتستات فى وثائق مهدية ٢/ لكشوف حساب تغطى الفترة من شوال ١٣١٤ (الاثنى عشر يوما الأخيرة منه) الى رجب ١٣١٥ ويمكن الاطلاع عليها فى مكتبة

School of Oriental and African studies - Univ. of London Accession No. 10/495. The Treasury books listed in Si-, 60, 61, are apparently no longer extant.

الغنايم فيما بين ربيــع الأول وجمــادى الثانية ١٣١٥ هـ (أغسطس — نوفمبر ١٨٩٧) .

وقد اســتقى مورد ثابت وان كان غير منتظم من تجارة الصــمغ واستولى بيت مال العمــوم على ثلث كميــات التجار مما جلب حصيلة تراوحت بين سبعة آلاف وسبعة وأربعين ألف ريال فى شهور متتالية حسب ما ورد فى قوائم الحساب التى بقيت سليمة . وأضيفت الأرباح المستقاه من سك العملة ومن التبادل لبيت مال العموم كما أضيف ايجار المحلات التجارية التى كانت تضاف فى عهد سلاطين الى خزينة الشرطة . وكان على المنتجات السودانية أن تقــدم العشور . وقد سجلت بعض هذه المنتجات فى كشوف الحساب مثل البن والعســل وريش النعام والفلفل . وتاجر بيت مال العموم فى كثير من الأشياء ، ماشية من الغرب وابل زائدة عن الحاجة فى هيئة البريد الحكومية وما يزيد عن الحاجة من انتاج الترزية والخياطين التابعين لها . وكان هناك عدد كبير من لبنود المتفرقة . وقد أدرج بينها سلاطين فى عام ١٨٩٥ ضريبة المراكب والمعديات . ولعل هذه البنود أضيفت لبيت مال العموم وأحيانا أخرى لبيت المــال الخاص .

وقد انصب معظم ما كان ينفق من بيت مال العموم على الأغراض العسكرية والأجور أو المعاشات . ومن ثم صرف فى شهر ذى القعدة ١٣١٤ (ابريل — مايو ١٨٩٦) ١٠٤٩ ريالا لجهــادية الكاره ، ١٥٩٠ ريال للمدفعية . وصرفت مبالغ أخرى أصغر لحساب القوة الموجودة فى دنقلة ولحساب التعايشة . ودفعت هذه الخزينة أجور رجال بريد الابل وبحارة المراكب البخارية والعمال فى مصنع الذخيرة والمؤذنين وموظفى المحــاكم والمطبعة والسوق . وتلقت أرامل المهــدى معاشات تصل الى ٦٠٠ ريال مقبول كما تلقى شيخ الدين مائة ريال بينما تلقى كل من الخليفتين الأصغر ٣٠٠ ريال . وان صرف مبلغهما بالريال المقبول المنحط القيمة بينما صرف لشيخ الدين المبلغ المخصص له بريال ماريا تريزا . ويرينا كشف الحساب الخاص بشهر ذى القعدة من عام ١٣١٤ هـ قدرا كبيرا من المصروفات على

بنـــود متفرقة من بينها تكاليف بيت الضيافة وثمن جلود عشر بقـــرات
لتغطية الطبلة الكبيرة .

٤ - القضـــــاء :

يبدو أن محاولة بذلت فى عهـــد عبد الله لاعادة تنظيم القضاء أشبه
بتلك التى بذلت لاصـــلاح بيت المـــال تحت اشراف ابراهيم محمـــد
عدلان . وعندما فقد الأشراف مركزهم الممتاز وجد قاضى الاســـــلام
أحمـــد على نفســـه وقد ازدادت وظيفته قوة (١) وفى شهر صفر ١٣٠٤
(نوفمبر ١٨٨٦) تقريبا عين سليمان الحجّاز وكيلا للمحكمة وصدرت
معظم القرارات والأحكام بختمهما سويا . ومارست محكمة أم درمان
(محكمة الاسلام) مهاما عدة بالاضافة الى اختصاصها الخاص بالفصل
فى الشئون القضائية المحلية فنظرت فى الحالات التى أحالها اليها الخليفة
بالاضافة الى شكاوى الأفـــراد العاديين من خارج العاصـــمة . ويعطى
ما تبقى من أوراق أحمـــد على أمثلة لكل هـــذا . فمثلا تقـــدم شخص
يدعى الأمين خوجلى فى عام ١٣٠٧ ، وهو من عائلة متدينة تعيش فى قبـــة
خوجلى قريبا من الخرطوم بحرى المدينة بشكوى للقاضى والوكيل ضد
جار له منح أرضا من بيت المـــال وكان يحاول آنذاك تجريده من جانب
مما امتلكه وراثيا . واستند الأمين فى شكواه الى أن أرضه « لم تدخل
ضمن أرض الغنيمة وما أشبهها فضلا عن أنه وضع منذ بدء حصـــــار
الخرطوم تحت حمـــاية رفاق المهدى لأن قرية القبة نفسها كانت حصـــنا
للأنصار وأن أرضه بالذات كانت ضمن الأرض المحمية (٢) . ومما يؤسف
له عدم علمنا بما انتهت اليه الشكوى من نتائج .

والحالات التى كانت ترسل للمحكمة من قبل الخليفة هى الشكاوى
التى كانت تقـــدم اليه فى أمور لهـــا صلة بالشرع والقانون . ومن ثم

---

(١) Ohrwalder : 214 — 215.
ويخطىء اورفالدر بطبيعة الحال عندما يذكر أن عبد الله عين أحمد
على قاضيا للاسلام .

(٢) وثائق المهدية ١/٤٢ ، ٥ ، ٣٣ .

أحيل لأحمد علي وسليمان الحجاز في ١٣٠٤ هـ الفصل في شأن بعض ماشية وبضائع صودرت من الجوامعة على يد أحد ضباط النجومي . وفي ذات العام حول عثمان آدم للخليفة شكوى زوجة من اعتداء زوجها عليها بالضرب وطلبها الطلاق ومن ثم أحيلت شكواها للقاضي والوكيل اللذان لم يقنعا بالقصة ورفضا الدعوى .

وكثير من الأوراق والمستندات الباقية تمثل عرائض موجهة لأحمد علي وسليمان الحجاز مضمونها الشكوى من الاغتصاب وطلب اصدار أمر « للعامل » أو المحصل المحلي لبحث الحالة . ويبدو أن مثل هذه الأوامر كانت توضع موضع التنفيذ بصورة آلية وجرت العادة على تنبيه العامل الى عرض الحالة أمام وكلاء القضاء المحليين . وكثيرا ما وردت عرائض وشكاوى من جهات بعيدة ــ ففي شهر رجب ١٣٠٧ هـ (فبراير ــ مارس ١٨٩٠) شكا رجلان من استيلاء مندوب محمد عثمان خالد الذي كان يعمل في ذلك العام كمحصل في مقاطعات خرسي والطيارة على غلالهما وبضاعتهما قسرا أو بالاغتصاب . وأجاب أحمد علي وسليمان الحجاز على الشكوى بتأنيب طويل لمحمد عثمان خالد لعدم اتباعه الكتاب والسنة ونداءات المهدي بشأن جمع الزكاة مع التنبيه عليه بكتابة تقرير عن مدى صدق الشاكي في شكواه .

وحدد سقوط أحمد علي في عام ١٨٩٤ نهاية المكانة البارزة التي أعطيت لهذه الوظيفة . وترجع أهمية الفترة القصيرة التي اتصفت بعدم الاستقرار والتي شغل فيها الحسين ابراهيم ود الزهرة المنصب الى أنها كشفت عن عدم وضوح اختصاصات قاضي الاسلام بسبب ارتباطه الثنائي بكل من السلطة السياسية ونواحي الشريعة (١) .

ويبدو أن لقب قاضي الاسلام اندثر مع سقوطه . وفي قائمة موظفي المهدية ، كما سجلت عند استعادة السودان ، لاتوجد اشارة لأي من قاضي الاسلام أو لوكيل المحكمة . فعلى قمة القضاء وجد « قاضي العموم »

---

(١) انظر نهاية الفصل الخامس حاشية رقم ١ .

ومعه ستة نواب لاثنين منهما مهام خاصة متصلة بالحرس الخاص • وبين الأسماء التى وردت بالقائمة لم يكن منها الا اثنان من الرجال ذوى الاعتبار والمكانة السابقة هما النائبان عبد القادر أم مريوم ومحمد المكى أبو حراز اللذان كانا من رفاق المهدى واشتركا فى اصدار قرار اعدام الخليفة محمد شريف • وقد مارس محمد المكى القضاء فى العهد المصرى هو وأحد زملائه •

ووجدت محاكم جزئية بأم درمان تختص بشئون معينة • ويحتمل أن محكمة السوق عملت متعاونة مع قائد الأمن محمد حسين وهو الذى شغل وظيفته لسنوات عديدة وسبق له العمل كقائد لقوات غير نظامية • ويكشف أمر موجه لهذه المحكمة فى عام ١٣٠٧ ما لها من سلطة لزج الأفراد فى السجن • وكانت تلك المحكمة مكونة آنئذ من نائبين وعدد من « المصلحين بالسوق » وقد أصبح محمد المكى أبو حراز فيما بعد نائبا فى هذه المحكمة • وعند استعادة السودان كان تكوينها مشتملا على أمين وأربعة مساعدين وكاتب • ووجد مجلس قضائى أصغر له اختصاصات محلية عرف باسم محكمة الموردة • وتكون من أمين ونائب وكاتب • وأكثر مما سبق أهمية محكمة بيت المال التى اختصت بسماع الحالات المتصلة بالشئون المالية ؛ وعند استعادة السودان تكونت من نائب وموظف مختص بقسم الدعاوى وكاتبين •

ومن سوء الحظ أنه لم يبق الا القليل مما يكشف عن نشاطها • وتنسب احدى أوراق أحمد على التى ترجع الى ١٣٠٧ الى محكمة الأموال حالة رفعت من أحد الأفراد ضد محمد كرغساوى بشأن رقيق ادعى كرغساوى أنه ملك لبيت مال بحر الغزال •

والشواهد المتوافرة أيضا بالنسبة للعمل فى المحاكم الاقليمية محدودة للغاية • ويبدو أنها عملت مرتبطة بالحكام العسكريين مثلما عملت محكمة أم درمان متصلة بالخليفة بفارق وحيد هو الرجوع دائما فى قراراتها الى أم درمان لاعتمادها • وعلى سبيل المثال عرضت فى عام ١٣١٢ هـ حالة من قبل أمين بيت المال فى اقليم بربر على المجلس المحلى

للقضاء (أو على المحكمة المحلية) التى تكونت من سبعة نواب يتهم فيها شخصا يدعى ادريس الكعدور باخفاء مبلغ قدره ٥٠٠٠ ريال مجيدى . وطالب أمين بيت المال باعتبار هذا المبلغ غنيمة حيث أنه كان ملكا لتاجر مسيحى هرب عند قيام الحركة المهديه . واعترف المتهم بصحة الوقائع وفقا لما ذكره أمين بيت المال وأمر من قبل المحكمة بدفع مبلغ خمسه آلاف ريال للأمين الذى أرسل قرار المحكمة لحاكمه محمد الزاكى عثمان طالبا تعليماته بشأن التنفيذ حيث أنه رغب فى تسليم المبلغ بريال ماريا تريزا بسعر مناسب . ولكن محمد الزاكى لم يقبل التصرف دون أمر من الجهات الأعلى . وبناء عليه حول المستندات المتعلقة بالحالة للخليفة الذى لم نعثر على قراره الصادر فى هذا الشأن (١) .

وتتضح القيود التى وضعت على القضاء وأحكامه من المستندات المتعلقة بجولة قام بها سليمان الحجّاز وثلاثة آخرون من الأعيان فيما بين ربيع الثانى ١٣٠٨ وشوال ١٣٠٩ (نوفمبر ١٨٩٠ — مايو ١٨٩٢) وقد صاحبوا محمود أحمد عند تعيينه خلفا لعثمان آدم فى كردفان ودارفور . وبرغم أننا لم نعثر على التعليمات الخاصة بمهمتهم الا أنه من الواضح أنها كانت تختص باعادة تنظيم القضاء فى الغرب وقد عملوا طوال الجولة تحت رئاسة محمود أحمد . وفى الأبيض والنهود والفاشر ثبت الحاكم العسكرى النواب القضائيين المحليين فى وظائفهم وأخذ عليهم اليمين بمراعاة العدل . ووجدت حاجة الى تعيين نائب عموم جديد لدارفور . واختار الأمناء من يشغل هذا المنصب بعد استشارة محمود أحمد . وتقرر بذلك أن النواب المحليين يعينون بأمر الحاكم ، ومن ثم ترسل الأسماء للعرض على الخليفة وقاضى الاسلام .

ولم يكن سليمان يبت فى أمر ما حتى فى الاستماع الى القضايا أو الاشتراك كمشير لنواب القضاء فى الفاشر قبل أن يطلب تصريحا بذلك من محمود . وبالنسبة للشكاوى المثيرة ضد الاستبداد فى الأبيض التى بدا من الممكن أن تثير اضطرابا تم الرجوع فى الأمر الى الخليفة . وعندما

---

(١) وثائق المهدية ١/١٧ ، ٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ .

تسبب الجهادية الثائرون فى اراقة الدماء بالمباشر رد سليمان على ذلك بكتابه « اعلام شرعى » أرسله لمحكمة أم درمان لأخذ رأى الخليفة عليه بينما أخذ محمود أحمد على الموظفين الأقل شأنا ميثاقا بالحفاظ على القانون • ومن الواضح أن تحقيق العدالة كان بطيئا وغير كامل وأدت تبعية رجال القضاء فى اصدار أحكامهم للخليفة الى زيادة المشقة عندما كانوا يبعدون عن العاصمة •

٥ ـ الخليفة ونظام الحكم فى عهده :

تولى المهدى وقد وصلت حركته الى مرحلة حرجة تأكد فيها نجاحها وقدرتها على الهدم ووقع على عاتق خلفه تحقيق مهمة مزدوجة هى تأكيد مكاسب الثورة فى السودان ببناء حكومة على الطراز الاسلامى البسيط واعلان الجهاد العالمى خارج حدود السودان • وقد تطلب الهدف الأول مجتمعا يمارس دائما وباخلاص أسلوب الحياة الاسلامى على حين تطلب الثانى قوة عسكرية كبيرة • وقدأثبتت الأحداث عدم امكان تحقيق أى من الهدفين وحينئذ ركز عبد الله أكثر فأكثر على الحفاظ على استقلال أملاكه وانشاء ادارة فعالة •

ووقع على عاتقه علاج أكبر مشكلة سياسية ألا وهى اعادة النظام بعد ثورة تم لها النجاح • فقد تمت اثارة الجماهير نتيجة للحرب والهجرة الجماعية كما هزتها بالرؤى السماعية وشجعتها الانتصارات العسكرية المستمرة كما أثارت الثورة الفوضى الكامنة لدى القبائل وصعوبة كبح جماحها فى الوقت الذى لم تربطها فيه الا برباط واه هو الولاء للمثل المهدية والأمل فى الكسب المادى •

ولما كان الخليفة منذ البداية ، يواجهه باستمرار احتمال تفكك أواصر الوحدة القصيرة المدى للسودان الشمالى فانه حاول منذ البداية اقرار النظام الادارى • وما استطاع ذلك الا بالاستعانة مرة أخرى برجال العهد السابق وأفكارهم • وهؤلاء جلبوا معهم المفاسد التى اعتادوها من رشوة واهمال واستبداد ، وهى المفاسد التى حاول المهدى القضاء عليها • وكان هذا الموقف معقدا وعلى رأسه عبد الله ذو الشخصية

المعقدة • وقد صوره الكتاب الأوروبيون المعاصرون باعتباره منافقا وضع على وجهه قناع الدين واستخدم لغـة المهدية لتحقيق أطماعه الشخصية• ولكن الحقيقة كانت أبسط من ذلك • ففى عبد الله تضافر الحماس الدينى مع الموهبة الادارية والطموح الشخصى من أجل السيطرة •

وقد سلطت الأضواء خلال عهد الخليفة ومنذ ذلك الحين على نقط الضعف فيه باعتبارها من مسببات الأخطاء التى تردى فيها خلال حكمه • وهذا التقييم الذى يعتبر سلاطين مسئولا عن كثير من جوانبه قد بالغ فى ابراز عيوب الخليفة دون أن يعطى تفسيرا واضحا للأخطاء • وقيـل الكثير عن جهله وأميته وان أنكرت أسرته ذلك (١) • على كل حال فالتهمة ليست بالغة الأهمية ــ والأمية ما كانت أبدا تشكل عقبة يتعذر على حاكم موهوب التغلب عليها فضلا عن أن كميـة الأعمال الكتابية كانت كبيرة للدرجة التى دعت الخليفة الى الاستعانة بكتابه كأى حاكم كثيـر الأعمال • وأما قسوته أحيانا على القبائل والأفراد فلم تكن عن تعطش طبيعى منه للدماء أو عن ميل ثابت نحو الاستبداد بقدر ما كانت وسيلة حاكم يائس وجد أن أتبـاعه لا قدرة لهم على اسـتمرار حكومة قوية منتظمة • ومثل هذه الاجراءات كانت دليلا على الضعف لا القوة وفى بعض المناسبات أبدى الكثير من الصبر وضبط النفس وان يكن معظم ذلك متعلقا بقبيلته ورجال عشيرته • ولا شك أن طموحه كان عنيفا والى حد ما متناسبا مع قدراته ، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك دليـل على أن منافسيه كانت لديهم قدرته على اقامة حكومة تسيطر على معظم أجـزاء السودان • أما حبه للمـال الذى دفعـه الى توجيه جوانب كبيرة من الدخل لأغراضه الخاصة فكان من المظاهر المميزة لحاكم أوصلته الثورة الى السلطة وأراد اقامة حكومة ثابتة وتأسيس أسرة حاكمة •

ولكن أصله شكل باستمرار عقبـة كأداء اعترضت طريقه • وقد أغراه شعوره القبلى ، الذى اتضح لديه حتى فى الأوقات التى كان يشتد فيها غضبه على التعايشة باتباع أسلوب يتصف بالبساطة النسبية فى سبيل

(1) Theobald . Mahdiya, 143.

توفير القوة العسكرية التى احتاج اليها • وفى النهاية أدى استناده الى البقارة الى افساد التوازن القبلى والاقتصادى فى البلاد وفقدانه ثقة القبائل المقيمة على ضفاف النيل • وأدى تفانيه الشديد للمهدية ومبادئها الى استحالة تفاهمه مع حكام مصر (الكفرة) أو مع الفرنسيين وقبوله الاعتراف به باعتباره مجرد سلطان سودانى يخضع للحماية • وأعماه جهله بالعالم الخارجى عن تصور ما لأعدائه فى مصر من تفوق كبير سواء فى وسائل النقل أو التسلح ومن ثم أرسل النجومى أولا ثم محمود أحمد على طريق الشهداء لكى يقضى عليهما فى الشمال •

ومع أن نواياه ازاء شعبه كانت طيبة أحيانا الا أنها تأثرت نتيجة كفاية موظفيه وضعف الرقابة على المرؤسين وهو ما بدا فى كل مرحلة فى السلك الادارى • وحتى الوسائل التى اتبعها لكبح جماح اداريه انقلبت عليه وأدت الى دماره • فسيل أوامره الى حكام الأقاليم وما كانوا يرسلونه من رسائل أحيانا عن مسائل شديدة التفاهة كل ذلك قضى على ما لديهم من مبادرة دون أن يحول دون الفساد • كما أن تكليف الأتباع والأمناء والمبعوثين الشخصيين بكتابة تقارير عن الحكام أضعفت سلطتهم وان لم تؤد بالتالى الى تضييق فرصتهم فى تحقيق مكاسب شخصية لهم • وتعيينه للبقارة لشغل المناصب الرئيسية كان المقصود منه ضمان الولاء وان لم يعن بالضرورة توخى الكفاءة •

وأخيرا فقد طغى على عهد الخليفة شبح الخطر البريطانى الرابض فى مصر • وبرغم أنه هوّن من شأنه الا أنه كان دائم الشعور به • وحتى بعد تخليه عن سياسة الجهاد اضطر عبد الله الى الابقاء على الطابع العسكرى لعهده ومن ثم تعذرت عودة الاستقرار الكلى للبلاد • وقد قيض لاسترجاع السودان أن يؤدى الى وقف تطور الحكومة المهدية وتحولها من نظام ثيوقراطى الى ملكية وراثية • فالظروف السائدة فى أواخر القرن التاسع عشر كانت لا تسمح ببقاء دولة اسلامية مستقلة فى جزء من افريقيا يتعرض لصراع الدول الأوروبية الاستعمارية •

* * *

موضـوعات الكتاب